

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه . وبعد: -
فإن كتاب الله تعالى أحق ما أنفقت فيه نفائس الأعمار، وقصر على اعتباره وتدبره الملوان الليل والنهار، واعتمد موثلاً وملاذاً، واعتصم بعروته الوثقى وزراً منجياً وعباداً، واستترلت به البركات، واهتدي بواضحات أنواره عوالم الأرض والسموات، فهو الهدى والنور، والشفاء لما في الصدور، والواقى لمن تمسك به و اعتلق بسببه من كل مخوف ومحدور، والنعمة التي قصر عن الوفاء بشكرها كل مكتوب و مسطور، وأتى يتصور الكفاء وتوهم الوفاء بشكر: ﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾ .
إن هذا القرآن عجيب لا ينضب معينه على امتداد الأعصار والدهور، كم كتب فيه الباحثون والمفسرون والمؤرخون، ومع ذلك كم ترك الأول للآخر من بحر القرآن الذي لا ساحل له .

فهو كتاب الإعجاز، وكما جعل إعجازه اللفظي برهاناً لأهل الفصاحة أنه من عند الله، كذلك جعل إعجازه المعنوي المشتمل على هدايات الرسل برهاناً لأهل الديانات والعلم بالشرائع.

ثم إن إعجازه المعنوي متجدد لأصحاب العلوم، فما قرره من السنن الإلهية في الأمم والأقوام، وفي النصر والانهزام يتحدى علماء الاجتماع والتاريخ.
وما فصله من مظاهر وظواهر في الإنسان والنفس البشرية يتحدى علماء النفس والطب.

وما أثبتته من التشريعات الصالحة لكل زمان ومكان، يتحدى علماء السياسة.

إنه (القرآن) الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد.

وإن المتأمل في (الأمم السابقة) التي حكاهها القرآن .. سيجد ذلك الحيز الكبير الذي ملاً كثيراً من الصفحات القرآنية لأمة (بني إسرائيل)، وجاء الحديث عن (الإسرائيليين) مستفيضاً، وهو ما لم تحظ به أي أمة أخرى من الأمم السابقة.

ورسم القرآن الخطوط جميعها لأمة (بني إسرائيل): ولادتها — نشأتها — اضطهادها —

انهزامها — انتصارها — ارتفاعها — تشتتها... الخ في رسم بياني بلاغي مؤثر.

ولم يكن الله ليذكر كل ذلك تفصيلاً ليكون ضرباً من العبث والتسلية؛ بل وراء ذلك مقاصد عظمى لا يعيها إلا أولوا الألباب.

وسألت نفسي: ما السبب في هذا السرد المفصل لتاريخ بني إسرائيل؟ وبعد تأمل: وجدت أن هذا التاريخ يحوي في طياته العناصر الحقيقية لقيام الأمم، واستقلالها وازدهار حضارتها، كما يحوي العناصر الحقيقية لانحيار الأمم، وذهاب ريجها. ويكشف الله سبحانه وتعالى لنبيه المصطفى خاتم النبيين وسيد المرسلين ﷺ في محكم الذكر عن وقائع في التاريخ اليهودي تستحق الوقوف عندها على ضوء ما رصد القرآن وسجل، وذلك للدرس والتدبر.

ولقد استوقفتني تلك الآيات العظيمة في سورة البقرة (٢٤٦ - ٢٥٢) والتي تتحدث عن حدث كبير في حقبة من الزمن الماضي، في قصة الصراع بين الحق والباطل، إنها قصة (طالوت وجالوت) وما فيها من دلالات وإشارات عميقة، حتى قال عنها (البقاعي): علت هذه الآيات عن أقصى ما يعرفه البصراء البلغاء من الغايات، وتجاوزت إلى حد تعجز العقول عن مناله، وتضاءل نوافذ الأفهام عن الإتيان بشيء من مثاله.^١ ويمر كثير من علماء الإسلام والمؤرخون على هذه الآيات ولا يتوقفون عندها كثيراً، وأستطيع أن أقول: إن كثيراً من الدراسات التي تتحدث عن هذه الحقبة الزمنية بالتفصيل هي دراسات لغير المسلمين، باعتبار أن العهد القديم قد أطل في تفصيل هذه القصة في سفرين كبيرين (سفر صموئيل الأول والثاني) ، وسمي السفران باسم النبي الذي معنا في الآيات .

أسباب اختيار البحث (أهمية البحث):-

١/ اعتناء الله سبحانه وتعالى بذكر خبر (طالوت وجالوت) في القرآن الكريم، وذكره سبحانه القصة مجملة ومفصلة حتى شغلت حيزاً ليس بالقليل من سورة البقرة - صفحتين كاملتين على نسخة المصحف (الاستانبولي) ونسخة (مجمع الملك فهد) - وهذا يدلنا على أن الله أراد منا فقه هذا الحدث، خصوصاً وأنه ذكر قائد

١ - البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ، حيدر آباد الدكن - الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ٤٤٤/٣

جيش الحق باسمه (طالوت) وقائد جيش الباطل باسمه (جالوت)، وهو مخالف لما جرى عليه القرآن من إغفال (الأسماء) والاهتمام بالعبارة من الحدث ، فيكشف البحث جزءاً تاريخياً وحقبة زمنية نحن أحق بمعرفتها من بني إسرائيل .

٢ / إن الأمة الإسلامية تمر الدور نفسه الذي مرت به بنو إسرائيل آنذاك من التشرذم والتفرق والبعد عن منهج الدين القويم، وأمتنا الآن بحاجة إلى من يجمع كلمتها ويوحد صفها ، وتلتفت إلى دورها ومهمتها في قيادة العالم، وفي الوقت نفسه تحذير لها لكي تتجنب ما وقعت فيه بنو إسرائيل فلقد علم الله — سبحانه — أن أجيالاً من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتى مر فيها بنو إسرائيل، فعرض عليها مزلق الطريق، مصورة في (قصة) وتاريخ، لتكون لها عظة وعبرة .

وهذا ما يجعلنا نتذكر القلة المؤمنة في (غزوة بدر) بقيادة المصطفى صلى الله عليه وسلم أمام جحافل (أبي جهل) والتي انتهت بمقتل فرعون هذه الأمة (أبي جهل) .. وإن الخطوط المشتركة بين يوم (الفرقان) لأمتنا، ويوم (الفرقان) لبني إسرائيل كثيرة .. قال البراء بن عازب رضي الله عنه: ((كنا نتحدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن)) 'وكما كانت (غزوة بدر) بداية النصر للمؤمنين .. فكذلك كانت تلك المعركة التي معنا.. وإن التاريخ يعيد نفسه.. وإن المعارك الحاسمة لم تنته بعد !

٣ / إن المنطقة التي وقعت فيها أحداث القصة وهي الأرض المباركة بالشام ما زالت إلى اليوم بؤرة للصراع الدولي ، ومن أشد المناطق سخونة في العالم ، ويتكرر فيها المشهد نفسه في المدافعة بين الحق والباطل، وبين طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين، ولكن بفارق واختلاف في الدور، فـ (الكافرون) اليوم هم (بنو إسرائيل) ، و (المؤمنون) هم حملة (حجر داود) الفلسطيني .

إنها سنة الله القدرية في وقوع الصراع بين القلة المتميزة والكثرة الغثائية، والتي لا تخلو منها حقبة أو جيل أو زمان أو مكان، خصوصاً في هذه البقعة التي وصفها

١ — رواه البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ، ط ١٩٥٣م ، مصر ، طبعة مصطفى الباي الحلبي..

(ول.ديورانت) بقوله: ((إن بلاداً _ يبلغ طولها من دان الشمال إلى بير سبع في الجنوب نحو مائة وخمسين ميلاً، ويتراوح عرضها من مساكن الفلسطينيين في الغرب ومساكن السوريين والآراميين والعمونيين، والمؤابيين والإدميين في الشرق بين خمسة وعشرين وثمانين ميلاً _ إن بلاداً ضيقة الرقعة إلى هذا الحد لا يتوقع الإنسان أن يكون لها شأن في التاريخ، أو أن تخلف وراءها أثراً أعظم مما خلفته بلاد بابل أو آشور أو فارس، بل لعله أعظم مما خلفته مصر أو بلاد اليونان))^١ .

ويؤكد ذلك (جون .أ.هامرتن): ((ليس على سطح الأرض بقعة اقتلت فيها الدول العظمى كما اقتلت في فلسطين ... وكان النزاع ينشب دائماً على فلسطين التي عدت مسرحاً لأعنف الحروب، وتاريخ هذه البلاد سجل للمنازعات الهائلة التي لم يكن لأهلها فيها من الشأن إلا قليل ... ومن ثم فإن هناك ما يبرر قول صاحب سفر الرؤيا بأن المعركة التي سينتهي بها نظام العالم الحاضر ستدور رحاها فوق التلال المشرفة على مجدو))^٢ _ منطقة في فلسطين _ .

وقبل ذلك كله النصوص النبوية المتواترة على وقوع ملاحم آخر الزمان في هذه البقعة، بين الأمة الميمونة وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، والأمة الملعونة وهي أمة اليهود .

٤ / اهتمامي وعنايتي بجانين مهمين:

أ _ تفسير كتاب الله الكريم . ب - التاريخ اليهودي القديم والمعاصر .

ورغبتي في بحث يجمع بين الأصالة والمعاصرة، فيقدم ما ينفع لعصرنا مما قرره علماء التفسير والتاريخ.. إلى جانب حبي العميق لبيت المقدس..ومناصرتي للقضية الفلسطينية .

٥ / الموضوع جديد، فلم يسبق لأحد - فيما أعلم - بعد تبني لمراكز المعلومات وأدلة الجامعات أن كتب فيه بحثاً أكاديمياً بشكل مستقل، إلا ما كان في ثنايا بعض الدراسات، أو المقالات المتفرقة، أو ما ألف على صيغة قصص للأطفال .
وبذلك يكون موضوعنا يتميز بالجدّة في الطرح .

١ - ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ٢ / ٣٢٠

٢ - هامرتن، جون.أ.، تاريخ العالم، ترجمة: إدارة الترجمة بوزارة المعارف المصرية، مكتبة النهضة المصرية ١٠٢/٢

وكان من تلك الكتب والدراسات السابقة التي ذكرت الموضوع في ثناياها ما يأتي:

أ/ رسالة دكتوراه قدمت لجامعة أم درمان بعنوان (داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم) للدكتور/ أحمد عيسى الأحمد.

وهي دراسة جيدة في مجملها إلا أن الكاتب لم يتطرق الى عهد طالوت إلا قليلاً، لأن الحديث عن مدة طالوت ليست من مقصوده كما هو واضح من عنوان بحثه .

ب/ الموسوعة العظيمة التي كتبها الدكتور / عبدالوهاب المسيري _ رحمه الله _ ، بعنوان (الموسوعة اليهودية والصهيونية) .

وقد نحى فيها الطريقة الموسوعية، ولذلك جاء الحديث عن عهد طالوت متفرقاً في ثنايا الموسوعة، وكان اعتماده بشكل أساس على المراجع اليهودية دون الرجوع للتراث الإسلامي .

ج/ كتاب (التاريخ اليهودي العام) للدكتور/صابر عبدالرحمن طعيمة. وكتاب (تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم) للأستاذ /محمد عزة دروزة .

وقد تحدثنا عن تاريخ اليهود في عهد طالوت في صفحات معدودات قليلة.

د/ كتاب (تاريخ أورشليم) للأستاذ/ فراس السواح . وكتاب (التاريخ التوراتي .. والتاريخ) للدكتور /إسماعيل ناصر الصمادي.

وكان جلّ اهتمامهم هو نقد التوراة من ناحية علم الآثار والردّ على نشوء إسرائيل القديمة .

هـ/ الدراسة التي أعدها عالم الآثار / توماس ل. طومسون، والتي هي بعنوان (التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي). ويغلب عليها النقد من الناحية الأركيولوجية فقط .

و/ ما كتبه المؤرخ الشهير الدكتور / غوستاف لوبون، تحت عنوان (اليهود في تاريخ الحضارات الأولى). وهي دراسة تعتمد على ما جاء في العهد القديم، فضلاً عن أنه لم يتحدث عن مدة طالوت الا يسيراً.

*فكل الدراسات السابقة لم تفرد عهد طالوت بالحديث ، ولم تستوعب الدروس والعبر التاريخية من القصة ، وبحسنا يهتم بذلك .

أهداف البحث:

أ- تحليل هذه القصة التاريخية وسبر أغوارها ونقدها ومعرفة ما وراء الحدث .
ب- يرصد البحث هذه الظاهرة التاريخية عبر المصدر الأصيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عبر (القرآن الكريم) ، فحقائق القصة التاريخية الثابتة في هذا الكتاب الكريم هي حقائق مطلقة، ومسلمات غيبية لا تقبل عندنا التشكيك، هذا هو الأس الأساس ، والركن الركين، وأما بقية المصادر الواردة كالعهد القديم المحرف وبعض المرويات التاريخية أو العلوم المساندة فما هي إلا مكملات، وهي قابلة للأخذ والرد حسب النقد الصحيح.

ج- معرفة النسق التاريخي من تاريخ الخروج الكبير لبني إسرائيل من مصر إلى الأرض المقدسة ، و (من بعد موسى) إلى مرحلة (الذلة) الراهنة التي وصلوا إليها قبل مجيء طالوت.

د- الجمع بين (الدراسة التحليلية) و (الدراسة الموضوعية) حتى يكتمل الربط، ويتضح نسق الصورة التاريخية بشكل جلي .

هـ- تتبع المرويات الواردة بـ (التراث اليهودي) في تاريخ القصة ونقدها نقداً موضوعياً وشرعياً، سواء كانت عن طريق:

١/ الإسرائيليات التي تسربت للمسلمين .

٢/ التوراة والعهد القديم (المحرّف) .

و - معرفة أهداف هذه القصة التاريخية ، والعبر والسنن التي تحتاجها الأمة المحمدية اليوم.

ومع أن العبر كثيرة — كما سيمر في بحثنا — إلا أن العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها، هي أن هذه الانتفاضة — انتفاضة العقيدة — على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق، على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً... فقد نالوا فيها النصر والعزيمة والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشرد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين .

إننا بحاجة إلى أن نعرف كيف تحول اليهود الأوائل من ذل هائل إلى تحرر وتمكين ؟ وكيف جاء لهم هذا الحدث بملك داود ؟ ثم ملك سليمان .. وهي أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه، والذي لم يبلغوه من قبل في عهد النبوة الكبرى.. وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركाम، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت .

ولذلك جاء اختيار عنوان البحث (تاريخ بني إسرائيل في عهد طالوت: دراسة موضوعية تحليلية من خلال القرآن الكريم)
والمراد بالعنوان:

(أ) تاريخ بني إسرائيل في عهد طالوت: أي أن هذا البحث يذكر الأحداث التي وقعت لبني إسرائيل في وقت الملك طالوت، وهو أول ملك من بني إسرائيل، كما أنني ذكرت نبذة تاريخية قبل مجيء الملك طالوت وذلك لرسم صورة متكاملة عن وضع بني إسرائيل في تلك المدة .

(ب) طريقة الدراسة الموضوعية: وذلك بالاهتمام بالوحدة الموضوعية للقصة الواحدة، مع استصحاب المؤثرات التاريخية السابقة للحدث، والسير عبر هدفها الأساس للوصول إلى نتائج صحيحة، ومعرفة السنن والعبر من هذه القصة التاريخية.

(ت) طريقة الدراسة التحليلية: وذلك بسبر وتحليل النصوص القرآنية والتاريخية الواردة في القصة، ثم الوقوف عند كل مفردة قرآنية ومعرفة دلالتها في إطار النص الذي معنا.

(ث) من خلال القرآن الكريم: أي أن المرجع الأول المعتمد عليه في هذا البحث هو كتاب الله المتزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وبالأخص الآيات الواردة في سورة البقرة [٢٤٦ - ٢٥٢]، ومع أنني أذكر شيئاً من النصوص الواردة في التوراة أو من الإسرائيليات إلا أنني جعلت القرآن حاكماً على ما فيها من الصحة أو البطلان .

مشكلة البحث:

هو ما يجيب على السؤال المحوري الآتي:

- ما هي الأحداث التي مرت بأمة بني إسرائيل في مدة طالوت؟ وكيف نستفيد منها على ضوء النص القرآني؟
- ويتفرع عن ذلك عدد من الأسئلة التفصيلية: —
- متى كانت بداية خروجهم للأرض المقدسة؟ وهل سكنوا بيت المقدس قبل عهد طالوت؟
- ما هي الأحداث والمعارك التي مرت ببني إسرائيل قبل عهد طالوت، وكيف وصلوا إلى الذلة والهزيمة؟
- ما هي مناسبة ذكر القرآن الكريم لهذا الحدث التاريخي؟ وما هي الروايات الواردة في قصة طالوت؟ وكيف نتعامل معها؟
- كيف تستفيد الأمة الحمديّة من هذه القصة التاريخية؟ وما هي السنن والعبر منها؟

وكانت خطة البحث كالاتي:

قسمت البحث إلى مقدمة، ومدخل، وأربعة فصول، وخاتمة، وهي على النحو الآتي:

المقدمة:

- وتشتمل على ما يأتي:-
- أهمية موضوع البحث.
 - أهداف البحث.
 - مشكلة البحث.
 - خطة البحث.
 - منهج البحث والطريقة.

مدخل:

ويشتمل على ما يأتي:

المبحث الأول: القصة التاريخية القرآنية

- المطلب الأول: تعريف القصة .
- المطلب الثاني : أهداف القصة التاريخية القرآنية .
- المطلب الثالث : التربية بالقصص القرآني
- المطلب الرابع : علاقة القرآن بالتاريخ.
- المطلب الخامس : شبهة (الخيال) في القصص القرآني والرد عليها.

المبحث الثاني: الإسرائيليات والعهد القديم

المطلب الأول: الإسرائيليات:

- أولاً : معنى (الإسرائيليات).
- ثانياً : أمثلة من (البحث) حول الموقف الشرعي .
- ثالثاً : دخول الإسرائيليات في التاريخ والتفسير.
- رابعاً : حكم إدخال الإسرائيليات في التفسير القرآني.

المطلب الثاني: العهد القديم:

- تعريف (العهد القديم) و (التوراة)، وأقسامها.
- إثبات تحريف (التوراة). ومتى بدأ التحريف؟ واعتراف أهل الكتاب بالتحريف.
- النصوص التاريخية في قصة (طالوت و جالوت) الواردة بـ (التوراة).
- سفر صموئيل الأول والثاني . وكاتب هذين السفرين .
- إثبات تحريف هذين السفرين . ونماذج للتناقض بين سفر صموئيل

الفصل الأول: نبذة تاريخية عن هجرة بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة

مقدمات وتشمل الآتي:

- ❖ سبب التسمية ببني إسرائيل واليهود.
- ❖ تقسيم التاريخ اليهودي
- ❖ سكنى إبراهيم (بيت المقدس)

المبحث الأول: خروج بني إسرائيل من مصر:

- ❖ تاريخ الخروج، والآراء في فرعون الخروج.
- ❖ عدد الذين خرجوا من مصر.
- ❖ طريق الخروج وكيفيته.
- ❖ الأرض المقدسة التي أمروا بدخولها .
- ❖ أخبارهم في التيه .
- ❖ هل حدثت معارك في عهد موسى ؟
- ❖ وفاة موسى وهارون.

المبحث الثاني: عهد يوشع بن نون (عليه السلام) ويشمل الآتي:

- ❖ طبيعة هذه المرحلة التاريخية.
- ❖ التعريف بـ(يوشع) عليه السلام.
- ☒ الفتوحات في عهده:
 - فتح (أريحا).
 - فتح (عاي).
 - فتح بقية المدن.
 - الوضع بعد الفتوح.
- ❖ وفاة (يوشع) عليه السلام.

المبحث الثالث: عهد القضاة:

ويشمل هذا المبحث الحديث عن الأمور الآتية:

- تعريف (القاضي). و سبب التسمية.
- ترتيب القضاة وأعمالهم.
- هل القضاة كانوا أنبياء؟
- أوضاع بني إسرائيل في تلك المدة:
- الوضع السياسي وامتداد النفوذ.
- اختلاطهم بالأمم الأخرى.

- الحالة الاقتصادية.

- في ميدان الهزيمة.

- ضياع التابوت.

■ المنكرون لعهد القضاة والرد عليهم.

الفصل الثاني: تاريخ طالوت .. كما صورته القرآن وأثبتته المؤرخون:

المبحث الأول: قصة طالوت حسب ورودها في الآيات.

المبحث الثاني: موقع الآيات التاريخية ومناسبتها:

وفيها الحديث عن الأمور الآتية:

- محور سورة البقرة و الخطوط الرئيسة.
- مناسبة هذه الآيات للسورة.
- مناسبة الآيات لما قبلها.
- مناسبة الآيات لواقع الصحابة رضي الله عنهم.
- مناسبة الآيات لواقع اليهود في المدينة.

المبحث الثالث: الهدف من الآيات:

- بنو إسرائيل في القرآن.
- الهدف الأساسي من قصة (طالوت).
- المقصود العبرة وليس مجرد الحدث.

الفصل الثالث: دراسة تحليلية:

المبحث الأول: أهمية الدراسة التحليلية.

المبحث الثاني: مع الآيات:

- دراسة: الآية الأولى .. (الاستدلال المرير)
- دراسة: الآية الثانية .. (القائد المنتظر)
- دراسة: الآية الثالثة .. (الحججة الباهرة)
- دراسة: الآية الرابعة .. (الامتحان الرهيب)

- دراسة: الآية الخامسة.. (المواجهة)
- دراسة: الآية السادسة.. (نبي وملك اسمه "داود")
- دراسة: الآية السابعة.. (ختام الحادثة)

المبحث الثالث: الخصائص الفنية لقصة طالوت.

الفصل الرابع: التقييم والعبر من قصة طالوت

المبحث الأول: المرويات الإسرائيلية للقصة مع التعليق عليها

المبحث الثاني: الدفاع عن طالوت من الافتراءات اليهودية.

المبحث الثالث: السنن.. والعبر:

ويشمل الحديث فيه عن:

- أهم السنن في القصة.
- سنة التدافع.
- مواصفات الأمة الغالبة:

أولاً: صفات معنوية:

أ- الإيمان

ب- الصبر

ج- الثبات

د- كثرة الدعاء والتضرع

هـ - الشعور بمعية الله عز وجل

ثانياً- صفات حركية:

أ- القيادة الربانية

ب - الجماعة المناصرة

ج - اصطفاء واختبار

د - تعبئة الجيش

هـ - صناعة الأسلحة

الخاتمة: وتتضمن ملخصاً للمبحث مع التوصيات.

منهج البحث:

- ١ - قمت بقراءة العشرات من المراجع التاريخية والتفسيرية القديمة والحديثة وما كتب في الكتاب المقدس حول الموضوع واخترت من بينها ما يناسب البحث .
- ٢ - فصلت بين (الدراسة التحليلية اللفظية) و(الدراسة الموضوعية التاريخية) لأموار منها:

أ / أن مجال (الدراسة التحليلية) يختلف عن (الدراسة الموضوعية)

وإن كان عاملاً مساعداً .

ب/ حتى لا يلتبس القارئ في فهمه للآيات ويخلط بين الأدوات والنتائج .

ج/ التفريق بين المعاني (المفردة) و (المركبة) .

٣ - اهتمت بالخلاف الوارد بين المفسرين أو بين المؤرخين وحاولت جاهداً الوصول إلى القول الراجح في ذلك، مستعيناً بالأدلة والبراهين النقلية والعقلية.

٤ - قد علم من عنوان الرسالة أن المستند العلمي الأول لهذا البحث هو القرآن الكريم، ولذلك أكثر من الاستشهاد بالآيات في ثنايا البحث .

٥ - استعنت بما جاء عن أهل الكتاب سواء عن طريق الإسرائيليات أو (العهد القديم)، واقفاً منها موقف الناقد مستخدماً في نقدها علم الشريعة، وعلم الاجتماع، وغيرها من العلوم النقلية والعقلية، وكلام العلماء القدماء والحديثين في ذلك .

٦ - اعتمدت على كتب التاريخ والتفسير بالدرجة الأولى ، وركزت على ما كتبه المتقدمون من المصادر الأصلية وأمهات المراجع المعتمدة، واستفدت مما كتبه المتأخرون الذين أثروا هذا الموضوع. وبعض المباحث لجأت فيها إلى الإشارة لبعض المعطيات الحديثة في علم الأركيولوجيا (علم الآثار)، والتي تعرضت لهذه المدة التاريخية بالبحث، مع ذكر الموقف الشرعي منها .

٧ - حرصت على عزو الآيات القرآنية إلى مكانها والأحاديث النبوية والآثار إلى مصادرها، و عزوت ما ورد في (العهد القديم) إلى أصله المترجم باللغة العربية ذاكراً السفر والإصحاح ورقم المقطع .

٨- وثقت النصوص التي أنقلها توثيقاً علمياً دقيقاً من مصادرها الأصلية إلا أن يتعذر عليّ ذلك فإني أبينه .

٩- اعتنيت بقواعد اللغة العربية والإملاء، وعلامات الترقيم، ومنها علامات التنصيص بحسب المنهج الأكاديمي المتبع .

١٠- ضمّنت الخاتمة بأهم النتائج والتوصيات وعملت فهارس للموضوعات تساعد على كشف مضامين هذا البحث بسهولة وقائمة بأهم المراجع .

-لقد حاولت جاهداً أن أجمع المراجع المطلوبة لهذا البحث، مع أنني - بفضل الله - أمتلك مكتبة شخصية فيها كثير من المراجع المطلوبة.. ومع ذلك فقد حصلت على بعض المراجع من المعرض الدولي بالقاهرة، وسافرت إلى مكة المكرمة للاستفادة من مكتبة الحرم المكي الشريف، ومكتبة جامعة أم القرى، وهما من أوسع المكتبات في الجزيرة.. كما أنني استفدت من مكتبة الجامعة الإسلامية العالمية بكوالالمبور . وقد تطلب رفضي لبعض مرويات (العهد القديم)، البحث في بطون المراجع الموثوق بها، ومع الأسف وجدتها قليلة في هذا الباب.. فمن الصعب إيجاد المرجع الذي يروي الغليل، سواء من الناحية التفسيرية أو التاريخية أو النقدية . لا سيما في كتب أئمة الإسلام.. فإن المتصفح لما كتبه هؤلاء العمدة الأفاضل، ليعجب للدقة و التحري الصحيح الذي عاجلوا به تاريخ الإسلام في معظم الحالات، بقدر ما يأسف على الإهمال والخلط الذي صحب كتاباتهم عن عصور ما قبل الإسلام . وهذا ما أُلجأني إلى الرجوع إلى بعض المصادر الغربية النقدية، وبعض العلماء المعاصرين، ولم أغفل علم الآثار والمكتشفات التي تلقي الضوء على مرادنا .

ومع ذلك فقد كانت أهم المصادر التي اعتمدت عليها هي:

أولاً: تاريخ الطبري: المسمى [تاريخ الأمم والملوك]: وهو التاريخ الذي ألفه أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب، إمام المؤرخين والمفسرين، أجل كتب التاريخ الإسلامي مكانة عند المسلمين، قال ابن الأثير بعدما ذكر أنه أفرغ في تاريخه كل تراجم الطبري ورواياته التامة: (وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقاً، الجامع علماً وصحة اعتقاده وصدقاً). [الكامل: ١/١] وقد ابتداءً في تاريخه من بداية بدء الخليقة قبل خلق آدم وانتهى في تاريخه إلى العام الذي كتب فيه الكتاب ٣٠٢هـ.

وقد طبع التاريخ لأول مرة في ليدن ١٨٧٦ - ١٩٠١م بعناية (دي جويه) وجماعة من المستشرقين وأصدروه في (١٣) مجلداً، منها مجلدان: فهارس وتعليقات، ثم طبع في القاهرة سنة ١٩٠٦م في (١٣) جزءاً، وله غير ذلك من الطبعات الآن، وقد اعتمدنا على طبعة دار الكتب العلمية ١٤١٧هـ - هنا، وكان حديث الطبري عن أحداث طالوت في الجزء الأول من كتابه مسهباً ومفصلاً بالرواية بأسانيده إلى أهل الأخبار، وإن كان - رحمه الله - لم يتحرر الصدق في المرويات على اعتبار أن من أسند لك فقد أحالك. ثانياً: العهد القديم: وهو الكتاب المقدس عند أهل الكتاب، وقد تكلمت عليه بإسهاب في البحث الثاني من (المدخل)، وهو مصدر من المصادر التاريخية فحسب، يقبل التصويب والرد بحسب النقد الصحيح، وكان التركيز منصب على [سفر القضاة - سفر صموئيل الأول]، وقد اعتمدت على طبعة دار الكتاب المقدس، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م. وهي طبعة عربية مصححة.

ثالثاً: تفسير الطبري: المسمى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) وهو للإمام ابن جرير أيضاً. وهو أول تفسير كامل وصل إلينا، أفاد منه كل من جاء بعده، ولهذا عدّ العلماء الطبري أبا التفسير، كما عدّوه أبا التاريخ، وقد استفدت كثيراً منه في تفسيره لآيات سورة البقرة في المجلد الأول، وقد اعتمدت على طبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٠م.

رابعاً: الكامل في التاريخ: لابن الأثير: وهو من أشهر كتب التاريخ الإسلامي، وأحسنها ترتيباً وتنسيقاً. طبع مرات كثيرة، أولها في ليدن سنة ١٨٥٠ - ١٨٧٤م، ثم

في مصر ١٣٠٣هـ. وقد ألفه عز الدين ابن الأثير في الموصل، ورتبه على السنين، وانتهى به إلى عام (٦٢٨هـ). ثم أهمله في مسوداته مدة طويلة، حتى أمره الملك الرحيم بالاجتهاد في تبييضه. قال: فألقيتُ عني جلباب المهل، وأبطلت رداء الكسل.. وقلت: هذا أوان الشد فاشتدي زيم... وسميته اسماً يناسب معناه، وهو: (الكامل في التاريخ). ثم أعقب ذلك بكلمات في فوائد علم التاريخ، ثم افتتح كتابه بذكر بدء الخلق، وقد اعتمدت في بحثي على الطبعة التي حققها: عبدالله القاضي، بدار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ .

خامساً: تاريخ ابن خلدون: المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر): وهو الكتاب الذي مجّد ابن خلدون ورفع إلى مصاف كبار فلاسفة الدنيا، قال المقرئزي عن مقدمة تاريخ ابن خلدون: ((لم يعمل أحد مثالها، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم، ونتيجة العقول السليمة والفهوم))، وهي الكلمة التي استعارها توينبي في تقريظه للمقدمة فقال: ((عمل لم يقم بمثله إنسان في أي زمان ومكان)). وقد أنجزه أولاً في مدة خمسة أشهر، من عام (٧٧٩هـ) ثم نقحه بعد ذلك وهذبه وألحق به تاريخ العرب وأخبار البربر وزناته، فلما ترك تونس إلى مصر عكف على تهذيب الكتاب والزيادة عليه، زهاء (٢٠) سنة، فأضاف إليه الجزء الخاص بملوك العجم، وأقساماً أخرى ألحقها بمواضعها. وقد تحدث في الجزء الثاني عن الأحداث التي وقعت لبني إسرائيل، ونقدها أحياناً، ويبدو أنه كان يرجع كثيراً لأخبار العهد القديم، كما أنه كان خبيراً باللغة العبرية السائدة آنذاك .

ختاماً لهذه المقدمة فإنني أرجو من الله عز وجل أن يرزقني الإخلاص فيما كتبت يدي، وأن يغفر لي ولوالديّ ولن له حق عليّ وللمؤمنين والمؤمنات.
والله المستعان ، ، ،

كتبه: حسين علي عمر الزومي

مدخل

المبحث الأول: القصة التاريخية القرآنية

المطلب الأول: تعريف القصة:

القصة في الأصل اللغوي مأخوذة من ((القص وهو القطع، يقال: قصصت ما بينهما، أي: قطعت ... والقصة: الخبر وهو القصص، وقص عليّ خبره يقصه قصاً وقصصاً: أوردته.

والقصص: الخبر المقصوص، بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه، والقصص، بكسر القاف جمع القصة التي تكتب ... والقصة: الأمر والحديث .. والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتبع معانيها وألفاظها ... قال الأزهري: القص إتباع الأثر ... وقيل القاص يقص القصص لإتباعه خبراً بعد خبر))^١.

ونلاحظ من خلال التعريف اللغوي أنها: إما أن تكون مأخوذة من:

١. القطع: بمعنى أنها حدث في زمن محدد مقطوع له بداية ونهاية.

٢. تتبع الأثر: بمعنى أنها إيراد الخبر كما هو بكل تفاصيله وجزئياته.

فالقصة إذن من الناحية الاصطلاحية هي: ((تصوير الحياة في مدة من فتراتهما بكل جزئياتها وملابساتها وتفصيلاتها كما تمر في الزمن محتملة في الحوادث الخارجية والمشاعر الداخلية))^٢.

قال ابن عثيمين: القصة هي الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضاً^٣.

^١ - ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، بيروت، دار إحياء التراث، مادة (ق ص ص) ج ١١ ص ١٩٠

^٢ - محمود بن الشريف، القصة في القرآن، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، بيروت، دار الهلال، ص ٢١

^٣ - أصول في التفسير . ص ٥٢ - ٥٣

المطلب الثاني: أهداف القصة التاريخية القرآنية:

القصة في القرآن ذات هدف ديني بحت، فهي مسوقة للموعظة والتربية والتوجيه، وحين نتحدث عن أهداف القصة القرآنية فإنه ينبغي علينا ((ألا نقف في الحادثة عند دلالتها المفردة، ولا الشخص عند كيانه الفرد، وإنما تشير الحادثة إلى السنة الشاملة، ويشير الشخص إلى (الإنسان) من وراء الظروف والملابسات، وترسم يد القدر من وراء الأشخاص والأحداث، على أنها القوة الموجهة المريدة التي تسيّر كل شيء بمقتضى الناموس الأكبر الذي يحكم الوجود)).^١

ولعل من أهم أهداف القصة القرآنية:

١- إثبات صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وصدق رسالته وصدق الوحي الذي نزل عليه: فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمياً لا يقرأ ولا يكتب ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧].. لم يتلق العلم على يد بشر.. ولم يقصد إلى أحد من معاصريه من علماء اليهود أو النصارى.. فلما نزل عليه القرآن يقص عليه مالا يعلم من أنباء الأنبياء السابقين وأخبار الأمم الماضية بما يتفق مع بعض ما جاء في التوراة والإنجيل.. كان ذلك دليلاً لا يقبل الشك على أن هذا القرآن ما كان حديثاً يفترى^٢.. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران (الآية ٤٤)] ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [الأعراف (الآية ١٥٧)].

فمن كان من قومه عاقلاً موفقاً صدق بما يوحي الله إليه وكان ذلك معجزة له ودليلاً على صحة نبوته ومن كان منهم عدواً معانداً صده وجحده وأنكر ما جاء به وقال كما أخبر الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [سورة الفرقان (الآية ٥)].

^١ - محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ، القاهرة، دار الشروق، ص ١٥٦.

^٢ - محمود الشريف، القصة في القرآن ص ٦٧ بتصرف.

قال الله تعالى تكذيباً لهم وتصديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ
السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾^١ [سورة الفرقان (الآية ٦)].

٢- بيان أن الله ينصر أوليائه في النهاية ويهلك المكذبين ، وذلك تشبيهاً لمحمد ﷺ ،
وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ
بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود (الآية ١٢٠)] ، وتبعاً
لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء ومجتمعاتهم ، محتومة بمصارع من كذبوهم ،^٢
(وبالجملة فحيث ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، كنوح و هود وصالح ولوط
وشعيب وموسى وهارون فإنما ذلك تسلية لمحمد ﷺ وتشبيته لفؤاده لما كان يلقي من عناد
الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله)^٣.

٣- من أعظم الأهداف التذكير والتفكير والاعتبار ، ولذلك تجد كثيراً من القصص
القرآني تختم بـ ((لعلهم يتذكرون)) ، وأن السنن الإلهية لا تتخلف ، وأن من سار على
درب المهالكين هالك لا محالة ، ومن سار على درب الفائزين وسلك سبل التمكين فاز
بإذن الله .

وقد اهتم القرآن ((بتوجيه الأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم
وشقاوتهم وسعادتهم ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع))^٤ .
وعندما يأمر القرآن بالتفكير والتدبر ، فإنما يطلب المقارنة والقياس يقول ابن عطية:
(ثم أحاهم في علم ذلك على الطلب في الأرض واستقراء الأمم ، والوقوف على عواقب
الكافرين))^٥ .

٤- ((بيان الأصل المشترك بين دين محمد ودين إبراهيم بصفة خاصة، ثم أديان بني
إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان))^٦

^١ - الثعلبي، ابن اسحاق أحمد بن إبراهيم ، قصص الأنبياء (العرائس) ، بيروت، المكتبة الشعبية.ص ٢

^٢ - سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن، الطبعة الثامنة ١٤٠٣ هـ ، القاهرة ، دار الشروق. ص ١٥٢

^٣ - الشاطبي، أبو إسحاق ، الموافقات في أصول الشريعة ، شرحه : عبدالله دراز ، بيروت، دار الكتب العلمية ٣ / ٣١٤

^٤ - محمد رشيد رضا ، محمد رشيد رضا ، تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، ط ١٤١ هـ، بيروت ، دار المعرفة ١ / ٦٧

^٥ - تفسير ابن عطية ٤١٣/٨ وزارة الأوقاف ، قطر .

^٦ - السابق ص ١٥١

و((أن الدين كله من عند الله، من عهد نوح عليه السلام إلى عهد محمد ﷺ، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة ضاربة في جذور التاريخ، يضمهم ركب واحد مبارك))^١، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء (آية ٩٢)].

٥- بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، نحو قصة سليمان وداود وأيوب وإبراهيم وعيسى و زكريا ويونس وموسى، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى ويكون إبرازها هو الغرض الأول^٢.

كما أن هذه الأمة الحمدية مخصوصة بعظيم النعمة فإن الله لما ((قص هذه القصص على نبيه رأى فضل نفسه وفضل أمته علم أن الله خصه هو وأمته بكرامات لم يخص بها أحدا من الأنبياء والأمم))^٣.

٦- أن الله قص عليه ((أخبار الأنبياء الماضين إحياء لذكرهم وآثارهم ليكون المحسن منهم في إبقائه ذكره مثبتاً له تعجيل جزاء في الدنيا حتى يبقى لذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة كما رغب خليل الله إبراهيم عليه السلام في بقاء الشاء الحسن قال ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء (آية ٨٤)].

والناس أحاديث، يقال: ما مات ميت والذكر يحيه، وقيل: ما أنفق الملوك والأغنياء الأموال على المصانع والحصون والقصور إلا لبقاء الذكر))^٤.

٧- بيان قدرة الله تعالى، بيانا يثير انفعال الدهشة والخوف من الله لتربية عاطفة الخشوع والخضوع والانقياد ونحوها من العواطف الربانية^٥.

^١ - زررور، د. عدنان، علوم القرآن، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، المكتب الإسلامي، ص ٣٧٦

^٢ - محمود السيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآني، الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ص ٦٨

^٣ - الثعلبي، قصص القرآن ص ٢

^٤ - الثعلبي، قصص القرآن ص ٣

^٥ - النحلوي، عبدالرحمن، أصول التربية الاسلامية وأساليبها، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ دمشق، دار الفكر، ص ٢٤١

المطلب الثالث: التربية بالقصص القرآني

لل قصة في التربية الإسلامية وظيفه تربويه لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي.

ذلك أن القصة القرآنية تمتاز بميزات جعلت لها آثاراً نفسية وتربوية بليغة، بعيدة المدى على مر الزمن، مع ما تثيره من حرارة العاطفة ومن حيوية وحركية في النفس، تدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه وتجديد عزمته بحسب مقتضى القصة وتوجيهها وخاتمتها، والعبرة منها. وتتجلى أهم هذه الميزات فيما يأتي:

الميزات التربوية للقصص القرآني:

١) تشد القصة القارئ، وتوقظ انتباهه، دون توان أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعها حتى آخر كلمة فيها. ذلك أن القصة تبدأ غالباً، وفي شكلها الأكمل، بالتنويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم، قبل الوصول إلى حل هذه العقدة، مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكاً، كما تزيد القارئ أو السامع شوقاً وانتباهاً، وتلهفاً على الحل أو النتيجة.

٢) تتعامل القصة القرآنية مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري، ويوجه الاهتمام إلى كل نموذج بحسب أهميته، فيعرض عرضاً صادقاً يأتق بالمقام ويحقق الهدف التربوي من عرضه.

٣) فالقصة القرآنية ليست غريبة عن الطبيعة البشرية، ولا محلقة في جو ملائكي محض، لأنها إنما جاءت علاجاً لواقع البشر، وعلاج الواقع البشري لا يتم إلا بذكر جانب الضعف والخطأ على طبيعته، ثم بوصف الجانب الآخر الواقعي المتسامي الذي يمثل الرسل المؤمنون، والذي تؤول إليه القصة بعد الصبر والمكابدة والجهد والمرابطة، أو الذي ينتهي عنده المطاف لعلاج ذلك الضعف والنقص، والتردي البشري في مهاوي الشرك أو حمأة الرذيلة، علاجاً ينهض بالهمم، ويدفع بالنفس للسمو، ما استطاعت، إلى أعلى القمم، حيث تنتهي

القصة بانتصار الدعوة الإلهية، ووصف النهاية الخاسرة للمشاركين الذين استسلموا إلى الضعف والنقص، ولم يستجيبوا لنداء ربهم فيزكوا أنفسهم .

٣) تربي القصة القرآنية العواطف الربانية وذلك:

أ/ عن طريق إثارة الانفعالات كالحوف والترقب، وكالرضا والارتياح والحب، وكالتقزز والكره، كل ذلك يثار في طيات القصة بما فيه من وصف رائع ووقائع مصطفاة.

ب/ وعن طريق توجيه جميع هذه الانفعالات حتى تلتقي عند نتيجة واحدة هي النتيجة التي تنتهي إليها القصة

ج/ وعن طريق المشاركة الوجدانية حيث يندمج القارئ مع جو القصة العاطفي حتى يعيش بانفعالاته مع شخصياتها.

٤) تمتاز القصة القرآنية بالإقناع الفكري بموضوع القصة .

أ/ عن طريق الإيحاء، والاستهواء والتقمص.

ب/ عن طريق التفكير والتأمل: فالقصص القرآني لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيه الحق، ويصبح مرموقاً محفوراً بالحوادث والنتائج التي تثبت صحته، وعظمته في النفس وأثره في المجتمع، وتأييد الله له .

فيتظاهر الإقناع العقلي المنطقي والإثارة الوجدانية، والإيحاء وحب البطولة (الاستهواء) والدافع الفطري إلى حب القوة وتقليد الأقوياء، تتظاهر كل هذه العوامل وتتضافر، يؤيدها التكرار مرة بعد مرة، فما أكثر تكرار بعض قصص القرآن حتى تؤدي مجموعها إلى تربية التصور الرباني للحياة وللعقيدة واليوم الآخر وإلى معرفة كل جوانب الشريعة الإلهية معرفة إجمالية وإلى تربية العواطف الربانية من حب في الله، وكراهية للكفر وحماسة لدين الله ولحماته، ولرسول الله، وولاء الله وانضواء تحت لوائه، وإلى السلوك المستقيم وفق شريعة الله، والتعامل حسب أوامره، وبهذا تحيط القصة القرآنية نفس المؤمن بالتربية الربانية من جميع جوانبها العقلية والوجدانية والسلوكية .^١

^١ - دربالة، إسلام محمود، القصص في القرآن الكريم، نسخة الكترونية، ص ١١ - ١٤ يتصرف

المطلب الرابع: علاقة القرآن بالتاريخ:

لقد اهتم القرآن بالتاريخ حتى وجدنا أن أغلب آيات القرآن تتحدث عن هذا الجانب التاريخي، حتى أكثر من جانب الأحكام والعقائد والسلوك، وإن كنا نستنبط كثيراً من ذلك من سياق التاريخ القرآني.

ونجد اهتمام القرآن بالتاريخ من ناحيتين:

الأولى: ذكر الأحداث التاريخية، مثل قصة طالوت التي معنا.

الآخري: الآيات التي تكون مرتبطة بأسباب التزول، فإنها في حقيقتها أيضاً تاريخ لحدث واقع في زمن الصحابة رضي الله عنهم .

بل إن بعض العلماء أوجب دراسة علم أسباب التزول لقوله أن العبرة ليست بعموم اللفظ وإنما بخصوص السبب، قال الزركشي: ((وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته _ أي علم أسباب التزول _ لجريانه مجرى التاريخ، وليس كذلك، بل له فوائد منها: وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى))^١.

((إن القصص القرآني هو المعرض الواسع، والمعين الثر والمنجم البكر الذي يقف فيه المرء على السنن النفسية والسنن الاجتماعية، والسنن الإيمانية في الفرد والمجتمع، والناس والأمم، وعلى مدى ارتباط هذه السنن بعضها ببعض، أو مدى ارتباط السنن الإيمانية بالسنن الطبيعية كذلك.. هنا يقف الدارس البصير على تاريخ الحضارة، وتاريخ الإنسان، وتاريخ النفس والاجتماع .. وتاريخ التاريخ!))^٢.

لكن ينبغي لنا أن نفقه أن القصص القرآني يختلف في سرده للحوادث، فهناك قصة تذكر جميع التفاصيل: كقصة موسى عليه السلام وقصة يوسف التي تسير مفصلة حتى تنتهي.

وهناك قصص متوسطة التفصيل كقصة سيدنا نوح عليه السلام .

وهناك قصص قصيرة كقصص هود، وصالح، وشعيب، ولوط عليهم السلام .

١ - الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (البرهان في علوم القرآن)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى

١٣٧٦هـ، دار أحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ٢٢/١.

٢ - عدنان زرزور، علوم القرآن، ص ٣٧٠.

وهناك قصص متناهية في القصر: كقصة زكريا وأيوب^١.

إن القرآن قد استخدم ((كل أنواع القصة: القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها، والقصة الواقعية التي تعرض نموذجاً لحالة بشرية، فيستوي أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأي شخص يتمثل فيه ذلك النموذج .
والقصة المقربة للتمثيل ، والتي لا تمثل واقعة بذاتها ، ولكنها يمكن أن تقع في أية لحظة
وأي عصر من العصور))^٢.

إن من المهم جداً أن نعرف أن القرآن يخرج بالقصة من دائرة السرد التاريخي إلى الدائرة الدينية والاهتمام بالأهداف ، ومن هذا المنطلق فإنه لا يصح حينئذ أن يؤخذ عليه أن لا يتناول القصة من جميع أطرافها ، وأنه لا يتسلسل في إيراد حدوثها مرتبة منظمة ، وأنه يصعب فهم القصة من القرآن على من لم يطلع عليها من مصدر آخر، ذلك أن القرآن يأخذ من القصة ما يحقق أهدافه من التهذيب والوعظ .

إن القرآن لا يقدم قصصه ومشاهداته لمجرد الترف الذهني وإشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والمشاهدات ، ولا لترعة (أكاديمية) تسعى إلى تتبع ما حدث فعلاً دون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإرشاداته الأخلاقية.

فالقرآن يجيء بمعانيه التاريخية من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام ويبعده عن المزالق التي أودت بمصائر مئات الأمم والشعوب.
كما يجيء بالقصص والأحداث التاريخية من أجل إبراز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والمجتمعات الإسلامية على مدار التاريخ لكي يوضح أنه لا يوجد في كل العالم إلا أمتين اثنتين، أمة الحق، وأمة الباطل.

فالحركة هي هدف العرض التاريخي لا مجرد السرد والاستقاء، والقرآن يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع (فحسب) إلى محاولة استخلاص السنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية^٣.

^١ - محمود الشريف ، القصة في القرآن ص ٧٥

^٢ - محمد قطب ، منهج الفن الإسلامي ص ١٥٧

^٣ - عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، الطبعة الأولى ١٩٧٥ م ، دار العلم للملايين. ص ٨ - ٩ بتصرف

فالقصاص القرآني إذن لم يكن سرداً مجرداً لبعض الروايات القديمة التي يتسلى بها السامعون، يصدق بعضها ويكذب بعضها كما في سائر الكتب والقصاص، ولكنها- أي قصص القرآن- اتسمت بالواقعية المطلقة التي لا زيف فيها^١.

^١ - محمود السيد ، روائع الإعجاز القرآني.ص ٦١

المطلب الخامس: شبهة (الخيال) في القصص القرآني والرد عليها:

ليس من المستغرب على بعض مؤرخي الغرب أن ينكروا حدوث كثير من القصص التاريخي الوارد في القرآن أو في كتابهم المقدس سواء كان ذلك المؤرخ يهوديا كـ (ول ديورانت) الذي زعم أن قصة شاول (طالبوت) وداود (قصة موضوعة من روائع الأدب)^١.

أو كان المؤرخ نصرانياً كـ (أرنولد توينبي) الذي ادعى أن موسى عليه السلام بطل فولكلوري أسطوري وقد يكون شخصاً حقيقياً^٢.

وقد أنكر كثير من علماء الغرب حدوث قصة (طالبوت وجالوت) حينما أدخلوا في معايير نقدهم التاريخي علم (الآركيولوجيا) وأصبح إثبات التاريخ والأحداث عبر ما يحصلون عليه من الآثار والأحفورات، ولكن العجب كل العجب حينما ينبري أناس ممن ينتسبون للإسلام ويزعمون أن القصص القرآني ضرب من ضروب الخيال وليس له رصيد من الواقع وإنما ذكره الله في القرآن من أجل العظة والعبرة فقط، أي مثل المرويات الحديثة التي يبتدعها القصاص!

وقد تولى كبر هذه الدعوى في عصرنا الحديث الأستاذ / أمين الخولي^٣، وتلميذه (محمد أحمد خلف الله)^٤ والذي تقدم برسالة دكتوراه في عام ١٩٤٧م بعنوان (الفن القصصي في القرآن الكريم) ويصف القرآن فيها بأنه (أساطير) كما وصفه به المشركون ويستدل على هذا بأن القرآن عرض مرة واحدة للرد على المشركين ((في قولهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات: ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ

^١ - ول ديورانت، قصة الحضارة ٢/٣٣١، ترجمة / محمد بدران

^٢ - توينبي، أرنولد، تاريخ البشرية، ترجمة: نقولا زيادة، ط ١٩٨١م، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع . ص ١١٦

^٣ - هو الذي قال في تقديمه لرسالة (الفن القصصي): [فلو لم يبق في مصر والشرق أحد يقول أنه حق لقلت وحدي وأنا أقذف في النار أنه حق حق]!!

^٤ - نسب بعض الباحثين هذا القول إلى محمد رشيد رضا وأستاذه محمد عبده واعتمدوا في هذه الدعوى على قولهم في تفسير المنار: (ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية، إذ يراد أن من شأن مثلها في وضوحه أن يكون معلوماً حتى كأنه مرئي بالعينين) [٢:٤٥٧] وعلى عبارات غير هذه ولكنها موهمة [انظر: منهج المدرسة العقلية: فهد الرومي: ٤٥٧] وأنه هنا أن العبارة السابقة جاءت مقيدة بتفسير قول الله تعالى (ألم تر إلى اللذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفاً.... الآية) [البقرة: ٢٤٤] والقول فيها بأنها للتمثيل قول قابل للاحتجاج وهو منقول عن عطاء رحمه الله [انظر: ابن كثير، التفسير ج ١ ص ٣٢٠]

تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾، فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن؟ أو هو ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتبها وتُمَلَى عليه ويثبت أنها من عند الله... إذا كان هذا ثابتاً فإننا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير لأننا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن))^١.

ثم هو يستدل لكل ذلك بالمذهب الأدبي المعتمد على العقل إذ قال: ((فطن العقل الإسلامي إلى أن هذه الأشياء لا تفهم على أنها الحق التاريخي والواقع العلمي إلا بضروب من التأويل ، ولو أن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني منذ اللحظة الأولى على المذهب الأدبي لما احتاج إلى هذه التأويلات))^٢.

وكتب عن الرسالة أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة _ وهو الأستاذ أحمد أمين _ تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب، ونشر في مجلة (الرسالة) وقد تضمن التقرير نقداً لاذعاً لما كتبه الطالب الجامعي، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه . وصدر الأستاذ (أحمد أمين) بالعبارة الآتية:

((وقد وجدتها رسالة ليست عادية، بل هي رسالة خطيرة، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ. والواقع أن محمداً فإن بهذا المعنى))، ثم قال: ((وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها، وإني أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة ، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها))، ثم أورد الأستاذ (أحمد أمين) أمثلة منتزعة من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملة^٣.

كادعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي، وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادث تصويراً فنياً، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص، وأن الأقدمين أخطأوا في عدّ القصص القرآني تاريخاً يعتمد عليه.. ونسي هذا المتهجم على تاريخ القرآن ، أن كثيراً من المؤرخين يعتمدون على كتب الأدب القديمة

^١ - خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، الطبعة الأولى ١٩٥٠م، مكتبة النهضة المصرية. ص ١٧٩ - ١٨٠

^٢ - المصدر السابق ص ٤٤

^٣ - انظر: نقد كتاب (الفن القصصي في القرآن) للأستاذ محمد الخضر حسين، ص ٩٤

لمعرفة مجريات التاريخ والأحداث، ككتابات (كونفوشيوس)، وإلياذة (هوميروس)، أو المعلقات الشعرية الجاهلية، أو غيرها، كمرجعية تاريخية صادقة لديهم، ثم يأتي هذا ليقول أن القرآن مجرد كتاب أدبي ليس إلا! مع أنه لا مجال للمقارنة بين كلام الله وكلام البشر.

ثم خرج لنا بعد (محمد أحمد خلف الله) من ينكر حدوث القصص القرآني من المسلمين تقليداً لمدرسة نقد التاريخ الغربية القائمة على (علم الآثار)، إلا أن الفرق بينهما أن أصحاب النقد بـ(المذهب الأول) ينطلقون من منطلق الدين، وأولئك ينطلقون من منطلق علوم الدنيا^١.

ومع أن كثيراً من الدراسات الحديثة تؤكد وجود آثار واضحة لما ذكره التاريخ القرآني، ويتجلى لنا يوماً بعد يوم صحة ودقة النص القرآني التاريخي، إلا أنها تبقى مجرد نظريات وفرضيات، ويبقى القرآن هو الأساس التاريخي الذي لا يقبل الرد.

ويردّ الشيخ محمود شلتوت على هذه الفكرة الدخيلة بقوله: ((بقي أن جماعة من متفلسفة هذا العصر حاولوا أن يعيدوا بعض الآراء لقوم حكّموا عقولهم فيما قصه الله، فقالوا: إن مثل هذا القصص لا يلزم أن يكون صادقاً يحكي واقعاً صحيحاً... وهذه الآراء - فضلاً عن ما لها من نتائج سيئة - تذهب بقدسية القرآن من النفوس وتزيل عنه روعة الحق وتزلزل قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار ماضية وأحوال مستقبلية))^٢.

فليس هناك من شك في أن القرآن الكريم، كمصدر تاريخي، أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق، فهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن ثم فلا سبيل إلى الشك في صحة نصه بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، ولم يلتبس بشيء من الخيال^٣. فهو كما قال الله سبحانه ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢] وأرسل رسوله بالحق: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

^١ - أطال الدكتور عدنان زرزور في الرد على كلا الطائفتين، انظر [علوم القرآن: ٣٦٢ وحتى ص ٣٦٨]

^٢ - شلتوت، محمود، تفسير القرآن الكريم، الطبعة السادسة ١٣٩٤هـ، القاهرة، دار الشروق، ص ٢٧٣

^٣ - مهران، د. محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب القديم، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، الرياض، جامعة الإمام محمد بن

إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿ [فاطر: ٣١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧] .
﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨] .
﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ [الرعد: ١] .
وما قصه الله تعالى في القرآن هو الحق: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣] .

﴿ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص: ٣] (١) .

(١) انظر: مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن (٣١٩-٣٢١) .

المبحث الثاني:-الإسرائيليات والعهد القديم

المطلب الأول: الإسرائيليات والموقف الشرعي منها:

أولاً: معنى (الإسرائيليات): لفظ (الإسرائيليات) جمع ، مفرده (إسرائيلية) ، وهي قصة أو حادثة تروى عن مصدر إسرائيلي ، والنسبة فيها إلى إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، أبو الأسباط الاثني عشر وإليه ينسب اليهود^١ .

- أما المعنى الاصطلاحي في لفظ (الإسرائيليات) ((وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودي للتفسير ، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه ، إلا إنا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل ، فنريد به ما يعم اللون اليهودي والنصراني للتفسير ، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية ، وإن أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليات ، من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصراني ، فإن كان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثير النقل عنه وذلك لكثرة أهله وظهور أمرهم ، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم ، ودخل الناس في دين الله أفواجا))^٢ ، يقول الأستاذ أمين الخولي: ((كان اليهود في ماضيهم الطويل قد شرقوا راحلين من مصر ومعهم آثار حياتهم فيما بعد ، ثم أبعدها مشرقين إلى بابل في أسرهم ... وقد حملوا من أقصى المشرق في بابل وأقصى المغرب ما حملوا ، وجاء البيئة العربية الإسلامية من كل هذا المزيج ما جاء ، إلى جانب ما بعث إليها من الديانات الأخرى التي دخلت تلك الجزيرة ، وألقت إلى أهلها ما ألقت من خبر أو قصص ديني ، وكل هذا قد تردد على آذان قارئ القرآن ومتفهميه ، فلما خرجوا إلى ما حول جزيرتهم شرقاً وغرباً فاتحين ملأ آذانهم حين خالطوا أصحاب تلك البلاد التي نزلوا وعاشوا بها ، وإن كان الذي اشتهر من ذلك هو اليهودي لكثرة أهله وظهور أمرهم ، فدعيت تلك التزييدات التي اتصلت بمرويات التفسير النقلي باسم الإسرائيليات))^٣ .

^١ - الذهبي، د . محمد حسين ، الإسرائيليات في التفسير والحديث ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م ، القاهرة ، مكتبة وهبة. ص ٣٣٨

^٢ - الذهبي، د. محمد حسين ، التفسير والمفسرون ، الطبعة الأولى، بيروت ، دار القلم. ١٦٥/١

^٣ - أمين الخولي ، دائرة المعارف الإسلامية ، ٣٥١/٥ (مادة: تفسير)

ثانياً: الموقف الشرعي من الإسرائيليات:

يرى ابن تيمية رحمه الله أن الأحاديث الإسرائيلية تنقسم إلى أقسام ثلاثة: -

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا

نكذبه وتجاوز حكايته^١ .

ونفس التقسيم ذكره ابن كثير في كتابه (البداية و النهاية)^٢ ، وقال في موطن آخر:

((ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة

رسول الله ﷺ وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب، مما بسط لمختصر عندنا أو تسمية

لمبهم ورد به شرعنا، مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي به لا على

سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول

الله ﷺ)) .

ويضيف قائلاً: (فأما الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عمرو بن العاص

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا

حرج وحدثوا عني ولا تكذبوا علي ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار" فهو

محمول على الإسرائيليات المسكوت عنها عندنا فليس عندنا ما يصدقها ولا ما يكذبها،

فيجوز روايتها للاعتبار، فأما ما شهد له شرعنا بالصدق فلا حاجة بنا إليه استغناءً بما

عندنا، وما شهد له شرعنا منها بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل

الإنكار والإبطال.

فإذا كان الله سبحانه وله الحمد قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع،

وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخلط،

وكذب ووضوع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير)^٣ .

^١ - ابن تيمية، أحمد عبدالحليم، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمعها: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، مطابع الرياض. ٣٦٦/١٣ .

^٢ - ابن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، القاهرة، دار الريان ٢ / ١٣٥ .

^٣ - ابن كثير، البداية والنهاية ١ / ٦-٧ .

وقال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري): ((قوله " وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج " أي لا ضيق عليكم في الحديث عنهم لأنه كان تقدم منه ﷺ الزجر عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم ثم حصل التوسع في ذلك وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الشرعية والقواعد الدينية خشية الفتنة ثم لما زال المحذور وقع الإذن في ذلك لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار ... وقيل: المراد جواز التحدث عنهم بأي صورة وقعت من انقطاع أو بلاغ لتعذر الاتصال في التحدث عنهم، بخلاف الأحكام الإسلامية فإن الأصل في التحدث بها الاتصال، ولا يتعذر ذلك لقرب العهد، وقال الشافعي: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يجوز له التحدث بالكذب، فالمعنى حدثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم، وهو نظير قوله: "إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم"¹، ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه)².

* أما المرويات التي معنا في (قصة طالوت) فقد نال نصيب الأسد في روايتها إمامان ممن لهم في الإسلام قدم راسخة وهما: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، لكن نظراً لكثرة روايتهم للإسرائيليات فقد اتهمهم بعض المستشرقين ومن مشى في ركاهم من المسلمين بأنهم مدسوسين على الإسلام وأهله، وهم برآء من ذلك³.

● فأما (كعب الأحبار) فهو أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحميري، المعروف بكعب الأحبار، من آل ذي رعين، وأصله من يهود اليمن، أسلم في خلافة عمر وانتقل إلى الشام وتوفي بجمص عام ٣٢ هـ.

وقد وثقه عدد من الصحابة منهم ابن عباس وأبو هريرة، فابن عباس على جلالته قدره وأبو هريرة على سعة علمه كانا يأخذان عنه ويرويان له.

¹ - رواه أبو داود ٣٤٢/٢ برقم [٣٦٤٤] وأحمد بن حنبل في مسنده ١٣٦/٤ برقم [١٧٢٦٤] وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن

² - ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر ٥٧٥ / ٦

³ - انظر كلام (محمد رشيد رضا) عنهما في (المنار) ج ٩ ص ٤٣٨ وكلام (أحمد أمين) في (فجر الإسلام) ١٩٨، ومع شدة نقمة هؤلاء على الإسرائيليات إلا أنهم يستشهدون كثيراً — (العهد القديم)! فما الفرق بينهما وكلاهما من معين واحد؟!

كما أخرج له الإمام مسلم في (صحيحه) وأبو داود والترمذي والنسائي، وهذا دليل على أن كعباً كان ثقة عند هؤلاء جميعاً^١.

وقد اتفقت كلمة نقاد الحديث على توثيقه^٢.

● وأما (وهب بن منبه): فهو أبو عبدالله، وهب بن منبه بن سبيح ابن ذي كنان، اليماني الصنعاني ولد سنة ٣٤هـ ومات سنة ١١٠هـ وقد وثقه جمع من العلماء منهم الإمام الذهبي وابن حجر والعجلي وأبو زرعة والنسائي وكذلك البخاري^٣.

● ولكن لا يعني أنهم ثقات أن نقبل منهم كل ما يوردونه من إسرائيات، بل يطبق على مقالاتهم الميزان الشرعي المذكور سابقاً.. وكما قال الحافظ ابن كثير: ((والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم، كمرويات كعب ووهب، سألحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد والغرائب والعجائب، مما كان وما لم يكن، ومما حرف ونسخ، وقد أغناهما الله - سبحانه - عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، والله الحمد والمنة))^٤.

ومن الأمثلة التطبيقية للميزان الشرعي للموقف من الإسرائيليات من بحثنا في (قصة طالوت) ما ذكره الإمام الشوكاني بعد سرده لأكثر من عشرة أقوال في معنى (السكينة) في قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، قال بعد ذلك: ((وأقول: هذه التفاسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقامهم الله، فجاءوا بهذه الأمور لقصد التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً وتارة جماداً وتارة شيء لا يعقل، كقول مجاهد: كهينة الريح لها وجه كوجه الهر، وجناحان وذنب مثل ذنب الهر، وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفاسير المتناقضة مروياً عن النبي ﷺ ولا رأياً رآه قائله، فهم أجل قدراً من التفسير بالرأي وبما لا مجال للاجتهاد فيه، إذا تقرر لك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في ذلك

^١ - ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، بيروت، دار

صادر ١٨٠ / ٢

^٢ - محمد زاهد الكوثري، مقالات الكوثري ص ٣٢

^٣ - الذهبي، ميزان الاعتدال ٤ / ٣٥٢

^٤ - ابن كثير، عمدة التفسير ١ / ١٧

إلى معنى السكينة لغة وهو معروف ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة،
فقد جعل الله عنها سعة^١.

— وباختصار فإن من يستقريء الإسرائيليات الواردة عن السلف سيجد الأمور الآتية:

١/ إنها أخبار لا يبنى عليها أحكام عملية.

٢/ إنه لم يرد عن السلف أنهم اعتمدوا حكماً شرعياً مأخوذاً من روايات بني إسرائيل

٣/ إنه لا يلزم اعتقاد صحتها، بل هي مجرد خبر.

٤/ إنَّ فيها ما لم يثبت عن الصحابة، بل عن من دونهم.

٥/ إن تعليق الأمر في بعض الإسرائيليات على أنه لا يقبلها العقل أمر نسبي، فما تراه

مخالف للعقل، قد يراه غيرك موافق للعقل.

٦/ إن الكثرة الكاثرة في هذه الإسرائيليات لا يوضح أمراً يتعلق بالتفسير بل يكون

التفسير واضحاً بدونها وقد يكون معلوماً من حيث الجملة، والإسرائيلية لا تفيد فيه

زيادة ولا قيد.

٧/ أن هذه الإسرائيليات من قبيل التفسير بالرأي.

^١ - الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، دمشق،

ثالثاً: دخول الإسرائيليات في التاريخ والتفسير:

يحلل الإمام ابن خلدون في (المقدمة) فيقول: ((والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أساليب المكونات وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاجون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك، وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه و عبد الله بن سلام وأمثالهم فامتألت التفاسير من المنقولات عندهم في أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فتحرى فيه الصحة التي يجب بها العمل، وتساهل المفسرون في مثل ذلك وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ)).^١

ونستطيع أن نلخص الأسباب التي ذكرها ابن خلدون باعتبار اجتماعية ودينية،

أما الاجتماعية فهي: - ١ / البداوة والأمية الغالبة على العرب .

٢ / التداخل والسكنى مع أهل التوراة وبعضهم من العرب .

٣ / حب النفوس البشرية الاطلاع على ما عند الأمم الأخرى ولا سيما في أمور نشأة

المخلوقات والأحداث الأرضية القديمة ونحوها .

وأما الاعتبارات الدينية فهي: -

١ / دخول جماعات من علماء اليهود وأخبارهم في الإسلام .

٢ / تساهل المفسرين في النقل عنهم في الأبواب التي لا تعلق لها في الأحكام الشرعية.

٣ / عظم قدر من ينقلون عنهم من الثقات الأثبات ومكانتهم المرموقة.

^١ - ابن خلدون، عبدالرحمن، ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ، بيروت ، دار

رابعاً: حكم إدخال الإسرائيليات في التفسير القرآني: -

تشدد بعض العلماء في إنكار إدخال الإسرائيليات في التفسير حتى قال الشيخ أحمد محمد شاكر -رحمه الله-: ((إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه -شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن، وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها - شيء آخر، لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبین لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه ! وحاشا لله ولكتابه من ذلك، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذ أذن بالتحدث عنهم - أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأی تصديق لرواياتهم وأقوالهم أقوى من أن نقرها بكتاب الله، ونضعها من موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غفرا))^١.

((وكلمة الحق أن هذه الإسرائيليات التي أخذها بعض المفسرين عن أهل الكتاب، وشرحوا بها كتاب الله تعالى، كان لها أثر سيء في التفسير، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه في عهد الصحابة من الالتزام بدائرة المباح من ذلك، بل تعدى دائرة الجواز، فردوا كل ما قيل لهم إن صدقاً وإن كذباً، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالي المخترع، مما جعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء فيها لاعتقاده أن الكل من واد واحد .

وليس من شك في أن هؤلاء الذين أكثروا من نقل الإسرائيليات وغيرها من الأخبار، وضعوا الشوك في طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما أوردوه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح))^٢.

وهذا ما دعى الإمام أحمد بن حنبل أن يقول عن (تفسير الكلبي): أنه من أوله إلى آخره كذب . قيل له: فيحل النظر فيه ؟ قال: لا^٣، وذلك بسبب إغراقه في رواية الإسرائيليات.

^١ - أحمد شاكر، عمدة التفسير _ المقدمة ١١/١

^٢ - الذهبي، د. محمد حسين، الاتجاهات المنحرفة في التفسير، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ - القاهرة، مكتبة وهبة، ص ٣٧

^٣ - السخاوي، المقاصد الحسنة ص ٤٧٤

ومع أن ابن عباس رضي الله عنهما ممن نقل كثيراً من الإسرائيليات ، إلا أن نكيره اشتد حينما رأى إغراق الناس في تتبع ذلك بدون انضباط ، وخشيته أن يؤثر ذلك على عقائد المسلمين، فقد روى البخاري في (صحيحه) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: {كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث، تقرؤونه محضاً لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم} ^١ .

- وكم قد مرّ معي شخصياً وأنا ألقى دروس التفسير ممن وقع لديهم الخلط من السامعين بسبب الإسرائيليات المنتشرة والمبثوثة في كتب التفسير الموثوقة .. إذ أن العامة يصدقون كل ما يذكر في كتب التفسير ببساطة معهودة ناشئة من ثقتهم في مؤلف الكتاب ، ولا يستطيعون تطبيق المنهج النبوي {لا تصدقوهم ولا تكذبوهم...} .

• ولكن مع كل ذلك فإن ((الضروري يتقدر بقدر الضرورة فلا بد من ملاحظته وإلقاء القول حسب مقتضى التعريض وضرورته حتى يمكن تصديقه بشهادة القرآن الكريم، والكف عن الزيادة عليه)) ^٢ .

وهذا ما يجعلني أبين هنا سبب إيرادي للإسرائيليات في رسالتي هذه، وسأفصلها في خمسة أسباب: -

١ - من الإيمان بالرسول الدفاع عنهم:

نحن المسلمون نؤمن بجميع الرسل ..ولكن لا يكفي أن نقف عند هذا الحد بمجرد الإيمان فقط .. بل من الإيمان بهم أن نقف وندافع عنهم، ونحاول -جهدنا - كشف الزيف وإظهار التزوير والتحريف والتشويه الذي شاب الصورة النقية الطاهرة لهؤلاء الرسل..لأن رسالتهم واحدة ، ودينهم واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]

^١ - صحيح البخاري ١٣٦/٩ برقم ٢٤٨٨

^٢ - الدهلوي، ولي الله ، الفوز الكبير في أصول التفسير، تعريب : سلمان الندوي ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ - ، القاهرة، دار الصحوة، ص ١٨٠

فجميع الأنبياء مسلمون، كما أنه ينبغي الدفاع عن القادة الصالحين الذين خلد القرآن ذكرهم بفخر واعتزاز كأمثال (طالوت) الذي في دراستي هذه وقد نسج اليهود حوله كثيراً من الافتراءات التي تسقط مكانته وفضله.

٢- تمييز الإسرائيليات وكشفها مهم للباحث: -

قيّضت العناية الإلهية أناساً لهم باع طويل في كشف هذه الإسرائيليات عبر القرون المتوالية، والإبانة عنها، وتمييز صحيحها من باطلها، كما كان لبعض المفسرين فضل التنبيه على بطلان بعض ما روي من الإسرائيليات في كتب التفسير، ومع ذلك بقي كثير من الإسرائيليات في ثنايا كتب التفسير وقد انتشرت على ألسنة الناس حتى كادت أن تصبح أحياناً حقائق مسلّم بها .

وقد نبه (ابن كثير) على ضرورة التنبيه لهذه المرويات فقال: ((وغالبها [أي المرويات في حقيقة إبليس] من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة التي لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينقون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجبابرة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث، وحرروه وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره، وموضوعه ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضّاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال))^١ .

ولذلك فإنه لا يجوز للمفسر أن يحكي المرويات ويطلقها دون أن ينبه على الصحيح من الأقوال، لأن مثل هذا العمل يعد ناقصاً ويسبب للقارئ الحيرة والاضطراب .

وأود أن أؤكد هنا على نقطة مهمة غفل عنها كثير من المفسرين فإنه ((على الرغم من أن المسلمين هم أول من تحدثوا عن زيف المقولات في التوراة - من جهة القدسية - وهذا ما أكد عليه القرآن في أكثر من موضع، كانوا هم أول من اعتمد التوراة ككتاب

^١ - ابن كثير، عمادالدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ، دمشق، دار الخیر ١٠٠/٣

ومرجع تاريخي، وقد قام المؤرخون (الإخباريون) الإسلاميون بكتابة التاريخ الديني لهم بالاعتماد على ما تناقلته ألسنة النساين والرواة العرب، ورموا ما كان ينقصهم من خلال التوراة، شريطة ألا يخلط ذلك مقولات التراث الإسلامي، ولم يشكك المسلمون إلا في المفهوم والطرح الديني والتشريعي للتوراة، ولم ينبهوا إلى الزيف التاريخي للتوراة، لأن القضية لم تكن لثمتهم، بل ما كان يهم الإخباريون والرواة في قصص الأنبياء هو إيجاد مرجع ثقافي للعظة الدينية الأخلاقية الاشتراعية دون أن يكون لتلك القصص السردية التي دونوها أرضية تاريخية من حيث توثيقها وتشبيتها وربطها بالزمان والمكان، أي لم يكن لتلك القصص زمن كرونولوجي، ولا مكان جغرافي))^١.

ولا شك أن معايير المرويات والمقياس التاريخي لا يكتفى فيه بالسند فقط أو مدى سكوت الشارع عنه.. وعلى الباحث أن يطبق عدداً من المعايير المهمة لكشف حقيقة الرواية الإسرائيلية سواء المعيار الإسنادي أو العقلي أو الزماني أو الأركيولوجي للوقوف على حقيقة الحدث التاريخي.

٣- إبراز ما احتوى عليه التراث اليهودي ومقارنته بالقرآن:

من مقتضيات الرسالة المتخصصة أن يجتهد الباحث في إظهار ما جاء في المصادر الإسرائيلية، وما نسج حول قصة (طالوت) من صورة باهتة زائفة لا نقبل بها ولا نقرّها.. فكان لا بد من البحث عن الصورة الحقيقية الصحيحة.

والتأكيد على أن النص القرآني ((أصدق من كل وثيقة تاريخية وذلك لصدق مصدرها، كما أنها وصلتنا بأوثق منهج علمي، فالقرآن وصلنا بالتواتر الموجب للعلم القطعي في كل آية وكل كلمة بل وكل حرف))^٢.

^١ - الصمادي، د. إسماعيل ناصر، نقد النص التوراتي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م، دمشق، دار علاء الدين، ص ٧٠

^٢ - السلمي، محمد بن صامل، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، الرياض، دار طيبة، ص ٢٣٨

٤ - بيان خطورتها على العقيدة الإسلامية:

احتوت كثير من الإسرائيليات على أباطيل وخرافات تجرأت فيها على الذات الإلهية ووصفته بما لا يأتق بجلاله سبحانه من التشبيه والتجسيم والتردد في القرارات والندم جل الله عما يقولون علواً كبيراً، كما تجرؤوا على الأنبياء المرسلين، والقادة الربانيين ووصفهم في صورة من استبدت بهم شهواتهم، ودفعتهم ملذاتهم ونزواتهم إلى قبائح وفضائح لا تليق بإنسان عادي، فضلاً عن أن يكون نبياً مرسلًا أو قائداً مصلحاً.

هذه العقائد الفاسدة ينبغي للدراسات فضحها والتحذير منها وإن كان المسلمون - بحمد الله - لا يأخذون عقائدهم من هذه الأباطيل الملفقة، وهذا ما يجعلنا نرد على (هامرتن) بقوة حيث زعم أن الإسلام اعتمد على العهد القديم أكثر من اعتماده على أي كتاب آخر ! وأنه استقى منه العقيدة الأساسية الأولى في التوحيد^١. ولا شك أن هذا الافتراء ناشئ من عداوته للإسلام أو من جهله وغفلته على أقل الأحوال .

٥ - الاستئناس بذكر ما هو مسكوت عنه:

((من المعلوم أن القصاص الإسرائيلي من أوسع القصاص تفصيلاً لمعلومات تاريخية ولعهود وأزمان سحيقة، لكن بسبب وقوع التحريف فإنه لا يمكن الاعتماد على شيء من ذلك في الأمور الشرعية، أما الأخبار التاريخية مثل زيادة التفصيل لما ورد في القرآن مجملاً أو الذي يغطي به النقص والفجوات في الوقائع التاريخية، ولا يترتب على ذلك تقرير حكم شرعي أو مخالفته فإنه لا بأس من ذكر ذلك على سبيل المعرفة والبيان لا الاعتماد والاعتقاد كما قرر ذلك كثير من العلماء المحققين))^٢.

١ - هامرتن ، تاريخ العالم ٢ / ١٠٥

٢ - السلمي ، محمد شامل ، منهج كتابة التاريخ ، ص ٢٤٣

يقول ابن تيمية: ((أما ما ينقل من الإسرائيليات ونحوها لا يكثرثون بضبطها ولا بأحوال نقلها، لأن الأصل غير معلوم، وغايتها أن تكون عن واحد من علماء الكتاب أو من أخذه عن أهل الكتاب))^١.

وفي دراستي لقصة (طالوت) نلاحظ كثيراً من المبهمات التي لم يتعرض لها القرآن ، لتركيز القرآن على ما يفيد المسلم وأهل النظر والاعتبار، ومن تلك المبهمات على سبيل المثال:-

١. الزمان الذي وقعت فيه قصة طالوت، فكل ما يؤخذ من الآيات أنها وقعت لبني إسرائيل من بعد موسى، يعني بعد إقامتهم في فلسطين، أما تحديد السنة أو المدة أو الحال التي عليها بنو إسرائيل فلم يحدده القرآن .
٢. اسم النبي الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً .
٣. نسب طالوت، وبداية أمره وتفصيلاته قبل تملكه عليهم .
٤. تفصيلات ببسطة طالوت في العلم والجسم، وبطريقة ملكه .
٥. التابوت وقصته وتاريخه وصفته ونحو ذلك من المبهمات التي نجد تفصيلاتها في (العهد القديم).

^١ - ابن تيمية، الرد على البكري، ص ٢١

المطلب الثاني: العهد القديم:

أطلق اسم (العهد القديم) على أسفار اليهود في العصور المسيحية، للتفرقة بينه وبين ما اعتمده النصارى من أسفارهم التي أطلقوا عليها اسم (العهد الجديد).
وقيل أن أول من أطلق تسمية العهد القديم على أسفار اليهود هو (بولس) في رسالته إلى أهل كورنثوس الثانية: ((بل أعميت بصائرهم لأن ذلك البرقع نفسه باق إلى يومنا هذا غير مكشوف عند قراءة العهد العتيق))^١.

ويراد بكلمة العهد في هاتين التسميتين (العهد القديم، العهد الجديد) ما يرادف معنى الميثاق؛ أي أن كلتا المجموعتين تمثل ميثاقاً أخذه الله على الناس وارتبطوا به معه، فأولاهما تمثل ميثاقاً قديماً من عهد موسى عليه السلام، والأخرى تمثل ميثاقاً جديداً من عهد عيسى عليه السلام^٢.

- العهد القديم إذاً هو ما ذكرناه سابقاً باسم (الإسرائيليات) وإن كان قد غلب اسم (الإسرائيليات) على المرويات المسندة إلى رجال نقلوها بالمشافهة للمسلمين في عصورهم الأولى، لكننا نجد أن تلك المرويات مقاربة لما عليه (العهد القديم) المطبوع اليوم، بل ربما تكون أكمل مما هي اليوم، حيث أنهم ربما قرءوها من نسخ للعهد القديم أوفى وأدق من نسخ اليوم.

^١ - العهد الجديد . رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس (٣ / ١٤) ص ٣١٤ . (دار الكتاب المقدس)

^٢ - وافي ، د . علي عبدالواحد، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م، نخضة مصر، ص ١٣

١ - أقسام العهد القديم:

ينقسم العهد القديم والذي كان قد كتب باللغة العبرية المشتقة من الآرامية إلى ثلاثة أقسام^١:-

القسم الأول:

ويشمل الخمسة الأسفار الأولى: -

وهي تحديداً التي تدعى بالتوراة (الناموس) ، وتضم (التوراة) أسفار موسى الخمسة التي يدعي اليهود أن موسى قام بكتابتها:-

- ١ . سفر التكوين .
- ٢ . سفر الخروج .
- ٣ . سفر اللاويين .
- ٤ . سفر العدد .
- ٥ . سفر التثنية .

القسم الثاني: -

ويشمل كتب الأنبياء بعد وفاة موسى: -

- أسفار الأنبياء الأولين: وهي أسفار يشوع، القضاة، وسموئيل الأول والثاني [وهو ما اهتمنا به في هذه الدراسة]، والملوك الأول والثاني .

- وأسفار الأنبياء المتأخرين (الكبار): وهي تضم أسفار إشعيا، وإرميا، وحزقيال .

- وأسفار الأنبياء المتأخرين (الصغار): وهم هوشع، ويوثيل، وعاموس، وعابوديا، ويونان، وميخا، وناحوم، وحبقوق، وصفنيا، وحجي، وزكريا، وملاخي .

^١ - انظر في هذا التقسيم : دائرة المعارف الأمريكية ، عام ١٩٥٩م (٦١٢/٣) المرجع رقم ١٥

القسم الثالث : -

كتب الحكمة وهي التي تسمى (كتوبيم) وتضم:

أسفار المزامير، والأمثال، وأيوب، ونشيد الإنشاد، وراعوث، والمراثي، والجامعة، وأستير، وعزرا، ونحميا، وأخبار اليوم الأول والثاني^١.

- ومن هذا يتبين أن (التوراة) لفظ خاص بما أنزل على موسى وإن كان كثير من باحثي أهل الكتاب يتجاوزون بإطلاقه ليشمل كل أسفار (العهد القديم).

- و(توراة) موسى هي أول كتاب نزل من السماء بحسب رأي الإمام الشهرستاني وأن ما كان على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان يسمى (كتاباً) بل صحفاً^٣.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذكر حديث احتجاج آدم وموسى، وفيه أن آدم قال لموسى: {وكتب الله لك التوراة بيده}^٤.

وإذا كان لفظ (التوراة) قد يطلق مجازاً على العهد القديم كله، فلا شك أن اليهود والنصارى يعتقدون أن هذا الكتاب الموجود بأيديهم الآن أوحى به من قبل الله تعالى، يقول أحدهم: ((يتعرض الكتاب المقدس لكثير من المزاعم والافتراءات والتشكيك في وحيه ومصداقيته وصحته، لكن الأدلة التاريخية المنطقية، بل وعلم الآثار يشهد لاستحالة تحريف الكتاب المقدس. ونحن نؤكد على هذه الحقيقة))^٥.

^١ - هناك أسماء أشتهر بها العهد القديم أهمها (التناخ) وهو اختصار للكلمات المكونة لأقسام العهد القديم: تورا، الأنبياء، الكتب، وكذلك (المقرا) وهي تعني النص المقروء. ومصطلح (المسورت) ويعني النص المقدس المضبوط والمعدل. (انظر: اليهود في العالم القديم. ص ١٦)

^٢ - سميت التوراة بمعنى (التعليم) . واسم التوراة (بالعبرية : توره)وهو اسم الفعل من "رأى" (بالعبرية : رءه) على الوزن العبري الموازي للوزن العربي (أفعل) . والكلمة تعني حرفياً "الترثية" . [انظر :حروب داود (كمال الصليبي) ص ٢٧]وقد اختلف المفسرون هل هي كلمة عربية مشتقة أم أعجمية . (انظر : الدر المصون / السمين الحلبي ٣ / ١٧) والصحيح ما أثبتناه هنا .

^٣ - الشهرستاني ، محمد بن عبدالكريم ،الملل والنحل ، تحقيق : عبدالعزيز الوكيل ، بيروت ، دار الفكر ،ص ٢١١

^٤ - رواه البخاري ٦/٢٤٣٩ برقم [٦٢٤٠]ومسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، القاهرة ،دار الحديث ٤/٢٠٤٣ برقم [٢٦٥٢]وسنن أبي داود ٢/٦٣٨ برقم [٤٧٠١]

^٥ - استحالة تحريف الكتاب المقدس . ص ١ (نشرة دار الكتاب المقدس)

وسنثبت بعد صفحات زيف هذا الإدعاء، فإن الحقيقة المطلقة ليست في (العهد القديم) الموجود بين أيدينا اليوم، بل هي في القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ، فهو كما قال الله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] يعني: صدقاً في الأخبار عدلاً في الأوامر والنواهي، ولهذا قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ ﴾ [يوسف: ٣] أي: بالنسبة لما أوحى إليك فيه، وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه: ٩٩] يعني: من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد^١.

((وعلى أي حال، فعلينا حين نتعامل مع التوراة كمصدر تاريخي، أن نتخلص تماماً من الهالة التي أسبغها عليها المؤمنون بها، وأن ننظر إليها كما ننظر إلى غيرها من المصادر التاريخية... إن من كتبوا التوراة المتداولة اليوم - كما يقول المؤرخ الانجليزي سايس - كانوا بشرا مثلنا، وهم كمؤرخين لا يختلفون كثيراً عن نظائرهم من معاصريهم في الشرق، كما أنه ليس هناك تاريخ لا يحتمل المناقشة، بل لا يحتمل أن نخطئه، وما دامت توراة اليوم كتاب تاريخ، فليس هناك ما يمنع المؤرخ من أن يناقشها مناقشة حرة دون تمييز))^٢.

^١ - ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٨٥

^٢ - د. محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص ٣٠

٢- إثبات تحريف (التوراة) : -

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أنزل على موسى عليه السلام كتاب (التوراة) ليلغاه إلى قومه من اليهود ويكون لهم ضياء وهدى .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] ، ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء: ٢] ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود: ١٧] ، ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [آل عمران: ٣-٤] ، فنحن المسلمون نؤمن إيماناً جازماً بأن الله سبحانه أنزل التوراة على موسى -عليه السلام - ولا نشك في هذا ونكفر من أنكر ذلك .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٣] .

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِّلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ... ﴾ [المائدة: ٤٤] .

قال الإمام القرطبي في تفسيرها: (("أسلموا" صدقوا بالتوراة من لدن موسى إلى زمان عيسى عليهما السلام وبينهما ألف نبي، ويقال: أربعة آلاف، ويقال: أكثر من ذلك، كانوا يحكمون بما في التوراة))^١ .

يقول الإمام ابن أبي العز (وأمّا الإيمان بالكتب المتزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى - منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسمائها وعددها إلا الله تعالى))^٢ .

^١ - القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري ، القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (الجامع لأحكام القرآن) القاهرة، دار الريان للتراث (٢١٨٥/٣)

^٢ - ابن أبي العز، علي بن علي بن محمد الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق : جماعة من العلماء ، تخريج : محمد ناصرالدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ. ص ٣١٢ .

لكن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أثبت على أن التحريف والتبديل والإهمال والنقصان والكتمان والتضيق قد حصل من اليهود للتوراة الصحيحة التي أنزلت على موسى عليه السلام^١، قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقال أيضاً: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

ذكر الإمام ابن جرير الطبري أن (الحق) هو التوراة الذي أنزل الله على موسى، (والباطل) الذي كتبه بأيديهم، و(اللبس) هو الخلط، أي لم تخلطون الحق بالباطل^٢. وقد وصفهم الله بالتحريف فقال عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦/المائدة: ١٣]، ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، قال ابن جرير: ((يحرفون كلام ربهم الذي أنزله الله جل وعز على نبيهم، ويقولون لجهال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى عليه السلام، والتوراة التي أوحاها إليه))^٣، وفي الحديث الحسن قال عليه الصلاة والسلام: { إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فاتبعوه، وتركوا التوراة }^٤.

^١ - عن قضية وقوع التبديل هل هو لجميع التوراة أم بقيت فيها الألفاظ وحرفت معانيها فقط، انظر: كلام الإمام ابن كثير (البداية والنهاية ١٣٥/٢-١٣٧) والشهرستاني (الملل والنحل / ٢١٣) وابن القيم (إغاثة اللهفان ٣٦٠/٢)

وقد شذ من علماء المسلمين جماعة قالوا أن الألفاظ لم تحرف وإنما حرف المعنى فقط ومنهم:

- القاضي أبو بكر الباقلائي (ت. ٤٠٣هـ) - القاضي عيسى بن سهل الجبلي (ت 486هـ)

- فخر الدين الرازي (ت 606هـ) - عبد الرحمن ابن خلدون.

^٢ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، ١٩٦٠م، طبعة مصطفى الباوي الحلبي (٣/٣١٠)

^٣ - الطبري، جامع البيان (٦/١٥٥)

^٤ - الطبراني في المعجم الأوسط عن أبي موسى الأشعري ٢٨٤/١٢ برقم ٥٧٠٦، وفي مجمع الزوائد (١/١٧٢) والحديث حسنه الألباني (صحيح الجامع الصغير، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، بيروت، المكتب الإسلامي، رقم ٢٠٤٤)

٣ - بداية التحريف:-

بحسب الروايات اليهودية أن سليمان - عليه السلام - جمع شيوخ إسرائيل في العيد لوضع تابوت عهد الرب في محراب البيت في قدس الأقداس، وحمل الكهنة التابوت، وكان الجميع يمشون مع الموكب حتى سليمان عليه السلام وفتح التابوت بعد وضعه في مكانه المخصص له، وكانت المفاجأة: لم يكن في التابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب، حين عاهد الرب بني إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر^١، وهكذا فقدت التوراة في ظروف غامضة .

ولم ترد أدنى إشارة للتوراة بعد سليمان عليه السلام، واختفت، حتى ورد أنه تم العثور عليها بمحض المصادفة في عهد يوشيا بن آمون (٦٤١-٦١١ ق.م)، أي بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من سبعمائة سنة، ((وصعد الملك إلى بيت الرب وجميع رجال يهوذا وكل سكان أورشليم معه والكهنة والأنبياء، وكل الشعب من الصغير إلى الكبير وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت الرب))^٢.

ثم توالى النكبات على اليهود من قبل الشعوب المجاورة، حتى تمكن (نبوخذ نصر) من سبيهم إلى بابل، ونهبه للهيكل وتدميره له ولأورشليم وتخريبها عام ٨٥٦ ق.م^٣. مكث اليهود في بابل تحت حكم السبي حتى سمحت لهم الدولة الفارسية بالعودة إلى أورشليم، فكان ممن عاد من اليهود مجموعة بقيادة عزرا بن سرايا^٤ وكان ذلك عام ٤٥٨ ق.م تقريباً^٥.

^١ - ملوك أول (٨ : ١-٩)

^٢ - ملوك ثاني (٣٣ : ٢-١) . وأخبار الأيام الثاني (٣٤ : ٢٩-٣٠)

^٣ - ملوك ثاني (٢٥ : ٨-١١)

^٤ - عزرا : يرجع نسبه إلى هارون حسب ما ورد في سفره وجاء وصفه أنه كاتب ماهر في شريعة موسى (عليه السلام) [عزرا ٧ : ١-١٠] ويعرف لدى الكثيرين بأنه مؤسس اليهودية، حيث أنه قد جمع الأسفار وأعاد ترتيب الشريعة (وزعموا أن النور الآن يظهر على قبره، وهو عند بطائح العراق) [ابن قيم الجوزية، إغاثة اللفهان من مصاديد الشيطان، تحقيق : محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة / ٢ / ٣٥٩]

^٥ - الحكيم بن السموأل، بذل الجهود في إفحام اليهود، ص ١٣٥

وعند وصول عزرا إلى أورشليم طلب الشعب من عزرا أن يأتي بسفر شريعة موسى، فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الشعب، وشرع في قراءته سبعة أيام كاملة^١. يقول ول ديورانت: ((ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع، ويتخذوها دستوراً لهم يتبعونه، ومبادئ خلقية يسرون على هديها ويطيعونها إلى أبد الأبدين، وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام إلى يومنا هذا المحور الذي تدور عليه حياة اليهود، ولا يزال تقيدهم بها طوال تجوالهم ومخيمهم من أهم الظواهر في تاريخ العالم))^٢.

((فالتوراة التي بيد اليهود الآن: هي التوراة التي كتبها عزرا الوراق، بعد فتنهم مع نبوخذ نصر، وقتله جمعهم وطوائفهم، إلا ما شذ من إبقائه قوماً لا يعاباً بهم ولا بعددهم وجعله أموالهم غنيمة لسراياه وعساكره وإتلافه ما بأيديهم من الكتب لعدم انقياده بأحكام شريعتهم، وجزمه بفساد أعمالها ونصبه في بيت عبادتهم صنماً، وإعلامه بالنداء محذراً من التوه بذكرها، إلى أن انقرض - والحال كذلك - جيل، حتى كان من بقي، وظفر بشيء من أوراقها يقصد المغائر، ويتحيل في قرأتها خلصة لهذه النسخة التي كتبها عزرا قبل بعثة المسيح عليه السلام - [٥٤٥ سنة] ولم يكن على وجه الأرض نصراني، فحينئذ التبديل ممكن))^٣.

ويقرر ذلك السموأل بن يحيى المغربي أن عزرا ((جمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة، ما لفق منه هذه التوراة التي في أيديهم، ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا هذا غاية المبالغة، فهذه التوراة التي في أيديهم على الحقيقة كتاب عزرا وليست كتاب الله))^٤، وقد ألمح الإمام الجويني بكلام نفيس إلى السبب الذي دعا عزرا إلى ذلك فقال: ((لحرصه على استمرار رياسته، وعدم القول بعصمته: لمانعه له من الإقدام على فعل الصغائر والكبائر، ونحن الآن نشاهد وننقل ما أرّخ عن الماضين، أن كثيراً ممن تعلق

^١ - نحما (٨: ١-١٨) ونلاحظ هنا الاختلاف الكبير من ناحية الحجم بين التوراة التي اكتشفت في عهد يوشيا حيث أتمت قراءتها على اليهود مرتين كاملتين في يوم واحد، والتوراة التي ادعاها عزرا احتاجت قراءتها إلى أسبوع كامل!

^٢ - ول ديورانت، قصة الحضارة ٢/٣٦٦

^٣ - الجويني، عبد الملك بن عبد الله، شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، تحقيق: أحمد حجازي السقا، ط ١٤٠٣هـ، الرياض، إدارة البحوث العلمية ص ٣٠

^٤ - الحكيم بن السموأل، بذل الجهود في إفحام اليهود، ص ١٣٤

له غرض بأمر محبوب، شاهدناه يبالغ جهده، ويحمل النفس على تسليطه الفكر، على دقائق الحيل وأنواعها ولا ييأس من مراده، ولا ينتهي عنه، إلا بعد أن يحس من نفسه العجز، ولو فرض أن محبوبه الذي تعلق به غرضه ليس بالنفيس، بله الرئاسة، التي هي سبب لإقامة الفتن في العالم وقتل الولد والقريب ومصادمة العشائر، وإيقاع الحروب بينهم وتبديل الرحمة بالقسوة، والقراية بالعداوة، وعلى الجملة: فقلب الحقائق من أحص صفاها . وقد قيل: آخر ما يترع من رؤوس الصديقين حب الرئاسة . ورياسة بني إسرائيل كان شأنها عظيم، ومن أحاط بتواريخ العالم خيراً، وتتبع غرائب قصصها، ظفر بأجل من عزرا، حمله حب الرئاسة على فعل السفهاء، الخالعين ربقة العقل والدين^١.

الفرق بين عزرا و عزير:

يميل بعض علماء مقارنة الأديان إلى القول بأن عزرا هو الذي ورد ذكره في القرآن باسم عزير وهذا قول خاطئ، لأن (عزير) مذكور في القرآن مع حادثة له تعد من آيات الله تعالى وعظيم قدرته.

يقول صاحب (بذل الجهود): ((وعزرا ليس هو العزير لأن العزير هو تعريب لعازار، وأما عزرا فإنه إذا عرب لم يتغير حاله لأنه اسم خفيف الحركات والحروف، ولأن عزرا عندهم ليس بنبي وإنما يسمون عزير هسوفير وتفسيره "الناسخ")^٢.

يقول ابن القيم: ((وبعض الناس يظن أنه الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها... ويقول أنه نبي ولا دليل على هاتين القدميتين، ويجب التثبت في ذلك نفيًا وإثباتًا، فإن كان هذا نبياً واسمه عزير فقد وافق صاحب التوراة في الاسم))^٣.

^١ - الجويني، شفاء الغليل (٣٢)

^٢ - ربيع، د . يحيى محمد علي، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، المنصورة ، دار الوفاء ص ٨٤

^٣ - ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى في أحوية اليهود والنصارى ، تحقيق : أحمد حجازي السقا ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ ، المكتبة القيمة. ص٢٠٧ ، ويرى ابن الجوزي أنه عزير (القرآن) وأن التحريف إنما وقع من جهة تلميذه ميخائيل فبدلها وزاد فيها ونقص منها (ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، فضائل القدس ، تحقيق : جبرائيل سليمان جبور ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة، ص ١٠٦)

٤ - اعترافات علماء أهل الكتاب بالتحريف: -

((علماء اليهود وأحبارهم يعتقدون أن هذه التوراة - التي بأيديهم - ليست هي التي أنزلها الله تعالى على موسى بن عمران بعينها ، لأن موسى عليه السلام صان التوراة عن بني إسرائيل، خوفاً من اختلافهم من بعده في تأويلها المؤدي إلى تفرقهم أحزاباً، وإنما سلمها إلى عشيرته أولاد لاوي))^١.

وهذا الذي خشي منه موسى عليه السلام هو الذي حدث بعد ذلك حتى أن يهود اليوم لا يعترفون بـ(التوراة) إلا كنص جامد ولا يفسرون نصوصها إلا بحسب ما ورد لديهم في (التلمود) حتى ولو كان المعنى مخالفاً لظاهر النص، إن ما يقرأه اليهود (الأرثوذكس) اليوم كتاباً ذا معاني مختلفة تماماً عن التوراة التي يقرؤها غير اليهود، أو اليهود غير المتشددين^٢، وقد ظل الاعتقاد سائداً عند كثير من أهل الكتاب أن (التوراة) الموجودة هي كتاب موسى عليه السلام حتى نشطت حركة النقد في العصور الوسطى بزعماء كثير من ربانيي اليهود، وفي أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر، ظهر أمثال العالم اللاهوتي (أندرياس بودنشتن كارلنت) ونقد الكتاب المقدس في كتابه المشهور (الأسفار الشرعية) وقد وقف إلى جانبه كثير من علماء اللاهوت الكاثوليك^٣.

— تلا ذلك ما صدر عن العالم الألماني (يوليوس فلهاوزن) **Julius Wellhausen**، ومؤيديه، عندما عكسوا الترتيب التقليدي لتأليف أسفار العهد القديم، حيث نسبوا إلى زمن موت موسى بقرون عدة تأليف الأسفار الخمسة الأولى خاصةً، والاختلافات التي يُشار بها إلى الله، وتكرار بعض القصص، والفروق الواضحة في اللغة والأسلوب بين أجزاء مختلفة من هذه المجموعة. كل هذا أقنع العلماء الناقدين بأن الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى ما هي في الواقع إلا نتيجة تصنيف من مصادر مختلفة.

^١ - ابن القيم، إغاثة اللهفان [٣٥٨ / ٢]

^٢ - إسرائيل شاحك، التاريخ اليهودي: الديانة اليهودية وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة: صالح علي سوداح، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، بيروت، دار بيسان ص ٥٨ - ٦١ ويعلق المؤلف بقول (هامبتي دامت): خلف مسألة من يحدد معاني الكلمات يكمن السؤال الحقيقي: من هو السيد؟

^٣ - د.يجي ربيع، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، ص ٧٢

ويعود الفضل للمستشرق "هـ. جريسمان" تلميذ فلهاوزن في انتشار تأثير هذه المجموعة المعروفة على نطاقٍ واسعٍ باسم "مدرسة تاريخ الأديان"، وامتداده بسرعة إلى دراسات الشرق الأدنى القديم بصورةٍ عامة، مما أدى للتغيير الجذري للتأويل التوراتي الضيق في الغالب لتاريخ بني إسرائيل الذي وضعه النقاد الأدييون من أتباع فلهاوزن. إن هذه المجموعة من الدارسين كانت شديدة الاهتمام بسبل المكتشفات الحديثة والنصوص المترجمة مؤخراً عن الشرق الأدنى القديم، وإلى أي مدى كان لتأثير هذه المواد الجديدة مقترناً بالتحرّر من العقلية الدينية الضيقة التي اتسمت بها معظم الدراسات التوراتية الليبرالية والبروتستانتية المحافظة، الفضل في التوصل إلى فهم جديد لتاريخ بني إسرائيل القديم.

● وقد جاء في قرار اللجنة الخيرية التوراتية يوم ٢٧ / ٦ / ١٩٠٦: [يمكن القول بأن موسى استغل وثائق مخطوطة وتقاليد شفوية سابقة ونقل عنها ما يوافق الغاية التي استهدفها بإلهام الروح القدس، وأنه نقل تارة النصوص بحروفها وتارة بمعناها وأخرى بتلخيص وإسهاب^١ .. وأن الكتب الخمسة المذكورة قد أعيد تحرير نصوصها مع مرور الزمان بحيث أضيفت مثلاً نصوص كتبها كاتب ملهم بعد وفاة موسى، وزيدت تفسيرات، وتحولت تعابير قديمة إلى تعابير مستحدثة، وأن هناك أخطاء أقترفها النساخون]^٢.

كما صدرت الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس بالقول [ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة، منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف حتى على وضع النص، لأن ذلك النص قد كتبه عديدون بعده، لذلك يجب القول: إن ازدياداً تدريجياً قد حدث، وسببته مناسبات العصور الآتية الاجتماعية والدينية]^٣.

ومن أقوال مارتن لوثر - مؤسس البروتستانتية -: ((أيقنت أن اليهود أناس غلاظ الأكباد، انحرفوا عن شريعة موسى، وزوروا كتبه وأقواله ... فيجب علينا إحراق كتبهم

^١ - نحن المسلمون نعتقد أن (التوراة) التي جاء بها موسى عليه السلام كلها من كلام الله سبحانه.

^٢ - د. إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي ص ٨٣

^٣ - نفس المصدر والصفحة

المزورة، وتدمير معابدهم القدرة لننقذ شعبنا من خطرهما، فلو عاد موسى بنفسه للحياة لأمر بحرقها، وإزالتها من الوجود))^١.

• ويقول (نولدكه) في كتابه (اللغات السامية): ((جمعت التوراة بعد موسى بتسعمائة سنة أستغرق تأليفها وجمعها زمناً متطاولاً تعرضت حياله للزيادة والنقص، وأنه من العسير أن نجد كلمة متكاملة في التوراة مما جاء به موسى، لأن التوراة لم تدون في عهده، ولا في الجيل الذي تلاه))^٢.

• وتذكر دائرة المعارف الفرنسية تحت عنوان: "توراة" أن العلم العصري ولا سيما النقد الألماني، قد أثبت بعد أبحاث مستفيضة في الآثار القديمة، والتاريخ وعلم اللغات، أن التوراة لم يكتبها موسى وإنما كتبها أحبار لم يذكروا اسمهم عليها، ألفوها على التعاقب، معتمدين في تأليفها على روايات سماعية سمعوها قبل أسر بابل^٣.

• ويقول (هامرتن) في كتابه (تاريخ العالم): ((يجدر بنا أن نواجه هذه الحقيقة، وهي أن أخبار الكتاب المقدس جاءتنا من عهد متأخر جداً عن العهد الذي نصفه، وأن قصارها أن تمدنا ببيان ناقص مشوب بالهوى عن عنصر واحد من العناصر المختلفة التي تألف منها فيما بعد شعب إسرائيل، وأن تاريخهم بأسره من عمل الخيال إلى حد ما، بيد أننا لا نجد في العهد القديم نفسه إشارات عن اختلاط دماء شعب بني إسرائيل، وعن الشك فيما كانوا عليه قبل عهد داود))^٤.

• وينقل الشيخ رحمة الله الهندي عن (أكتسائن) الذي كان أعلم علماء المسيحية في القرن الرابع من القرون المسيحية: (إن اليهود قد حرفوا النسخة العبرانية في بيان زمان الأكابر الذين عاشوا قبل زمن الطوفان وبعده إلى زمن موسى عليه السلام، ونقلوا هذا الأمر لتصير الترجمة اليونانية غير معتبرة، ولعناد الدين المسيحي).

^١ - فوزي محمد حميد، حقائق وأباطيل في تاريخ بن إسرائيل، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، دار الصفدي، ص ١٤٧

^٢ - د. يحيى ربيع، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف ص ١٠٠

^٣ - نفس المصدر والصفحة

^٤ - (١٠٨/٢) ترجمة / وزارة المعارف المصرية .

^٥ - هناك ثلاث نسخ مشهورة للتوراة: ١/ العبرية أو العبرانية . ٢ / اليونانية أو السبعينية . ٣ / السامرية : وهي أكثر النسخ

ثم يعقب (رحمة الله الهندي): ((ويعلم أن قدماء المسيحيين كانوا يقولون مثله، وكانوا يقولون: إن اليهود حرفوا التوراة في سنة ١٣٠ من السنين المسيحية))^١.

● وقد أثبت عدد من الباحثين هذا التبديل والتحريف وعلى رأس هؤلاء (ول ديورانت) في كتابه الشهير (قصة الحضارة)^٢ وكذلك (ريتشارد سيمون) في كتابه (التاريخ النقدي للعهد القديم) وكذلك (جان أستروك) و (ايكهورن) و (إيلجين) وغيرهم^٣.

^١ - رحمة الله الهندي، إظهار الحق، تحقيق: أحمد حجازي السقا، طبعة ١٣٩٨هـ، القاهرة، دار التراث العربي. ص ٢١٨

^٢ - (٣٦٧/٢)

^٣ - انظر / موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية، دار المعارف، ص ٢٨ وما بعده .

٥- سفر صموئيل الأول والثاني: -

مجموع العهد القديم مقدس لدى اليهود والمسيحيين، ولكن أسفارهم غير متفق عليها فبعض أحبار اليهود يضيفون أسفاراً لا يقبلها أحبار آخرون، وكذلك تختلف الكنيسة الكاثوليكية عن البروتستانتية، فتضيف الكاثوليكية سبعة أسفار أخرى وهي: طوبيا، يهوديت، حكمة يشوع، سيراخ، باروخ، المكابيين الأول، المكابيين الثاني. كما أنها دمجت سفري صموئيل مع سفري الملوك في أربعة أسفار: أولها، وثانيها: يجيئان بدلاً من سفري صموئيل الأول والثاني، وأصبح اسم الأسفار الأربعة: سفر الملوك^١.

• وقد كان سفر صموئيل الأول والثاني يعتبران في الأصل كتاباً واحداً كتب باليونانية على ورقتين مختلفتين، غير أن المطبوعات العبرية أخذت تتبنى تقسيم الكتاب إلى قسمين واعتبارهما سفرين منفصلين منذ عام ١٥١٧م في الطبعة التي نشرها (دانيال بومبرج **Daniel Bomberg**) في البندقية، ومن ثم اتبع هذا التقسيم في جميع الطبعات العبرية للكتاب المقدس^٢.

• ولا ننسى هنا أن (فرقة السامرية)^٣ من الطوائف اليهودية التي لا تؤمن إلا بالأسفار الخمسة التي تمثل القسم الأول من (العهد القديم)، وسفر يشوع وسفر القضاة فقط، أما سفري صموئيل وما بعده من الأسفار فإنهم ينكرونه، كما أن نصوص الأسفار المعتمدة لديهم تختلف في كثير من المواضع عن النصوص المشهورة لهذه الأسفار المعتمدة عند غيرهم^٤.

• وسبب عنايتنا هنا في هذا البحث بمعرفة ما في سفر صموئيل وخصوصاً سفر صموئيل الأول أنه تحدث كثيراً عن (طالوت) الذي أسموه (شاول) وعن بدء أمره، وعن

^١ - د. يحيى ربيع، الكتب المقدسة بين الصحة والتحرير ص ٢٣

^٢ - الأحمدي، د. أحمد عيسى، داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم، ط. ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، مطبعة حكومة الكويت ص ١٥١-١٥٢

^٣ - سمو بذلك لأن نحلتهم ظهرت في إقليم السامرة، من أقاليم فلسطين. وكانت كلمة السامريين تطلق كذلك على جماعة من غير بني إسرائيل اعتنقت اليهودية وامترحت بالإسرائيليين، وكان الإسرائيليون ينظرون إلى أفرادها على أنهم أحط منهم قدراً ومثلة. انظر: (د. علي عبدالواحد/الأسفار المقدسة / ص ٦٦)

^٤ - د. علي عبدالواحد وافي، الأسفار المقدسة، ص ٦٦

اختبار النبي(صموئيل) له، وعن ما جرى بينه وبين صموئيل ، وتفاصيل الخروج لحرب (جالوت) - الذي أسموه (جوليات) - وعن بدء أمر داود، وتفاصيل اشتراكه في المعركة الفاصلة، وفصلت كثيراً في كيفية قتله لجالوت، ثم تكلمت كثيراً عن الخلاف الذي جرى بين طالوت وداود، وملاحقة طالوت لداود وحقده عليه، وحرصه على قتله، وانتهى الصراع بينهما إلى مصرع طالوت وحكم داود.

ويمكن تقسيم محتويات سفر صموئيل الأول كما يأتي: -

■ (الإصحاحات ١-٧): طفولة صموئيل وانتصاره على الفلسطينيين الذين أرهقوا إسرائيل قبل ذلك في حروب مستمرة.

■ (الإصحاحات ٨-١٥): تنصيب شاول من قبل صموئيل كملك بناء على رغبة الشعب، ثم نبذه من قبل (يهوه).

■ (الإصحاحات ١٦-٣١): العلاقة بين شاول وداود، تلك العلاقة التي كانت في البداية حسنة ثم انقلبت إلى عدا، ثم وفاة شاول في المعركة التي وقعت على جبل جلبوع .

- أما سفر صموئيل الثاني فيختص برواية أخبار داود بعد أن صار ملكاً على شعب يهوذا، ثم على جميع إسرائيل.

٦- كاتب سفري صموئيل: -

وقع اختلاف كبير في الكاتب الحقيقي، فلم يعلم مصنفه، ولا زمان تصنيفه، وقد تعددت الأقوال في كاتب هذا السفر حتى تعذر القطع بكاتبه، هذا إلى جانب أن السفيرين يرجعان إلى مصادر كثيرة متعددة متفاوتة الموضوع والزمن، ولا وحدة تجمع بين محتوياتهما .

ولعل السبب في ذلك أن ((الغرض الرئيس من كتابة سفري صموئيل كان تسجيل الأساس الذي قامت عليه الملكية، والأحداث التي رافقت تأسيسها ومن ثم توحيدها تحت قيادة داود .. وبمعنى آخر فإن بداية تأريخ المملكة في إسرائيل هو الموضوع الرئيس

لسفري صموئيل، وإنه من طبيعة الأشياء عند كتابة مثل هذا التاريخ وتدوينه أن يتصدى لهذا العمل أكثر من مؤرخ، وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء المؤرخون في زمن واحد . وقد يكون بين النصوص المتوفرة ما هو سهل المنال لمؤرخ، صعب على غيره، ويكون بينهما ما هو في متناول مؤرخ آخر لم يتوفر للأول وهكذا .

لذلك عندما جمع كاتب السفرين المواد والنصوص لهذا الغرض وجد تحت تصرفه أكثر من سلسلة من الروايات . وهكذا فإن غالبية العلماء المعاصرين تمكنوا من تمييز مصدرين أو أكثر في النصوص التي تشكل مادة السفرين .

ومن العلماء الذين يعتقدون بنظرية وجود مصدرين: -

(فلهاوزن Welhausen)، (كورنيل Cornill)، (بود Budde)، (كيتل Kittel)، (سيلين Sellin)

أما صاحب نظرية المصادر الثلاثة في سفري صموئيل، فهو (ايسفلت) الذي يرى وجود مصدر ثالث إلى جانب المصدرين الآخرين^١ .

لكن الأمر المؤكد أن اطلاق سفر صموئيل على السفرين لا يعني أنه مؤلفهما، بل ذلك إشارة إلى اهتمام السفرين بشخصيته فقط، ولا شك أن ذلك مخالف للرواية اليهودية في التلمود وفي سفر أخبار اليوم الأول (الإصحاح ٢٩ : ٢٩ - ٣٠) حيث زعموا أن صموئيل كتبها بنفسه، أو صموئيل وناتان وجاد^٢، ويحملان اسم كاتبهما أو الكاتب الرئيس لهما وهو صموئيل !

إلا أن (ايسفلت) يعلق على ذلك بقوله: في الحقيقة فإن تسميتهما جاءت من كون صموئيل يلعب الدور الرئيس فيهما، أو على الأقل في السفر الذي أصبح يسمى: (صموئيل الأول)^٣ .

وينتقد كل من اوسترلي وروبنسون تسمية سفري صموئيل بهذا الاسم ويعلقان على ذلك بقولهما: مهما كان السبب الذي يكمن وراء إطلاق اسم صموئيل على هذين السفرين في العهد القديم، فإنه لا جدال بأن هذه التسمية غير ملائمة، كما أنه من

^١ - الأحمـد، داود وسليمان ، ص ١٥٦ - ١٥٧

^٢ - لما كان الجزء الأكبر من سفري صموئيل يروي أحداثاً وقعت بعد وفاة صموئيل ، فإن الرواية اليهودية تنسب الأحداث الوارد ذكرها بعد وفاته إلى الرائي جاد والنبي ناتان .

^٣ - الأحمـد، داود وسليمان ، ص ١٥٢

الصعب الاعتقاد بأن هذه التسمية قد تقررت في الأصل، ذلك أنه باستثناء بعض الإصحاحات، فإن صموئيل لم يكن له يد في ذلك العمل، ويختفي تماماً عند منتصف صموئيل الأول^١.

ويرى إبراهيم بن عزرا - أشهر نقاد التوراة في العصر الوسيط - أن ناسخي الوصايا قالوا: إن سفر صموئيل كتبهما صموئيل، وهي حقيقة حتى " وفاة صموئيل " [صموئيل الأول: ٢٥ : ١] ويعني ذلك أنه اقتحمت آنذاك أحداث ليست من عمل المؤلف^٢.
ويذكر سبينوزا أنه: ((إذا نظرنا إلى تسلسل هذه الأسفار كلها وإلى محتواها رأينا أن الذي كتبها مؤرخ واحد أراد أن يروي تاريخ اليهود القديم منذ نشأتهم الأولى حتى هدم المدينة لأول مرة))^٣.

ويقول موريس بوكاي: ((أما كتاب صموئيل وكتب الملوك، وهي أساساً مجموعات من السير قيمتها التاريخية مشكوك فيها، تحوي أخطاء متعددة، بحيث تختلط الخطوط التاريخية بالأساطير))^٤.

هذه الأساطير الشعبية هي التي جعلت (ول ديورانت) يصف هذه الأسفار بأنها ((من أجمل تلك الكتابات، ولربما كانت أسفار القضاة و صموئيل والملوك قد وضعت على عجل، كما يعتقد بعض العلماء، في أثناء السبي أو بعده بقليل، ليجمع فيها واضعوها التقاليد القومية لشعب مشنت كسير، ويحتفظوا بها على مدى القرون، ولكن قصة شاؤل وداود وسليمان تفوق في جمال معناها وأسلوبها غيرها من الكتابات التاريخية في الشرق الأدنى القديم))^٥.

وينسف المؤرخ (أرنولد توينبي) في كتابه (تاريخ البشرية) ما أعجب به (ديورانت) من الأدب الإسرائيلي، حيث زعم (توينبي) أن كثيراً من المرويات في الأسفار مأخوذ إما من الأدب الكنعاني أو الفينيقي أو جاء عن طريق السومريين أو المصريين أو غيرهم من الأمم المجاورة ويضيف: ((قبل نهاية القرن العاشر ق.م كانت إسرائيل ويهوذا قد

^١ - نفس المصدر، ص ١٥٣

^٢ - زلمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم، ترجمة: أحمد محمد هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، ص ٧٦

^٣ - سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة. ترجمة / حسن حنفي. ص ٢٧٦

^٤ - موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة. ص ٣٧

^٥ - ول ديورانت، قصة الحضارة ٢/٣٨٥

أخذتا أنفسهما بوضع أدب مكتوب باللغة الكنعانية وقد دون بالألفباء الفينيقية ... ويبدو أن الأخبار التاريخية عن داود وسليمان معتمدة على قيود رسمية كانت تقريباً معاصرة للأحداث، وقد تكون آثار نبي من الأنبياء قد دوّنها تلاميذه، وليس بالضرورة أن يكون النبي نفسه قد فعل ذلك، وقد ينال كتب أحد هذا النوع منزلة كبيرة، وعندها قد تضاف إليه زيادات متتالية يقوم بها مؤلفون متأخرون مجهولون، فيما يستعملون اسم النبي الأصلي في الأجزاء التاريخية من التوراة وكتب الأنبياء هي أعمال إسرائيلية ويهودية أصلية، لكن حتى الوثائق الموثوق بها التي تحوي آثار الأنبياء والتي هي أصلاً شخصية وفردية، ثبت أنها تحوي إشارات إلى الأدب السابق للإسرائيليين وقد اتضح هذا إذ ظهر بعض هذا الأدب إلى الوجود))^١.

ويعلق (كمال الصليبي) على سفر صموئيل قائلاً: ((أول ما يلاحظ أن المادة التاريخية في هذا السفر هي على نوعين: نوع قصصي، شعبي الطابع، يعود عهده في الأصل، على الأرجح، إلى زمن قريب جداً من الحدث، ونوع آخر أبعد زمنياً عن الحدث، يعلله ويعلق عليه، ويبرزه أو يدينه أحياناً ليستخرج منه العبرة . والمادة من النوع الثاني هذا دخيلة على المادة من النوع الأول . وهي في غالب الأحيان كهنوتية الطابع، وفيها تركيز ملحوظ على الترابط المستمر المفترض بين مشيئة الرب (يهوه) اله التوراة، وتاريخ شعبه الخاص إسرائيل، وقد درج علماء التوراة على تسمية هذه المادة الدخيلة على الأصل القصصي في أسفار "الأنبياء الأوائل " بالمادة "التشوية" **Deuteronomical**))^٢، ويرى الدكتور إسماعيل الصمادي أن ((سفر صموئيل كتب بيد أكثر من كاتب كغيره من الأسفار وبالطبع حرّر أيضاً كسابقه ولاحقه في مرحلة السبي^٣، ولم يقم المحررون بتنسيق جيد بين الكتابات، ويبدو أن الكاتب الذي قام بكتابة الاصحاحات الستة عشر الأولى من السفر يختلف تماماً عن كتب باقي الاصحاحات والتي يبدو أيضاً أنها كتبت بأكثر من يد))^٤.

^١ - ص ١٣٨.

^٢ -- الصليبي، كمال، حروب داود، الطبعة الثانية ١٩٩١ م، عمان، دار الشروق، ص ١٢

^٣ - يرى البعض أنه وضع ما بين القرنين الثامن والسادس ق.م [عقيدة اليهود / محمد آل عمر ص ١٩٨]

^٤ - الصمادي، نقد النص التوراتي . ص ٢٩٢

٨- نماذج للتناقض في سفر صموئيل:

إن تعدد الكتاب هذه الأسفار كما أسلفنا أنشأ كثيراً من الاختلافات الكبيرة في سرد الروايات، خصوصاً وأهم يعودون إلى مستويات شديدة التباين من حيث المستوى الثقافي والمعرفي والانتماء الطائفي والمذهبي.

وقد أدى هذا التنوع إلى تباين شديد في المستويات النصية للكتاب المقدس، وقد حاول المحررون أن يعيدوا تأهيل النصوص المتفرقة، وأن يحلوا انسجاماً فيما بينها، ولكن التباينات والتناقضات الداخلية بقيت آثارها العميقة واضحة للعيان^١.

وهنا نذكر نماذج فقط لهذه التناقضات التي تثبت تحريف هذا المقدس لديهم، وسيأتي تفصيل بعض هذه النماذج في تفاصيل القصة داخل البحث، فمن ذلك: -

١. رواية مقتل (شاؤل) ذكرت في (صموئيل الأول: ٣-٤-٦) ومنها يتبين أنه انتحر. بينما جاءت في (صموئيل الثاني ١: ٨-١٠) أن الذي قتله هو رجل عماليقي.

٢. هناك روايتان لأصل القول المأثور: "أشاؤل أيضاً بين الأنبياء؟" الرواية الأولى موجودة في (صموئيل الأول ١٠: ١٠-١٢)، أما الرواية الثانية فموجودة في صموئيل الأول ١٩: ١٨-٢٤) في قصة أخرى.

٣. جاء في قاتل (جالوت) روايتان، وما نعرفه أن الذي قتله داود (صموئيل الأول ١٧: ١-٥٨) وجاء في رواية أخرى أن القاتل له رجل يدعى ألمانان (صموئيل الثاني ١: ٨-١٠).

٤. في سفر (صموئيل الثاني ٢٤: ١٣) يذكر جاد لداود ويخبره بأنه ستأتي عليه سبع سنين جوع. ولكن جاء في نص سفر (أخبار اليوم الأول ٢١: ١١-١٢) يخبر جاد داود أنها ثلاث سنين فقط.

٥. أشار سفر (صموئيل لثاني: ١٨: ١٨) إلى أن أبشالوم ابن داود لم يكن له أبناء، لكنه أقام نصباً ليذكره الناس. وفي موضع آخر أنه ولد له ثلاثة أبناء وبنت أسمها تامار (صموئيل الثاني ١٤: ٢٧).

^١ - المصدر السابق ص ٨٤

٦. ورد في سفر (صموئيل ١ الإصحاح ١٥ : ٣٥): [والرب ندم]
تناقض (سفر العدد الإصحاح ٢٣ : ١٩): [ليس الله إنساناً فيكذب ولا ابن إنسان
فيندم]

٧. ويتحدث سفر صموئيل عن ميكال بنت شاول فيقول: [ولم يكن لميكال بنت
شاول ولد إلى يوم موثما] (صموئيل (٢) ٢٣/٦)، ولكنه في السفر نفسه يذكر أن لها
ذرية، وأن لهم خمسة من الأبناء من زوجها عدرييل الخولي، فيقول: " وبني ميكال ابنة
شاول الخمسة الذين ولدتهم لعدرييل ابن برزلاي الخولي" (صموئيل (٢) ٨/٢١) والحق
أن ليس ثمة تناقض هنا، بل خطأ وقع فيه كاتب صموئيل الذي لم يميز بين ميكال وأختها
ميرب التي تزوجت عدرييل الخولي، فقد جاء في سفر صموئيل [وكان في وقت إعطاء
ميرب ابنة شاول لدواد أنها أعطيت لعدرييل الخولي امرأة] (صموئيل (١) ١٧/١٨)،
ثم حكى السفر قصة زواج داود من أختها ميكال، وقد اعترف محررو قاموس الكتاب
المقدس بهذا الخطأ، وردوه إلى خطأ بعض المخطوطات القديمة.

وهكذا فقد خضع السفران للتنقيح والإضافة مدة طويلة من الزمن، وتنوعت
مصادرها واختلفت بحيث جاء الكثير من النصوص في بعض الأماكن من السفرين،
متعارضاً مع نصوص أخرى.

وغير خاف على كل ذي بصيرة ما تعرض له السفران من تحريف بإضافة أو حذف
على أيدي محرري وكتابة الأسفار وفق أغراضهم وأهدافهم .

(وقد قام المحرر بجمع تلك الحكايات، وسردها بطريقة فيسفسائية مفككة، لم يراع فيها
الترتيب الزمني الكرونولوجي الفقاري، وهذا ما أدى إلى حصول عدة تداخلات
وانزياحات زمانية)^١.

^١ - د. إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي، ص ٢٧٢

ملخص المدخل:

- القصة التاريخية القرآنية لها أهداف عظيمة، من أهمها الأهداف التربوية .
- القرآن الكريم أعظم المراجع التاريخية الصادقة، وقصص القرآن كلها حق وصدق .
- تركيز القرآن الكريم على الجزئيات التاريخية لحياة بني إسرائيل، حتى تعتبر الأمة الحمديّة بأحوالهم وتسلّمهم ذلك واقعاً عملياً في حياتها .
- الموقف الشرعي من (الإسرائيليات) و (العهد القديم) قائم على الأمور الآتية:
 - أ- أننا نجزم أنّها حرفت وبدلت، وان الموجود اليوم هو نتاج العقول اليهودية، والأدلة كثيرة على ذلك .. فضلاً عن اعتراف مؤرخي أهل الكتاب في العصر الحديث بذلك .
 - ب- أنّها أخبار تُحكى، ولا نعتقد صحتها، إلا ما صدقه شرعنا .. أما ما جاء مخالفاً لشرعنا أو للسنن العامة فإننا نرده ونكذبه .
 - ت- أنّ الأفضل أن لا تكتب في تفسير القرآن الكريم، حتى لا يعتقد القارئ صحتها .. إلا ما كان في الدراسات الأكاديمية المتخصصة .
- اهتمام (العهد القديم) بذكر تفاصيل (قصة طالوت)، والتي شملت أغلب (سفر صموئيل الأول) .. والذي كتب بيد أكثر من كاتب، وبطرق متباينة، بل ومتناقضة .

الفصل الأول

نبذة تاريخية عن هجرة بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة

مقدمات لا بُد منها:

أولاً: سبب التسمية:

كثيراً ما تأتي الآيات القرآنية بوصف هذه الطائفة بـ(بني إسرائيل) وتارة باسم(اليهود)؛ أما لفظ (بني إسرائيل) فسيمر معنا في دراسة الآيات. وأما لفظه (اليهود) فقد وردت في القرآن تسع مرات، بينما نجد لفظه (بني إسرائيل) وردت في القرآن إحدى وأربعين مرة، ولهذا التفاوت سبب سنورده، لكننا أولاً نذكر الخلاف الواقع بين اللغويين في اشتقاق لفظه (اليهود) هل هي أعجمية أم لها أصل في اللغة العربية فنجد الراغب الأصفهاني يرجح اشتقاقها من العربية وأن ((الهود: الرجوع برفق، ومنه: التهويد، وهو مشي كالديب، وصار الهود في التعارف التوبة، قال تعالى: ﴿إنا هدنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبنا، قال بعضهم: يهود في الأصل من قولهم: هدنا إليك. وكان اسم مدح، ثم صار بعد نسخ شريعتهم لازماً لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح)).^١

وهذا ما ذهب إليه أيضاً ابن منظور في (لسان العرب) وقال: ((الهُودُ: التَّوبَةُ هَادَ يَهُودُ هُوداً وَ تَهَوَّدَ: تَابَ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ فَهُوَ هَائِدٌ، وَقَوْمٌ هُودٌ: مِثْلُ حَائِلٍ وَحَوْلٍ وَبازِلٍ وَبُزْلٍ؛ قال أعرابي: إِنِّي امرؤٌ مِنْ مَدْحِهِ هَائِدٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّا

^١ - الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت، دار

هُدُنَا إِلَيْكَ}، أَي تَبْنَا إِلَيْكَ وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَسَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَإِبْرَاهِيمَ، قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ: عَدَاهُ بِأَلْيَ لَأَنَّ فِيهِ مَعْنَى رَجَعْنَا، وَسَمِيَتِ الْيَهُودُ اشْتِقَاقًا مِنْ هَادُوا أَي تَابُوا وَأَرَادُوا بِالْيَهُودِ الْيَهُودِيِّينَ وَلَكِنْهُمْ حَذَفُوا يَاءَ الْإِضَافَةِ، قَالَ سَيِّبِيُّهُ: "وَفِي الْحَدِيثِ: {كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانَهُ أَوْ يُنَصِّرَانَهُ}؛^١ مَعْنَاهُ أَنَّهُمَا يَعْلَمَانِهِ دِينَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصَارَى وَيُدْخِلَانَهُ فِيهِ. وَالتَّهْوِيدُ: أَنْ يُصَيَّرَ الْإِنْسَانَ يَهُودِيًّا. وَهَادَ وَتَهَوَّدَ إِذَا صَارَ يَهُودِيًّا.^٢

وَقَالَ الشَّهْرَسْتَانِيُّ: ((هَادَ الرَّجُلُ: أَي رَجَعَ وَتَابَ، وَ إِنَّمَا لَزِمَهُمْ هَذَا الْاسْمُ لِقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ "إِنَاهْدُنَا إِلَيْكَ" أَي رَجَعْنَا وَتَضَرَعْنَا))^٣.

بَيْنَمَا نَجِدُ السَّمِينَ الْحَلْبِيَّ يَرْجَحُ أَعْجَمِيَّتَهَا فَيَقُولُ: ((إِنَّ الْيَهُودَ مِلَّةٌ مَعْرُوفَةٌ وَالْيَاءُ فِيهَا أَصْلِيَّةٌ، لِشَوْقِهَا فِي التَّعْرِيفِ، وَلَيْسَتْ مِنْ مَادَّةِ (هُودٍ) وَسَمَّوْا يَهُودًا نِسْبَةً لِيَهُودَا ابْنِ يَعْقُوبَ))^٤، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ((سَمَّوْا الْيَهُودَ "نِسْبَةً لِيَهُودَا" بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ - ابْنِ يَعْقُوبَ، فَغَيَّرْتَهُ الْعَرَبُ مِنَ الذَّالِ الْمَعْجَمَةِ إِلَى الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ، جَرِيًّا عَلَى عَادَتِهَا فِي التَّلَاعُبِ بِالْأَسْمَاءِ الْأَعْجَمِيَّةِ))^٥، وَهَذَا مَارِجِحُهُ أَيْضًا الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُورَ^٦. وَهَذَا هُوَ الْأَقْرَبُ فِي أَصْلِ الْكَلِمَةِ، وَأَمَّا لَيْسَتْ مُشْتَقَّةً مِنَ التَّوْبَةِ وَالرَّجُوعِ، وَهُوَ شَرَفٌ لَا يَسْتَحِقُّهُ يَهُودٌ. وَإِذَا أَمَعْنَا النَّظَرَ فِي وَرُودِ الْكَلِمَتَيْنِ (الْيَهُودِ) وَ(بَنِي إِسْرَائِيلَ) فِي الْإِسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ فَإِنَّا نَجِدُ بَعْدَ التَّبَعِ أَنَّ كَلِمَةَ (بَنِي إِسْرَائِيلَ) اسْتُخْدِمَتْ فِي الْحَدِيثِ عَنْ تَارِيخِهِمْ يَوْمَ أَنْ كَانُوا أَفْضَلَ الْعَالَمِينَ وَاسْتُخْدِمَتْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَاسْتُخْدِمَتْ فِي الْحَدِيثِ عَنْ مُؤْمِنِيهِمْ؛ وَذَلِكَ لِمَا فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ التَّكْرِيمِ حَيْثُ تَمْنَحُهُمْ صِلَةٌ وَنِسْبًا بِإِسْرَائِيلَ - يَعْقُوبَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١ - رواه البخاري ج: ١ ص: ٤٦٥ برقم ١٢٩٦ وله عدة روايات

٢ - ابن منظور، لسان العرب ٣٣٥/١١، مادة: هـ و د

٣ - الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢١١

٤ - السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخراط، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دمشق، دار القلم ٧٤/٢

٥ - المرجع السابق ٤٠٦/١

٦ - ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ط ١٩٩٧ م، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع ٥٣٢/١

أما كلمة (اليهود) وهي علم جامد غير مشتق كما رجحنا - فاستخدمت في الحديث عن (اليهود) المعاصرين لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم والذين ابتعدوا عن منهج أنبياء بني إسرائيل، ونسبة يهود اليوم إلى بني إسرائيل شرف لا يستحقونه^١، وإنما الأنسب أن يطلق عليهم (يهود) كما كان صحابة النبي صلى الله عليه وسلم يطلقونه عليهم^٢.

ثانياً: تقسيم التاريخ اليهودي:-

من الصعب إعادة بناء المدة الباكرة من تاريخ شعب من الشعوب وتحديد الزمن الذي ظهر فيه على وجه اليقين، وبداية تاريخ العبريين وتحديد تاريخ إبراهيم والآباء مسائل جدلية في المقام الأول، فإذا قال البعض إن هذه المدة من تاريخ العبريين هي تاريخ فلسطين قبل يوشع بن نون، فإنه من المفيد حقاً لو استطعنا تحديد الزمن التاريخي لظهور هؤلاء القوم^٣.

ويقسم التاريخ اليهودي حسب المرويات التوراتية على أساس الترتيب الأيديولوجي

إلى:-

١- عهد الآباء (المرحلة البطيريركية): إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام.

٢- العبودية في مصر .

٣- الخروج من مصر بقيادة موسى عليه السلام (القرن الثالث عشر ق. م) والتهيه في

صحراء سيناء.

٤- غزو أرض كنعان وتدمير المدن الكنعانية مثل عاي واريحا واستيطان الأرض بعد

تقسيمها على أسباط إسرائيل الاثني عشر .

٥- عصر القضاة: من موت يشوع الذي خلف موسى إلى صموئيل النبي الذي مسح

شأؤل أول ملك على إسرائيل .

^١ - سمت دولة اليهود نفسها في عصرنا ب(إسرائيل) لتظهر أمام العالم بأنها وارثة الأنبياء السابقين، وهي دعوى باطلة.

^٢ - للتوسع: الخالدي، د. صلاح، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، الطبعة الأولى ١٩٤١هـ، دمشق، دار القلم

ص٣٣ إلى ص٤٤

^٣ - اليهود في العالم القديم، ص٢٦ نقلاً عن:

- ٦- الملكية الموحدة: شاول - داود - سليمان، تقريباً ١٠٥٠-٩٥٣ ق.م
- ٧- انقسام المملكة: إسرائيل وعاصمتها السامرة في الشمال وتضم عشرة أسباط، ويهوذا في الجنوب وعاصمتها القدس وتضم سبط يهوذا وسبط بنيامين .
- ٨- دمار مملكة إسرائيل على يد الآشوريين (سرجون الثاني) ٧٢٢ ق.م
- ٩- دمار يهوذا على يد نبوخذ نصر ٥٨٦ ق.م والسبي إلى بابل .
- ١٠- العودة من السبي بناء على أمر قورش الفارسي وإعادة بناء الهيكل وتجديد العبادة^١.

- أما التقسيم من حيث المعيار الزمني للبحث الآثاري في فلسطين على أساس الترتيب الزمني = الكرونولوجي ، بدءاً من العصر البرونزي الذي يقسم إلى :-
أ/البرونز المبكر: ويمتد ما بين ٣٣٠٠-٢٠٠٠ ق.م، والذي يمكن وضعه بمرحلة ما قبل التاريخ التوراتي .

ب/ البرونز الوسيط: ويمتد ما بين ٢٠٠٠-١٦٠٠ ق.م، وفيه حسب الباحثين في التاريخ التوراتي، جرت أحداث مرحلة الآباء الأوائل .

ج/البرونز الأخير: ويمتد ما بين ١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م، وهو مع العصر الحديدي الأول تزامن مع مرحلة الخروج من مصر ، ومرحلة الاجتياح الشيعي لبلاد كنعان، والاستيطان العبري (مرحلة القضاة) .

د/الحديدي الأول: ويمتد ما بين ١٠٠٠-٧٠٠ ق.م، ويتزامن مع المملكة المتحدة ، وبداية مرحلة انقسام المملكة المتحدة إلى المملكة الشمالية (مملكة إسرائيل)، والمملكة الجنوبية (مملكة يهوذا)^٢.

فالعصر البرونزي في فلسطين هو العصر الكنعاني، أما عصر الحديد فهو العصر الإسرائيلي، وأحداث سفر القضاة تغطي كامل مدة عصر الحديد الأول، بينما تغطي أحداث مملكتي السامرة ويهوذا كامل مدة عصر الحديد الثاني^٣.

^١ -مقدمة(التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي) كتبها /يوسف كفروني، ص أ وانظر أيضاً: نقد النص التوراتي(د. إسماعيل الصمادي)ص ٩٥، العرب واليهود في التاريخ(د.أحمد سوسة) ص ٥٧٦، ٥٣٨، اليهودية (أحمد شليبي) ص ٨١، ٩٣.

^٢ - الصمادي، د. إسماعيل ناصر، التاريخ التوراتي.. والتاريخ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ م، دمشق، دار علاء الدين ص ٢٠١-٢٠٢

^٣ - السّواح، فراس، تاريخ أورشليم، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣ م، دمشق، دار علاء الدين، ص ٤٣

-وبعد هذا التقسيم أنه هنا أن بني إسرائيل لم تكن لهم أهمية تذكر في أيامهم مثلما أصبح تأثيرهم على تاريخ العالم فيما بعد ، ولم يكونوا جديرين بالإشارة إليهم لو لم يؤثر عنهم ذلك التراث الديني والأدبي المتمثل في (العهد القديم) .

((ولو ابتعدنا قليلاً عن لغة القرآن الكريم المرهفة في حديثها عن بني إسرائيل وأردنا أن نتعرف على أهم مراحل التاريخ السياسي لهم من معطيات غير قرآنية فإننا سنرى عجباً، وسنرى في الوقت نفسه أن الرصد القرآني لدقائق مراحل التاريخ كان إعجازاً إلهياً في المعالجة ونقد مراحل التاريخ .

ذلك أنه من المعروف والمسلم به تاريخياً أن مقومات التجمع السياسي واعتبارات الاستقرار الاجتماعي ، وتأثير العقيدة الدينية في كل هذين العاملين: التجمع السياسي والاستقرار الاجتماعي ، مفتقدة هذه الاعتبارات تلك المقومات تماماً في التاريخ السياسي والديني عند بني إسرائيل))^١ ، فحتى في عصر الممالك الموحدة تحدثنا المصادر اليهودية نفسها عنه بأنه كان عصر صراعات وانقسامات، ولم تظللهم السكينة ولم يعرفوا الاستقرار إلا من خلال الشخصيات العظيمة (طالوت وداود وسليمان) عليهم السلام .

فالتاريخ الحقيقي لبني إسرائيل يبدأ من عهد (طالوت)، ونستطيع القول إن (طالوت) هو أول من طبق النظرية الكاملة للحكم التي جاء بها موسى عليه السلام، ((فأول من قام في بني إسرائيل بعد موسى طالوت))^٢ .

ويصل (غوستاف لوبون) إلى النتيجة نفسها حين يقول: ((إن تاريخ بني إسرائيل لا يبدأ بالحقيقة إلا في عهد ملوكهم، فقد كانوا أقل من أمة حتى زمن شاول.. كانوا مجموعة غير منسجمة تتألف من قبائل بدوية صغيرة، تقوم حياتها على الغزو والجذب وانتهاب القرى الصغيرة حيث تقضي عيشاً رغيدياً بضعة أيام تعود بعدها إلى حياة التيه والبؤس))^٣ .

^١ - طعيمة ، د . صابر ، بنو إسرائيل بين نبأ القرآن وخر العهد القديم، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ، عالم الكتب ص ٢٥٤

^٢ - محمد صديق حسن خان ،لقطة العجلان، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، بيروت ، دار الكتب العلمية ص ٨٧

^٣ - لوبون، د. غوستاف ، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة : عادل زعير ، ط ١٩٧٠م ، القاهرة، مطبعة عيسى

ثالثاً: بيت المقدس: -

مدينة بيت المقدس أسماء كثيرة في التاريخ ، فأقدم اسم لها هو (يبوس) نسبة إلى (اليبوسيين) وهم بطن العرب الأوائل^١.

واليبوسيون هم الذين أطلقوا عليها أيضاً (أورسالم) أي مدينة السلام، وقد ورد هذا الاسم في لوحة من ألواح تل العمارنة، موجودة في المتحف المصري بالقاهرة ، ويرجع تاريخ هذه الألواح إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، أي قبل دخول العبرانيين^٢ إلى فلسطين .

وقد تطورت هذه التسمية الكنعانية والآرامية في اللغة العبرية إلى (أورشليم) وعند الفتح الإسلامي للمدينة المقدسة كان اسمها (إيلياء) أو (إيليا)^٣ ، وورد هذا الاسم في وثيقة الأمان التي أعطاها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسكان المدينة^٤ .

ثم استقر اسم المدينة بعد الفتح الإسلامي على تسمية عربية إسلامية هي بيت المقدس، أو القدس ، أو الأرض المقدسة، أو الأرض المباركة وهي تسميات ثابتة في القرآن والسنة^٥.

^١ - هم فرع من الكنعانيين سكنوا القدس وما حولها [يوشع ١٥: ٨، ٦٣ قضاة ١: ٢١] ويبدو أن اسم ييوس الذي سمي اليبوسيون باسمه هو إحدى أولاد كنعان [تكوين ١٠: ١٥] وقد نشأوا في صميم الجزيرة العربية ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية، واستوطنوا فلسطين، وأغلب الظن أن ذلك حدث حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م

^٢ - العبرانيون: اسم أطلق على إبراهيم عليه السلام ومن كانوا معه عندما هاجروا من العراق إلى الشام عابرين نهر الفرات، وقيل لأن أحد أجداد إبراهيم اسمه (عابر). ولا يصح وصف أبي الأنبياء بأنه عبري فالعرب من ذرية إبراهيم أيضاً وهم ليسوا عبريين، ولا يقبل الدكتور (إسرائيل ولفنسون) هذين الرأيين (لأن كلمة عبري في الواقع لا ترجع إلى شخص بعينه، أو حادثة معينة، وإنما هي ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من مكان إلى آخر) [تاريخ اللغات السامية ٧٧].

^٣ - قال أبو عبيد البكري في "معجم ما استعجم": إيليا مدينة بيت المقدس فيه ثلاث لغات: مد آخره وقصره وحذف الأولى، قال الفرزدق:

لوى ابن أبي الرقراق عينيه بعدما دنا من أعالي إيلياء وغورا [معجم ما استعجم ص ٦٤]

^٤ - (إيلياء) تعني: بيت الله [تاريخ ابن خلدون ٤٢/٢]

^٥ - عبدالعزيز مصطفى ، قبل أن يهدم الأقصى ، طبعة ١٤٠٩هـ، الرياض ، دار طيبة ص ٤٣

رابعاً: سكنى إبراهيم (عليه السلام) بيت المقدس:

لم يطب لإبراهيم عليه السلام المقام بين قومه وأهله المعاندين له المتربصين به، الموصدين قلوبهم وعقولهم عن الهداية فذهب إلى (أور الكلدانيين) مدينة كانت قرب الشاطئ الغربي للفرات ، وهي من بلاد سومر^١.

وذكر ابن إسحاق أنه خرج من (كوثا) من أرض العراق^٢، ثم رحل متوجهاً إلى (حران) شمال سورية بعد أن عبر نهر الفرات^٣، ثم تابع سيره مرتحلاً إلى أرض كنعان^٤ وبرفقة زوجته وابن أخيه (لوط) عليه السلام، وعاش هناك بين شعبيها وأهلها سالماً مطمئناً، وكان يتنقل ما بين مدينة شكيم (نابلس) ومدينة (بيت أيل)^٥، ولكن إقامته لم تطل في أرض كنعان بسبب القحط الذي أصاب البلاد ومراعيها ، فتوجه مع زوجته سارة وابن أخيه لوط إلى مصر، وكان ذلك في عهد ملوك الرعاة وهم من (العماليق) ويسميه الرومان (الهكسوس)، ثم عاد مرة أخرى إلى فلسطين بعد أن طرده ملك مصر بعد القصة المعروفة مع زوجته سارة وأعطاه الكثير من الأنعام والأموال، وجارية تسمى (هاجر)، ثم تفرق إبراهيم ولوط عليهما السلام في المكان، فذهب لوط إلى السهول الواقعة على امتداد الضفة الشرقية لنهر الأردن والبحر الميت في حين ذهب إبراهيم عليه السلام إلى أرض كنعان الواقعة غربي نهر الأردن (حبرون)^٦ جنوب أورشليم والمعروفة اليوم باسم (الخليل)^٧ في فلسطين، وقبل أن يستقر إبراهيم عليه السلام بحبرون (نزل السبع من أرض فلسطين وهي برية الشام... فاحتفر به بئراً واتخذ به مسجداً... ثم خرج

^١ - ول ديورانت، قصة الحضارة ٣٢٤/٢

^٢ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ٤٦

^٣ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ٤٦ - تاريخ ابن خلدون ٤١/٢

^٤ - كان يسكنها (الفلسطينيون) وكان لهم فيها مدناً حصينة منها غزة، وأشقلون، وأشدود، وعقرون، وقد أخذت البلاد اسمها فيما بعد من اسمها.

^٥ - "بيت أيل" تعبير عبري معناه (بيت الرب) وهي مدينة كنعانية قديمة كانت تعرف باسم (لوز) على بعد ستة عشر كيلومتراً من القدس ونابلس [الموسوعة اليهودية والصهيونية، د/المسيري ٩٢/٤]

^٦ - حبرون في اللغة العبرية هي بمعنى (الخليل) العربية [الموسوعة اليهودية والصهيونية، د/المسيري ٩٥/٤]

^٧ - ابن خلدون ٤٥/٢، الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ٦١

منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإبتياء ، ببلد يقال له قَط، أو قِط^١ .
وذكر ابن كثير أنه نزل أرض التيمن وهي الأرض المقدسة^٢ .

ويعتقد اليهود أن استقرار إبراهيم بفلسطين كان حوالي ٢٢٠٠ ق.م أي قبل موسى بنحو ألف عام أو أكثر^٣ ، ومع ذلك أيضاً يبقى السؤال هل دخل إبراهيم عليه السلام بيت المقدس ؟ لقد ذكر الله عزوجل في كتابه الكريم عن الأرض التي هاجر إليها بقوله ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١] ، وجمهور المفسرين أنها ليست خاصة ببيت المقدس بل هي عامة بأرض الشام ، وإلى هذا ذهب أبي بن كعب وقتادة ((وكان يقال للشام أعقاب دار الهجرة وما نقص من الأرض يزيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر وبها يتزل عيسى بن مريم عليه السلام ، ويهلك المسيح الدجال))^٤ .

كل ما سبق يدلنا على أن إبراهيم عليه السلام لم يسكن بيت المقدس ، لكن عندنا نص صريح من النبي صلى الله عليه وسلم يدل على أن باني المسجد الأقصى أولاً هو إبراهيم عليه السلام ففي الصحيحين من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: {قلت يارسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام ، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة^٥}، فهذا الحديث يدل على أن المسجد الأقصى^٦ قد بناه إبراهيم عليه السلام لأنه حدد بمدة هي من حياة إبراهيم عليه السلام ، وقد قرن ذكره بذكر المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم عليه السلام أيضاً، وهذا مما أهمل أهل الكتاب ذكره ، وهو مما خص الله نبينا صلى الله عليه

^١ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ١/١٥٠، وانظر: الثعلبي ، قصص الأنبياء، ص ٤٧

^٢ - ابن كثير ، البداية والنهاية ١/١٤٤

^٣ - ول ديورانت ، قصة الحضارة ٢/٣٢٤

^٤ - ابن كثير ، التفسير ٣/١٨٤، الثعلبي ، قصص الأنبياء، ص ٤٧

^٥ - أخرجه أحمد (٤٦٩/٦) كتاب أحاديث الأنبياء رقم (٣٣٦٦)، وأخرجه مسلم (٣٧٠/١) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم (٢٠١) واللفظ له .

^٦ - قال ابن حجر : (قيل له الأقصى لبعده المسافة بينه وبين الكعبة ، وقيل : لأنه لم يكن وراءه محل عبادة، وقيل : لبعده عن

الأقذار والخبائث) [فتح الباري ٦/٤٧٠]

وسلم بمعرفته^١. وقد أطل ابن حجر العسقلاني في ذكر الخلاف عند شرحه للحديث وخالصة ما ذكره من أقوال:-

١/ أن يكون بعض الأنبياء بنى بيت المقدس وإبراهيم عليه السلام بنى الكعبة.

٢/ أن يكون إبراهيم عليه السلام هو باني الاثنين .

٣/ أن يكون إبراهيم عليه السلام بنى الكعبة، وسليمان بنى بيت المقدس .

٤/ أن آدم عليه السلام هو الذي أسس كلا المسجدين .

وقد رجح هذا القول الرابع وذكر له بعض الأدلة من الآثار^٢.

قال ابن تيمية: ((المسجد الأقصى كان في عهد إبراهيم عليه السلام، لكن سليمان عليه السلام بناه بناء عظيمًا))^٣.

وقال ابن كثير: ((إبراهيم عليه السلام لما قدم الشام أوحى الله إليه إني جاعل هذه الأرض خلفك من بعدك، فابتنى إبراهيم مذبحاً شكراً لله على هذه النعمة، وضرب قبة شرقي بيت المقدس))^٤.

قال ابن عاشور: ((إبراهيم عليه السلام لما سكن أرض كنعان نصب خيمة في الجبل شرقي بيت إيل، وبني هناك مذبحاً للرب وأهل الكتاب يطلقون المذبح على المسجد لأنهم يذبحون القرابين في معابدهم، ومسجد إبراهيم هذا هو الموضع الذي توخى داود أن يضع عليه الخيمة وأن يبني عليها محرابه أو أوحى إليه بذلك، وهو الذي أوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد أو الهيكل))، ثم قال: ((وقد ذكر مؤرخو العبرانيين ومنهم "يوسيفوس" أن الجبل الذي سكنه إبراهيم بأرض كنعان اسمه {نابو} وهو الجبل الذي ابتنى عليه سليمان الهيكل فيما بعد وهو الذي به الصخرة))^٥.

^١ - انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٥/ص ١٤

^٢ - انظر: ابن حجر، فتح الباري ٦/٤٧٠-٤٧١

^٣ - ابن تيمية، مجموع الفتاوى ١٧/٣٥١

^٤ - ابن كثير، البداية والنهاية ١/١٤٢

^٥ - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ١٥، ص ١٦، ١٧ ولعل الأولى أن يسمى ما بناه سليمان بالمسجد، فهذا هو لاسم الشرعي، فضلاً عما يزعمه اليهود من وجود هيكل تحت المسجد الأقصى، ومثل هذا الكلام يخدم قضيتهم. [جمال عبدالهادي محمد مسعود، ووفاء محمد رفعت جمعة، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ عن إبراهيم عليه السلام وذريته، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، الرياض، دار طيبة، ص ٢٢٢].

فلا مانع إذاً من ناحية تاريخية أن يكون إبراهيم عليه السلام مستقراً بحبرون (الخليل) ويكون مكان عبادته ومسجده ببيت المقدس خصوصاً مع قرب المسافة بين (حبرون) و(أورشليم) ^١.

((وتوفي إبراهيم عليه السلام ودفن (ببلد حبرون) وهو البلد المعروف بالخليل اليوم ، وهذا تلقي بالتواتر أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبره بالمربعة ^٢ [أي الخليل] تحقيقاً، فأما تعيينه منها فليس فيه خبر عن معصوم فينبغي أن تراعى تلك الحلة وأن تحترم احترام مثلها وأن تبجل وأن تجلّ أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء عليهم السلام تحتها)) ^٣.

وهكذا عاش أيضاً إسحاق عليه السلام في منطقة والده، ولما جاء يعقوب عليه السلام، كان أولاده يتنقلون بين فلسطين ومصر طلباً للتجارة والطعام والغذاء ، كما كانوا أصحاب ماشية وأغنام .

ويبدو أنهم كانوا يقيمون في جنوب فلسطين في بئر السبع وما حولها ، والدليل على هذا أنهم لما لحقوا بيوسف عليه السلام في مصر ، وقرر أنهم جاءوا من البدو: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف: ١٠٠] فلو كانوا يقيمون في مدن فلسطين المعروفة مثل الخليل أو القدس أو نابلس لما قال "وجاء بكم من البدو" ^٤.

ويذكر ابن كثير وابن خلدون أن يعقوب عليه السلام لما عاد من رحلته التي أمرته أمه بما: ((مرّ على أورشليم . . فضرب هنالك فسطاطه وابتنى ثم مذبحاً فسماه {إيل إله إسرائيل} وأمر الله ببنائه ليستعلن له فيه، وهو بيت المقدس اليوم الذي جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التي أعلمها بوضع الدهن عليها)) ^٥.

^١ - تقع حبرون على مسافة تسعة عشر ميلاً من (القدس) .

^٢ - كان الكنعانيون قديماً يسمون الخليل (قرية أربع). [المسيري ، د. عبدالوهاب ، الموسوعة اليهودية والصهيونية] .

^٣ - ابن كثير ، البداية والنهاية ١/١٦٤

^٤ - الخالدي ، د. صلاح عبدالفتاح ، الأعلام الأعجمية في القرآن، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ، دمشق، دار القلم، ص ٦٠

^٥ - ابن كثير ، البداية والنهاية [١٨٤/١] ابن خلدون [٤٦/٢]

وينقل الثعلبي بأسانيدَه عن الجبّ الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام بأنه كان ((في الأردن بين مدين وبين مصر ، وقيل بين طبرية والقدس على قارعة الطريق في واد من أوديتها على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب))^١ . وقد دفن يعقوب عليه السلام بجوار والديه بالخليل بعد أن أوصى يوسف عليه السلام بذلك^٢ .

المبحث الأول: خروج بني إسرائيل من مصر

أولاً: تاريخ الخروج

اختلف العلماء والباحثون اختلافاً كثيراً في تحديد زمن خروج موسى عليه السلام وبني إسرائيل من مصر ، وظهرت في هذا الموضوع دراسات متعددة لم تصل غالبيتها إلى نتيجة محددة بشأن التحديد التاريخي للسنة التي تم فيها الخروج ، والتي إذا توصلنا إلى معرفتها نكون قد حددنا بطريقة قاطعة جواب السؤال الذي حير العلماء وغير العلماء من عامة الناس وهو: من يكون فرعون موسى عليه السلام من بين فراعنة مصر؟ ويرجع سبب ذلك الخلاف الكبير إلى أن حادثة الخروج وغرق فرعون وجنوده وهم يلاحقون موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل عند خروجهم من مصر لم يرد بشأنها نص صريح أو دليل تاريخي مادي ، على الرغم من ورود هذه الأحداث في القرآن الكريم في نصوص كثيرة، ووروده أيضاً في العهد القديم بصورة تفصيلية دقيقة، يقول هاستنجز: ((إن من أهم أسباب الفشل في تحديد العصر الحقيقي لكل نبي هو عدم تصريح المصادر الأصلية باسم الملك المعاصر، مع خلو قصة النبي من مفتاح يحدد تاريخها))^٣ . وقد اجتهد العلماء والمؤرخون في الغرب والشرق على السواء في بحث هذه القضية محاولين الوصول إلى حل لغز فرعون موسى ومعرفة شخصيته من بين فراعنة مصر المدونين في القوائم الأثرية المعروفة، وكان الاختلاف واضحاً جلياً بين من اجتهدوا في هذه القضية بحيث يمكن القول أنه من الصعب الوصول إلى حل نهائي لهذه المشكلة .

^١ - الثعلبي ، قصص الأنبياء ص ٦٧

^٢ - المصدر السابق ص ٨٢، تاريخ ابن خلدون [٤٧/٢]

^٣ - قاموس الكتاب المقدس ٧٧٠ / ٢

ونحن بدورنا هنا سنحاول - بقدر الاستطاعة- سرد الآراء المختلفة، ونجتهد بقدر الطاقة للوصول إلى رأي يقترب من الحقيقة موقنين بأن تلك الحقيقة لا يعلمها إلا علام الغيوب، وما نقوم به ما هو إلا محاولة قد تخطئ وقد تصيب ، والله المستعان.

ولاشك أن الذي يهمنا في هذا البحث أن نعرف تاريخ الخروج حتى نصل إلى حقيقة بداية عهد(طالوت)، والمدة التي مرت بني إسرائيل بعد عهد موسى(عليه السلام) وحتى ظهور الحكم الملكي في عهد(طالوت).

وإذا نظرنا إلى مسيرة التاريخ منذ دخول بني إسرائيل إلى أرض مصر وذلك في أيام حكم (يوسف)عليه السلام في عهد حكم الهكسوس^١ الذي بدأ عام ١٧٣٠ ق.م، وكان إخوته قد أصابهم الجذب في فلسطين فانتقلوا للسكنى في مصر كما ورد ذلك تفصيلاً في سورة (يوسف)بالقرآن الكريم ، وبعد وفاة يوسف عليه السلام في مصر عام ١٦٣٥ ق.م عاش بنو إسرائيل أعزّة في ظل حكم الهكسوس حتى تم طرد الهكسوس على يد القائد العسكري أمحوس، الذي حكم فيما بين ١٥٧٠ و١٥٤٥ ق.م وأسس الأسرة الثامنة عشر ، فاتحة المملكة الحديثة في التاريخ المصري التي دامت خمسة قرون(حتى عام ١٠٧٨ ق.م)^٢

ولا نريد أن نقف كثيراً على ما ذكره بعض مؤرخي المسلمين في حقيقة اسم فرعون موسى ، فقد ذكر بعضهم أسماء بعيدة كل البعد لأنها أسماء عربية لم تكن معلومة لأولئك القوم فتارة يسمى: ((الوليد ابن مصعب بن أبي أهون بن الهلوان، ويقال أنه: قابوس بن مصعب بن معاوية ابن نمير بن السلواس بن فاران))^٣، وهي أسماء ربما تكون مأخوذة من اجتهادات بعض مسلمي أهل الكتاب في العصور الأولى للإسلام، ولا نستطيع أن نحدد المدة التي مكثها بنو إسرائيل في مصر إلا إذا علمنا بالضبط من هو فرعون الخروج؟ ولذلك سنبدأ حديثنا بذكر أهم الآراء في فرعون موسى بعيداً عن الأقوال التي شطحت مثل قول (فليكو فسكي) الذي زعم أن الخروج حدث في زمن غارق في القدم حسب نظريته في كتابه (عصور في فوضى) فهو يعتقد أن الإسرائيليين خرجوا من مصر قبل

^١ - ترجم المؤرخ اليهودي (يوسيفوس)، ٩٥م لفظة (الهكسوس)،معنى الأسرى الرعاة.[الأردن وفلسطين،د/عدنان الحديدي، ص٤١]،والصحيح ترجمتها بمعنى:الملك الرعاة

^٢ - السواح ، فراس ، آرام دمشق وإسرائيل ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، دمشق ، دار علاء الدين، ص ٥٥

^٣ - ابن خلدون ٣٣/٢،وعزا هذه الأقوال للجرجاني

دخول الهكسوس، كما أعطاهم دور تحرير مصر من الهكسوس من خلال حملة قادها الملك شاول^١. وهذا قول بعيد لأن لقب فرعون الذي يستخدمه النص القرآني والتوراتي لم يستخدم في مصر إلا بعد طرد الهكسوس وتأسيس الأسرة الثامنة عشر، وكان أول من تلقب به تحتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م)، وكلمة (فرعون) تلفظ بالمصرية (برعو) وتعني: البيت العظيم^٢.

والآن لنبدأ في ذكر أهم النظريات والآراء في هذا الموضوع:-

الرأي الأول: أحمس الأول هو فرعون موسى:-

يزعم المؤرخ اليهودي يوسيفوس [يوسف] بن متى، الذي عاش في القرن الأول الميلادي أن (مانيتو)^٣ قد ذكر أن العابيرو - أوالخاييرو - هم أنفسهم العبرانيون وهم بنو إسرائيل وهم أيضاً الهكسوس الذين حكموا مصرًا، وأن طرد الهكسوس من مصر نحو سنة ١٥٦٧ ق.م كان بواسطة أحمس الأول [١٥٧٠-١٥٤٦ ق.م] وهو نفسه خروج بني إسرائيل من مصر، وبالآتي فإن أحمس الأول هو فرعون موسى!

وواضح من هذا القول أن الهدف سياسي من وراء ذلك، إذ هو يرمي إلى القول بأن (الهكسوس) - الذين هم بنو إسرائيل - قد حكموا مصر مدة طويلة من الزمن، ومن ثم يحق لليهود المطالبة بأن لهم حقوقاً تاريخية في أجزاء من أرض مصر، وقد تبني هذا الرأي عدد من المؤرخين جلّهم من اليهود أو المؤيدين لهم.

وهذا ينافي الثابت تاريخياً من دخول بني إسرائيل إلى مصر وقت حكم الهكسوس، وينافي ما ثبت في القرآن من أن يوسف عليه السلام أصبح وزيراً للملك في تلك المدة وكانت لهم مكانة، وهذا يعارض أيضاً ما ثبت في القرآن بأنهم كانوا مستعبدين أيام حكم الفراعنة، فإذا كانوا قد طردوا فمن هم الذين استعبدوا أيام حكم الفرعون؟

الرأي الثاني: تحتمس الثاني هو فرعون موسى:-

^١ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١٠٦

^٢ - فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ٥٤

^٣ - المؤرخ المصري الذي كتب تاريخ مصر القدم حوالي عام ٢٨٠ ق.م ولكن مع الأسف احترق كتابه في حريق مكتبة الإسكندرية عام ٤٨ ق.م

وهذا الرأي قال به (J.D.MECCELLI) [١٩٦٠م] الذي ادعى أنه توصل إلى زمن الخروج بهامش تقريبي يصل إلى يوم ٩ إبريل ١٤٩٥ ق.م وهذا من خلال حساب التقويمات، وكان تحتمس الثاني قد حكم في المدة [١٥٢٥-١٤٩٠ ق.م]، ومما أورده تأييداً لنظريته أن مومياء تحتمس الثاني مكتوب عليها وصف لأورام جلدية ، وبما أن واحداً من ضربات مصر التي تذكرها التوراة هي طفح جلدي فهذا دليل مادي على أن تحتمس الثاني هو فرعون الخروج!

ولا شك أن هذا الدليل غريب كما وصفه (موريس بوكاي) لأنه لم يأخذ من التوراة إلا جزءاً صغيراً دون النظر إلى بقية الأوصاف^١. أما الأورام الجلدية فهي موجودة حتى في ابنه (تحتمس الثالث) وحفيده (أمنحتب الثاني) في المومياءات الموجودة في متحف القاهرة^٢. وهي في حقيقتها أمراض وراثية ليفية معروفة طبيياً.

الرأي الثالث:- تحتمس الثالث هو فرعون الخروج:

معتقدوا هذه الفرضية يعتمدون على فقرة في التوراة تقول وكان في السنة ال ٤٨٠ لخروج بني إسرائيل من مصر في السنة الرابعة لملك سليمان على بني إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني ، أنه بنى بيت الرب [ملوك أول ١: ٦] ولما كان حكم سليمان قد بدأ عام (٩٧٠ ق.م) فالعام الرابع هو (٩٦٦ ق.م) فإذا أضفنا إليه ال ٤٨٠ سنة لعاد ذلك بنا إلى عام ١٤٤٦ ق.م أي في أواخر حكم تحتمس الثالث (١٤٦٨-١٤٣٦ ق.م) والحقيقة أن مدة ال ٤٨٠ عاماً هذه قد أثارت جدلاً كثيراً وسببت بلبلة في حساب الأزمنة، وهي تختلف في بعض ترجمات التوراة عما جاء في ترجمات أخرى، فمنهم من يجعلها ٤٤٠ سنة ومنهم من يزيد ها ٥٨٠ عاماً!

وعلى هذا يرى كثيرون أن ذلك كان تخميناً من أحد كتبة التوراة، والذي افترض وجود اثني عشر جيلاً يقع بين الخروج وبين بناء هيكل سليمان، وافترض واضح هذا الرقم لكل جيل أربعين عاماً فيكون $٤٠ \times ١٢ = ٤٨٠$ عاماً.

^١ - دراسة الكتب المقدسة. ص ٢٥٩

^٢ - رأيت ذلك بنفسى عند زيارتي للمتحف .

ولو افترضنا لكل جيل ٢٥ عاماً ، بافتراض أن الأبناء سينجبون في سن الخامسة والعشرين وهو افتراض معقول لكان $١٢ \times ٢٥ = ٣٠٠$ وهذا يقودنا إلى تاريخ الخروج الذي سنرجحه ١٢٧٠ ق.م أثناء حكم رعمسيس الثاني.

ومعتقدوا هذا الرأي يرون أن موسى انتشلته من الماء الملكة (حتشبسوت) عام ١٥٢٧ ق.م وأنه تربى في حاشيتها وبلاطها ، ثم أنها حكمت في المدة (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق.م) حتى كبر (تحتمس الثالث)، ولما تولى (تحتمس الثالث) العرش (١٤٦٩ - ١٤٣٦ ق.م)، كان معروفاً عنه عداوته لحتشبسوت فخشي موسى منه وفرّ من مصر ثم عاد وكان الخروج ١٤٤٧ ق.م^١.

- وهذا الرأي يتعارض مع بعض نصوص القرآن التي تبين أن فرار موسى من مصر كان بسبب قتله للقبطي.

- كما أن حكم تحتمس وسيطرته على جهات فلسطين كانت قوية في عهده وعهد من بعده (أمنحتب الثاني ٣٢ عام) و(تحتمس الرابع ٨ أعوام) و (أمنحتب الثالث ٣٧ عاماً) أي لمدة ٦٨ عاماً، فكيف استطاع بنو إسرائيل أن يدخلوا إلى الأرض المقدسة بعد مدة التيه وهي تحت سيطرة المصريين؟^٢

- كما أن تحتمس الثالث لم يدع الألوهية، وفرعون الوارد في القرآن هو الذي قال: "أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى" [النازعات : ٢٤]، أما تحتمس الثالث فالمنقول عنه أنه كان يعبد الإله (آمون)^٣.

الرأي الرابع: أخناتون هو نفسه موسى: -

وهي فرضية عجيبة إذ يقيسون بينهما بدعوى أن أخناتون كان يدعو للتوحيد وموسى كذلك يدعو للتوحيد، فهما شخص واحد إذاً!! وقائل هذا يزعم أن (موسى) كان مصرياً أصلاً، بل ويخالف القرآن حين يزعم أن الملقى له في النهر هي (تي) زوجة فرعون (أمنحتب الثالث) لما خشيت عليه من القتل والتقطه بنو إسرائيل ليتربي لديهم وينشأ

^١ - ول ديورانت ، قصة الحضارة، نقلاً عن الأستاذ - جارستانج عضو بعثة مارستون التابعة لجامعة (ليفربول). ورأيه أيضاً قريب من رأي (م.أونجر) في كتابه (قاموس الكتاب المقدس)، ويوافقهم أيضاً (هاترجيك) [د.إسماعيل الصمادي ، التاريخ التوراتي . ص ١٠٨]

^٢ - انظر : فراس السواح ، آرام دمشق وإسرائيل ، ص ٧٣

^٣ - كما في قصيدته المشهورة.

بينهم فيكسب منهم جانب التوحيد، وبعد وفاة (أمنحتب الثالث) تتدخل أمه وترجعه للقصر وتزوجه من (نفرتي) وترفعه ملكاً على العرش، فيدعو للتوحيد ويحدث بينه وبين (توت عنخ آمون) الصراع الطويل الذي جعله يلجأ لبني إسرائيل ثم تحدث لهم ملحمة الخروج!

- ولا شك أن هذا الرأي عكس ما أورده القرآن تماماً.

الرأي الخامس: توت عنخ آمون هو فرعون موسى:-

القائل بهذا الرأي هو اليهودي (سيجموند فرويد) الذي زعم أيضاً أن موسى عليه السلام مصري وليس من بني إسرائيل، وأن الديانة الموسوية مستقاة من عقيدة أخناتون! وأن موسى عليه السلام استغل فرصة الضعف في عهد (توت عنخ آمون) وخرج ببني إسرائيل إلى أرض فلسطين بسلام وبلا مطاردة، ويؤيده في هذه النظرية (جون ويلسون)، ويحدد آرثر ويجال تاريخ الخروج هذا بعام ١٣٤٦ ق.م^١

وهذه النظرية أيضاً تتجاهل حقائق قرآنية وتاريخية كثيرة منها:-

١. إن موسى من بني إسرائيل وليس مصرياً.
٢. إنه تربى في قصر فرعون الجرم، وليس في قصر (أخناتون).
٣. تجاهل التعذيب والاضطهاد الذي نزل ببني إسرائيل.
٤. إن التوحيد كان عقيدة بني إسرائيل أخذاً عن يوسف و يعقوب واسحاق وإبراهيم عليهم السلام، أما دعوة (أخناتون) المصرية فقد كانت ردة عن التوحيد الصحيح، لأنها تجسد الإله في قرص الشمس.
٥. خروج بني إسرائيل لم يتم بسلام بل كان ذلك بمطاردة من فرعون مصر.
٦. إن الله أهلك فرعون مصر في المطاردة بالغرق، أما (توت عنخ آمون) فقد أثبت الفحص الطبي لجثته أنه مات مقتولاً بضربة على الرأس.

- مع العلم أن (فرويد) قد تراجع عن هذه النظرية وقال: أنه من المحتمل أن موسى

قد عاش في عصر لاحق لأخناتون وتوت عنخ آمون!

^١ - سليم حسن، مصر القديمة، طبعة ٢٠٠١م، القاهرة، مكتبة الأسرة ١٤٦/٧.

الرأي السادس: رعمسيس الثاني هو فرعون التسخير

والاستعباد، ومرنبتاح هو فرعون الخروج: -

وأصحاب هذا الرأي يعتقدون أن خروج بني إسرائيل كان خروجاً سليماً ليس فيه مطاردة، وأن (مرنبتاح) [١٢٢٤ - ١٢١٥ ق.م] تبعهم بعد أن وصلوا فعلاً إلى فلسطين وأباد بني إسرائيل هناك^١.

ويعتمد أصحاب هذه النظرية على نقاط عدة أهمها: -

١. ما ورد في التوراة (وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر قد مات) [خروج

٢:٢٣] أي رعمسيس الثاني قد مات وتولى بعده ابنه مرنبتاح.

■ ويرد على هذا أنه قد جاء في نفس السفر (وقال الرب لموسى في مديان، اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك) [خروج ١٩:٤] فالمقصود هم أهل القتل المصري، وليس الفرعون (رعمسيس الثاني)، إذ لما مات المطالبين بالتأثر لم يكن لفرعون دافع قوي للانتقام، ولا يخفى كذلك التحريفات الكثيرة الواردة بالتوراة على أيدي المؤرخين، خصوصاً وأن الكاتب سمي فرعون (ملكاً) ولم يسمه باللقب المشهور في التوراة (فرعون).

٢. قالوا أن (مرنبتاح) هو القائل ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ [الشعراء: ١٨] مشيراً

بذلك إلى والده رعمسيس الثاني الذي ربي موسى، ولم يقل القرآن: ألم أربك عندي...؟ ولو قصد تربيته له لاختلفت عبارة القرآن بما ذكرناه.

■ ويرد على ذلك بالسؤال: ولم لا يكون رعمسيس الثاني نفسه هو قائلها؟ ويكون

هو الذي يمن على موسى بحق الرعاية والتربية، كما أن الأكثر إيلاماً للنفس والأدعى إلى الحزن هو أن يرى من كان يربيه ويرجو المنفعة من ورائه ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه﴾ [القصص: ٩] هو نفسه الذي كان سبباً في هلاكه، فكأنه التقطه ليكون له عدواً وحزناً، كما قرر القرآن الكريم ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨] وبالرغم من كل أسباب

^١ - أول من قال بذلك ثلاثة باحثين هم: بتري وماير و نافيل [عادل طه يونس، حياة الأنبياء بين حقائق التاريخ والمكتشفات الأثرية الجديدة، مكتبة القرآن، ص ٥١]

الحيطة والحذر التي اتخذها (رعمسيس الثاني) دفعاً للنبوءة فقد تحققت النبوءة وكان هلاك فرعون وجنوده ﴿ وَتُرِي فرعونَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦] وهذا أبلغ في العبرة من أن يكون الذي سخر وتجبر قد مات في سيره ميتة طبيعية، في حين يكون الغرق من نصيب ابنه، وخاصة أن مدة حكم رعمسيس الثاني طويلة تسمح بوقوع كل الأحداث في عهده، وتكون الآية بلفظ البحر لجنسه تمثيلاً به لأفعاله ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢] وأقرأ أيضاً هذه الآيات: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ﴿ ١٥ ﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿ ١٦ ﴾ اذْهَبْ إِلَى فرعونَ إِنَّهُ طَغَى ﴿ ١٧ ﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿ ١٨ ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿ ١٩ ﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿ ٢٠ ﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿ ٢١ ﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿ ٢٢ ﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿ ٢٣ ﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿ ٢٤ ﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿ ٢٥ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿ ٢٦ ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦] فالضمير في (فأخذه) عائد إلى فرعون الذي طغى فهو فرعون واحد من أول الأمر إلى آخره.

٣. السند الأساسي لهذه النظرية هو اللوح المسمى (لوح مرنتاح) أو (لوح إسرائيل) وهو تحفة أدبية أكثر من أن يكون وثيقة تاريخية، لأن الشاعر أراد بها تمجيد (مرنتاح) وذكر قوته وبطولاته ونشره للعدل والسلام^٢، وما يهمننا في القصيدة هو قوله: [وإسرائيل خربت وليس لها بذر] وهي المرة الأولى والوحيدة التي يرد فيها ذكر بني إسرائيل في الآثار المصرية، إن صح أن المذكور هو إسرائيل، إذ يجادل في ذلك بعض الباحثين بأن المذكور بالترجمة الحرفية هو (يسريل) وليس معناها (إسرائيل)، وحتى الذين قالوا أنها إسرائيل بعضهم قال المقصود بهم (شعب إسرائيل) ومنهم من قال (أرض إسرائيل).

■ أما اللذين قالوا (أرض إسرائيل) فقالوا قد حدث الغزو لبني إسرائيل وهم يسكنون في أرض فلسطين.

^١ - هو عبارة عن لوحة تذكارية منقوشة على الجرانيت الأسود مكتوب عليها قصيدة تسجل انتصارات (مرنتاح) ، وقد كتبت في السنة الخامسة من حكمه، وهي موجودة بالكرنك.

^٢ - لقراءة القصيدة كاملة انظر: (سليم حسن، مصر القديمة، ٩٦/٧)

■ ومن قال بأن النص يفيد (شعب إسرائيل) أنزل الواقعة على تتبع (مرنبتاح) لهم خارج مصر واستئصال ذكورهم، واستبقاء إناثهم، وهذا يدل على أنهم دخلوا فلسطين قبل عهده١.

واختلفوا كذلك في معنى (ليس لها بذر) فبعض الباحثين يقول أن معناها: أرضهم ليس لها غلة ولا حصاد، ومعظم الباحثين يرى أنه استئصال وإهلاك للذرية٢.

■ ويرد على هذا أنه يتنافى مع الحقيقة المؤكدة وهي أن فرعون الخروج غرق أثناء مطاردته لبني إسرائيل، ويلزم منه أن ما ذكر في اللوحة إنما هو محمول على مبالغة من مبالغات الفراعنة التي اشتهروا بها عند تسجيل أعمالهم.

ثم كيف يكون قد تتبعهم بعد الخروج وهم كانوا في تلك السنين في سنوات التيه عقب خروجهم مباشرة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦] وحكم (مرنبتاح) لم يتجاوز عشر سنين!

بعض العلماء الذين يتمسكون بنظرية (مرنبتاح فرعون الخروج) يسقطون سنوات التيه من حسابهم وينكرونها، وهي حقيقة ثابتة لورودها بالقرآن الكريم، وحتى في (التوراة) أيضاً فلا مجال لإنكارها.

وما دام الأمر كذلك فكيف يذكر اللوح أن (مرنبتاح) أباد بذرة إسرائيل في حين أنهم كانوا لا يزالون في التيه في سيناء؟
والجواب:

أنه ذهب إلى فلسطين وبحث عن بني إسرائيل لينتقم لأبيه فلم يجدهم فاعتقد أنهم هلكوا ونسب هلاكهم إلى نفسه، أو أنه نوع من الافتخار الكاذب بعد غرق أبيه فادعى أنه أبادهم.

● وعلى الرغم من كل ذلك فإن هذه النظرية - مرنبتاح هو فرعون الخروج - تلقى قبولاً واسعاً لدى علماء الآثار، وبلغ التعصب لها أن أنكر بعض الباحثين المسلمين موت فرعون بالغرق واحتجوا بالآية ﴿فاليوم ننجيك ببدنك﴾ [يونس: ٩٢] وزعموا أن

١ - انظر: د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١١٠

٢ - د. سليم حسن، مصر القديمة ١١١/٧

النجاة كانت للروح والبدن معاً^١ وهذا منتهى التعسف في تفسير القرآن، إذ أن آيات القرآن تؤكد بصراحة ووضوح غرق الفرعون هو وجنوده، ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ [النازعات: ٢٥].

الرأي السابع: رعمسيس الثاني هو فرعون موسى:-

وأصحاب هذا الرأي كثيرون منهم أولبرايت - إيسفلت - روكسي - أونجر - الأب ديفو، وهذا القول هو أقرب الأقوال، وإن كان البعض اعترض عليه بأمر منها:-

- إن (رعمسيس الثاني) كان يؤمن بأربعة آلهة هم: (أمون ورع وبتاح وسوتخ) وسمى فرق جيشه الأربع في معركة قادش بأسماء هذه الآلهة، ويرد على هذه النقطة بأن هذه المعركة كانت في السنة الخامسة من حكمه في حين أن عودة موسى لمصر كانت في السنة ٦٢ من الحكم، أي بعد المعركة بـ ٥٧ عاماً، وهي مدة كفيلاً بنشوء شعور التعاظم خصوصاً مع التمجيد والمديح والحكم المطلق حتى وطن نفسه إلهاً مخلداً، كما سيأتي من أنه بحسب الثابت المنقول عن كثير من اللوحات والخطابات من أنه يعد نفسه أكبر الآلهة الموجودة.

- من الاعتراضات التي أثرت ضد هذه النظرية ما هو معروف من أن (رعمسيس الثاني) كان له ما لا يقل عن مائة ولد ما بين ذكر وأنثى، إذ لم يستطيعوا التوفيق بين ذلك وبين ما ورد في القرآن الكريم من أن فرعون موسى لم يكن له ولد فاضطر إلى تبني موسى ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ [القصص: ٩] وفهموا من هذه الآية أن فرعون موسى كان عقيماً، والصحيح أنه كان حرماناً مؤقتاً من الولد بوفاة أبنائه وهم صغار حتى تنفذ إرادة الله في تبني الفرعون لموسى، وقد ثبت أن (رعمسيس الثاني) - في العشر سنوات الأولى بعد زواجه - كان أبنائه يموتون وهم رضع، ثم بعد ذلك زالت هذه "اللعنة" وعاش أبنائه حتى بلغوا أكثر من مائة.

وهذا الرأي الأخير هو الرأي الذي نميل إليه من أن (رعمسيس الثاني) هو فرعون موسى وهو فرعون التسخير والاستعباد لبني إسرائيل، وهو فرعون الخروج أيضاً،

^١ - د. سليم حسن، مصر القديمة ١٣٥/٧

والأدلة على ذلك كثيرة ، وهي مأخوذة كلها من وصف القرآن الكريم ومطابقتها لكثير من النقاط في عهد (رعمسيس الثاني)، وأنا هنا أستعرض أهم الأدلة بشكل سريع ١:-

١. أنه الفرعون الوحيد الذي ادعى الألوهية ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]

﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ [القصص: ٣٨] وقد أثبتت الوثائق ذلك، بل وحتى الرسوم والمنحوتات، فكان يضع نفسه في المنحوتات في مصاف الآلهة، ومن تلك الوثائق ما يدل على أنه يسجل بنوته للآلهة (إيزيس) وأن الآلهة تنازلت عن صفاتها ليكون هو الإله الأعظم، ومن ذلك قوله ((لقد كنت ريجا فوق الناس، فأهل الجنوب وأهل الشمال كانوا تحت نعلي...))، وكتب تحت أحد رسومه (الإله الكبير رعمسيس الثاني).

وكان من ألقابه: (أعورع) أي وارث الإله (رع)، ثم تطور لقبه إلى (وسرماعت رع ستين رع) ومعناه: رع قوي العدالة ومختار رع. أي أنه أصبح يرى نفسه أنه الإله الأكبر (رع).

٢. طول مدة حكمه التي بلغت ٦٧ عاماً [١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م.]، حتى عاصر كل الأحداث من ولادة موسى عليه السلام وحتى الخروج والغرق، وقد أجرى فريق من المجلس الأعلى للآثار في مصر بالتعاون مع فريق آخر متخصص في الاشعة، فحصاً لمومياء رمسيس الثاني، وقال الأمين العام للمجلس زاهي حواس ((إنّ دراسة القرآن الكريم تبين أن «فرعون الخروج» هو رمسيس الثاني، رغم النتيجة التي توصل اليها الباحثون الفرنسيون في الثمانينات، بأنه ليس فرعون الخروج إثر فحصهم المومياء لعدم وجود آثار للغرق فيها)). وأضاف حواس أنه: ((صاحب الرقم القياسي بين فراعنة مصر في مدة الحكم التي استمرت ٦٧ عاماً وهي مدة يمكن أن تقع فيها أحداث مثل التي وقعت في عهد فرعون الخروج)).^٢

٣. بنى قصرًا في مدينته وعاصمته الجديدة (بي رعمسيس) قرب بحيرة متصلة بفرع النيل، وهو المكان الذي وجدت فيه زوجته تابوتا طافياً على صفحة الماء ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص: ٨].

١ - لمزيد من التوسع يرجع لكتاب : د/رشدي البدر اوي [موسى وهارون عليهما السلام من هو فرعون موسى؟].

٢ - صحيفة البيان الاماراتية ، بتاريخ السبت ١٢/١٢/١٤٢٥هـ

٤. كان اسم زوجته الثانية التي وجدت التابوت (إست نفرت) وهذا الاسم (إست) قريب من الاسم الوارد في الحديث الصحيح (آسيا)، حيث قال صلى الله عليه وسلم {لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران} ^١
٥. الدمار الذي لحق بآثار (رعمسيس الثاني)، والله سبحانه قد قال: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧] فإننا إذا فحصنا آثار (رعمسيس الثاني) لوجدنا أن معظمها قد تقدم إما كلياً أو بعض أجزائه ولم يبق سوى الاسم، هذا مع كثرة أعماله ومنشآته من مدن ومعابد وتمائيل ومسلات وغير ذلك، مع أن كثيراً من الفراعنة الذين هم أقل أعمالاً بقيت آثارهم مشيدة.
٦. قد جاء وصف فرعون في القرآن بأنه (ذو الأوتاد) في آيتين ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: ١٠] ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴾ [الفجر: ١٠-١١] والوتد كما هو معروف: القطعة المنتهية بطرف مدب ومحدد ^٢.

ولعل معناها القريب: أي فرعون ذو المسلات.

والمسلة هي الإبرة في اللغة، وقد كان الفراعنة يتفاخرون بصنع هذه المسلات الضخمة التي ترتفع أكثر من عشرين متراً، ولكن شكل هذه التي سماها العرب (مسلات) هي أقرب ما تكون إلى (الأوتاد) منها إلى شكل الإبرة المعروف، كما أن اسمها في اللغة الهيروغليفية القديمة (بون) وهي بمعنى (وتد) كما أن ترجمتها اليونانية ثم اللاتينية وبعدها الإنجليزية (Obelisk) وهي بمعنى الوتد، فالقرآن استخدم اللفظ الصحيح ﴿ذو الأوتاد﴾ [الفجر: ١٠].

إذا عرفنا ذلك فإن (رعمسيس الثاني) كان له نصيب الأسد في كثرة بناء المسلات مقارنة بغيره من الفراعنة حيث أن الباقي إلى الآن من بنائه ٣٥ مسلة على الأقل، بينما بقية الفراعنة فأكثرهم لم يتجاوز تسع مسلات، بل مجموع ما صنعوه لم يتجاوز ٣٠ مسلة .

١ — متفق عليه ، صحيح البخاري ٢١٦/١١ برقم ٣١٥٩ كتاب أحاديث الأنبياء ،باب قول الله " وضرب الله مثلاً للذين

آمنوا" ،ومختصر صحيح مسلم برقم ١٦٦٧

٢ - بعض المفسرين يرى أن المعنى مجازي لثبات الملك، وقيل : لكثرة الجنود [الألوسي ، روح المعاني، ١٧٠/٢٣] وقيل : بل

هو المستخدم لتثبيت المعدين [ابن كثير ، التفسير ٥٠٨/٤]

٧. ذكر الله عن طلب فرعون من (هامان) بناء (الصرح) فقال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨] كانت المباني قبل عهد رعمسيس الثاني تقام من الطوب اللبن أو الحجارة، وفي أواخر عهد رعمسيس الثاني اكتشفوا أن حرق الطين يجعله أكثر صلابة وأكثر عمراً، ولا توجد آثار بنيت بالطوب الأحمر المحروق قبل عهد (رعمسيس الثاني)، ولذلك جاء في الآية الكريمة ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ [القصص: ٣٨]، وإن كان الصحيح أنه لم يبن هذا الصرح.

٨. قد بينت الآيات القرآنية غرق فرعون، والشيء الغريب الذي اكتشف في جثة (رعمسيس الثاني) بعد فك اللغائف عنه هو ارتفاع يده اليسرى إلى أعلى، وهو وضع غير مألوف بالنسبة للموميوات الأخرى التي بقيت أيديهم في وضع متقاطع فوق صدورهم، ولعل سبب ذلك أن عضلات يده اليسرى اشتدت وهو يدفع مياه البحر عنه، حتى قال أحد علماء الآثار: عجيب أمر هذا الفرعون الذي يرفع يده وكأنه يدرأ خطراً عن نفسه !

أما قضية تحليل الأملاح في الجسد ونسبته في الأنسجة فليست ذات جدوى لأن الجثة تفرغ أثناء التحنيط من الأحشاء وتتملاً بملح النطرون المركز، فهي مليئة بالأملاح أصلاً.

٩. ورد في القرآن أن فرعون اضطهد واستضعف وسخر بني إسرائيل في أعماله ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ [القصص: ٥] ومن المعروف تاريخياً أن (رعمسيس الثاني) اضطهد بني إسرائيل في بناء منشآته ومدنه حتى بلغوا في عصره غاية الذل والهوان، وبنو في عهده له مدينتي (برعمسيس) و(فيثوم)، وقد جاء في التوراة: ((فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم بأنقاهم فبنوا لفرعون مدينتي فيثوم و برعمسيس)) [الخروج ١: ١١] وهذه المدن قد تم بناؤها في عهد (رعمسيس الثاني).

١٠. أختتم أدلتي بما أستنبطه من القرآن بأن الله عز وجل لم يذكر له سوى اسم (فرعون)، فلماذا لم يذكره باسمه (رعمسيس) والجواب: أننا لو عرفنا اسمه الأصلي باللغة الهيروغليفية لوجدنا أنه قريب من الاسم القرآني حيث أنه بعد الترجمة وجدوا الاسم

كآآآي: (رع مس سومري إمون) وقد ترجم هذا الاسم كآآآي: روح رع ، محبوب أمون^١ ، واسم (فرعون) وإن كان قد قيل أنه لقب أصله (برعو) ويعني: بيت الإله. لكننا نلاحظ أن الاسم الموجود معنا قد اشتمل على اسمي الإله (رع) والإله (أمون) وبجمع اللفظتين يصبح (رع أمون) وقد قارب الاسم (فرعون) وكأن (فرعون) القرآني جمع كل صفات الآلهة المزعومة في اسمه. هذه بعض الأدلة التي تجعلنا نظن أن (رعمسيس الثاني) هو فرعون موسى، وهذا يقودنا إلى تحديد زمن الخروج.

ثانياً: تحديد زمن الخروج

وقع الخلاف في تحديد زمن الخروج، وهذا الخلاف نابع من خلافهم في من هو فرعون الخروج؟ وبحسب كل رأي من الآراء السابقة الذكر، كان لكل رأي منها تاريخ .. وبحسب ما رجحناه أنه (رعمسيس الثاني) فإن الراجح أن الخروج كان في تلك المدة وأنه كان في سنة وفاة (رعمسيس الثاني)، ونحن لا نستطيع الجزم بالسنة المحددة لذلك، فضلاً عن اليوم والشهر الذي بالغ البعض في ذكره، ولكن الأمر بشكل عام كما قال (ألبرايت) أن الوجود الإسرائيلي في فلسطين كان حوالي ١٢٠٠ ق.م. وإن كان ذلك يخالف ما أوردناه لك مسبقاً عن (العهد القديم) الذي زعم أن بناء الهيكل كان بعد ٤٨٠ عاماً من الخروج وبحسب التوراة فالخروج كان في عام ١٤٤٧ ق.م، (إلا أن معظم الدارسين اليوم سواء كانوا محافظين أو ليبراليين، يقبلون التاريخ الذي أيدناه من دون تساؤل وينطلقون منه، وبالفعل، وبصورة تدريجية أصبح تاريخ أصول إسرائيل من منظور المصادر غير التوراتية والآركيولوجية وإلى حد كبير مسألة وصف وتدقيق ومناقشة ما تعرفه عن إقليم فلسطين ١٣٠٠ - ١٠٠٠ ق.م)^٢، وقد

^١ - ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة ، مادة (رمسيس الثاني) "الشبكة العنكبوتية" www.wikipedia.org

^٢ - توماس ل. طومسون ، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة : صالح علي سوداح ، الطبعة الأولى ١٩٩٥ م ، بيروت ،

جزم المؤرخ سليم حسن أن الخروج كان حوالي عام ١٢٢٧ ق.م على رأي بعض الثقات من المؤرخين^١.

وقد أشار إيزفيلدت إلى التناقض في العهد القديم فطبقاً لما أوردناه سلفاً من بناء الهيكل [الملوك الأول: ٦: ١] وأن تاريخ الخروج يكون بذلك ١٤٤٧ ق.م، فإننا نجد في سفر الخروج [٤: ١٢] أن إقامتهم بمصر استمرت ٤٣٠ عاماً، وعلى ذلك يصبح ترك بني إسرائيل من فلسطين إلى مصر كان حوالي عام ١٩٠٠ ق.م^٢، وهو رأي بعيد عن الصواب لأن دخولهم لم يتم إلا في حكم الهكسوس، أي بعد عام ١٧٣٠ ق.م وهو ما ذهب إليه الباحث (لويس عوض) الذي يعتقد أن دخول العبرانيين إلى مصر كان سنة ١٦٥٠ ق.م^٣.

وبهذا الرأي تكون إقامة بني إسرائيل بأرض مصر ٤٣٠ سنة تقريباً (١٦٥٠-١٢٢٠ ق.م) وهو موافق لرواية سفر الخروج السابقة، وإن كان قد جاء في الترجمة السبعينية للعهد القديم أن مدة الإقامة ٢١٥ سنة فقط^٤ وهو ما ذكره (محمد صديق حسن خان)^٥، إلا أننا نرى أن هذه المدة قصيرة لنشوء أعداد كبيرة من نسل بني إسرائيل وقيام كيان لهم يخاف بسببه الفرعون، والذي نميل إليه أن مدة الإقامة (٤٣٠) سنة وهو ما اعتمده المؤرخ (ابن كثير) في (البداية والنهاية)^٦.

^١ - د. سليم حسن، مصر القديمة ١٢٠/٧

^٢ - مصطفى كمال - سيد فرج، اليهود في العالم القديم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، بيروت، دار القلم دمشق - الدار الشامية ص ٤٧

^٣ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١١٢

^٤ - د. إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي، ص ١٥٥

^٥ - لقطه العجلان ص ٨٧

^٦ - ٢٥٧/١

ثالثاً: عدد الذين خرجوا من (مصر)

لقد دخل مصر من آل يعقوب القادمين من (فلسطين) سبعون شخصاً فقط ، كانوا هم كل أبناء يعقوب مع زوجاتهم وأولادهم: [جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون] [التكوين: ٤٦].

((قال المسعودي: دخل يعقوب إلى مصر مع ولده الأسيباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف في سبعين راكباً))^١ .

((ويوسف لما حضرته الوفاة جمع إليه قومه من بني إسرائيل وهم ثمانون رجلاً))^٢ ، وقد ((أقام بنو إسرائيل بعد وفاة يوسف عليه السلام وقد انتشروا وكثروا وهم تحت العمالقة [أي الهكسوس] وهم على بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيه من الإسلام متمسكون به حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه))^٣ ، وقد ذكر الإمام ابن الأثير أن عدد الذين خرجوا كانوا ستمائة ألف وعشرون ألفاً، أما ابن كثير فقد ساق أنهم ستمائة ألف رجل سوى الذراري ، ثم عقب ((وهذا نص كتابهم))^٤ وفعالاً كان اعتماد المؤرخين على ما ورد في العهد القديم، وقد جاء أن عدد ذكور بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر بعد انتهاء التيه وتحركهم نحو الأردن من ابن العشرين فما فوق [٧٣٠، ٦١٧ نسمة] (سفر العدد: ٢٦) وبهذا الحساب التوراتي، فإننا لو أضفنا النساء وهم أكثر من الرجال حتماً لأن الفرعون الهالك كان يذبح ذكورهم ويستبقي نساءهم، ثم أضفنا من هم دون سن العشرين، حسب النمو الديموغرافي للسكان صار الجميع أكثر من مليونين ونصف نسمة^٥ .

^١ - ابن خلدون ٤٨/٢

^٢ - الثعلبي ، قصص الأنبياء، ص ٨٢

^٣ - المصدر السابق، ص ٩٦

^٤ - ابن الأثير، أبو الحسن علي ، الكامل في التاريخ، تحقيق: عبدالله القاضي ، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ، بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤٣/١ .

^٥ - ابن كثير ، البداية والنهاية ٢٥٧/١ والنص موجود بسفر الخروج ١٢: ٣٧

^٦ - فوزي محمد حميد ، حقائق وأباطيل، ص ١٧

وبحسب دراسة أجراها (د.إسماعيل الصمادي) فإن العدد التقريبي يبلغ (٢,٧٠٣,٥٥٠) نسمة^١.

والمبالغة الكبيرة في هذا الرقم صارخة يجعل كذبه أمراً يقيناً بالنسبة لسكان الأرض عامة، ولسكان مصر خاصة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويبرز الخيال الواسع في تأليف السفر^٢.

لقد أقام بنو يعقوب في مصر حوالي ٤٣٠ سنة كما ذكرنا -وعندما خرجوا منها وصلوا إلى هذا العدد الضخم! بالرغم من كل ما أصابهم من ذل وهوان واضطهاد وموت بسبب أعمال السخرة في عمران مصر وقتل فرعون لذكراهم، فمن أين جاءت هذه الأعداد الضخمة؟

ويقف المؤرخ ابن خلدون من هذا العدد موقف الناقد البصير ثم يحلل ذلك بمعايير النقد التاريخي بكلام نفيس ، ونحن نلخص هنا أهم ملاحظاته إذ يقول: ((وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً، ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهاها ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد))^٣.

• ثم شرع في نقد عدد (الخروج) عبر النقاط الآتية: -

أ/ أن مصر والشام لا تتسع لأن يكون فيها هذا العدد من الجيوش لكل مملكة من الممالك وتقوم بوظائفها، ويشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة .

ب/ هذه الجيوش البالغة إلى مثل هذا العدد يبعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الأرض عنها وبعدها إذا اصطفت مدى البصر مرتين أو ثلاثاً أو أزيد، فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون غلبة أحد الصفيين وشيء من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر!

^١ - نقد النص التوراتي، ص ٢٠٥ وما بعدها.

^٢ - دروزة، محمد عزة، القرآن والمبشرون ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ - / ١٩٧٩م ، المكتب الإسلامي، ص ٢٧

^٣ - ابن خلدون، المقدمة ١٠

ج/ كان ملك الفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير ومع ذلك لم تبلغ جيوش الفرس مثل هذا العدد ولا قريباً منه .

د/ لو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لاتسع نطاق ملكهم وانفسح مدى دولتهم .
هـ/ يبعد أن يتشعب النسل من زمن يوسف (عليه السلام) من سبعين رجلاً إلى هذا العدد في زمن (موسى عليه السلام) ، اللهم إلى المئين والآلاف فرجماً يكون ، وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعيد ، واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً .

- ثم يعقب (ابن خلدون) بذكر السبب في المبالغة ((وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد ، حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ، ولا يطالبها في الخبر بتوسط ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش))^١ .

وقد أطل (رحمة الله الهندي) أيضاً في رد ذلك وبطلانه في كتابه الشهير (إظهار الحق)^٢ ، ورفض (جون برايت) هذا العدد المذكور وبين أنه لا يمكن أن تعني بنساء هذا العدد قابلتان فقط ، كما ورد في سفر الخروج [١٥ : ١] ^٣ .

فهل يمكن مجتمع سكانه أكثر من مليوني نسمة أن يكون له مولدتان فقط ؟ هذا إلى جانب أن أعلى نسبة في الزيادة السنوية يمكن أن يبلغها مجتمع وفي أحسن ظروفه لا تتجاوز التسعة بالمائة ٩%^٤ .

هذا العدد الغريب يثير سخرية النقاد كلهم ، كما يعبر عن ذلك (ليوتاكسل)^٥ ، ويبالغ (ابن حزم) في رده بأنه (أفحش ما يكون من الكذب الذي لا شك فيه)^٦ ، ويذهب المؤرخ سليم حسن إلى أن العدد الصحيح كان حوالي (٥.٥٥٠) نسمة^٧ .

^١ - مقدمة ابن خلدون ص ١٠ وما بعدها .

^٢ - ص ٦٤ وما بعدها

^٣ - د. أحمد الأحمد ، داوود وسليمان ، ص ٤١

^٤ - د. إسماعيل الصمادي ، نقد النص التوراتي ، ص ٢٠٩

^٥ - ليوتاكسل ، التوراة كتاب مقدس أم مجموعة من الأساطير ؟ ، ترجمة : حسان ميخائيل إسحاق ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، الجندي للطباعة ، ص ٣٦٣

^٦ - ابن حزم الأندلسي ، الأصول والفروع ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ص ٦٥

^٧ - سليم حسن ، مصر القديمة ١٢٠/٧

ولذلك فقد ذهب البعض في تفسير هذا النص التوراتي إلى كلام آخر: فمنهم من قال إنَّ (٦٠٠ ألف) هي أصلاً (٦٠٠ ألف) ومعناه أي ٦٠٠ قريب (ألف الألف)، ويسمى ٦٠٠ ألف^١، فعدد الرجال بذلك ٦٠٠ رجل.

والمعنى الأقرب للصواب هو أن الألف تعني الجماعة أو العشيرة، وعلى ذلك فالمقصود ٦٠٠ عشيرة^٢، ولذلك فإننا لا نستطيع ضبط العدد إلا بهذه المقاربة، خصوصاً أنه لم يرد في القرآن والسنة ما يبين ذلك .

^١ - د. إسماعيل الصمادي ، نقد النص التوراتي ، ص ٢١٣

^٢ - د. مصطفى كمال ، د. سيد فرج ، اليهود في العالم القديم ، ص ٥٢

رابعاً: طريق الخروج

بنوع من الاجتهاد أيضاً نحاول أن نعرف طريق الخروج وأين وصلوا قبل دخولهم الأرض المقدسة.. وإن كان بعض الباحثين جانبوا الصواب بإنكارهم لقضية الخروج من أساسها.. ولكننا لا نعتب على الغربيين في انتقادهم للخروج الوارد في كتابهم المقدس (المخرف) ولكن ماذا نقول لمن زعم الإسلام وأنكر (الخروج) الوارد في نصوص كثيرة من القرآن؟! بدعوى مخالفته لأبحاث الأركيولوجيا، يقول أحدهم: ((وعلى الرغم من الجهود المضنية للبحث الأركيولوجي لإيجاد أي دليل، أو نص، أو علاقة واضحة توحى بحدوث أسطورة الخروج ولكن ذلك ذهب دون جدوى، فقد صمت التاريخ بشكل نهائي على هذا الموضوع الخطير، وعلى الرغم من أن الوثائق المصرية التي كانت تسجل صغائر الأحداث أحياناً^١، ولا سيما فيما يتعلق بأمن مصر الحدودي، نراها تصمت على إبادة جيش مصر برمته مع قيادته، كما أن التاريخ الفرعوني لم يأت على ذكر موت أحد الفراعنة غرقاً))^٢.

هذا نموذج لمن جعل علم الأحفورات حقائق مسلمة، وأغفل كلام الله ذو الحقيقة المطلقة، ومع ذلك فنحن لسنا بحاجة لمناقشة مثل هؤلاء الذين لا يقدرّون القرآن حق قدره، فالخروج وغرق فرعون من المسلمات عندنا نحن المسلمين لوردوها بالقرآن، بل قد جاء في بعض النصوص النبوية ذكر بعض التفاصيل في خروج بني إسرائيل، فقد ورد أنهم في خروجهم هذا نقلوا معهم عظام يوسف -عليه السلام- وفاء لعهد قطعوه على أنفسهم^٣، فقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه بالإسناد إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: {أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابياً فأكرمه، فقال له: ائتنا، فأتاه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: حاجتك؟ قال: ناقة نركبها وأعتز يجلبها أهلي، فقال: عجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟ قالوا: يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: إن موسى عليه السلام لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماءهم: يوسف -عليه السلام- لما حضره

^١ - نسي الباحث أن القرآن الكريم سجل هذه الحقائق، فهل يشك أيضاً في ذلك!؟

^٢ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي ص ١٠٠

^٣ - انظر تفاصيل الخروج: ابن خلدون ٨٢/٢-٨٣

الموت أخذ بنيامين علينا موثقاً من الله ألا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال: من يعرف موضع قبره؟ قالوا: عجوز من بني إسرائيل. فبعث إليها فأتت، فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: لا! حتى تعطيني حكمي، قال: وما حكمك، قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطاها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة فقالت: انضبوا هذا الماء، فأنضبوه، فقالت: احترفوا. فاحترفوا فاستخرجوا عظام يوسف، فلما ألقوه إلى الأرض فإذا الطريق مثل ضوء النهار^١، ثم إن الله سبحانه وتعالى لم يهدهم إلى طريق أرض الفلسطينيين المخاذية للساحل مع أنها قريبة، لكي لا يعرضهم للحرب مع أهلها فينقلبوا على أعقابهم راجعين إلى مصر، بل أدارهم نحو بحر سوف (الذي هو خليج السويس حالياً) فرحلوا من مساكنهم بعد أن تجمعوا في أرض رعمسيس ونزلوا في سكوت، وارتحلوا من سكوت ونزلوا في إيثام، وعندما ندم فرعون على إطلاقهم لحق بهم بجنوده ومركباته فأدركهم وهم نازلون قرب بحر سوف عند فم الحيروت [البحيرات] أمام بعل صفون^٢، والمعتقد أن رأس خليج السويس في ذلك الزمن كان يمتد شمالاً أكثر مما هو عليه الآن^٣، وهنا فزع بنو إسرائيل جداً وقالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ... ﴿[الشعراء: ٦١-٦٣].

ثم ارتحل بنو إسرائيل من بحر سوف وهدفهم برية سيناء، وفي طريقهم مروا بالمواقع الآتية على التوالي: برية شور، مارة، إياتيم، دفقة، رفيديم، ومن رفيديم واصلوا سيرهم إلى أن استقروا في برية سيناء بحسب المواقع الواردة في العهد القديم [سفر الخروج] وبعد ما يقارب من عام رحلوا إلى قادش برنيع وبرية فاران، ثم عصيون جابر الواقعة نهاية خليج العقبة، ومنها رحلوا إلى (جبل هور) في مدخل أرض الأدوميين^٤. ومعنى ذلك أنهم استقروا أخيراً شرق (البحر الميت) وهي ما تسمى اليوم بدولة (الأردن).

^١ - رواه ابن حبان في صحيحه (كتاب الأدعية - باب فيمن همته للأخرة) ٤٤١/٣ برقم (٢٤٣٥) والحاكم في المستدرک (كتاب التفسير) باب تفسير سورة الشعراء ١٧٨/٨ برقم (٣٥٢٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

^٢ - فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ٥٩ - ٦٠.

^٣ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي ص ١١٤.

^٤ - د. مصطفى كمال + د. سيد فرج، اليهود في القديم، ص ٦٠ وأيضاً: د. إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي، ص ١٥٦.

وبعض الباحثين يرى أن العبور لم يكن من (بحرسوف) وإنما من جهة البحيرات الضحلة أو عبر المستنقعات، حتى قال بعضهم أن (عصا موسى) لم يكن منها هدف سوى فحص عمق المياه السطحية! ولا شك أن هذا مصادم للنص القرآني ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣]، كما أن كثيراً من الباحثين المتأخرين يرى أنه كان لبني إسرائيل خروجان جمعاً بين النصوص التوراتية في مدة إقامة بني إسرائيل بمصر، وعلى رأس هؤلاء (الأب دوفو) و (كاثلين كينون)^٢، وهذا الرأي مخالف أيضاً لظاهر النصوص القرآنية، وحتى الأدلة الأركيولوجية لا تسانده.

^١ - انظر كلام (د.إسماعيل الصمادي) التاريخ التوراتي ص ١١٦

^٢ - د.إسماعيل الصمادي ، التاريخ التوراتي ، ص ١١٥

خامساً: الأرض المقدسة التي أمر بنوا إسرائيل بدخولها

جاء في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام قال لبني إسرائيل ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢١] فما هي هذه الأرض المقدسة؟^١.

إذا نظرنا إلى عبارات السلف في تفسيرها سنجد الآتي:-

أ/ هي الطور وما حوله: وقد جاء من رواية سفيان الثوري^٢ عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس^٣، وكذا قال مجاهد^٤ وغير واحد^٥.

ويدخل على هذا القول أن جبل الطور وما حوله لم تكن منطقة مسكونة أو مأهولة وقد بينت الآيات ﴿إن فيها قوماً جبارين﴾ [المائدة: ٢٢] فالأرض المقدسة في الآيات منطقة ليست مأهولة بالسكان فقط، بل وأيضاً فيها حامية عسكرية وقوة بشرية أخافت بني إسرائيل بينما الطور كان يذهب إليه موسى عليه السلام وحيداً لتلقي التشريعات، ولم يرد أنه حدث لهم أي مواجهات هناك.

ب/ إنما الشام كلها: قال به قتادة^٦، وانتصر له القرطبي بقوله ((قول قتادة يجمع هذا كله))^٧.

^١ - المقدسة تعني: المطهرة والمباركة (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢١٢٢)

^٢ -- سفيان الثوري: هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الكوفي، ثقة، حافظ، فقيه، من رؤوس الطبقة السابعة، وكان ربما دلس، مات سنة ١٦١هـ. أمير المؤمنين في الحديث ساد الناس بالورع والعلم، ولد في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧هـ وفي ذلك خلاف، توفي بالبصرة سنة ١٦١هـ انظر ترجمته في: تهذيب الكمال ١١/١٥٤-١٦٥/٢٤٠٧، ابن سعد، الطبقات الكبرى، طبعة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، بيروت، دار صادر ٣٧١/٦

^٣ - ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشهر من أن يعرف وكان من أعظم المفسرين وقد عرف بحبر الأمة وبترجمان القرآن وتوفي بين ٦٨هـ و ٧٠هـ.

أنظر ترجمته في: ابن حجر (الإصابة) ٢ / ٨٠٢، ابن الأثير (أسد الغابة) ٣ / ١٩٢، ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، صفة الصفوة، طبعة ١٣٨٩هـ، حلب، دار الوعي ١ / ٣١٤

^٤ - هو الإمام أبو الحجاج مجاهد بن جبر كان مولى بني مخزوم، عرض التفسير على ابن عباس رضي الله عنه ٣٠ مرة، ويعد من أعظم رجال التفسير حتى قيل: [إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به] توفي في مكة سنة ١٠٣هـ. أنظر ترجمته: ابن الجوزي (صفة الصفوة) ٢ / ١٧٧، الأصبهاني (حلية الأولياء) ٣ / ٢٧٩

^٥ - ابن كثير، التفسير ٢ / ٤٣

^٦ - قتادة بن دعامة السدوسي أحد التابعين توفي سنة ١١٧ أو ١١٨ عن ٥٦ سنة.

^٧ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢١٢٢

وهذا القول أيضاً يرد عليه أن بني إسرائيل كانوا وقت هذه المقالة في بلاد الشام أصلاً فلا معنى لدخولها إذاً.

ج/ إنما إيليا (بيت المقدس): قال به مقاتل^١، وهو مروى عن الضحاك^٢ أيضاً، وهذا القول وإن كان هو المتبادر للذهن إلا أنه غير صحيح إذ أن الوصول إلى بيت المقدس مرحلة متقدمة جداً وقبل الوصول إليها هناك مراحل ومدن ينبغي أن يكون قد فتحوها.

د/ إنما أريحا: وهو من رواية سفيان الثوري عن أبي سعيد البقال، عن عكرمة عن ابن عباس قال: هي أريحا، وكذا ذكر غير واحد من المفسرين^٣، وقال به أيضاً عكرمة^٤ والسدي^٥، وهو ما ذهب إليه ابن الأثير في (تاريخه)^٦، والثعلبي في (قصص الأنبياء)^٧.

وهذا هو الأقرب إلى الصحة وذلك أن مدينة (أريحا) في ذلك الوقت كانت أولى العقبات التي ينبغي عليهم اجتيازها، وهذا بخلاف ما رآه (ابن كثير) حيث قال: ((وفي هذا نظر، لأن أريحا ليست هي المقصودة بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون، إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس، كما قاله السدي فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور شرقي بيت المقدس))^٨.

^١ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٣٣، ومقاتل: هو أبو الحسن ابن سليمان بن بشير الخراساني، كان محدثاً ومفسراً حتى قال الشافعي أن الناس عيال عليه في التفسير، وقد ضعفه الأوزاعي، وتوفي بالبصرة سنة ١٥٠ هـ انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان ٥٦٧/٢

^٢ - فضائل القدس (ابن الجوزي) ص ٦٨، والضحاك: هو ابن مزاحم كان من علماء التفسير، وذكر ابن حجر (الإصابة ٥٣/٥) أنه درس على ابن عباس، ولكن ابن سعد (الطبقات ٦ / ١٠) ذكر أنه لم يقابل ابن عباس وإنما درس على سعيد بن جبير، وتوفي سنة ١٠٥ هـ.

^٣ - ابن كثير، التفسير ٤٣/ ٢

^٤ - عكرمة هو: أبو عبد الله مولى ابن عباس - أصله بربري، ثقة، ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر، ولا ثبت عنه بدعة، مات سنة ١٠٤ هـ. انظر ترجمته في: ثقات ابن حبان ٢٢٩/٥، تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٦٣/٧

^٥ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٣٣، والسدي هو: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي، أبو محمد، الكوفي، من الرابعة، قال ابن عدي: مستقيم الحديث صدوق لا بأس به، وقال ابن حجر: صدوق يهيم، ورمي بالتشيع، مات سنة ١٢٧ هـ. انظر ترجمته في: الكامل لابن عدي ٢٧٧/١، تهذيب التهذيب لابن حجر ٢٧٣/١

^٦ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١ / ١٤٩

^٧ - ص ١٣٦

^٨ - ابن كثير، التفسير ٤٣ / ٢

وهو قد نظر إلى أن مجيئهم كان من جهة الغرب، والصحيح أنهم قد جاءوا فعلاً من جهة الشرق بعد أن ضاعوا في التيه واستقروا شرق البحر الميت. ثم انه لم يكن لبيت المقدس في ذلك الوقت مكانه ومنعة حتى يخاف منها بنو إسرائيل.

سادساً: التيه .. بعيداً عن المواجهة:

أفاض الله على بني إسرائيل كثيراً من النعم، وأيد موسى عليه السلام بمعجزات عجيبة وآيات ربانية عظيمة .. وتستمر الآيات.. فحينما اشتد الحر ولم يجدوا في الصحراء أشجاراً ساق الله إليهم الغمام، وحينما أجهدهم العطش في البرية المقفرة، ولم يجدوا ماء، أمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، هذه العيون يقول بعض الباحثين أنها الآن بقرب مدينة (السويس) والمسماة (عيون موسى)^١.

وحين استبد بهم الجوع أرسل الله عليهم المن والسلوى، أما (المن) فكان طعاماً حلواً يشبه حلاوة العسل، وقد ذكر الطبري أنه يسقط على الشجر ويسمى (الترنجبين)^٢، وذكر (ابن كثير) أنهم يصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض^٣، وأما (السلوى) فهو فهو طائر السماني، وإلى ذلك يشير القرآن ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وَقَطَعْنَا لَهُم مِّنْ ثَمَرِهَا عَشْرَةَ آبَاتٍ أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اصْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩ - ١٦٠].

((وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها، ثم ضجر كثير منها، وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١])^٤.

^١ - النجار، د. محمد الطيب، تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٨٨٣ م،

الرياض، دار المعارف ص ٢١١

^٢ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، الطبري، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الأمم والملوك)، ط ١٤١٧هـ، بيروت، دار

الكتب العلمية ١ / ٢٥٤

^٣ - ابن كثير، البداية والنهاية ١ / ٢٦٣

^٤ - المرجع السابق ١ / ٢٦٤

وأمام هذه النعم المتتالية إلا أن الصدود والإعراض كان ديدنهم، وجاءت الطامة لما أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة فقالوا ﴿ يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤].

ويقال إن يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وهما الرجلان اللذان قالوا: ﴿ اذْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٢٣] ((لما سمعا هذه المقالة شقا ثياهما، وأن موسى وهارون سجدا إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله عز وجل وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة))^١ وبرز بوضوح الجبن والذل والخوف والهلع، ورفضوا آية محاولة لتشجيعهم وبث الحماسة في نفوسهم، وأمام هذا الموقف الجبان توجه موسى عليه السلام بالدعاء ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٥] فاستجاب الله دعاءه ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٦].

((عوقبوا على نكاهم بالتيهان في الأرض يسرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً، ويقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم في مدة التيه أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع وكالب عليهما السلام))^٢.

وجاء في سفر [التثنية: ١: ٢٧] ((لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة)) وأضاعوا الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً، ويذكر المؤرخ (غريغوريوس)^٣، الشهير بـ (ابن العبري) أن الله قال لموسى: ((قل لبني إسرائيل: يا شعب السوء حي أنا إلى الأبد ستضلون ضالين مذبذبين أربعين سنة حتى تقع أجسادكم وتبلى في هذا البر، وأولادكم هم يدخلون أرض الميعاد))^٤.

حق عليهم حكم الله، ومات ذلك الجيل اليهودي الجبان الذي ولد على الجبن والذل وعاش عليه، مات وسط الصحراء تائهاً، ونشأ من أولاده جيل جديد، جيل عاش على

^١ - المرجع السابق ١ / ٢٦١

^٢ - المرجع السابق ١ / ٢٦١

^٣ - غريغوريوس أبي الفرج ابن أهرون الطبيب الملطي المعروف بـ(ابن العبري) ، رئيس أساقفة اليعقوبية في بر الشام، كان أديباً طبيباً ، ولد ٦٣٤ هـ وتوفي ٦٨٥ هـ. [إسماعيل باشا البغدادي ،هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين،

بيروت، دار إحياء التراث العربي ١ / ٨١٢]

^٤ - تاريخ مختصر الدول . ص ٣٥

الشدة والقوة وشظف العيش وقسوة الحياة، جيل ولد في بيئة كلها خشونة، أيقظت فيه الرجولة والهمة والتحمل والصبر والشجاعة والإقدام، هذا الجيل الذي قاده يوشع عليه السلام نحو البلاد المقدسة وفتح به تلك البلاد - كما سيمر معنا - ونصره الله على أعدائه^١.

ويقال أنهم لبثوا أربعين سنة ((في ستة فراسخ ... وكانوا كل يوم يسرون جادين حتى إذا أمسوا فإذا هم بالموضع الذي منه ارتحلوا ... فلما انقضت أربعون سنة ونشأت النواشئ من ذراريهم ساروا إلى حرب الجبارين وفتح الله لهم))^٢.

ويرى بعض الباحثين أن ما بقي من إسرائيل قضوا مدة الأربعين سنة مع موسى عليه السلام في منطقة (قادش)، التي كانت آخر منطقة وصلوا إليها بجوار جبل هور على مدخل أرض أدوم^٣.

وحين شارفت سنوات التيه على الانتهاء، ودنا موعد دخولهم للأرض المقدسة، بعث موسى عليه السلام رسالاً إلى أدوم (أبناء عيسو) والتي تقع شرقي (قادش)، ليسمحوا لهم بالمرور في تخمهم، ولكن الأدوميين لم يوافقوا، فقرر موسى الالتفاف على تخوم أدوم بدل الدخول منها، فانتقلوا جنوباً إلى جبل هور^٤.

- هذه بعض الأحداث التي جرت لهم في سنوات التيه، وكان بعض الباحثين الغربيين يرون أن قصة (التيه) قصة خرافية وأنه ليس من المعقول أن يدوروا في أرض صغيرة أربعين سنة بدون مواجهات! ولكن (ديورانت) يجيب عن هذا: ((وتبدوا الآن قصة الأربعين عاماً التي تاهوا فيها في الصحراء، والتي كان يظن من قبل أنها قصة غير معقولة، تبدوا الآن من الأمور التي يقبلها العقل، لأنها تصف مسير قوم من البدو الذين كانوا طول عهدهم قوماً رحلاً))^٥.

^١ - د. صلاح الخالدي، الشخصية اليهودية، ص ٢٦٨

^٢ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٣٦

^٣ - د. مصطفى كمال، د. سيد فرج، اليهود في العالم القديم ص ٦٣

^٤ - د. إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي ص ١٦١

^٥ - ول ديورانت، قصة الحضارة ٢ / ٣٢٦

سابعاً: المعارك في عهد موسى (عليه السلام): -

الذي يقرأ في رواية التوراة المحرفة سيلحظ أن موسى عليه السلام قد خطط لمهاجمة أرض فلسطين من ناحية الشرق بعد أن رأى صعوبة اختراقها من جهة الغرب. وقد كان هناك خمس ممالك من الناحية الشرقية هي: مملكة سيحون من جلعاد (العموريون)، ومملكة باشان، ومملكة عمون التي استولى عليها العموريون من العمونيين، ومملكة مؤاب، ومملكة أدوم، وبحسب التوراة فقد استولى بنو إسرائيل على الممالك الثلاثة الأولى بينما تجنب موسى عليه السلام المملكتان الأخيرتان لمناعة حصونهما^١. وكل ذلك خلال مدة قصيرة بعد (التيه) لم تجاوز السنة^٢.

وقد لخص (ابن خلدون) ما ورد في التوراة بقوله: ((ثم زحف بنو إسرائيل إلى بعض ملوك كنعان فهزموهم وقتلوهم وغنموا ما أصابوا معهم، وبعثوا إلى سيحون ملك العموريين من كنعان في الجواز في أرضه إلى الأرض المقدسة فمنعهم وجمع قومه وغزا بني إسرائيل في البرية فحاربوه وهزموه وملكوا بلاده إلى حد بني عمون [عمان حالياً] ونزلوا مدينته^٣، وكانت لبني مؤاب وتغلب عليها سيحون ثم قاتلوا عوجاً وقومه من كنعان^٤، وهو المشهور بعوج بن عنق^٥ وكان شديد البأس فهزموه وقتلوه وبنيه وأثخنوا في أرضه وورثوا أرضهم إلى الأردن بناحية أريحا))^٦.

^١ - د. مصطفى كمال ، د. سيد فرج ، اليهود في العالم القديم ، ص ٦٤

^٢ - د. إسماعيل الصمادي ، نقد النص التوراتي ص ١٩٢

^٣ - حشيون ، وتسمى حالياً مدينة حسان.

^٤ - وكانوا في منطقة باشان بحسب التوراة.

^٥ - جاءت الأساطير الإسرائيلية بتصوير (عوج بن عنق) بأنه أضخم إنسان في التاريخ وذلك من باب تسويغ نكولهم عن الأرض المقدسة.. وما حقيقة نكولهم إلا بسبب الجن الهالع ، وقد نقل بعض مؤرخي المسلمين أوصاف (عوج) بشيء يفوق الخيال وما هو إلا (حديث خرافة) حتى قال الثعلبي في وصفه (كان طول عوج ثلاثة وعشرين ألف ذراع ... وكان عوج يحتجز السحب ويشرب منه الماء، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله ... وعاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلكه الله على يد موسى عليه السلام... فلما قتل وقع على نيل مصر فحسره سنة!!) [الثعلبي، قصص الأنبياء ١٣٦]

^٦ - ابن خلدون ٢ / ٩٧، وقد جاءت تفصيلات كل ذلك في (سفر العدد: الإصحاح ٢١).

ويواصل (ابن خلدون) قصة تلك الفتوحات، واستعانة ملك بني مؤاب ببلعام بن باعوراء^١، وكان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، ((وأناه الوحي بالنهاي عن الدعاء وألح عليه ذلك الملك وأصعده على الأماكن الشاهقة وأراه معسكر بني إسرائيل منها، فدعا لهم وأنطقه الله بظهورهم وأنهم يملكون إلى الموصل ثم تخرج أمة من أرض الروم فيغلبون عليهم، فغضب الملك وانصرف بلعام إلى بلاده))^٢، وقد اندلع لسانه فوقع على صدره، وقال: الآن قد ذهبت مني الدنيا والآخرة))^٣.

وقد جاءت روايات (بلعام) مفصلة من طريق ابن عباس وابن اسحاق^٤، والسدي والكلبي وغيرهم^٥، ثم إن بني إسرائيل بعد ذلك حاربوا بني مدين الذين أعانوا بني مؤاب مؤاب وكان قائدهم فنحاض بن أليعازر، فقتلوا ملوكهم وسبوا نسائهم وملكوا أمواتهم وكان فيمن قتل بلعام بن باعوراء^٦.

وزعمت التوراة الخرفة أيضاً أن بني إسرائيل أثناء إقامتهم العابرة في (رفيديم) غزاهم (العماليق) وقد تصدى لهم بنو إسرائيل بقيادة يشوع و((أن موسى عليه السلام وهارون وحوور جلسوا على رأس أكمة ورفع موسى عليه السلام عصاه فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم، وكلما مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك، وجعل هارون وحوور يدعمان يديه عن يمينه وشماله ذلك اليوم إلى غروب الشمس فانتصر حزب يوشع عليه السلام))^٧ وقد نقل الإمام (الطبري) اختلاف السلف من أهل العلم في فتح (أريحا) هل كان في حياة موسى أم بعد وفاته ((فقال بعضهم: لم يسر يوشع إلى أريحا ولا أمر بالمسير إليها إلا بعد موسى، وبعد هلاك جميع من كان أبي المسير إليها مع موسى بن

^١ - جمهور المفسرين على أنه هو الذي فيه قوله سبحانه "واتل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث..."

[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]

^٢ - ابن خلدون ٩٧/٢

^٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٥٤/١

^٤ - ابن إسحاق، هو: محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر، المطليبي، مولاهم، قال علي بن المديني: صالح وسط، وقال العجلي: مدين، ثقة، وقال النسائي: ليس بالقوي، وقال ابن عدي: لا بأس به، وقال ابن حجر: صدوق، يدلس، ورمي بالتشيع والقدر، من صغار الخامسة، مات سنة ١٥٩هـ، ويقال بعدها. انظر ترجمته في: طبقات ابن سعد ٣٢١/٧، وعلل ابن المديني ص/٣٧، وتهذيب التهذيب

٣٤/٩

^٥ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٣٣، وانظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك / ٢٥٨

^٦ - ابن خلدون ٩٧ / ٢

^٧ - ابن كثير، البداية والنهاية ٢٦٢/١

عمران، حين أمرهم الله تعالى بقتال من فيها من الجبارين، وقالوا: مات موسى عليه السلام وهارون جميعاً في التيه قبل خروجهما منه^١، ثم نقل المرويات الواردة في ذلك عن ابن عباس وعكرمة وقتادة وغيرهم، وأما القول الآخر بأن أريحا فتحت في عهد موسى عليه السلام وكان يوشع على رأس مقدمة الجيش فلم يقل به سوى ابن اسحاق^٢، وقد رجح هذا القول (الثعلبي) وقال: ((وهذا أولى الأقاويل بالصدق وأقربها إلى الحق لإجماع العلماء بأخبار الأنبياء أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام))^٣! وهذا دليل غريب يحتاج إلى نقاش أصلاً، إذ أننا لا نؤمن بوجود شخصية عوج بن عنق، فضلاً عن قتل موسى عليه السلام له .

ولا شك إن هذا القول الأخير خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، ومما يدل على ذلك: -

١- قول موسى عليه السلام لما اختار الموت {رب أدني من الأرض المقدسة رمية بحجر} ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، ولكن لما كان مع قومه في التيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التي هاجر إليها، وحث قومه عليها، ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر، ولهذا قال سيد البشر، ورسول الله إلى أهل الوبر والمدن {فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر}^٤.

٢- إن هذا الرأي لا أقول يتعارض مع الحقائق التاريخية فحسب، وإنما يتعارض كذلك مع آيات القرآن الكريم، فضلاً عن نصوص التوراة، ومن يقرأ آيات سورة المائدة [٢٦-٢١] المذكورة سابقاً في قصة التيه، سيجد التعارض الواضح في ذلك^٥.

^١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك ١ / ٢٥٧

^٢ - المصدر السابق ١ / ٢٥٨، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ١ / ١٥٣

^٣ - الثعلبي، قصص الأنبياء ص ١٣٨

^٤ - ابن كثير، ابن كثير، البداية والنهاية ١ / ٢٩٦، والحديث سيأتي تخريجه.

^٥ - انظر: الألوسي، شهاب الدين محمود البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، القاهرة، دار التراث ١٦٧/٦

- الطبري، جامع البيان ٦ / ٢٦ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٦ / ٨١ - الزمخشري، أبو القاسم

جارالله محمود بن عمر، الكشاف، رثبه: محمد عبدالسلام شاهين، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، بيروت، دار الكتب العلمية ١ / ٦٠٢

- ابن كثير، التفسير ٢ / ٥٣٢ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٦ / ١٢٣ - أبو السعود، محمد بن محمد

العمادي، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، بيروت، دار إحياء التراث العربي ١٧/٢

والأمر كذلك بالنسبة للتوراة التي تحدثت عن كل صغيرة وكبيرة في حياة موسى عليه السلام، لم تشر إلى دخول الأرض المقدسة أبداً ، وإنما أشارت إلى معارك خارج الأرض المقدسة في شرق البحر الميت .

- هذا من ناحية دخول الأرض المقدسة، أما قصة المعارك المفتعلة من بعض كتبة التوراة والتي سردناها آنفاً فهذه في حقيقتها معارك وهمية لا أساس لوقوعها في عهد موسى عليه السلام والذي يدل على ذلك ثلاثة أمور:-

الأول: - إن سبب نكولهم عن دخول الأرض المقدسة وعدم الدخول في معركة مع سكان الأرض المقدسة، هو السبب نفسه الذي سيجعلهم ينكلون عن مقاتلة غيرهم، ولو كانوا حقاً عازمين على القتال لقاتلوا من أجل الأرض المقدسة، ولكن جنبهم وخذلانهم ساري على الجميع، فمن أين جاءهم الشجاعة حينذاك؟

وأما ما ورد في بعض الإسرائيليات التي بالغوا فيها في حجم سكان الأرض المقدسة فلا شك أنها ((مجازفات باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاماً جداً ... ولو كان هذا صحيحاً لكان بنو إسرائيل معذورون في النكول عن قتالهم، وقد ذمهم الله على نكولهم وعاقبهم بالتيه على ترك جهادهم))^١.

الثاني: الخلط الواضح بين كتاب سفر العدد وسفر يشوع، فنحن نلاحظ منذ بداية الخروج شخصية موسى عليه السلام، الذي يميل إلى السلم، والذي يجر وراءه جماعة من الخائفين المتذمرين من شدة الخوف والجبن، ولا يدخل في معركة لم تفرض عليه فرضاً، والذي يطلب من ملك أدوم أن يمر في أرضه بسلام ثم يضطر إلى الدوران حول أدوم في رحلة طويلة وشاقة، ثم نفاجاً في السفر نفسه (سفر العدد) أن شخصية موسى عليه السلام تنقلب إلى شخصية القائد الدموي العسكري الذي يبادر إلى الحرب ويشن حملات الإبادة والتدمير، حتى أباد جميع أهالي مديان من الذكور والإناث ولم يترك سوى البنات الصغيرات! إن القارئ لهذا السفر (سفر العدد) يدرك بسهولة أن الأحداث العسكرية تنتمي في معظمها إلى أحداث الفتح العسكري مما يرويه (سفر يشوع)، وأنها مستمدة من الذخيرة القصصية نفسها التي استخدمها محرر هذا السفر، حتى أننا لا

^١ - ابن كثير ، البداية والنهاية ١ / ٢٦٠

نستطيع تمييز شخصية موسى عليه السلام في شرقي الأردن عن شخصية يشوع في حروب كنعان^١.

الثالث: لم يذكر القرآن هذه المعارك في عهد موسى عليه السلام مع أهميتها وتأثيرها في مسيرة التاريخ الإسرائيلي، مع أننا نجد أن القرآن سجل ما هو أقل من ذلك من تفاصيل حياة موسى عليه السلام الذي ذكر اسمه في القرآن مائة وستاً وثلاثين مرة^٢ حتى أنه أشار إلى حادثة قتل القبطي، والخسف بقارون فكيف يهمل معارك كبيرة هلك فيها كثير من البشر؟

● هذه دلائل كلها تشير إلى عدم صحة وجود هذه المعارك والمواجهات في عهد موسى عليه السلام كما زعمت التوراة المحرفة، كما نجد أن نؤكد أن كل ما نسب إلى موسى عليه السلام من أنه أقام محرقات وأصنام وصنع حية من نحاس، وأن إله موسى (يهوه) هو رب إسرائيل فحسب، كل ذلك دسائس ومفتريات على نبي الله موسى عليه السلام.

^١ - فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ٦٧

^٢ - محمد فواد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م، القاهرة، دار الحديث ص ٨٥٥

ثامناً: وفاة موسى عليه السلام: -

توفي موسى عليه السلام وهو يقود قومه في طريقه إلى فلسطين التي رآها من الجبال العالية شرق الأردن دون أن يدخلها، ودفن في (جبل نبو) على مسيرة عشرة كيلومترات إلى الشمال الغربي من مادبا .

تقول التوراة: ((وصعد موسى عليه السلام من عربات مؤاب إلى جبل نبو إلى رأس الفسجة الذي قبالة أريحا فأراه الرب جميع الأرض... فمات هناك موسى عبد الرب في أرض مؤاب حسب قول الرب، ودفنه في الجواء في أرض مؤاب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم))^١ [التثنية: ٣٤: ١-٦] .

ولكن محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم يعرف مكان قبره وهو القائل: { أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكّه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فرد الله عليه عينه، وقال: ارجع، فقل له يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت يده بكل شعره سنة. قال: أي ربي ثم ماذا؟ قال: ثم الموت . قال: فالآن . فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر}^٢، وجاء في رواية عند مسلم: {فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقاها}^٣، وقد

١ - في هذا النص دليل على أن كتابة التوراة تمت بعد وفاة موسى عليه السلام بزمان طويل ، بحيث اندثر قبره ولم يعرف أحد مكانه إلى زمن كتابة النص .

٢ - رواه البخاري في صحيحه في (كتاب الجنائز) باب : من أحب الدفن في الأرض المقدسة ، برقم (١٣٣٩) [٤١٠/١] ، ورواه مسلم في الصحيح في كتاب الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام ، برقم (٣٧٢) [١٨٤٢/٤] ، كلاهما من طريق أبي هريرة رضي الله عنه .

٣ - قال الإمام النووي : (قال المازري : وقد انكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكروا تصويره قالوا: كيف يجوز على موسى عليه السلام فقاء عين ملك الموت ؟ قال : وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة، منها :

- أنه لا يمتنع أن يكون موسى عليه السلام - وقد أذن الله تعالى له في هذه اللطمة ، ويكون ذلك امتحاناً للملطوم ، والله سبحانه وتعالى يفعل في خلقه ما شاء ، ويمتحنهم بما أراد . - أن موسى عليه السلام لم يعلم انه ملك من عند الله ، وظن انه رجل يريد قصد نفسه ، فدافعه عنها فأدت المدافعة إلى فقء عينه) [شرح النووي لصحيح مسلم ١٥/١٠٥]

ويضيف ابن كثير جواباً ثالثاً (أنه كان قد أمر بأمر كان يرنجى وقوعه في زمانه ولم يكن في قدر الله أن يقع ذلك في زمانه بل في زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام) ثم ضرب مثلاً بما أراده محمد صلى الله عليه وسلم من غزو الروم من سنة ٩هـ وحتى تجهيزه لجيش أسامة بن زيد رضي الله عنه ومع ذلك لم يتم ما أراده إلا بعد وفاته في عهد خليفة الصديق رضي الله عنه [ابن كثير ، البداية والنهاية ١/٢٩٨] (وقال محمد بن يحيى : قد صحّ هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني قصة ملك الموت وموسى لا يردّها إلا كل مبتدع ضال) [التعليق، قصص الأنبياء ١٣٩] .

ذكر الإمام ابن الأثير مرويات متعددة في ذكر وفاة موسى عليه السلام بعضها لا دليل عليها ولا حاجة إليها^١، ويكفيها أنه مات وعمره مائة وعشرين عاما بذلها في سبيل الله حتى لقي الله.. ((وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حولت من موسى عليه السلام إلى يوشع في آخر عمر موسى عليه السلام... ففي هذا نظر لأن موسى عليه السلام لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله حتى توفاه الله عز وجل ولم يزل معززا مكرما مدللا وجيها عند الله))^٢.

وكان عمره حين خرج من مصر ثمانين سنة، وأقام في التيه أربعين سنة، فيكون عمره مائة وعشرين سنة، وكان موته بعد هارون أخيه بأحد عشر شهرا^٣، وجاء في أسفار العهد القديم: ((فصعد هارون إلى جبل هور على حسب قول الرب، ومات هناك في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في الأول من الشهر، وكان هارون ابن مائة وثلاثة وعشرين سنة حتى مات في جبل هور)) [سفر العدد: ٣٣ : ٣٨ - ٣٩] .

- إذا ما قلنا إن تاريخ الخروج من مصر كان عام ١٢٢٧ ق.م فمعنى ذلك أن وفاة موسى عليه السلام كانت بعد أربعين سنة من ذلك التاريخ أي قرابة عام ١١٨٧ ق.م.

^١ - ابن الأثير، الكامل، ١/١٥٠

^٢ - ابن كثير، البداية والنهاية، ١/٢٩٨

^٣ - محمد صديق حسن خان، لقطة العجلان، ص ٨٧

المبحث الثاني: عهد يوشع بن نون عليه السلام

أولاً: طبيعة المرحلة:

بعد وفاة النبي الرسول موسى عليه السلام ، والذي عاش بنو إسرائيل في عهده تلك المدة التي تعرضوا فيها للكشف عن مدى قابليتهم للتمسك بالدين والحفاظ عليه من عدمه، وتعرضوا فيها للاختبار عن مدى تأثير الإيمان فيهم وسيطرته على نزواتهم وشهواتهم من عدمه.. وحين كانت التجربة سلبية وفاشلة مع بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، ولم تنفع معهم الآيات ولا قسوة الأزمات، وهلك ذلك الجيل الرعديد المتخاذل، ولم يتسن لموسى عليه السلام العيش حتى يرى النصر في الأجيال المقبلة .. فإن الله قد هياً يوشع بن نون عليه السلام ليمسك بزمام الأمر في بني إسرائيل، وفي وقته كانت الظروف قد تهيأت له في دخول الأرض المباركة، حيث أن ذلك الجيل الجبان الذي تربى على الذل والعبودية في مصر، والذي خذل موسى عليه السلام، وامتنع عن الجهاد في سبيل الله لتحرير أرض الله من أيدي الوثنيين، قد انقرض وانتهى في مدة التيه التي كتبها الله عليهم عقاباً لهم.

وجاء الله بجيل آخر مسلم مجاهد في سبيل الله قاده النبي يوشع بن نون عليه السلام لتحرير أرض المقدس، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] وكان موسى عليه السلام عند موته أوصى يوشع بالصبر والشجاعة في الجهاد حتى يفتح الله على يديه^١.

^١ - انظر : سفر التثنية : ٣١ : ٧-٨

ثانياً: ترجمة موجزة ليوشع بن نون

يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، هكذا نسبه (الطبري) و (ابن كثير)^١، واعتمد (بن خلدون) على نسبه في التوراة فقال هو ((يوشع بن نون بن أليشامع بن عميهون ابن بارص بن لعدان بن تاحن بن تالخ بن أراشف بن رافح بن بريعا بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب))^٢.

ويبدو أن ما اعتمده ابن خلدون هو الصحيح إذ أن النسب الأول مختصر جداً، كما أن بين يوشع ويوسف عليه السلام قرابة أربعمائة عام على الصحيح، فمن الطبيعي أن يكون بينهما إحدى عشر نفساً.

ويسميه أهل الكتاب (يشوع)، لأنه على ما ورد في أسفارهم أن موسى عليه السلام غير اسمه من (هوشع) إلى (يشوع)^٣ [سفر العدد: ١٣: ١٦].

كان يشوع من اللذين آزرُوا موسى عليه السلام وعضدوه، وتقول التوراة أنه كان خادمه. [سفر يشوع: ١: ١] بل قد ذكره القرآن غير مصرح باسمه في قصة الخضر في قوله ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٢]،^٤ كما جاء ذلك في حديث ابن عباس عن أبي بن كعب أن فتى موسى عليه السلام هو يوشع بن نون، حيث جاء في الحديث الطويل: {... ثُمَّ انْطَلَقَ هُوَ وَفَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ حَتَّى إِذَا آتَى الصَّخْرَةَ...}^٥.

وهو عليه السلام متفق على نبوته عند أهل الإسلام - كما سيمر معنا في حديث فتح بيت المقدس - وكذلك عند جميع طوائف أهل الكتاب، حتى ((طائفة السامرة الذين لا يقرون بنبوة أحد بعد موسى عليه السلام إلا ليوشع بن نون لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق من ربهم فعليهم لعائن الله المتتالية إلى يوم القيامة))^٦.

^١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك ١ / ٢٥٧، ابن كثير، البداية والنهاية ١ / ٢٩٧

^٢ - ابن خلدون ٢ / ٩٧

^٣ - يشوع: Joshua (يشوع) هو المقابل العربي للاسم العبري (يهوشوع) ومعناه (يهوه هو الخلاص). [الموسوعة اليهودية والصهيونية، د. عبدالوهاب المسيري، مادة: يشوع]

^٤ - ابن كثير، البداية والنهاية ١ / ٢٩٧

^٥ - صحيح البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء)، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام برقم [٣٤٠٠] (٢ / ٤٧٤)

^٦ - ابن كثير، البداية والنهاية ١ / ٢٩٨

وقد ورد في الرواية اليهودية أن الرب حين أخبر موسى عليه السلام بدنو أجله، طلب موسى عليه السلام من الرب تعيين خليفة ليقود بني إسرائيل حتى لا يكونوا ((كالغنم التي لا راعي لها)) [العدد: ٢٧: ١٧] فكان يوشع هو الخليفة (فقال الرب لموسى: خذ يوشع بن نون رجلاً فيه روح وضع يدك عليه ... واجعل من هيبتك عليه لكي يسمع له كل جماعة بني إسرائيل) [العدد ٢٧: ١٨-٢٠] ((ويشوع بن نون كان قد امتلأت روحه حكمة، إذ وضع موسى عليه السلام يديه فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى عليه السلام)) [التثنية: ٩: ٣٤] .

ويؤكد (اليعقوبي) أن الله أمر موسى عليه السلام بأن يضع يده على جسد يشوع لتسحول فيه بركته، ويوصيه أن يقوم بعده في بني إسرائيل^١.

وقد أغرب (الشهرستاني) حين زعم أن يوشع عليه السلام كان مجرد وصي ليفضي بأسرار التوراة والألواح إلى أولاد هارون فهي ((وديعة ليوصلها إلى شبير وشبر ابني هارون قراراً))^٢.

والصحيح عقلاً أن يشوع المتفق على نبوته أحق بذلك من أبناء هارون، إن كان هناك من أسرار طبعاً؟!^٣.

وأما الأغرب من هذا ما وصفت به التوراة المحرفة حكم يوشع بن نون بأنه حكم دموي - حسب ما سيمر معنا من أحداث - ووصفوه بأوصاف من الوحشية والقتل وسفك الدماء وتدمير المدن مما يتزده عنه أكثر البشر إجراماً^٤.

حتى قال المؤرخ اليهودي (ديورانت) كلاماً قبيحاً عن النبي يوشع حين ذكر أن ((موسى عليه السلام كان من رجال السياسة المتصفين بالصبر والأناة، أما يشوع فلم يكن إلا جندياً فظاً، وقد حكم موسى عليه السلام حكماً سليماً لم تسفك فيه دماء، وذلك بما كان يقضي به من أحاديث جرت بينه وبين الإله، أما يشوع فقد أقام حكمه على قانون الطبيعة الثاني، وهو أن أكثر الناس قتلاً هو الذي يبقى حياً، وبهذه الطريقة

^١ - اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، طبعة ١٩٧٠م / ١٣٩٠هـ - دار بيروت ١ / ٤٦

^٢ - الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢١٢

^٣ - تأثرت الشيعة الإمامية بالفكر اليهودي في قضية الوصية والإمامة، فكان أن جنحوا عن الصواب في هذا الباب.

^٤ - انظر: سفر يشوع / الإصحاحات ٦-١٢

الواقعية التي لا أثر فيها للعواطف استولى اليهود على الأرض الموعودة^١، ولا شك أن نظرتهم هذه ناشئة عن إيمانه بما في الكتاب المقدس لديه، والمطلع على التوراة الحالية المقدسة عندهم يرى أن اليهود لم يراعوا لأنبياء الله حرمة، ولا يعتقدون فيهم العصمة، بل كانوا يرموهم بعظائم الأمور، من الصفات القبيحة والحصال الشنيعة، ويوشع عليه السلام لحقه من قدح اليهود له ما لحق أنبياء بني إسرائيل، بل أكابر أنبيائهم كيعقوب وموسى عليهما السلام.

والغريب في هذا صنيع بعض الباحثين المسلمين في موافقتهم لأكاذيب (العهد القديم) في يوشع عليه السلام، بل وينقل بعضهم الألفاظ على يوشع عليه السلام بدون تعقيب، كمن يورد ما تم اكتشافه من نقش في نوميديا ضمن آثار قرطاجة القديمة أوردته صحاف شمبرز، يقول النقش: ((إننا خرجنا من قاطع الطريق يشوع بن نون، بعد أن قتل منا في عشية واحدة عشرة آلاف إنسان))^٢، فهل هؤلاء يعلمون مكانة الأنبياء عند الله؟ وأنهم معصومون، وأنهم أفضل البشر وأخيرهم، وأن الله اصطفاهم دون البشر ليوحى إليهم، فهم أكمل الناس خلقاً وخلقاً، وأرجحهم عقلاً، وأطهرهم قلباً، وأشجعهم نفساً، قال سبحانه ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ [الحج: ٥٧]، فكيف هؤلاء الباحثين المسلمين يتركون هذه المسلمات في عقيدتهم الإسلامية، ويذهبون إلى ما قالتهم عنهم التوراة الحرفية الحاقدة المبنية على خيالات قصص اليهود الحاسدين.

أحببت أن أقدم بذلك دفاعاً عن النبي يوشع - عليه السلام - قبل البدء بسرد الأحداث في عصره، وحتى يتنبه القارئ إلى مثل هذه الأكاذيب أثناء قراءته للحدث، فيستغني بذلك عن كثير من الردود.

^١ - ول ديورانت، قصة الحضارة ٢ / ٣٢٧

^٢ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١٩٦

ثالثاً: الفتوحات في عهد يوشع عليه السلام

١ - فتح أريحا:

تحديد التاريخ لخروج بني إسرائيل من (التيه) ودخولهم أرض فلسطين غير متفق عليه بين المؤرخين فمنهم من قال ١٢٤٠ ق.م^١، وقيل: ١٢٥٠ ق.م، وقيل: ١٢٦٠ ق.م، وقيل بل في القرن الرابع عشر ق.م^٢.

وبحسب ما رجحناه في تاريخ (الخروج)^٣، فإن التاريخ المتوقع لدخول الأرض المقدسة يكون بين عامي (١١٨٦ ق.م - ١١٨٠ ق.م) أي بعد تاريخ الخروج من مصر بأربعين سنة، والذي يظهر أن يوشع عليه السلام استغرق بضعة أشهر لإعادة ترتيب (بني إسرائيل) بعد وفاة موسى عليه السلام، لا كما ذكر (اليقوي)^٤ من أنهم خرجوا بعد وفاة موسى عليه السلام بيوم^٥!

وبهذا الرأي (١١٨٦ ق.م) قال السيد (فلنדרز بيتري)^٥ وهو الأقرب كما رجحناه، وإن كان بعض علماء الآثار يرجحون دخول أريحا عام ١٤٠٧ ق.م ويستدلون على وجود آثار التدمير الواضحة على (أريحا)^٦ ويحددونها بالعام المذكور^٧.

- وأحب أن أؤكد هنا مرة أخرى أن (أريحا) لم تفتح في عهد (موسى عليه السلام) كما زعم بعض أهل السير^٨، بل كان فتحها على يد (يوشع) عليه السلام.

^١ - د. إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي، ص ٩٤

^٢ - طعيمة، صابر عبدالرحمن، التاريخ اليهودي العام، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، بيروت، دار الجيل، ص ١١١

^٣ - راجع: تحديد زمن الخروج ص ٨٦ من هذه الرسالة.

^٤ - اليقوي ١ / ٤٦

^٥ - الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، الطبعة الثانية ١٩٧٣م، بيروت، دار الطليعة، ص ٥٥٢ (كما تعد أول قرية زراعية في العصر الحجري الجديد في العالم القديم، وتوجد قرى مماثلة في الشرق الأدنى يعود تاريخها إلى هذا العصر في الزمن الواقع بين ٧٠٠٠ - ٤٠٠٠ ق.م) [الأردن وفلسطين، د/عدنان الحديدي، ص ٢٩]

^٦ - أريحا: Jericho (أريحا) من (يرحو) وهي كلمة كنعانية تعني (مدينة القمر) ويقال معناها (الروائح العظرية)، وتعد أقدم مدن فلسطين، بل ويقال أنها أقدم مدينة في العالم، وتبعد عن القدس ٣٧ كم [د. عبدالوهاب المسيري، الموسوعة الصهيونية، مادة: أريحا]

^٧ - د. عادل طه، حياة الأنبياء، ص ١٣، ووظا، د. حسن، القدس، مدينة الله... أم مدينة داود؟، طبعة ١٩٧٠م، جامعة الإسكندرية، ص ١٠

^٨ - انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك ١ / ٢٥٩، ابن كثير، البداية والنهاية ١ / ٣٠٠

٢- في أتون الحرب:

لقد كانت (أريحا) المنفذ الأول لأرض فلسطين، كما أن حصونها كانت منيعة، وكانت مدينة كبيرة حتى قال ابن خلدون عنها أنها ((قاعدة الشام))^١، ((وكانت من أحسن المدائن سورا وأعلاها قصورا وأكثرها أهلا))^٢.

وقد أمر الله يشوع أن يبدأ المعركة قائلا: ((موسى عليه السلام عبدي قد مات فالآن قم اعبّر هذا الأردن أنت وكل الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى عليه السلام)) [يشوع ١: ١-٣] وهذه خلاصة ما جاء في سفر يشوع من على الضفة الشرقية لنهر الأردن، بعث يشوع برجلين ليتجسسا على أرض كنعان، ولكن أمرهما انكشف عند امرأة زانية اسمها (راحاب)^٣ في مدينة أريحا في الضفة الغربية لنهر الأردن، وقد قامت بالتستر عليهما، ومن ثم هربتهما بعد أن أطلعتهما على حقيقة المخاوف التي تغشى قلوب الشعب في بلاد كنعان، وبعد سماعهم الحديث عن المعجزات والقدرات الخارقة للشعب الإسرائيلي وإله إسرائيل . وبعد أن عاد الجاسوسان بأخبار الهلع الذي ينتاب قلوب الكنعانيين تقدم يشوع مع جماعته من جهة (شطيم) على الضفة الشرقية لنهر الأردن، فأمر يشوع عرفاء الشعب قائلا: ((حوزوا في وسط الخلة، وأمروا الشعب قائلين هيئوا لأنفسكم زادا لأنه بعد ثلاثة أيام تعبرون الأردن هذا، لكي تدخلوا فتمتلكوا الأرض التي يعطيكم الرب)) [يشوع ١: ٧-١١] وعندما حل الموعد المضروب وتقدم يشوع بقواته لعبور الأردن وأمامهم (تابوت العهد)، وما إن وضع حاملوا (التابوت) - الذين كانوا في المقدمة - أرجلهم في ماء النهر حتى انغلقت مياه النهر أمامهم في معجزة إلهية ثانية كمعجزة بحر (سوف) التي حدثت لموسى عليه السلام . وعبروا على اليابسة ثم عاد الماء سيرته الأولى، وخيم يشوع في موقع (الجلجال) في تخم

^١ - ابن خلدون ٣٣/٢

^٢ - ابن كثير، البداية والنهاية ٣٠١/١

^٣ - لا ندرى لماذا وصفوها بهذا الوصف القبيح ؟ وما هو المغزى من التأكيد في التوراة المحرفة على هذه الصفة؟! وهي التي قدمت لهم أعظم خدمة! هل لأن (الزنا) صفة مدح لديهم، ولتبرير هذا العمل المشين في المجتمعات، خصوصا إذا عرفت أنها تزوجت بنبي الله (يشوع) كما زعموا! وأنها أم الأنبياء أيضا!! فهل الأنبياء يتزوجون من (الزواني)؟! حاشاهم من ذلك، فكيف إذا عرفت أن لديهم شخصيات نسائية أخرى في (التوراة) لهن القدر الرفيع وهن من الزواني مثل: استير - يهوديت .

مدينة (أريحا) الشرقي، وخاطب الشعب قائلاً: ((غدا تعلمون بأنكم قائلين على اليابسة عبر إسرائيل هذا الأردن، لأن الرب إلهكم قد ييس مياه الأردن أمامكم حتى عبرتم، كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذي ييسه من أمامنا حتى عبرنا . لكي تعلم جميع شعوب الأرض يد الرب أنها قوية)) [يشوع: ٣-٤] وانتقلوا هناك بعد الفصح، وأكلوا من غلة الأرض في الغد بعد (الفصح) فطيرا وفريكا، وانقطع (المن) و(السلوى) من يومئذ.

وكافتاحية قام يشوع بن نون بختن جميع الذكور لأنهم كانوا قلفاء ! إذ كانوا في التيه لم يختنهم أحد .

لم يدم حصار أريحا أكثر من سبعة أيام^١، لأن الرب أظهر في (أريحا) معجزة أخرى، فقد أمر الرب يشوع أن يدور بجنوده حول أسوار المدينة في كل يوم مرة وفي اليوم السابع لدى إتمامهم سبع دورات، يقوم حملة الأبواق بالنفخ فيه بصوت عظيم، يتبعهم جميع الشعب بهتافات مدوية فيسقط سور المدينة من تلقاء ذاته، وجبة واحدة، وتكون المدينة وكل ما فيها محرم للرب^٢.

فعل يشوع ما أمره الرب وسقطت الأسوار من تلقاء ذاتها، فدخل يشوع وجنوده، وأبادوا أهل المدينة عن بكرة أبيهم مع حيواناتهم ومواشيهم، ثم نهبت المدينة وأحرقت بالنار ((وحرقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ حتى البقر والغنم بحدّ السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها))^٣ [يشوع: ٦] .

((وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلاً: ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبنى هذه المدينة أريحا، ببكرة يؤسسها، وبصغيرة ينصب أبوابها)) [يشوع: ٦]، وقد سُمّي (اليعقوبي) هذه المدينة بـ(البلقاء) وذكر فيها قصة غريبة لامرأة منجمة^٤، ((ويقال على

^١ - هكذا في (سفر يشوع) بينما الطبري وابن كثير والتعلي وابن خلدون قالوا بأنها سبعة أشهر نقلا عن بعض أهل الكتاب . انظر (الطبري، تاريخ الأمم والملوك ١/٢٦٠، ابن كثير، البداية والنهاية ١/٣٠١، التعلي، قصص الأنبياء، ص ١٣٩، وابن خلدون ٢/٩٩)

^٢ - التحريم بالمصطلح التوراتي هو تقديم سكان المدينة المقلوبة قربانا للرب مع مواشيهم وكل نفس حية من ممتلكاتهم . أما الممتلكات المادية الثمينة كأواني الفضة والنحاس والذهب، فتكون قدسية للرب وتدخل في خزائن الرب [فراس السواح، آرام بين دمشق وإسرائيل، ص ٨٢]

^٣ - حاشا الأنبياء من مثل هذه الأفعال الدموية التي ينسبها إليهم اليهود .

^٤ - اليعقوبي ١/٤٦

أن يشوع ظهر على أحد و ثلاثين ملكا من ملوك الشام))^١.

وقد ورد في السنة النبوية ذكر لفتح (أريحا) وهو من أصح ما ورد في هذا الباب فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم {غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتا ولم يعرف سقوفها، ولا آخر اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليهم فجمع الغنائم فجاءت - يعني النار- لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول فليبايعني قبيلتك فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده فقال: فيكم الغلول، فجاءوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها، ثم أحل الله لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا}^٢.

وفي رواية أبي عبد الله الحاكم بعد ذكر الحديث قال كعب: {صدق الله ورسوله، هكذا والله في كتاب الله - يعني في التوراة - ثم قال: يا أبا هريرة، أحدثكم النبي صلى الله عليه وسلم أي نبي كان؟ قال: لا. قال كعب: هو يشوع بن نون. قال: فحدثكم أي قرية هي؟ قال: لا. قال: هي مدينة أريحا^٣، وهذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم من قصة (الغلول) وقصة (حبس الشمس) قد وردت مفصلة أيضاً في (سفر يشوع) كما بين ذلك كعب الأحبار إلا أنه قد أضيف أيضاً مع الشمس (إيقاف القمر)^٤، وجاء أيضاً أن صاحب (الغلول) ((رجمه يوشع وأحرق كل ما كان له بالنار،

^١ - ابن كثير، البداية والنهاية ٣٠١/١، والتعليق، قصص الأنبياء، ص ١٣٨ وهذا العدد الذي ذكره هو نتيجة جمع الملوك المقتولين في (سفر يشوع).

^٢ - رواه البخاري في (الصحيح) باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (أحلت لكم الغنائم) ٣٩٤/٢ برقم (٣١٢٤)، ورواه مسلم في (الصحيح) باب: تحليل الغنائم لهذه الأمة خاصة ١٣٦٦/٢ برقم (١٧٤٧).

^٣ - رواه الحاكم في (المستدرک) كتاب قسم الفيء ١٥١/٢، برقم (٢٦١٨) وقال: هذا حديث غريب صحيح، ولم يخرجاه. وقال الذهبي في (التلخيص): صحيح غريب وفيه مبارك بن فضالة. قال عنه ابن معين: ضعيف الحديث. وقال ابن المديني: هو صالح وسط، وقال أبو زرعة: يدلس كثيرا، وقال ابن أبي حاكم: هو مقبول. (انظر تهذيب التهذيب، لابن حجر ٣٠/١٠) وقال في (التقريب): صدوق يدلس ويسوى [ص ٥١٩]

^٤ - انظر (سفر يشوع ١٠: ١٢-١٤) وعموما فلا تعارض في ذلك، إذ أن المقصود هو توقف الزمن على موقع المعركة من خالق الزمن سبحانه، ولا يلزم من ذلك شعور الأمم المجاورة بذلك.. لكن الخلط التوراتي وقع لما زعموا أن ذلك كان في معركة يوشع مع ملوك الأموريين عند (جبعون)، والصحيح- كما بينه الحديث- أن ذلك في معركة (أريحا).

وسموا الموضع باسم صاحب الغلول، وهو عاجر فالموضع إلى هذا اليوم غور عاجر))^١.
وقد ورد ذكر هذا الفتح في القرآن الكريم أيضاً: في قوله سبحانه ﴿وَإِذ قِيلَ لَهُمْ
اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفْعِرْ
لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦١، ١٦٢]
وقد جاء في تفسيرها: أنه ((لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجداً أي ركعاً
متواضعين شاكرين لله عز وجل على ما منّ عليهم من الفتح العظيم الذي كان الله
وعدهم إياه، وان يقولوا حال دخولهم (حطة) أي حط عنا خطايانا التي سلفت من
نكولنا الذي تقدم منا))^٢.

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب
سجداً وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على استاهم فبدلوا وقالوا: حطة حبة في
شعرة}^٣.

^١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك ١/٢٦٠، وانظر (سفر يشوع ٧: ١-٢٦) إلا أن اسم الموضع (وادي عخور).

^٢ - ابن كثير، البداية والنهاية ١/٣٠٢.

^٣ - رواه البخاري برقم ٤١١٩، كتاب التفسير، باب: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية، ١٣/٣٩٨.

٣- عدم وصول يوشع إلى (القدس):

بعض العلماء وعلى رأسهم الإمام (ابن كثير) يرى أن هذا الفتح إنما كان لـ(بيت المقدس) وليس لـ(أريحا) وأن الحديث الوارد في الصحيحين - السابق ذكره - إنما كان في فتح (بيت المقدس)، واستدل (ابن كثير) لذلك بأدلة منها:-

أ/ ((إن فتح بيت المقدس هو المقصود الأعظم وفتح أريحا كان وسيلة إليه))^١.

ب/ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: {إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس}^٢.

ج/ ((لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس))^٣.

د/ أن بيت المقدس هي القرية التي قال الله فيها ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦١، ١٦٢]. ونحن نؤكد هنا على أن الفتح العظيم إنما كان لـ(أريحا) كما ذهب إلى ذلك جمهور المؤرخين والمفسرين.. وإثباتنا ذلك قائم على البراهين الآتية:-

أولاً: ليس من المألوف في الاستخدام القرآني للفظ (القرية) أن تكون لمكان عظيم كـ(بيت المقدس)، إذ لو كان المقصود (القدس) لكان التصريح بها في النص القرآني أولى من الإخفاء بـ(القرية) إذ علم من المنهج القرآني أن هذه (البقعة المطهرة) لها اعتبار شرعي مثل (مكة) (والمدينة) التي جاء التصريح بها في القرآن ولذلك فقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المقصود بـ(القرية) في الآية المذكورة سابقاً ومثلتها: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩] قالوا: أن

^١ - ابن كثير، البداية والنهاية ٣٠١/١

^٢ - رواه أحمد في (المسند) [٣٢٥/٢] برقم ٧٩٦٤، وصححه الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) ٣٩٣/١ برقم ٢٠٢

^٣ - ابن كثير، التفسير [٢٧٣ / ١]

المقصود بها أريحا^١، قال بذلك ابن عباس في رواية، وابن زيد، و السدي ، وغيرهم .
وهذا الدليل الاعتباري أيضاً يؤخذ به في الحديث النبوي السابق والذي فيه إغفال اسم (القدس): {فدنا من القرية}..أفليس من المناسب إذا كانت (القدس) أن يبينها النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة؟ فما بالها خفيت حتى على راوي الحديث (أبي هريرة) رضي الله عنه ؟ ولم يعرف أنها (أريحا) إلا عن طريق كعب (الأخبار).

ثانياً: قول النبي صلى الله عليه وسلم: { إن الشمس لم تحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس } هذا الحديث نستدل به على المخالف بما يسمى بـ(قلب الدليل) عند الأصوليين ، إذ أننا لو دققنا في النص سنجد لفظ(ليالي سار) فكيف يكون الحديث عن (حبس الشمس) في النهار، وقد قيل أنها آخر ساعة بعد العصر يوم الجمعة و(أما وقفت بينها وبين الغروب قيد رمح))^٢، ثم يأتي اللفظ بـ(ليالي)؟
والجواب: إن معنى الحديث هو (ليالي) أي في زمن توجهه، (سار) أي في طريقه إلى بيت المقدس، وليس عند أبواب (بيت المقدس)، ومن المعلوم أن (أريحا) هي المنفذ الكبير والقوي للوصول لبيت المقدس، وأما قول (ابن كثير) أنها ليست على طريقهم، فذلك لظنه أنهم جاءوا من جهة الجنوب وهم كما قد بينا جاءوا من جهة الشرق (شرق نهر الأردن).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ ادخلوا الباب سجداً ﴾ [البقرة: ٥٨] هو الباب نفسه الذي قال الله فيه: ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ [المائدة: ٢٣] والمراد بذلك باب (أريحا) وذلك أنها كانت مدينة حصينة واشتهرت بالأبواب الصامدة، وكما أننا أثبتنا سابقاً أن موسى عليه السلام كان يطلب منهم دخول (أريحا)، وأن يوشع عليه السلام قال لهم: ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ [المائدة: ٢٣] فناسب ذلك أن يكون أول مدينة يفتحها (يوشع) بعد الخروج من (التيه) هي أريحا.

رابعاً: إن فتح (أريحا) كان مقدمة هامة للوصول لفتح بيت المقدس، حتى أن

^١ - انظر: الطبري، جامع البيان ٢٣٨/١ - البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود ، البغوي ، معالم التنزيل (معالم التنزيل) ، تحقيق : محمد النمر - عثمان ضميرية - سليمان الحرش ، الطبعة الثالثة ١٤١٦ هـ ، الرياض ، دار طيبة ٩٨/١ - ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن ، زاد المسير في علم التفسير ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ٨٤/١

^٢ - ابن الجوزي ، فضائل القدس ، ص ١١٢

(السدي) يرى أن بيت المقدس هي أريحا، ولعله يقصد أن أكبر عقبة لبيت المقدس كانت (أريحا)، فكأن الذي تمكن من (أريحا) سيتمكن من (بيت المقدس)، خصوصاً مع قربها منها.

ولعلي أشبهه (فتح أريحا) بـ(صلح الحديبية) في سيرة المصطفى ﷺ، حيث أن الله سماه "فتحاً مبيناً"، ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ [الفتح: ١] مع علمنا أنه لم يكن فتحاً لمكة، بل كان مقدمة هامة للنصر العظيم.

خامساً: إذا طبقنا معايير (سنن الله في الأرض) وتدرج الأمم في الترقى، فإننا سنلاحظ أنه لم يكن الوقت بعد آنذاك لفتح (القدس)، وأن هذه المرحلة المتقدمة لم تتم إلا على يد نبي الله (داود) عليه السلام حين افتتح القدس، فلا موسى ولا يوشع (عليهما السلام) تمكنا من فتح (بيت المقدس) بل ولا حتى (طالوت) - كما سيمر معنا في الدراسة - ولكني أستطيع أن أشبه حركة النصر التاريخية لبني إسرائيل، بالأحداث التي مرت بالنبي ﷺ خاتم النبيين، فما مر ببني إسرائيل مع موسى عليه السلام أشبه بمدة الاضطهاد في (العهد المكي)، وما حصل مع يوشع عليه السلام أشبه بأحداث الهجرة والانتقال للمدينة النبوية، وما حصل في معركة (طالوت) مع (جالوت) أشبه بمعركة (بدر) في يوم الفرقان، وما حصل مع (داود) عليه السلام أشبه بفتح مكة .. فالتاريخ إذاً يعيد نفسه، والسنن الإلهية لا تتخلف.

سادساً: فيما يتعلق بمدينة القدس (أورشليم)، فإن وضعها بقي غامضاً في استراتيجية يشوع - بحسب ما جاء في التوراة - فحين اتحد ملك أورشليم (اليبوسيين) أدوني صادق مع أربعة من الملوك المجاورين (ملك حبرون - ملك يرموت - ملك لخيش - ملك عجلون) وتصدوا ليوشع، وقعوا في الأسر فأعدمهم جميعاً. [سفر يشوع ١٠ : ٢٢-٢٧] وبرغم ذلك لم يتمكن بنو إسرائيل من احتلال (القدس) نفسها، إذ كانت محصنة تحصيناً منيعاً، حيث قادهم اليبوسيون مرة أخرى الذين اتحدوا مع ملك (حاصور) ضد يوشع عليه السلام، إلا أنهم انهزموا أيضاً وتشقق شملهم^١!

^١ - انظر (سفر يشوع ١١ : ١-٩)

ويبالغ (ابن خلدون) فيما نسبته من كلام (الطبري)^١، إذ قال: ((وأعطى - يعني يشوع - جبل المقدس لكالب بن يوفنا فسكن مدينة أورشليم^٢، وأقام مع بني يهوذا ووضع القبة، التي فيها تابوت العهد والمذبح والمائدة والنارة على الصخرة التي في بيت المقدس))^٣ وبعد موت (يشوع عليه السلام) أعاد سبط يهوذا الكرة على (أورشليم): ((وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وخربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار)) [سفر القضاة ١ : ٨].

كل هذه الهزائم المتتالية لليبوسيين إلا أننا نتعجب كيف لم تفتح ويسكنها بنو إسرائيل! وكيف أن يشوع لم يعرج على (القدس) في طريقه نحو الجنوب بل تابع حملته جنوباً وصولاً إلى غزة ثم عاد إلى مقره في الشمال دون أي ذكر لـ(أورشليم)! هل عقد معهم صلحاً على أن يدفعوا الجزية - كما يزعم بعض المؤرخين -^٤؟ ذلك مستبعد، لأننا لم نجد في الكتاب المحرف سوى الدماء والغطرسة اليهودية التي لا ترحم، ولو كان ثمت صلح لسجلوه ولكان أهل (جبعون) ما لجؤوا إلى الحيلة حتى يسلموا من القتل - بحسب رواية التوراة -^٥ بل جاء فيها: ((ولم تعقد مدينة واحدة صلحاً مع الإسرائيليين إلا الحويين سكان جبعون، إنما استولى الإسرائيليون على جميع المدن بالحرب... فلا تكون عليهم رافة بل يبادون كما أمر الرب)) [سفر يشوع ١٩ : ١١ - ٢٠].

وعندما يأتي النص على ذكر توزيع الأراضي المكتسبة على الأسباط يقول بشأن (أورشليم): ((وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم)) [يشوع ٦٣ : ١٥]، أما في سفر القضاة فجاء ما يناقض هذا الكلام: ((وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم)) [سفر القضاة ١ : ٢١].

^١ - لم أجد لهذا النقل ذكراً في (تاريخ الطبري) بحسب اطلاعي، ولعله نقله عنه من كتاب آخر.

^٢ - الذي في التوراة أن يشوع أعطى كالب بن يوفنا (جدون) - مدينة الخليل - وليس (القدس). [سفر يشوع ١٤ : ٦ - ١٨]

^٣ - ابن خلدون ٢ / ١٠١

^٤ - انظر : [سفر يشوع ٩ : ٣ - ٢٧]

^٥ - انظر : ابن خلدون ١ / ١٠١ - د.حسن ظا، القدس مدينة الله .. أم مدينة داود؟، ص ١٠

ثم يزيد التناقض حين تقرأ هذا النص: ((وفيما هم عند ييوس^١ والنهار قد انحدر جداً قال الغلام لسيدة: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غربية حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا يعبر إلى جبعة)) [سفر القضاة ١٩: ١٢] فلا عبري فيها لا من بني يهوذا - بحسب النص الأول -، ولا من بني بنيامين - بحسب النص الثاني - وربما تكون هذه هي الحقيقة، وأن كل ما ذكر من قتلهم لملكها واجتياحهم لها، أو سكناهم فيها .. إنما هو من المغالطات التاريخية لكتابة التوراة المحرفة، ومن المبالغات اليهودية في استدعاء الشجاعة المزيفة داخل النصوص التوراتية^٢.

^١ - من أسماء مدينة القدس).

^٢ - انظر: سوسة، د. أحمد، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الثانية، العربي للإعلان والطباعة، ص ٢٩٢ - د/حسن ظا، القدس مدينة الله .. أم مدينة داود؟ ص ١٠ - د/مصطفى كمال، د/سيد فرج، اليهود في العالم القديم، ص ٦٥ - فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ٩١ - د/إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي، ص ٢٧٠

٤ - فتح عاي:

بعد إخضاع (أريحا) توجه يوشع عليه السلام إلى (عاي) الواقعة خرائبها بجوار بلدة (دير دبوان) الحالية، فهزم أهل (عاي) بني إسرائيل في البداية، فحشا شيوخهم التراب على رؤوسهم وأصبح قلب الشعب كالماء ومزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه، وخطب الرب قائلاً: ((لماذا أجزت هذا الشعب نهر الأردن لتسلمنا إلى أيدي الأموريين لبيدوننا))^١ [سفر يشوع ٧: ٨] فبين الله له أن خذلانهم كان بسبب صاحب (الغلول) - الذي مر في فتح أريحا- فلما رجم وعدهم الله بالنصر، فأرسل جيشاً من ثلاثين ألف محارب! لإخضاع المدينة، ولم يكتفوا بهذا العدد - المزعوم - بل نفذوا أيضاً خدعة حربية، بوضع كمين خلف المدينة، ثم تقدم يشوع بكل الشعب نحو (عاي) التي خرجت للقائهم، فتظاهر رجال يشوع بالهرب أمام رجال (عاي)، فلحقوا برجال يشوع، فدخل رجال فرقة الكمين - الثلاثين ألف - المدينة وأحرقوها، فارتد رجال (عاي) لينفذوا المدينة، فارتد أيضاً يشوع بجيشه ورائهم وأصبح رجال عاي بين فكي كماشة. فأمسكوا بملكها حياً وسلموه يشوع فأمر بصلبه على خشبة حتى غروب الشمس ثم أنزلوه جثة وطرحوها عند مدخل المدينة.

ثم إن الرب أمر يشوع أن ((تفعل بعاي وملكها كما فعلت بأريحا وملكها غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم))^٢ [سفر يشوع ٨: ٢] .

ثم تقول التوراة: ((فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي ... وأحرق عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم)) [يشوع ٨: ٢٥-٢٨].

ما ذكر سابقاً كان خلاصة ما ورد في (سفر يشوع) لهذا الفتح .. وقد تم التعرف على مدينة (عاي) في الموقع المعروف اليوم باسم (التل)^٣، إلا أن بعض علماء الآثار يزعمون

^١ - حاشا نبي الله يوشع عليه السلام من التسخط على أقدار الله كما زعم يهود ، فلينتبه .

^٢ - هذا مصادم للنص النبوي في الصحيحين عن النبي ﷺ : { أعطيت حسماً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي - وذكر منها - وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد من قبلي } .

^٣ - يبعد ١٥ كم عن مدينة (القدس) من الشمال .

أن هذه المدينة دمرت قبل مجيء يوشع عليه السلام بزمن طويل^١.. وأنه رغم التنقيب والحفريات المتكررة فقد جاءت النتائج مخيبة للآمال! ولذلك اقترح بعضهم حكاية الاحتلال هذه أسطورة لا غير^٢. كما اقترح آخرون أن تكون المدينة المفتوحة هي (بيتين) وليست (عاي)، لأنها لم تكن مأهولة آنذاك^٣، أما الدكتور إسماعيل الصمادي فيزعم أن ((القبائل والجماعات العبرية التي دخلت في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وجدت تلك المدن مهدامة، فنصبت خيامها بالقرب منها، ولما مرت أيام كثيرة، ادعت هذه القبائل أنها هي من قامت بتدميرها))^٤، وعموماً فلست بحاجة للانتصار للتوراة المحرفة في إثبات فتح (عاي) إذ أن في النص ما يوحي باختلاق القصة برمتها، ومن ذلك ما يأتي:

١. عدد الكمين المهاجم من الخلف ٣٠.٠٠٠ مقاتل! سوى من كان مع (يشوع) عليه السلام، مع أننا نجد في المقابل أن سكان (عاي) جميعها ١٢.٠٠٠ ومعنى ذلك أن عدد المحاربين لا يتجاوز ٣.٠٠٠ فقط.. فلماذا يلجأ (يشوع) إلى الخدعة والكمين؟

٢. ذكروا أنهم استباحوا الغنائم، وهي محرمة عليهم كما بينا.

٣. القتل الشنيع لجميع السكان من المستضعفين والصبيان.

٤. اهتموا نبي الله يشوع عليه السلام بأنه متسخط على أقدار الله بفعله - تمزيقه الثياب - وبلسانه - الاعتراض على الله - ونبي الله يوشع عليه السلام معصوم من ذلك.

^١ - انظر : فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ٩٥

^٢ - أبو عامر، د. علاء، حكاية شعب التوراة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، غزة فلسطين، دار ابن خلدون، ص ١٧

^٣ - توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص ١٩

^٤ - الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ٢١٥

٥ - فتح بقية المدن:

كانت الفتوحات التي قام بها (يشوع) عليه السلام بعد فتح (أريحا) تتجه باتجاهين الجنوب، والشمال، وبحسب الرواية التوراتية فإنه لما سمع سكان (جبعون) القريبة من أريحا نحو الشرق، خافوا من مواجهة إسرائيل، وصعد وفد منهم بخدعة إلى يشوع وقد ارتدوا أسماً بالية ونعلاً ممزقة، وفي أكياس زادهم خبز يابس قد صار فتاتاً، وطلبوا الأمان لمدينتهم منه قائلين أن مدينتهم بعيدة جداً وفقيرة، وهاهي ثيابهم قد بليت ونعالمهم قد تشققت من طول المسافة، وخبزهم قد تفتت - وليس في الطريق - فقطع لهم يشوع ورؤساء جماعته بعدم الاعتداء عليهم. وبعد سفرهم عرف (يشوع) أن المدينة قريبة وميسورة الحال، ولكنه بقي على العهد الذي قطعه لهم وأمر بتسخيرهم لخدمة إسرائيل [يشوع:٩].

وبسبب ذلك اتحدت خمس مدن كنعانية بقيادة (أورشليم) والتي كان يحكمها الملك (أدوني صادق)، (فاجتمع ملوك الأموريين الخمسة ملك أورشليم (أدوني صادق) وملك حبرون (هومام) وملك يرموث (فرآم) وملك لخيش (يافيغ) وملك عجلون (دبير) [يشوع:١٠] وقرروا الانتقام من الجبعونيين لأنهم تعاهدوا مع أعداء البلاد، ولكن العبرانيين ناصروا حلفاءهم الجبعونيين وتصدوا لتحالف المدن الكنعانية ودحروهم، كما أن الرب ساندهم في الحرب بأن رمى على الكنعانيين وهم هارين بحجارة من (برد) في الصيف وقت الحصاد (فكان من قتله البرد أكثر ممن قتله بنو إسرائيل بالسيف).^١ فاختم ملوكهم الخمسة في إحدى المغارات، وحاصروهم رجال يشوع، وسدوا باب المغارة على الملوك بالحجارة، وبعد أن فرغوا من الحرب عادوا إلى المغارة وأخرجوا الملوك الخمسة، ووطئوا بأقدامهم على رقاب الملوك الخمسة، ثم قتلوهم وصلبوهم، وألقوا بجثثهم في المغارة وأغلقوها.

ثم تابع (يشوع) مسيرته جنوباً واستولى على المدن الآتية:

مقيدة - لينة - لخيش - جازر - عجلون - حبرون - دبير.

وصولاً على غزة على الساحل ثم يعطف نحو الصحراء ليصل إلى (قادش برنيع) دون

^١ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ١/٢٦٠

أي ذكر لمدينة (أورشليم) التي كانت رأس تحالف الملوك الخمسة، بعد ذلك يقفل عائداً إلى مخيمه في الجلجال قرب (أريحا) [يشوع: ١٠].

كانت (حاصور) درة مدن الشمال وأقواها، وبعد سماع أخبار هذه الحروب اجتمع ملوك بلاد كنعان في الشمال برئاسة ملك حاصور (يابين) وشكلوا جيشاً كبيراً (شعباً غفيراً كالرمل)، ونزلوا عند مياه (ميروم)^١، فغزاهم العبرانيون بغتة ودحروهم وشتتوا جنودهم، وعاد يشوع على مدتهم ولم يبق فيهم شاردة (لم تبق نسمة وأحرق حاصور بالنار)، ثم استولى على الجليل الأعلى حتى صيدا (فأخذ يشوع كل الأرض حسب ما كلم به الرب موسى عليه السلام وأعطاهها ملكاً لإسرائيل حسب فرقهم وأسباطهم واستراحت الأرض من الحرب) [يشوع: ١١] وبذلك سقطت في يد يشوع إحدى وثلاثون إمارة للكنعانيين^٢. وكان مجموع الأمم التي قهرها يشوع (سبع أمم من الكنعانيين)^٣ وقد بالغ ابن الأثير حين قال أنه: (ملك الشام جميعه فصار لبني إسرائيل وفرق عماله فيه).^٤

● وقد كشف المنقبون وعلماء الآثار عن آثار دمار كامل لمدينة حاصور يرجع إلى حوالي عام ١٢٣٠ ق.م، وكذلك وجدوا آثار دمار في مواقع أخرى مثل لخيش (تل الدوير) وديبر (تل بيت مرسيم) وكلها تعود إلى حوالي عام ١٢٣٠ ق.م^٥.

● ومع هذه الفتوحات الكثيرة المذكورة في التوراة إلا أن مدناً كثيرة بقيت في أيدي الكنعانيين ولم يتمكن (يشوع) من إخضاعها ومنها: بيسان - مجدو - عكا وسهولها - الطنطورة .. وقسم كبير من شمال شرقي فلسطين ويوس (أورشليم) كما أن الساحل بكامله من الكرمل إلى سيناء بقي في أيدي الفلسطينيين^٦ بما في ذلك: غزة وجت وأشدود وعسقلان وغيرها.

^١ - تسمى اليوم (بحيرة الحولة).

^٢ - د. مصطفى كمال - د. سيد فرج، اليهود في العالم القديم، ص ٦٦

^٣ - ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج ابن اهرن الطيب، تاريخ مختصر الدول، صححه: أنطون صالحاني اليسوعي، طبعة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، بيروت، دار الرائد اللبناني، ص ٣٦

^٤ - ابن الأثير، الكامل ١ / ١٥٥

^٥ - فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ٩٥

^٦ - الدباغ، بلادنا فلسطين، ص ٥٥٤

((وحسب (سفر يشوع) فقد استطاع بنو إسرائيل بقيادة يشوع من اجتياح شبه كامل لبلاد كنعان خلال مرحلة قصيرة جداً، ولم يتبق من بلاد كنعان سوى المنطقة الساحلية الجنوبية ... ولكن السفر نفسه عاد وتراجع قليلاً عن تمويل الاجتياح، والمساحة المجتاحة، وحصرها بالضفة الغربية من نهر الأردن، وإذا ما تابعنا قراءة سفر القضاة^١، فإن هذه المساحة تتراجع وتنكمش إلى بقع صغيرة متناثرة، وغير متصلة))^٢.

((وفي الحقيقة فإن عملية توزيع الأراضي المكتسبة في كنعان على القبائل الإسرائيلية، تظهر بوضوح أن حملات يشوع، العسكرية لم تكن حاسمة، وأن العديد من المدن التي ذكر النص سابقاً عن تدميرها وإبادة سكانها ما تزال قائمة وسكانها أقوياء وأن الإسرائيليين عاجزون عن طردهم والحلول محلهم))^٣ وبعيداً عن مبالغات التوراة في (الفتوح) فإن ((من المجمع عليه - وإن كانت روايات التوراة تختلف في التفاصيل - أن الفتح الذي بدأ بقيادة يشوع لم يصادف أول أمره إلا نجاحاً قليلاً، ولكنه استمر في الواقع أجيالاً وأجيالاً، ولم يتم على وجه التحقق إلا باستيلاء الملك (داود) على (أورشليم). ومن الجلي أن بني إسرائيل قد كافحوا أشد كفاح في المدة التي أنقضت بين يشوع وداود. وتعذر على عشائريهم المنعزلة أن تثبت لأعدائها))^٤.

ولعل ((ما ساعد على تقديم الفتح في بلاد كنعان بقيادة يشوع ملائمة الظروف السياسية السائدة آنذاك، فقد كانت البلاد منقسمة على نفسها تتصارع فيما بينها، ودويلات لا يحصى عددها يحكم فيها حكام إقطاعيون مستبدون همهم الوحيد الحفاظ على سيطرتهم))^٥.

^١ - يقدم لنا محررو التوراة نظريتين متناقضتين لتفسير دخول القبائل الإسرائيلية إلى فلسطين : نظرية الاقتحام العسكري الصاعق عبر نهر الأردن، والتي تقوم على أساس أحداث سفر يشوع، ونظرية التسلسل السلمى التدريجي، التي تقوم على أساس أحداث سفر القضاة.

وهذين السفرين متناقضين في جميع تفاصيلهما إلى درجة تدفع إلى القول بأن محرر سفر القضاة لم يقرأ أو يطلع على سفر

يشوع. (آرام دمشق وإسرائيل، فراس السواح ص ٨٦)

^٢ - د.إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١٩٣

^٣ - فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ٩٢، وانظر : د.إسماعيل الصمادي، نقد النص التوراتي، ص ٢٤٨، ود.مصطفى كمال، د.سيد فرج، اليهود في العالم القديم، ص ٦٦

^٤ - هامرتن، تاريخ العالم ٢ / ١٠٥

^٥ - د.أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٩٢، وانظر: فوزي محمد حميد، حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل

*وأود أن أنبه أن أصل هذه الفتوحات ثابت لا شك، وإن جاء في الكتاب المقدس لدى أهل الكتاب بعض المبالغات، وقد زعم بعض الباحثين أن هذه الفتوحات ما هي إلا مجرد خيالات وأن تلك المدن كانت أصلاً مهتمة ومدمرة من قبل وصول الجماعات العبرية ! وأنها ((نصبت خيامها بالقرب منها، ولما مرت أيام كثيرة أدعت هذه القبائل العبرية أنها هي من قامت بتدميرها))^١.

واحتجوا لذلك بـ((الحفريات المتكررة التي أجرتها البعثات المختلفة في أريحا و عاي والتي خيبت الآمال بشكل شديد رغم جهود التنقيب .. وتعزز الاستنتاج بأنه لا يوجد أساس يقوم على حكاية التوراة حول احتلال أرض فلسطين على يد أسباط إسرائيل في إطار حملة عسكرية بقيادة يوشع))^٢.

#وكل ما يزعمه المنكرون لهذه الفتوحات إنما هو ناشئ من اعتمادهم الكلي على أبحاث الأركيولوجيا والآثار، ولا يعيرون المرويات أي اهتمام ..وهو منهج خاطئ في الحكم التاريخي .

١ - د.إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ٢١٥

٢ - د.علاء أبو عامر، حكاية شعب التوراة، ص ١٧

٦- الوضع بعد الفتوح:-

قسم يوشع عليه السلام أرض فلسطين إلى أنصبة قبلية بين أسباط بني إسرائيل الاثني عشر محدداً مكان كل سبط، فقد بدأ في توزيع الأسباط بالقرعة تبعاً لتعداد أفرادهم، ((ثم كلم الرب موسى عليه السلام قائلاً:هؤلاء تقسم الأرض نصيباً على عدد الأسماء، الكثير تكثر له نصيبه، كل واحد حسب المعدودين منه يعط نصيبه، إنما بالقرعة تقسم الأرض حسب أسماء أسباط آبائهم يملكون، حسب القرعة يقسم نصيبهم بين كثير وقليل)) [سفر يوشع ٦: ٢١، ٢٤].

وإن كان هذا التقسيم في حقيقته بقي صورياً في بعض المناطق، ولم يستطع بعض الأسباط أن يسيطروا على مناطقهم المقسومة لهم إلا في عهد داود عليه السلام.

• كما أن يوشع عليه السلام اتخذ من مدينة (شيلوه) أول مقر للقيادة حيث أقيم هناك المعبد ووضع فيه تابوت العهد^١.

• وكان موسى عليه السلام (لما سار من مصر ببني إسرائيل إلى التيه نبش يوسف عليه السلام وحمله معه في التيه حتى مات موسى عليه السلام، فلما قدم يوشع عليه السلام ببني إسرائيل إلى الشام دفنه بالقرب من نابلس، وقيل عند الخليل عليه السلام)^٢.

• أما وضع بني إسرائيل الديني بعد الاستقرار فقد ((أكثر بنو إسرائيل الزنا، وشرب الخمر، ووقعوا على النساء، وكثرت فيهم الفاحشة، فعظم ذلك على يوشع عليه السلام بن نون، وخوفهم الله، وحذرهم سطوته، فلم يحذروا، فأوحى الله عز وجل إلى يوشع بن نون: إن شئت سلطت عليهم عدوهم، وإن شئت أهلكتهم بالسنين، وإن شئت بموت حثيث عجلان، فقال: هم بنو إسرائيل، ولا أحب أن تسلط عليهم عدوهم، ولا يهلكون بالسنين، ولكن بموت حثيث، فوقع فيهم الطاعون فمات في وقت واحد سبعون ألفاً))^٣.

^١ - د.إسماعيل الصمادي ، نقد النص التوراتي ص ٢٤٨

^٢ - محمد صديق حسن خان، لقطه العجلان ، ص ٨٧، وانظر : ابن خلدون ٢ / ١٠١

^٣ - اليعقوبي ١ / ٤٧

رابعاً : وفاة يوشع عليه السلام:

لما تقدمت سن يوشع عليه السلام لم يكن قد حقق أمنية بفتح بيت المقدس ولا استقر له أمر بني إسرائيل بالشكل المطلوب ((وشاخ يشوع، تقدم في الأيام، قال له الرب: أنت قد شخت، تقدمت في الأيام، وقد بقيت أرض كثيرة جداً للامتلاك)) [سفر يشوع ١٣ : ١].

• وبحسب التوراة فقد كانت وفاته في تمنا سارح بجبل إفرائيم^١ [سفر يشوع ٢٤ : ٢٩] وهذه المنطقة قرب نابلس حالياً .

- وكان عمر يشوع حين وفاته عشر سنوات ومائة و١١٠ بحسب رواية التوراة [يشوع ٢٤ : ٣٠] وقد وافق التوراة المؤرخ اليهودي (ابن العبري) في ذلك^٢.

أما الإمام الثعلبي وابن خلدون فيرون أن عمره كان عشرين ومائة سنة ١٢٠ حين وفاته،^٣ وزاد الطبري وابن الأثير بأن عمره كان ست وعشرون ومائة سنة^٤، أما ابن كثير فقال سبع وعشرين ومائة سنة^٥.

- وكانت مدة حكم يشوع لبني إسرائيل سبعا وعشرين عاما عند عامة المؤرخين^٦، أما ابن خلدون فيرى أنها ثمان وعشرون عاما^٧.

- وكان يوشع عليه السلام قد استخلف من بعده كالب بن يوفنا^٨.

- وإذا ما قلنا أن وفاة موسى عليه السلام كانت قرابة عام ١١٨٧ ق.م فمعنى ذلك أن وفاة يوشع عليه السلام كانت قرابة عام ١١٦٠ ق.م أو عام ١١٥٣ ق.م^٩.

^١ - انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك / ١ / ٢٦١ ، والثعلبي ، قصص الأنبياء ، ص ١٤٠

^٢ - ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٣٦

^٣ - الثعلبي ، قصص الأنبياء ص ١٤٠ وابن خلدون ١٠١/٢

^٤ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك / ١ / ٢٦١ ، ابن الأثير ، الكامل ١٥٥/١

^٥ - ابن كثير ، البداية والنهاية ٣٠٣/١

^٦ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك / ١ / ٢٦١ ، الثعلبي ، قصص الأنبياء ، ص ١٤٠ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٠٣/١ ،

ابن الأثير ، الكامل ١٥٥/١ ، يعقوبي ٤٧ / ١ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥ .

^٧ - ابن خلدون ١٠١/٢

^٨ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١٥٥ / ١

^٩ - شليبي ، د. أحمد ، مقارنة الأديان / اليهودية ، الطبعة الخامسة ١٩٧٨م ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ص ٨١

المبحث الثالث: عهد القضاة

أولاً: التسمية

سميت المرحلة ما بين يوشع بن نون عليه السلام وبين طالوت بعهد القضاة (JUGES) وقد تسمى أيضاً عهد الحكام أو عهد الشيوخ^١.

((والقاضي اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما ، سواء كان خليفة أو سلطاناً أو نائباً أو والياً، أو كان منصوباً ليقضي بالشرع، أو نائباً له))^٢.

((وهؤلاء القضاة في بني إسرائيل هم عبارة عن زعماء وقادة وشيوخ عشائر ورجال حرب ينتخبهم كبار الشعب حكماً لبني إسرائيل إذا ألت بهم الأخطار المحرقة ، حيث أنه لم يكن في بني إسرائيل ملوك في تلك الأيام، بل كان كل إنسان يفعل ما يراه هو حقاً، ولم يكونوا خلفاء بعضهم لبعض ، فقد يكون هناك أكثر من واحد في وقت واحد))^٣، يقول (ابن خلدون): ((ولما قبض يوشع عليه السلام صلوات الله عليه بعد استكمال الفتح وتمهيد الأمر ضيع بنو إسرائيل الشريعة وما أوصاهم به وحذرهم من خلافه فاستطالت عليهم الأمم الذين كانوا بالشام وطمعوا فيهم من كل ناحية ، وكان أمرهم شورى فيختارون للحكم في عامتهم من شاءوا ، ويدفعون للحرب من يقوم بها من أسباطهم، ولهم الخيار مع ذلك على من يأتي شيئاً من أمرهم ، وتارة يكون نبياً يدبرهم بالوحي))^٤.

- ((وكان بني هارون قضاة اليهود وحكامهم، لأن الإمامة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم))^٥.

- وجاء في الرواية اليهودية ((وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يدي ناهبيهم))

[قضاة ٢ : ١٦].

^١ - ابن خلدون ١٠١/٢

^٢ - ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم ، السياسة الشرعية ، طبعة ١٤١٩ هـ ، السعودية ، وزارة الشؤون الإسلامية ، ص ١٣

^٣ - محمد بن علي آل عمر ، عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين ، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ، الرياض ، مجلة البيان ، ص ٣٦

^٤ - ابن القيم ، إغاثة اللهفان ٣٥٨/٢

^٥ - ابن خلدون ١٠١/٢

ثانياً: المدة الزمنية لحكمهم

رأى الإمام (الطبري) أن ((المدة التي كانت مابين وفاة يوشع بن نون الذي كان أمر بني إسرائيل في بعضها إلى القضاة منهم والساسة، وفي بعضها إلى غيرهم ممن يقهرهم فيتملك عليهم من غيرهم - إلى أن ثبت الملك فيهم، ورجعت النبوة إليهم بشمويل بن بالي أربعمئة وستون سنة))^١، وبنفس هذا الرأي اتبعه بعض المؤرخين أمثال (الثعلبي)^٢ و(ابن كثير)^٣ و(ابن الأثير)^٤ كذلك. وقريباً من ذلك رأي (اليعقوبي) بعد أن جمعت سنين القضاة الذين ذكرهم فبلغ المجموع ٤٥٣ سنة^٥.

أما (ابن خلدون) فيرى أن حكمهم كان قرابة ٣٠٠ سنة^٦، وعموماً فإن كل ما ذكره ذكره المؤرخون القدامى إنما كان اعتمادهم في ذلك على جمع السنين العشوائى الوارد في (سفر القضاة)، فقد كان المؤرخ يأتي لعبارة ((وعمّ السلام البلاد حقبة أربعين سنة)) [القضاة ٣ : ١١] فيجمعها مع عبارة ((وقد اشتد في مضايقة بني إسرائيل عشرين سنة)) [القضاة ٤ : ٣] وعبارة ((وتسلط أيمالك على إسرائيل مدة ثلاث سنوات)) [القضاة ٩ : ٢٢] وهكذا... مما أوقع المؤرخين في خطأ فادح وهو أن كثيراً من هذه المراحل الزمنية المذكورة يدخل بعضها في بعض، وقد يكون قاضيان أو ثلاثة في المدة نفسها وفي مناطق مختلفة، وقد يكون التاريخ لعدد سنين السلام أو السيطرة من الدول المجاورة فيدخلون ذلك أيضاً... هذا إلى جانب أن (سفر القضاة) مليء بالتناقضات في مراحل الزمنية.

- أما مؤرخوا العصر الحديث فيرون أن هذه المدة لا تتجاوز ١٥٠ سنة، وربما كانت قرناً واحداً فقط (بين سنة ١١٢٥-١٠٢٥ ق.م)^٧.

١ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢٧٥/١

٢ - الثعلبي ، قصص الأنبياء ص ١٤٧

٣ - ابن كثير ، البداية والنهاية ٥/٢

٤ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١٦٣/١

٥ - اليعقوبي ٤٨/١

٦ - ابن خلدون ١٠١/٢

٧ - د. أحمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ ، ص ٢٩٢

وإذا ما قلنا إن يوشع عليه السلام توفي قرابة عام ١١٦٠ ق.م فمعنى ذلك أن المدة هي ما بين (١١٦٠-١٠٢٥ ق.م) على الصحيح .

ثالثاً: أسماء القضاة

القضاة اسمهم في العبرية: شوفطيم (شوفيط)، لكن اختلف في عددهم اختلافاً كثيراً فمنهم من قال: سبعة عشر، وقيل: ستة عشر، وقيل: خمسة عشر، وقيل: أربعة عشر، وقيل: اثنا عشر قاضياً، ولعلنا نستعرض أسماءهم على حسب الترتيب:-

١- كالب بن يوفنا: قال ابن جرير في تاريخه: ((لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور السالفين من أمتنا وغيرهم أن القائم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع عليه السلام كالب بن يوفنا))^١ ، عقب ابن كثير عليه فقال: ((يعني أحد أصحاب موسى عليه السلام وهو زوج أخته مريم وهو أحد الرجلين ممن يخافون الله وهما يوشع عليه السلام وكالب وهما القائلان لبني إسرائيل حين نكلوا عن الجهاد "ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون" [المائدة: ٢٥])^٢.

٢- حزقييل بن بوذي: قال ابن جرير: ((ثم حزقييل بن بوذي من بعده وهو الذي يقال له ابن العجوز))^٣ ، ((وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر حذر الموت))^٤ قال البقاعي: ((حزقييل خامس عشرهم عليه الصلاة والسلام))^٥.
-وهذان لم يذكر في سفر القضاة وهو شيء غريب^٦، أما بقيتهم فسأسردهم حسب ورودهم في (سفر القضاة):

٣- عثييل بن قاز: من سبط يهوذا .

٤- إهود بن جيرا: من سبط بنيامين.

٥- شمجر بن عبا: قال ابن العبري (شمجر بن عناث)^٧.

١ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢٧١/١

٢ - ابن كثير ، البداية والنهاية ٣/٢

٣ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢٧١/١

٤ - ابن كثير ، البداية والنهاية ٣/٢

٥ -البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٣٩٨/٣

٦ - ابن خلدون ٢٠٢/٢

٧ - ابن العبري ،تاريخ مختصر الدول .ص ٣٩

- ٦- دبورة: من سفر إفرائيم، وهي امرأة نبية وقاضية كما زعموا^١، وأسمها ابن خلدون (دافورا) بفاء هوائية تقرب من الباء^٢.
- ومعها: بارق بن أبينوعم .
- ٧- جدعون بن يوآش الأبيعزري: من سبط منسي بن يوسف.
- ٨- أبيمالك بن جدعون .
- ٩- ابن يدبعل .
- ١٠- تولع بن فوارة بن دودو: من سبط يساكر.
- ١١- يائير الجلعاوي.
- ١٢- يفتاح الجلعاوي.
- ١٣- أيلون الزبولوني: من سبط زبولون .
- ١٤- عبدون بن هليل الفرعتوني: قال ابن العبري (أبدون بن هليان)^٣.
- ١٥- شمشون بن منوح الداني.
- ١٦- عالي الكاهن .
- ١٧- صموئيل بن القانة .
- وأضاف إليهم (ابن العبري): فينحاس بن أليعازر بن هارون الكاهن^٤.
- أما (اليعقوبي) فأضاف: (أبيصان الذي يدعى نخشون) وكذلك (عكران)^٥.
- ((وقال ابن العميد: إنه ولي تدبيرهم بعد شمشون حاكم آخر اسمه ميخائيل بن راعيل))^٦.
- أما الثعلبي فيرى أن ((آخر من ملكهم في هذه المدة رجل يقال له إيلاف))^٧.

^١ - أتبه هنا أن القرآن نصّ على أنه لا يوجد نبيّة أو رسولة فقال "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم..." وأن هذا إنما هو من أكاذيب بني إسرائيل .

^٢ - ابن خلدون ١٠٣/٢

^٣ - المصدر السابق ص ٤٢

^٤ - ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٦

^٥ - اليعقوبي ص ٤٨

^٦ - ابن خلدون ١٠٥/٢

^٧ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٤٧

رابعاً: القضاة ليسوا جميعاً أنبياء

• يرى بعض العلماء أنه لا يوجد في عصر القضاة أنبياء، وإنما كانوا حكاماً فقط، حتى قال ابن قتيبة: ((لم يكن بينه - أي صمويل - وبين يوشع عليه السلام بن نون نبي))^١، وقال البقاعي ((والذي رأيته في سفر الأنبياء المبعوثين منهم بعد موسى عليه الصلاة والسلام لتجديد أمر التوراة وإقامة ما درس من أحكامها وهم ستة عشر نبياً أولهم يوشع عليه السلام بن نون، وآخرهم دانيال على جميعهم الصلاة والسلام والتحية والإكرام))^٢، والذي يقصده أسماء الأنبياء الموجودة في عناوين الأسفار وهو ما يعني أنه لم يحسب أحداً من القضاة. وقال في موضع آخر عن هؤلاء الأنبياء ((قال الحرالي: نبيهم المعهود الأمر لهم إنما هو موسى عليه السلام، ومن بعده إلى عيسى عليه السلام إنما هم بمثلة الساسة والقادة لهم كالعلماء في هذه الأمة منفذون وعالمون بما أنزل على موسى عليه الصلاة والسلام كذلك كانوا إلى حين تنزيل الإنجيل))^٣.

بل إن ابن خلدون يرى أن هؤلاء القضاة جاءوا عن طريق الانتخاب والشورى وإن كان يرى أن بعضهم ((تارة يكون نبياً يدبرهم بالوحي))^٤. وهكذا يرى ابن عاشور أن احتمالية كون بعضهم أنبياء موجودة^٥.

• وهناك من يرى أنه لا تلازم بين (النبي) و (القاضي) فقد يكون النبي قاضياً، ويكون (قاضي) آخر مع وجود (النبي)^٦.

• وهناك طائفة من أهل العلم يرون أنهم كانوا جميعاً أنبياء، وأن الأنبياء كانوا من الكثرة مثل علماء أمة محمد ﷺ ويستدلون لذلك بما ورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي}^٧.

^١ - ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري، المعارف، الطبعة الأولى ١٩٦٩م، بيروت، دار الكتب العلمية، ص ٢٦

^٢ - البقاعي، البقاعي، نظم الدرر ٣ / ٣٩٨

^٣ - البقاعي، البقاعي، نظم الدرر ٣ / ٤٠٨

^٤ - ابن خلدون ٢ / ١٠٠

^٥ - ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢ / ٤٨٨

^٦ - د. محمد النجار، تاريخ الأنبياء، ص ٢٢٩

^٧ - رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ١١/ ٢٧١ برقم (٣٤٥٥)

قال ابن حجر: ((أي أنهم كانوا إذا ظهر فيهم فساد بعث الله لهم نبياً يقيم أمرهم ويزيل ما غيروا من أحكام التوراة))^١ وقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: {قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير}^٢.

• أما (ديورانت) فله رأي آخر فزعم أن القضاة لم يكونوا موظفين عموميين ((بل كانوا زعماء عشائر أو رجال حرب، حتى إذا كانوا من الكهنة، ولم يكن في إسرائيل ملوك في تلك الأيام، بل كان كل إنسان يفعل ما يراه هو حقاً))^٣.

• وهذه المسألة تجرنا إلى سؤال هام وهو: -

هل عاش بعض الأنبياء المعروفين في القرآن في زمن القضاة؟

هناك مرويات كثيرة مدارها على وهب بن منبه، حتى المروية منها عن ابن إسحاق أو الكلبي أو غيرهم فإنما يروونها جميعاً من طريق وهب بن منبه^٤، بأن بعض الأنبياء أمثال اليسع وذا الكفل وإلياس عليهم السلام والذين ذكروا في القرآن عاشوا في هذه المدة . ولا حاجة لنا بذكر تفاصيل قصصهم الواردة في تلك المرويات، كما أن ابن الأثير لخص مرويات الطبري في ذلك^٥. أما ابن كثير فقد نقلها ووقف منها موقف المحايد، وبدون تعليق عليها^٦. والأقرب - والله أعلم - أن هؤلاء الأنبياء لم يعيشوا في تلك المدة، وإنما عاشوا في المدة التي تلت انقسام مملكة إسرائيل، ويحددها بعض العلماء بين (٩١٠ - ٥٦٠ ق.م)^٧، وقد حدث خلط لدى بعض المؤرخين بين المرويات اليهودية التي جاءت عن طريق (الإسرائيليات) والمرويات التي جاءت من (التوراة) المحرفة، وهذا الرأي الذي نميل إليه يقول به أغلب المؤرخين في العصر الحديث.

^١ - ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الريان ٦ / ٥٧٣

^٢ - رواه ابن حبان برقم ٣٦١ وقال شعيب الأرنؤوط في تحقيقه: إسناده ضعيف جداً (٢ / ٧٩). قال ابن كثير - رحمه الله - : ((قد روى هذا الحديث بطوله الحافظ أبو حاتم ابن حبان البستي في كتابه: " الأنواع والتفاسيم " ، وقد وسمه بالصحة ، وخالفه أبو الفرج بن الجوزي ، فذكر هذا الحديث في كتابه " الموضوعات ")). [تفسير ابن كثير] (٢ / ٤٧٠). وقد ذكر ابن كثير روايات هذا الحديث بطرقه وأسانيده في (البداية والنهاية) ٢ / ١٤٠

^٣ - ول ديورانت، قصة الحضارة / ٣٣٠

^٤ - لتتبع هذه المرويات، انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك / ١ / ٢٧١ وحتى ص ٢٧٥

^٥ - ابن الأثير، الكامل / ١ / ١٦٠ - ١٦٢

^٦ - انظر: ابن كثير، البداية والنهاية / ١ / ٣١٤ - ٣١٥ و ٢ / ٣ - ٥

^٧ - د. عادل طه، حياة الأنبياء ص ٦٨

خامساً: أوضاع بني إسرائيل في تلك المدة

عندما دخل بنو إسرائيل إلى فلسطين، واجهوا أمماً وحضارات لم يكونوا على إطلاع بها، حتى جاء في سفر التثنية: ((إذا أدخلك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت صائر إليها ليرثها واستأصل أمماً كثيرة من أمام وجهك: الحثيين والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. سبع أمم أعظم وأكثر منك لا تقطع معهم عهداً ولا تأخذك بهم رافة ولا تصاهرهم، بل تنقضون مذاجمهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون غاباتهم لأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفى الرب أن تكون له أمة خالصة من جميع الأمم على وجه الأرض)) [تثنية: ٧].

إلا أن الشعوب الساكنة في تلك المنطقة ليست هي فقط هذه الأمم السبعة كما جاء في (التوراة)، فقد كان إقليم فلسطين الصغير الجسر الرئيس بين القارتين الشماليين والقارة الجنوبية طوال تاريخ الحضارة تقريباً.

((وقد تدفق عليها عشائر القوم الذين يعرفون باللوبيين في شمالي أفريقية، وشعوب أواسط أوروبا وآسيا من المولدين، وقبائل الرعاة والصيادين التي كانت تضرب في الأراضي الشبيهة بالصحراء أما أرباب الحضارة الإيجية القديمة، فقد أقاموا آخر منازلهم في هذا الموضع ليكون لهم شيء من الاستقلال السياسي بعد إذ أخرجتهم عن ديارهم موجة من موجات الهجرة اليونانية الأولى.

وقد احتل^١ العموريون والحثيون والأموريون والفلسطينيون والعرب كل بدوره هذه البلاد.

ومن هنا جاز أن نقول بلا تحفظ أن كل من استقر في هذه البلاد من الغزاة قد خلط دمه بدم هذا الشعب الخليط، بيد أن سكان هذه البلاد المختلفي الأصول قد وحد بينهم ما توالى عليهم من أحداث الغزو الأجنبي))^٢.

((إن معظم الشعوب التي أقامت حول الأردن هي شعوب عربية الأصل والمنشأ ومنهم الكنعانيون والعموريون والعمالقة واليبوسيون الذين قاوموا بني إسرائيل مقاومة عتيدة، آخرت احتلالهم مدينة (أورشليم) أكثر من ١٤٠ عاماً حتى جاء داود عليه

^١ - صفة (الإحتلال) هذه من لوثة (الصهيونية) الموجودة لدى المؤرخ (هامرتن) ١٠٢ / ٢

^٢ - هامرتن، تاريخ العالم ١٠٢ / ٢

السلام))^١.

وهذه القبائل المذكورة كلهم عرب ولو اختلفت لهجاتهم أو أماكن سكنهم^٢.

- وفي حوالي عام ١٤٦٨ ق.م شن الفرعون (تحتمس الثالث) حملته الشهيرة على الشام، والتقى عند موقع مجدو بوادي يزرعيل جيوش تحالف قوي وهزمه، وقد كانت هذه المعركة فاتحة لتأسيس الإمبراطورية المصرية وللتواجد العسكري المصري في فلسطين الذي استمر قرابة أربعة قرون تلت معركة مجدو.

وكان المصريون يمارسون نفوذهم هنا عن طريق حاميات عسكرية يحتفظون بها في عدد من المدن الإستراتيجية وخصوصاً مدن وادي يزرعيل، وذلك إضافة إلى المعاهدات التي كانوا يوقعونها مع حكام المدن^٣.

وكانت يد الحكام المصريين حين دخول بني إسرائيل قد ضعفت كثيراً (ويظهر أن رعمسيس الثالث اهتم اهتماماً بسيطاً بالدفاع عن أملاك مصر في فلسطين وجنوب سورية. ويبدو أن المهاجرين الإسرائيليين كانوا قد استقروا هناك في ذلك الوقت)^٤.

ومع ذلك ((فقد كان لكل مدينة ملك يدير شئون مدينته، وشئون القرى الصغيرة المحيطة بها، وكان كل ملك مسئولاً بالدرجة الأولى عن حماية حدود مملكته، وهو النظام الذي حرصت مصر على تعزيزه والذي يعتمد على جعل المدن مستقلة عن بعضها، يحكم كل مدينة حاكم تابع لمصر))^٥.

- وقد كانت بداية اختلاط بني إسرائيل بالأمم الأخرى أنهم في الحقيقة سكنوا وسطهم ولم يطردوهم - على الصحيح - بل انخرطوا وسط المجتمع الوثني بكل ما فيه من سوءات، وإلى هذا يشير سفر القضاة: ((ولم يطرد منسي أهل بيت شان وقراها ولا أهل تعنك وقراها ولا سكان دور وقراها ولا سكان بيلعام وقراها، ولا سكان مجدو وقراها، فعزم الكنعانيون على السكن في تلك الأرض، وأفرايم لم يطرد الساكنين في جازر، فسكن الكنعانيون في وسطه في جازر)) [القضاة ١: ٢٧-٢٩].

^١ - فوزي محمد، حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل، ص ٢٤

^٢ - د. علاء أبو عامر حكاية، شعب التوراة، ص ١٩٧

^٣ - فراس السواح، تاريخ أورشليم، ص ٤٠

^٤ - أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ص ١١٤

^٥ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١٩٨

((زبولون لم يطرد سكان قطرون ولا سكان فحلال فسكن الكنعانيون في وسطه ... ولم يطرد أشيرسكان عكر ولا سكان صيدون وأحلب وأكزيب وحلبه وأفيق ورحوب، فسكن الأشيريون في وسط الكنعانيين سكان الأرض ... ونفتالي لم يطرد سكان بيت شمس ولا سكان بيت عناة، بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض...)) [قضاة ١: ٣٠-٣٦].

هذا الوضع إضافة إلى الخلافات الكنعانية البينية، والتي حالت دون تشكيل تحالف كنعاني قوي يقف في وجه الجماعات العبرية، التي استطاعت أن تدخل وتتوغل في هذه المناطق الضعيفة^١.

ويامكاننا كذلك ((أن نستخلص أن استقرار بني إسرائيل لم يتم في جوهره إلا بعد أن فنيت القبائل الكنعانية في العبرية أو فنيت هذه في تلك))^٢. إذاً فقد اختلط بنو إسرائيل بالكنعانيين وتزوجوا من بناتهم، وكان نتيجة لذلك أن تقدموا في الزراعة وتعلموا منهم سكنى المدن والبناء بالحجارة ورفع الأسوار وغير ذلك، غير أن الفوضى استشرت بينهم وأصبحت طابعهم المميز، بالإضافة إلى الخلافات المستحكمة بينهم والنكبات التي حلت بهم والانحلال الخلقي والديني الذي عم بني إسرائيل في هذا العهد.

ويعزى ذلك إلى عدم وجود حكومة مركزية تجمع شتاتهم وتوحد بينهم^٣.

^١ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١٩٨

^٢ - هامرتن، تاريخ العالم ٢ / ١٠٦

^٣ - الدباغ، بلادنا فلسطين، ص ٥٥٦

سادساً: الحالة الاقتصادية

كانت المهنة السائدة لدى بني إسرائيل في هذه المرحلة هي مهنة (الرعي)، كما كان شأن آبائهم الأولين قبل هجرتهم إلى مصر. فأهم مظاهر ثروتهم تبدوا إذاً في أمرين:-

أحدهما: قطعان الأنعام. وثانيهما: ما يلزم لتربيتهم من مراعي و مياه:-

١- أما الأنعام فكانت عماد الحياة لبني إسرائيل في هذا العهد فمن لحومها وألبانها كانوا يتخذون غذاءهم، ومن أصوافها وأشعارها وجلودها كانوا يتخذون ملابسهم وأثاثهم ومسكنهم نفسها، فقد كانت بيوتهم في هذا العهد خياماً من الشعر، ولذلك كان يتمثل في الأنعام حينئذ أهم مظاهر الثروة لديهم، حتى أن أسفار العهد القديم لتقيس مبلغ الغنى بما يمتلك الفرد من رؤوس الأنعام، وحتى أن المنازعات بين الناس كانت تدور حول ملكية الأغنام والأبقار. و ثم عند جشع كثير من الخلفاء وجنوحهم للبغي على خلطائهم فيما يملكونه من هذه الأنواع ويعطينا القرآن الكريم مثلاً للمنازعات في قصة الخصم حين دخلوا على داود ففزع منهم وفيما قال الخصم: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٤] فضلاً عما ورد في العهد القديم من شخصيات ثرية كانت تمتلك رؤوس الأنعام .

٢- وأما أراضي المراعي وآبار المياه فيظهر أن ملكيتها كانت جماعية واسعة النطاق، أي أن كل قبيلة كان لها من هذه الأراضي وهذه الآبار قسم معلوم تنتفع به في صورة شائعة عشائرها وأسرها في تربية أنعامها.

فالقبيلة (أو السبط) كان يتألف من عدة عشائر والعشيرة كانت تنتظم عدة أسر.

فعلى المراعي وآبار المياه كانت تتوقف حياة أنعامهم بل حياتهم أنفسهم، ولذلك يذخر تاريخ هذا العهد بالحوادث المتصلة باكتشاف الينابيع وشق الآبار والمنازعات العنيفة التي كانت تنشب بين القبائل من جراء اختلافهم على أراضي المراعي والمياه حتى أن موسى عليه السلام لما أراد أن يوزع بينهم المياه خشي من المنازعات وعدل في القسمة ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠] غير أن ملكياتهم في هذه المرحلة للمراعي والآبار لم تكن ثابتة ولا دائمة

فقد كانت المراعي عرضة للجفاف، والآبار عرضة للنضوب، ومن ثم فقد كانت القبيلة تنتقل داخل أملاكها من منطقة إلى منطقة حتى إذا لم تجد في أملاكها جميعاً ما يقيم أودها وعيشها، اضطرت إلى مغادرة أوطانها باحثة عن مراعي وآبار جديدة تضع يدها عليها إن لم يكن سبق امتلاكها، أو تزرعها أحياناً بالقوة من ملاكها الأولين^١.

وكان من الممكن بين عشية وضحاها أن يصبح الفقير غنياً واسع الثراء والغني فقيراً مدقع الفقر، فقد تتعرض قبيلة أو عشيرة أو أسرة لغارة مفاجئة من أعدائها فتفقد جميع ما تملكه من أرض وماشية ومتاع، وقد يأتي الحظ قبيلة فقيرة في غارة تشنها على ناس آخرين أغنياء فتستولي على جميع ما كانوا يملكونه، وهذه المعارك والغارات كانت كثيرة الحدوث بين بني إسرائيل وغيرهم من العشائر والشعوب التي كانت تسكن هذه المنطقة أو تجاورهم، بل كانت تحدث أحياناً بين عشائر بني إسرائيل أنفسهم مع بعضهم البعض^٢. هذا الوضع فضلاً عن حالة القحط التي ضربت المنطقة في سياق القرن الثاني عشر قبل الميلاد. فمنذ مدة ١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م تقريباً هناك بينات وفيرة تؤيد حصول جفاف طويل الأمد... توافق مع تغير مناخي عالمي، فقد نقصت فيها الأمطار بنسبة ٢٠% تقريباً وارتفعت الحرارة حوالي ٢٠ - ٣٠ درجة مئوية فوق المعدل^٣، وهو القحط المسمى بـ(القحط الميسيني الكبير)^٤.

وبسبب ذلك انتشر الجوع والفقر، الأمر الذي جعل النمط البدوي الرعوي أكثر تأقلاً من النمط الحضري المدني الزراعي^٥، ولذلك نلاحظ في أسفار التوراة أنهم كانوا ما يزالون على حياة البداوة والتنقل حتى بعد افتتاحهم المدن الحضارية، والتي كان من المتوقع أن يعيشوا فيها حياة الدعة والحضارة والاستقرار ولكنهم ((كانوا يعيشون كجماعات شبه بدوية - شبه حضرية - وقد عانوا من عسر تطور وانتقال ما بين النمط القبلي العشائري، والنمط السياسي المدني ببعده الجغرافي، وبالآتي ما بين الخيمة المتنقلة

^١ - انظر: الحديدي، د. عدنان، الأردن وفلسطين تاريخ وحضارة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، عمان، دار البشير

- سوريا، مؤسسة الرسالة، ص ٣٩

^٢ - د. على عبد الواحد وافي، اليهودية واليهود. ص ١٢٢ - ١٢٧

^٣ - توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص ١٤٩

^٤ - نفس المصدر ص ٢٨٠ - ٢٨١

^٥ - د. إسماعيل الصمادي، التاريخ التوراتي، ص ١٩٨

التي لا تنتمي إلى مكان بعينه، وما بين البيت المؤخر في مكان محدد^١.
#فحياة بني إسرائيل كانت خلال مدة القصة حياة بدائية فاقدة كل مظهر حضاري... حتى أنهم لم يتمكنوا من إقامة معبد واحد ثابت لهم، فكان معبدهم خيمة متنقلة تدعى (خيمة الاجتماع) وهذه من شيمهم في البدائية والتنقل^٢.

^١ - د. إسماعيل الصمادي ، نقد النص التوراتي ، ص ٤٧

^٢ - فوزي محمد، حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل، ص ٣٠

سابعاً: في ميدان الهزيمة

((من الجمع عليه - وإن كانت روايات التوراة تختلف في التفاصيل - أن الفتح الذي بدأ بقيادة يوشع عليه السلام، لم يصادف أول أمره إلا نجاحاً قليلاً، ولكنه استمر في الواقع أجيالاً وأجيالاً، ولم يتم على وجه التحقيق إلا باستيلاء الملك داود على أورشليم. ومن الجلي أن بني إسرائيل قد كافحوا أشد كفاح في المدة التي انقضت بين يوشع عليه السلام وداود، تعذر على عشائريهم المنعزلة أن تثبت لأعدائها))^١.

ويتضح لنا مما جاء في سفر القضاة نفسه، ومن المراجع التاريخية والأثرية أن بني إسرائيل زمن القضاة لم يمتد سلطانهم على فلسطين جميعها، بل إننا نستطيع القول إن الشعوب التي كانت تقطن في غرب الأردن وشرقه من فلسطينيين وأموريين وكنعانيين ومؤابيين وعموريين وأدوميين، ظلت مستقرة في الأرض محتفظة بشخصياتها وكياناتها القومية؛ بل وكانوا أصحاب تأثير قوي في بني إسرائيل دينياً واجتماعياً، وكان الفلسطينيون في الجنوب بنوع خاص أصحاب قبضة واستعلاء^٢.

- يقول (غوستاف لوبون) عن عهد القضاة: ((قضى العبريون زمناً طويلاً ليكون لهم سلطان ضئيل في فلسطين، لا أن يكونوا سادتها. وهم إذ كانوا منقسمين - كالكنعانيين - إلى عدة عشائر، لم يتفوقوا فيما بينهم حتى على إكمال الفتح))^٣.

ويستمر (لوبون): ((والحق أنك لا تجد قاضياً استطاع أن ييسط سلطانه على جميع بني إسرائيل، فكل واحد من هؤلاء الحكام أو الشيوخ كان يتسلم قيادة زمرة واحدة عندما تهدد هذه الزمرة تهديداً مباشراً، وهو إذا ما كتب له النصر لم يحتفظ حتى بتلك القيادة))^٤.

- إذا فقدت كل جماعة منهم تدافع بمشقة عما استولت عليه من أرض خلال مدة حكم القضاة، ولم يتمكنوا من تثبيت أقدامهم في الأرض التي زعموا احتلالها وكانوا معرضين دائماً لخطر الطرد وتحرير البلاد منهم.

^١ - هامرتن ، تاريخ العالم ٢ / ١٠٥

^٢ - دروزة ، محمد عزة ، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، طبعة ١٩٦٩م ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ص ١٣٢

^٣ - لوبون ، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ص ٣٤

^٤ - المصدر نفسه ص ٣٦

وبقوا هكذا حتى أصبح شاؤول (طالوت) أول ملك عبراني عمل على توحيد وتنظيم الوجود العبراني في فلسطين^١.

لقد كان عهد القضاة عهداً مضطرباً تخللته نكسات عدة كادت تهدد بني إسرائيل في فلسطين بالفناء، إذ تعترف التوراة أن الكنعانيين والفلسطينيين أصبحوا من القوة بحيث تمكنوا من إخضاع الإسرائيليين تحت حكمهم في مراحل متواصلة خلال عهد القضاة^٢. وقد سجل سفر القضاة عدداً من الغزوات ضدهم، ولعلنا نستعرض ملخصاً لها: -

الغزو الأول: كان أول من غزا بني إسرائيل في هذا العهد شعنائيم ملك آرام النهرين^٣، فاستعبدهم ثماني سنوات، وكان خلاصهم على يد عنتيل بن قفاز^٤.

الغزو الثاني: كان ثاني من غزاهم عجلون ملك موآب، حيث جمع عليهم بني عمون والعماليق فضربهم واستعبدهم ثماني عشرة سنة، وكان ذلك عقاباً على عودتهم إلى الشر والفساد، وكان خلاصهم على يد أهود بن جيرا^٥.

الغزو الثالث: حيث سلط عليهم يابين ملك حاصور الكنعاني بعد موت أهود، حين عادوا إلى صنيع الشر، وكان اسم قائده الذي قهرهم (سيسرا) فخضعوا له عشرين سنة، وكان خلاصهم على يد بارمد بن أبنوعم، عن طريق النبيه (دبورا)^٦!

الغزو الرابع: غارات المديانيين والعماليقة وبني المشرق على بني إسرائيل حيث رفعهم الرب إلى أيديهم بسبب عودتهم إلى الشر، وقد قويت أيدي المغيرين عليهم حتى اضطروهم إلى ترك مدتهم وقراهم، والالتجاء إلى الكهوف والمغارات والحصون، فذلت إسرائيل ذلاً عظيماً لمدة سبع سنين، وكان خلاصهم على يد جدعون^٧.

الغزو الخامس: بعد أن عاد بنو إسرائيل إلى فسادهم وانحرافهم فعبدوا (البعليم)

١ - فوزي محمد، حقائق وأباطيل، ص ٢٦

٢ - د. أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٩٣

٣ - ويسميه (ابن العبري): كوش الأثيم المتغلب... المارد من الأمم الغربية (تاريخ مختصر الدول) ص ٣٧

٤ - انظر: القضاة: ٣

٥ - انظر: القضاة: ٣

٦ - انظر: القضاة: ٤-٥

٧ - انظر: القضاة: ٦

و(عشتاروت) وآلهة آرام وحيدون وموآب وبني عمون والفلسطينيون، وزاغوا عن طريق الله، واندمج كل منهم في عبادة آلهة الشعوب التي حولهم، فسلط الله عليهم بني عمون، ثمان عشرة سنة، وضيقوا عليهم الخناق وكان خلاصهم على يد زعيم اسمه يفتاح الجلعادي^١.

الغزو السادس: عاد بنو إسرائيل إلى شرهم فدفعهم الرب إلى الفلسطينيين
أربعين سنة^٢.

وإذا ما جمعنا سنين الاضطهاد والخضوع للممالك المجاورة فإننا سنجدها قرابة ١١١ عاماً! مع أن المدة التي افترضناها لتاريخ حكم القضاة (١١٦٠ - ١٠٢٥) أي لا تتجاوز ١٣٥ عاماً.. وعلى افتراض صحة ما ورد في (التوراة) من السنين المذكورة فإن المقصود ليس بالمراحل المتعاقبة وإنما مراحل متداخلة، بمعنى أنه قد يحدث لبعض الأسباط تسلط من الأمم المجاورة وفي الوقت نفسه هناك تسلط آخر على أسباط آخرين. وبالآتي فليس مجموع الحساب للسنين الذي ذكرناه صحيحاً.

^١ - انظر : القضاة : ١٠

^٢ - انظر : القضاة : ١٣ ، وانظر للتوسع : ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول، ص ٣٧ - ٤٢ ، د.إسماعيل الصمادي ، نقد النص التوراتي ص ٢٦٠ ، د.يحيى ربيع ، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف ، ص ٩٤ - ٩٧ ، د.فوزي محمد ، حقائق وأباطيل، ص ٢٩.

ثامناً: الانتصار الزائف

كان الجو السائد في تلك المدة هو الهزيمة، وإذا ما حدث شيء من الفوز على الأعداء فإنما هو من قبيل استخلاص حقوقهم المسلوبة وأراضيهم المنهوبة لا أكثر.

يقول مايرز: ((لم تكن هناك وحدة تجمع أسباط بني إسرائيل خلال عصر القضاة، بل كان الخطر المشترك من قبل أعدائهم وخاصة الفلسطينيين يشمل جميع قبائلهم))^١.
ويقرر (ويلز): ((لقد شنوا - بقيادة سلسلة من حكمائهم وأبطالهم - حروباً فاشلة، في معظمها ضد أعدائهم .. لقد هزموا من قبل المؤابيين والكنعانيين والمديانيين والفلسطينيين على التوالي))^٢.

أما (أولبرايت) فيقول: ((بينما كان بنو إسرائيل يدافعون عن اتحادهم المفكك الأوصال وغير المترابط، معتمدين في قيادتهم على قيادات تبرز بشكل عفوي وتلقائي، كانت الأمم المحيطة بهم تتمتع بنظم سياسية على درجة عالية من التنظيم والرقى))^٣.
ولذلك فإن ما يظهر في (التوراة) من بطولات خارقة ومزعومة لشخصيات (القضاة) إنما هي ناشئة من (نظرية المخلص) فهذا المخلص بحسب نصوص التوراة هو كل شيء في عملية (النصر)، وذلك لاعتقادهم أن (روح الرب) تحل فيه، فالمقاتل (المخلص) حقيقة هو الرب عندهم، وأما هم فلا دور لهم سوى الانتظار على حد قولهم مع موسى عليه السلام ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ثم ينسجون حول (المخلص) كثير من الخرافات حتى يصبح أسطورة، فإذا ما مات انتهى كل شيء وعاد بنو إسرائيل إلى حياة الذل والمهانة بانتظار (مخلص) جديد.

- وعلى سبيل المثال نسوق بعضاً مما ذكر حول (شمشون)، فقد أورد (الطبري) بسنده عن وهب بن منبه أن (شمشون) ((كان يغزوهم وحده ... فيقتل ويسبي، ويصيب المال، وكان إذا لقيهم بلحي بعير لا يلقاهم بغيره، فإذا قاتلوه وقتلهم وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذي مع اللحي ماء عذب فيشرب منه حتى يروي، وكان قد أعطي

^١ - Myers, General History, P.35

^٢ - Wells, The outline of History. P.257

^٣ - د. أحمد عيسى، داود وسليمان، ص ٤١

قوة في البطش، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره...^١.

وبحسب رواية (التوراة) المحرفة فقد ضرب في إحدى المرات ألف رجل بلحي حمار ميت، وفي إحدى المرات أمسك ششمون بثلاثمائة ثعلب وربط في أذناها المشاعل ثم أطلقها في حقول الفلسطينيين فأحرقت محاصيلهم! وكان وهو صغير قتل أسداً ضخماً وشقه إلى نصفين! ولم يستطع الفلسطينيون الإمساك به إلا حينما عرفوا مكنن ضعفه في جدائل شعره، فأوثقوه بها وجاءوا به إلى معبدهم فأسند شمشون ذراعيه إلى العمودين الرئيسين في وسط المعبد ودفعهما كلياً في اتجاه، فسقط المعبد على رؤوس الفلسطينيين وقتلهم، ومات شمشون معهم أيضاً^٢.

فأية سيرة هذه رسمها محرر سفر القضاة لمخلص إسرائيل؟

- ومن ذلك ما جاء في ترنيمة النصر في عهد القاضية (دبورا) وأن بني إسرائيل ((قتلوا عشرة آلاف ببازق، وأخذوا ملك بازق فقطعوا إبهامي يديه ورجليه ... وأدخلوا ملك بازق أورشليم، فمات بها. وحارب بنو يهوذا سائر الكنعانيين واستولوا على أرضهم))^٣! يقول (هامرتن): ((وصلت إلينا في (سفر القضاة) طائفة من الروايات عن الحروب وفعال بعض الرجال، وهي تجلو لنا الأحوال السائدة فيها وقتذاك. ولعل أشيعها وأنفعها ترنيمة دبورة "Deborah" في الإصحاح الخامس من سفر القضاة، فهي تشيد بذكر نصر عظيم أحرزته قبائل الشمال التي تحالفت إلى حين على أحد أمراء ناصية الجيد، وهذه الترنيمة وإن كانت لا تشير إلى غزو هذه الناحية أو احتلال المدينة المغلوبة على أمرها، فإنها تومئ إلى ازدياد قوة هذه القبائل. ومن العجيب حقاً، أن هذا هو الشاهد الوحيد لمحاربة عدو كنعاني في كل هذه الطائفة من الروايات))^٤.

ويقول (غوستاف لوبون): (مضى جميع دور القضاة الذي عد دور بطولة العبريين التاريخي، في القتال الجزئي بجماعات صغيرة وذلك بأن تدافع كل جماعة بمشقة عما استولت عليه من قطعة أرض)^٥.

^١ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٣٨١/١

^٢ - انظر : القضاة : ١٦

^٣ - الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ١ / ٢٦١

^٤ - تاريخ العالم ٢ / ١٠٥

^٥ - اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ص ٣٥

كل ذلك يجبرنا إلى نتيجة مؤكدة ، وهي أنهم لم يفتحوا بيت المقدس .

وقد ذكرنا مسبقاً أن يوشع عليه السلام لم يفتح بيت المقدس، وكان بنو إسرائيل في

وقته يمتلكون قوة وعزيمة، فما بالك بعصر (القضاة) حين دبَّ فيهم الضعف والذل ؟

- أما ما ورد في (التوراة) المتناقضة من أن بني يهوذا حاربوا أورشليم وأخذوها

وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار. فإن الأحداث الآتية في نفس السفر (سفر

القضاة) تدل على أن المدينة ما زالت بيد أهلها، ولا يوجد فيها أحد من بني إسرائيل،

وان بنيامين حاولوا أن يستولوا على أورشليم ويطردوا سكانها اليوسيين منها فلم

يقدرُوا، ومن ذلك أيضاً ما ورد من قول أحد بني إسرائيل لغلامه: ((لا نميل إلى مدينة

غريبة حيث ليس أحد من إسرائيل هنا)) [قضاة ١٩: ١٢] .

- وقد ورد أيضاً من رواية وهب بن منبه رواية غريبة أوردتها الطبري وفيها ((

وفتحوا أورشليم وقتلوا ملكها))^(١)، وهي رواية من الإسرائيليات غير المقبولة على كل

حال، إذ أن الفتح الكبير لمدينة القدس لم يتم إلا على يد داود عليه السلام كما بيّنا.

(١) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ٢٧١/١ ، ابن خلدون ١٠٢/٢

تاسعاً: معركة الإستيلاء على التابوت

كان بنو إسرائيل يحملون معهم (التابوت) في معاركهم ويجعلونه أمامهم للاستنصار، لكن في المعركة التي حدثت في (أفيق) والتي تمكن الفلسطينيون فيها من هزيمة بني إسرائيل وقتلوا منهم أربعة آلاف، ثم رجع الإسرائيليون إلى (شيلوه) حيث يوجد تابوت عهد الرب فحملوه معهم للاستنصار به، ولما عرف الفلسطينيون ذلك لم يجزعوا، بل قاتلوا كما لم يقاتلوا من قبل مصممين على النصر، فهزم الإسرائيليون هزيمة منكرة، وقتل منهم ثلاثون ألف رجل كان من بينهم (حفني) و (فحاس) ابنا (عالي الكاهن)، وكانا فاسقين منحرفين وفي الوقت نفسه هما اللذان يحملان التابوت المقدس، ووقع التابوت بيد الفلسطينيين، وقد أثار نتيجة هذه المعركة الذعر في نفوس بني إسرائيل مما جعلهم يمزقون ثيابهم وينصبون المناحات في كل بيت .. ووصل الخبر إلى (عالي الكاهن) وكانت الشيخوخة قد هدته، فسقط عن كرسيه فاندقت عنقه ومات، بعد أن قضى لبني إسرائيل أربعين سنة^١.

- قال الطبري: ((فلما عظمت أحداثهم، وتركوا عهد الله إليهم نزل بهم عدو فخرجوا إليه، وأخرجوا التابوت كما كانوا يخرجونه، ثم زحفوا به فقوتلوا حتى استلب من أيديهم، فأتى ملكهم إيلاف، فأخبر أن التابوت قد أخذ واستلب، فمالت عنقه فمات كمداً عليه، فمرج أمرهم بينهم واختلف ، ووطئهم عدوهم حتى أصيب من أبنائهم ونسائهم ، فمكثوا على اضطراب من أمرهم، واختلف من أحوالهم، يتمادون أحياناً في غيهم واختلفهم فسلط الله من ينتقم به منهم، ويراجعون التوبة أحياناً فيكفيهم الله عند ذلك شر ما بغاهم سوءاً، حتى بعث الله فيهم طالوت ملكاً، ورد عليهم تابوت الميثاق))^٢.

نتيجة المعركة: يعلق (لودز) على هذه المعركة وما ترتب عليها من نتائج قائلاً:

لقد أرجع المؤرخون الذين انصب اهتمامهم على مصير التابوت المقدس، أرجعوا بشيء من الغبطة الضربات التي نزلت بالفلسطينيين المنتصرين إلى كون التابوت موجوداً بين

(١) انظر : صموئيل الأول ٤:٤-١٨

(٢) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ١/٢٧٥، جامع البيان ١/٦١١

ظهرا نهم بعد استيلائهم عليه، مما أجبرهم على إعادته .

ولكن هؤلاء المؤرخين لا يخبروننا شيئاً عن النتائج التي ترتبت على هزيمة بني إسرائيل، غير أننا نستطيع أن نتبين خطورة الموقف، فلا يوجد أدنى شك في أن (شيلوه) التي كان هيكلها مسكناً لتابوت العهد قد دمّرت، حيث إن التابوت لم يوضع فيها بعد أن أعاده الفلسطينيون، كما أن كهنة (شيلوه) هجروها إلى (نوب) .. بالإضافة إلى ذلك فإن الفلسطينيين أقاموا نصباً تذكاريّاً في (جبع) تخليداً لانتصارهم الباهر.. لقد كان من نتيجة هذه المعركة أن فرض الفلسطينيون سيطرتهم على الإسرائيليين ودان هؤلاء لهم بالسيادة في معظم مناطق تواجدهم في فلسطين^١.

(١) د. أحمد الأحمد، داوود وسليمان ، ص ٤٣

عاشراً: المنكرون لعهد القضاة

هناك من أنكرو وجود هذه المدة في التاريخ الإسرائيلي بدعوى عدم وجود أدلة من الأحفورات والحفائق الأركيولوجية، ومن هؤلاء (فراس السواح) الذي قال: ((لقد سقط عصر القضاة تاريخياً، كما سقطت قصة الفتح العسكري لأرض كنعان، ولم يبق من الباحثين من يدافع عن تاريخيته إلا القليل .. فالباحث (ديفو) في كتابه الموسوعي المعروف عن تاريخ إسرائيل يعترف بالمشكلات التي تعترض قبولنا بتاريخية عصر القضاة، ويجرف مسار البحث التاريخي عن أصول إسرائيل لابتداء من عصر المملكة الموحدة فقط، أما قبل ذلك فهو مجرد " ما قبل التاريخ " بالنسبة لإسرائيل، وهو لا يعتقد أن بإمكاننا التحدث عما يمكن تسميته " بكل إسرائيل " إلا ابتداءً من عصر شاوؤل، وهو الملك الأول للقبائل التي شكلت إسرائيل)).

ثم يستمر قائلاً: ((ويسير الباحث مايز Mayes في اتجاه مشابه، مقدماً عدداً من المحاكمات المنطقية التي من شأنها تقويض أية قناعة بالأساس التاريخي لعصر القضاة))^١. ويرى (طومسون) أن مايز قد ((أدى خدمة كبيرة بشرحه المفصل عن عدم وجود بيئة تاريخية على عصر القضاة، ويتوجب على المرء وبكل إنصاف أن يسأل عن البيئة على بنائه التاريخي كذلك. إظهار أن " إسرائيل الكاملة " مفهوم متأخر لا يمكن فهمه على أنه يوازي إظهار أن القبائل قد وُجدت كحفائق تاريخية مستقلة في مدة ما قبل شاوؤل)).

ثم يعلّق (طومسون) على ذلك: ((إذا لم يفترض المرء مسبقاً وجود عصر القضاة أو أي عصر مشابه له لا يعود واضحاً لماذا يفترض وجود مملكة داوود أو شاوؤل! قصص الملكية الموحدة تفعل ذلك))^٢.

أما الباحث ميللر Miller فيرى أن الاعتماد على المعلومات التاريخية والآركيولوجية من أجل إثبات أو نفي الرواية التوراتية لسفر القضاة هو مجهود لا طائل من ورائه، لأننا لا نتعامل مع نص تاريخي تم تدوينه إبان الحدث أو بعده بقليل، بل مع نص مكتوب

(١) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ١٠٧.

(٢) توماس ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص ٧٠-٧١.

بأسلوب التحرير الحر ، وفي وقت متأخر جداً عن الحدث ^١ .

بينما يرى الباحث (سوغين) أن حقبة الملكية الموحدة في المرويات التوراتية تشكل حداً فاصلاً بين تاريخ مقبول تاريخياً، والتاريخ الأسطوري السابق للروايات التوراتية التي تؤدي إلى الملكية ^٢ .

#وأنا لا أريد هنا أن أدافع دفاعاً مستميتاً عن هذا العصر، إذ أنه لا يوجد ما يدل عليه في النصوص القرآنية والنبوية، ولكني أبين أن هذا العصر في مجمله كان موجوداً، وبعض القصص التوراتية قد تكون صحيحة، ولكن كثيراً من التفاصيل قد تكون مختلفة ، خصوصاً إذا تعارضت مع الشرع، مثل وجود (نبية) اسمها (دبورا)، أو تعارضت مع العقل كالقصص الخرافية لـ (شمشون) .

ولكن هناك بعض الملامح العامة التي نستطيع أن نرسمها لـ (عهد القضاة)، ومن أهم هذه الملامح: -

أ / ارتدادهم عن التوحيد وعبادتهم للأوثان .

ب / الإنحلال والتفسخ الخلقي، وانتشار الرذيلة .

ج / الخلافات والتفكك بين القبائل الإسرائيلية .

د / الذلة والخنوع للأمم المجاورة .

هـ / تقليدهم الأمم الوثنية .

و / تسلط الأمم عليهم واضطهادهم .

ز / ضعف الاستجابة للقضاة والحكام .

(١) فراس السواح، آرام دمشق وإسرائيل، ص ١٠٨

(٢) طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص ٧٧

ملخص الفصل الأول:

- بيت المقدس لم يسكن فيه (إبراهيم) عليه السلام - وإن كان هو أول من بنى المسجد الأقصى - ولا ذريته من بعده حتى افتتحه (داود) عليه السلام، وكانت بداية حركة الفتح هي معركة (طالوت) مع (جالوت) .
- تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر وقع فيه اختلاف كبير ناشئ من اختلافهم في (فرعون الخروج)، والذي رجحناه أنه (رعمسيس الثاني)، وبالأتي فإن تاريخ الخروج قرابة عام ١٢٢٧ ق.م.
- أعداد بني إسرائيل في (العهد القديم) من المبالغات الغير مقبولة، والصحيح أن عدد الذين خرجوا من مصر كان (٦٠٠) عشيرة، بدون معرفة العدد بالضبط .
- استقر بنوا إسرائيل بعد الخروج شرق نهر الأردن، ولم يدخلوا أي معركة في عهد موسى وهناك امتنعوا من دخول (أريحا) - الأرض المقدسة - فعاقبهم الله بالتيه، حتى هلك ذلك الجيل، وفيه توفي موسى وهارون عليهما السلام .
- في عهد يوشع عليه السلام قاد الجيل الجديد وكثرت الفتوحات في عهده، والتي من أهمها فتح أريحا .. ولكنه لم يفتح بيت المقدس .
- سميت المدة بعد وفاة (يوشع) ١١٦٠ ق.م. بعهد القضاة، واستمرت قرابة ١٥٠ عاماً، وهؤلاء القضاة كانوا عبارة عن زعماء عشائر محدودة، كما أنه لا يلزم أن يكون القاضي نبياً .
- اختلط بنوا إسرائيل بالمجتمعات الوثنية المجاورة وتأثروا بهم في النواحي العبادية والاجتماعية .
- كان بنوا إسرائيل إلى عهد طالوت يميلون إلى حياة البداوة في السكن ورعي الأنعام وتتبع المراعي والمياه .
- بلغ بنوا إسرائيل قمة الذلة والمهانة قبل مجيء (طالوت) .. فقد غزتهم جميع الأمم المجاورة لهم تقريباً .. ومكثوا تحت الاستعباد سنين طويلة، ونهب منهم (التابوت)، ولم يستطيعوا أن يحققوا أي نصر يذكر .. فضلاً عن الوصول إلى بيت المقدس .

الفصل الثاني

تاريخ طالوت.. كما صورّه القرآن وأثبتته المؤرخون

المبحث الأول: القصة حسب ورودها في الآيات^١

دخل بنو إسرائيل في حرب مع الفلسطينيين — سكان أشدود (مدينة أسدود) — بالقرب من غزة، وقد أخذ بنو إسرائيل معهم تابوت العهد، وهو التابوت الذي فيه التوراة، ليستنصروا به فغلبهم الفلسطينيون وأخذوا تابوت العهد، وكانت هزيمة بني إسرائيل عظيمة وذلم شديد، وقد قدر الله وشاء أن يضيع التابوت من أيديهم عقاباً لهم على جرائمهم وتطاولهم على حقوق الله وعلى حقوق أنبيائه، وكانوا يعتزون بوجود هذا التابوت معهم وخاصة أثناء الحرب بينهم وبين خصومهم لأنه كان يمدّهم بالسكينة والطمأنينة والثقة بالنفس، ومن ثم النصر بعدئذ؛ لكنهم عندما حرروا أنفسهم من الالتزام بالتعاليم التوراتية الحقيقية لم يعد هناك مبرر لوجوده عندهم وبقائه في حوزتهم. حينذاك، بحثوا عن من ينتشلهم من هدمهم، ويقل عثرهم، ويصح مسارهم. فجاء جماعة من أشرافهم وشيوخهم إلى بلدة الرامة، وطلبوا من أحد أنبيائهم ويدعى (شمويل) — عليه السلام — أن يعين عليهم ملكاً أو قائداً يختاره حسب معرفته فيتولى قيادتهم ويتحمل مسؤولية المعركة القادمة التي سيخوضونها مع أعدائهم العماليق. وكان (شمويل) — عليه السلام — بصيراً بنفوس بني جلدته، وما انطوت عليه من جبن وخور ومذلة، فواجههم مواجهة صريحة وشجاعة قائلاً لهم: إنني أخشى إذا كتب عليكم القتال أن تجبنوا عنه وتتقهقروا فلا تقاتلون ولا تلتزمون بأعباء الجهاد في سبيل الله. وحاول الإسرائيليون الدفاع عن أنفسهم قائلين: إن كافة مقومات الجهاد متوافرة فيهم، وليس هناك أي مسوغ لهم للتراجع والتكاسل عن القتال في سبيل الله، خاصة

١ — القصة هنا من صياغتي بحسب فهمي للآيات بعد الدراسة التحليلية .

وأهم أصحاب الحق بعد أن شردهم أعداءهم من ديارهم ومواطنهم.

فرأى شمویل أنّ هؤلاء القوم قد شخصّوا داءهم وها هم قد اتجهوا للمعالجة، ولعلهم أدركوا سبب تخلفهم، فتوجّه إلى الله يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا «طالوت» ملكاً عليهم. فقال شمویل: ربّ إني لا أعرف طالوت ولم أراه حتّى الآن. فجاءه الوحي: سنرسله إليك فأعطه قيادة الجيش ولواء الجهاد. وأوضح لهم نبيهم (شمویل) - عليه السلام - أن الله تعالى بعث إليهم ملكاً اسمه (طالوت) وأنه سيحقق أمانهم في الانتصار على أعدائهم كما أنه يتمتع بالعديد من الصفات العظيمة التي تؤهله لتحمل تلك المسؤولية.

فأفهمهم بذلك أنّ اختيار الله طالوت ملكاً وقائداً لما يتمتّع به من علم وحكمة وعقل، ومن الناحية البدنية فهو قوي ومقتدر. ولكن ذلك الاختيار لم يرق لهم ولم يعجبهم. متذرعين بمعرفتهم المسبقة بالإمكانات المتواضعة جداً لطالوت فهو أقل منهم وهو دون مستواهم، وهم أحقّ بتحمل مسؤولية القيادة منه. فطالوت لم يكن من أسرة لاوي التي ظهر منها الأنبياء، ولا كان من أسرتي يوسف أو يهوذا اللتين سبق لهما الحكم، بل كان من أسرة بنيامين المغمورة الفقيرة، فاعترضوا قائلين: كيف يمكن لطالوت أن يحكمنا، ونحن أحقّ منه بالحكم!

كما أنه رجل عادي لا يمتلك أموالاً طائلة وعظيمة تجعلهم يتغاضون عن عيوبه وتقبل قيادته لهم، ويفرض عليهم احترامه وتقديره! هذا هو مقياسهم المختل..

واستاء (شمویل) - عليه السلام - من أقوالهم، وأوضح لهم ان الله تعالى أعلم فهو سبحانه واسع المعرفة والعلم وأنه يؤتي ملكه من يراه أهلاً لذلك..

وما دام الأمر كذلك فليس لهم حق الاعتراض على الإرادة الإلهية، خاصة وأن الله تعالى أنعم على طالوت فوهبه كافة المؤهلات التي تؤهله للانتصار على الأعداء.

وقد دغدغت هذه المعلومات المفيدة عواطف بني إسرائيل، لكنها لم تتجذر في عقولهم وقلوبهم، فطلبوا من (شمویل) أن يأتي لهم بدليل ملموس يدل على صدق أقواله، وصحة وعوده.

فقال لهم: إن الله وعدني أن يعيد إليكم التابوت — صندوق العهد — الذي هو أثرٌ مهمٌّ من آثار أنبياء بني إسرائيل، وكان مدعاةً لثقتكم واطمئنانكم في الحروب، سيعود إليكم يحمله جمع من الملائكة، ولم يمض وقت طويل حتى ظهر الصندوق، وجاءت الملائكة بالتابوت، وفي الحقيقة أن هذا الصندوق بطابعه المعنوي والتاريخي كان أكثر من مجرد لواء لبني إسرائيل وشعار لهم، فقد كان يمثّل رمز استقلالهم ووجودهم وبرؤيته كانوا يسترجعون ذكرى عظمتهم السابقة. لذلك كان الوعد بعودته بشارة عظيمة لهم، وهنا فقط صدقوا وآمنوا.. واستبشروا بالنصر المبين.

وتسلم طالوت مسؤولية القيادة، وخلال فترة قصيرة أثبت لياقته وجدارته للاضطلاع بمهام إدارة الملك وقيادة الجيش، ثمّ طلب من بني إسرائيل أن يعدّوا العدة لمحاربة عدوّ كان يهدّدهم من كلّ جانب، وشرع على الفور في بناء قاعدة عسكرية قوية يستطيع بها مواجهة خصمه (جالوت)، الذي كان يتمتع هو الآخر بقاعدة عسكرية عالية الكفاءة، ولا يمكن الاستهانة بقدراتها القتالية المتقدمة، وقد ارتكزت هذه القاعدة على جيش قوي، وسلاح فتاك. ولم تكن القوتان متكافئتين...

لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يمنحهم فرصة للنجاح في الاختبار، ويعرف مدى قدرتهم على تنفيذ أوامره، والعمل على طاعته ومن ثمّ طاعة طالوت في التنفيذ أيضاً. وكان هذا الامتحان ضرورياً لجيش طالوت وخاصة مع السّوابق السيئة لهذا الجيش في بعض الحروب السابقة.

ففي المسيرة الطويلة وتحت أشعة الشمس المحرقة أصابهم العطش. فقال لهم قائدهم طالوت قبل بداية التوجه بهم إلى ميدان المعركة: ها نحن في طريقنا لخوض غمار المعركة الفاصلة مع أعدائنا، لكن الله تعالى سيمتحنكم بنهر تصادفونه في طريقكم، وهو تعالى أعلم بأمركم ولكنه سيختبركم وأنتم في شدة عطشكم وأنتم تجتازون هذا النهر، عليكم تنفيذ ما يأتي:

أولاً: أثناء اجتيازكم لهذا النهر محظور عليكم أن تشربوا من مائه، ومن يخالف هذا الأمر فهو ليس من أهل الله المؤمنين.

ثانياً: من يشتد به الظمّ، وأراد أن يسكن ظمأه مجرد تسكين فقط فعليه أن يغترف بيده غرفة واحدة ويبلل بها ريقه.

ووافقوا على هذه التعليمات.. لكنهم اختلفوا في تنفيذها على أرض الواقع..
كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، وعندما بدأ الامتحان، شرب القوم على
قدر إيمانهم..

العاجزون والمخالفون صاروا يشربون ويعبون من النهر عباً..

أما المؤمنون فقد التزموا بتنفيذ التعليمات بدقة متناهية.

أدرك طالوت أنّ أكثرية جيشه يتألف من أناس ضعفاء الإرادة وعديمي
العهد، ما خلا بعض الأفراد المؤمنين، لذلك فقد تخلى عن تلك الأكثرية واتّجه مع
النفر المؤمن القليل خارجاً إلى ميادين الجهاد.

ولما اقترب الجيشان من بعضهما البعض، وأوشكت الحرب أن يشتعل فتيلها، دب
الجن والخور في بعض جنود طالوت، وأصابهم اليأس والقنوط حينما شاهدوا كثرة
أعداد جيش جالوت المعادي، وقالوا بكل صفاقة: ليست لنا قدرة على مواجهة أعدائنا
وعلينا الانسحاب من الميدان هرباً من الموت المحقق الذي ينتظرنا ويترصداً.

لكن القلة المؤمنة الواثقة من إيمانها ومن نصر الله لها رفضت ذلك المنطق الانهزامي
وقال الرجال المؤمنون بكلّ شجاعة: إن العدد الكثير، والعتاد الوفير ليستا مقياساً دقيقاً
يمكن الاعتماد عليه في تحقيق النصر أو انزال الهزيمة بالطرف الآخر، فكم من فئة قليلة
مؤمنة غلبت فئة كثيرة كافرة بإذن الله، والله مع الصامدين الصابرين.

أما بالنسبة لعدد المجاهدين فقد كان مثل عدد المؤمنين في غزوة بدر ثلاثمائة وبضعة
عشر مؤمناً.

فاستعدّ طالوت بجماعته القليلة المؤمنة للحرب، ودعوا الله أن يمنحهم الصبر والثبات.
وقد جرت العادة قديماً أن تبدأ المعارك بالمبارزة الشخصية بين محاربين اثنين من كلا
الطرفين.

وقف (جالوت) بكل صلفه وجبروته، وبكل الضجيج الإعلامي الذي انتشر عن
بطولته وشجاعته.. في طرف الكفار.. وطلب المبارزة بصوت قوي أثار الرعب في
القلوب، فلم يجرؤ أحد على منازلته.

وأعلن (طالوت) بين جنوده المؤمنين أن من يتصدى لقتال جالوت وينتصر عليه
فسيكافئه مكافأة عظيمة.

وانبرى للمبارزة فتى قصير القامة نحيف الجسم، أزرق العينين، طاهر الأصغرين يدعى (داود). وقال لقائده بكل بسالة: أنا كفيل به بإذن الله. ولم يكن داود يحمل مؤهلاً علمياً أو عسكرياً يؤهله لمثل تلك المواجهة غير المتكافئة، ولكنه كان يحمل مؤهلاً إيمانياً عميقاً يؤهله للانتصار في تلك المواجهة. وكان يحمل مؤهلاً ثانوياً تمثل في خبرته التقليدية باستعمال المقلاع إضافة الى عدة أحجار، و كان سريع الحركة خفيفها.

وتم الاعلان عن بدء المبارزة.. جالوت عن جبهة الكفر.. وداود عن جبهة الايمان. وأدار داود مقلاعه عدة دورات في الهواء وقال: باسم الله أرمي.. وباسم الله أصيب.. وما هي الا لحظات وإذا بالحجر المبارك يشج رأس جالوت، وإذا بدم جالوت ينهمر، وبروحه تزهق.. فسقط على الأرض ميتاً وسط تعجب جيشه ودهشتهم. وعلى أثر ذلك استولى الرعب والهلع على جيش جالوت، ولم يلبثوا حتى ركنوا إلى الفرار من أمام جنود طالوت وانتصر بنو إسرائيل.

فلما انتهت أوزار الحرب صار داود أبرز شخصية قيادية بعد شخصية طالوت، ونظر الناس اليه بكل المهابة والتقدير. لكن داود لم يعبأ كثيراً بهذه المظاهر الدنيوية الزائلة، وأرجع كل فضل ناله الى الله.

وتم تعيين داود ملكاً بعد وفاة طالوت، واصطفاه الله تعالى نبياً هداية بني اسرائيل، وانزل عليه (الزبور)¹.

ورفع داود عليه السلام راية النصر بعد طالوت وشرع في إعادة التمكين لبني إسرائيل.

لقد كان منهج التغيير في زمن طالوت وداود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر، والإيمان والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمج الباطل وإضعافه، ووصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم.

¹ الزبور: كتاب يشتمل على حكم ونصائح ومواعظ وأناشيد وتحميد وتمجيد، وليس فيه أية أحكام شرعية، وهو مقدس عند اليهود مثل التوراة. ويسمى الزبور عند أهل الكتاب (المزامير) وعددها مائة وخمسون مزموراً، وليست كلها لداود عليه السلام. كما أنها اليوم محرقة كسائر العهد القديم.

المبحث الثاني: موقع الآيات ومناسبتها

المطلب الأول: محور سورة البقرة

لكل سورة من سور القرآن ((موضوع رئيس أو موضوعات عدة رئيسية مشدودة إلى محور خاص، ولها جو خاص يظل موضوعاتها كلها، ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة، تحقق التناسق بينها وفق هذا الجو.. وهذا طابع عام في سور القرآن جميعاً، ولا يشذ عن هذه القاعدة طوال السور كهذه السورة))^١.

ويرى (المودودي) أن محور الرئيس لسورة البقرة أنهما: ((دعوة لقبول الهداية الإلهية، وكل القصص والحوادث التي وردت بها تدور حول هذه الفكرة المركزية . وفيها ذكر اليهود على وجه الخصوص بحوادث تاريخية متعددة مستوحاة من سيرتهم الخاصة كي يذكرهم الله وينصحهم بأن صلاحهم وخيرهم يكمن في قبول هذه الهداية المتزلة على النبي ﷺ، ولذا فعليهم أن يكونوا أول من يؤمن بها لأنها - في أصلها وأساسها - هي نفس الهداية التي أنزلت على نبيهم موسى ﷺ))^٢.

بينما يرى (سيد قطب) أن ((المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً .. فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولنا ﷺ وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها ... وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم ﷺ صاحب الحنيفة الأولى، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم ... وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيه الرئيسين))^٣.

ويقول (محمد رشيد رضا): ((سورة البقرة أجمع سور القرآن لأصول الإسلام

(١) سيد قطب ، في ظلال القرآن، الطبعة الثلاثون ١٤٢٢هـ ، القاهرة ، دار الشروق ٢٨/١

(٢) المودودي ، أبو الأعلى ، تفهيم القرآن ، تعريب : أحمد إدريس ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ ، الكويت ، دار القلم، ص٤٣

(٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن . ٢٨/١

وفروعه، ففيها بيان التوحيد والبعث والرسالة العامة والخاصة وأركان الإسلام العملية وبيان الخلق والتكوين وبيان أحوال أهل الكتاب والمشركين والمنافقين في دعوة القرآن ومحاجة الجميع وبيان أحكام المعاملات المالية والقتال والزوجية، والسور الطوال التي بعدها متممة لما فيها، فالثلاث الأولى منها مفصلة لكل ما يتعلق بأهل الكتاب، ولكن البقرة أطالت في محاجة اليهود خاصة))^١

#من الواضح جداً إذاً أن هذه السورة العظيمة محورها (اليهود) ولكي نفهم هذا الخطاب الرباني فهماً تاماً علينا أن نضع في أذهاننا عدة نقاط هامة: -

أ - إن هذا الحديث يهدف إلى دعوة أتباع الأنبياء السابقين (اليهود والنصارى) -الذين كانوا لا يزالون في عجز عن إصلاح أنفسهم - إلى فهم رسالة محمد ﷺ وقبولها، ولهذا فقد أخبرهم الله فيه بأن رسالة القرآن هي عين رسالة الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين، وأن مهمة محمد عليه الصلاة والسلام هي نفس مهمة من سبق من الأنبياء. فكأن هذا الخطاب يقصد أن يقول لهم: ((لقد أسندت إليكم هذه المهمة أول الأمر لكي تنفذوها وتدعوا العالم لقبولها والإيمان بها لكنكم طرحتم هداية الله وتدلّيتم إلى أعماق الانحطاط، وما تاريخ أمتكم الماضي وانحطاطها الخلقي والديني الراهن سوى خير شاهد عليكم، وهاهو عبد آخر من عباد الله أرسله بنفس الرسالة ولتنفيذ المهمة أيضاً، وليس في هذا شيء غريب أو جديد عليكم، فينبغي إذن ألا تعارضوا الحق وأنتم تعلمونه، وخير لكم أن تؤمنوا به، وتعاونوا مع من يؤمنون بنفس ما أرسل إليكم من قبل))^٢.

ولذلك قيل لما فسر ابن عباس ؓ سورة البقرة في الحج: ((فسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا))^٣.

ب - كذلك يرمي هذا الخطاب إلى مناقشة اليهود، والبرهنة على فسادهم وكشف انحطاطهم الديني والخلقي، لذا نرى آياته تثبت إثباتاً قاطعاً خطأ موقفهم من الإسلام حين كانوا يعارضونه مع أنهم كانوا يعترفون في الوقت نفسه بأن مبادئه وأسسها هي بالفعل

(١) تفسير المنار ٢٨٨/٧

(٢) أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن، ص ٦٧

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٨/١

عين مبادئ دينهم ، وأن القرآن ليس فيه ما يخالف التوراة أو يعارض تعاليمها من حيث المبدأ .

كما أن هذا الخطاب يبين أيضاً أن اليهود فشلوا تماماً في اتباع ما أعطاهم الله من هداية، وأخفقوا كل الإخفاق في القيام بمسؤوليات وواجبات الزعامة التي أسندت إليهم، ولإثبات هذا سيقت حوادث من تاريخهم وقصصهم لا يستطيعون لها إنكاراً أو رفضاً.

ج - سبب اختيار بني إسرائيل نموذجاً هو أنهم الأمة الوحيدة التي يعد تاريخها خلال الأربعة آلاف سنة الأخيرة درساً وعبرة حية لكل أمم العالم، إذ تبدو في روايته كافة الارتفاعات والانخفاضات والإرتقاعات والتزلزلات التي تنجم عن السير وفق هداية الله أو نبذها والتكر لها .

د - رغم أن هذا الخطاب موجه إلى اليهود بذاتهم، إلا أنه قصد به كذلك تحذير المسلمين من السقوط فيما سقط فيه أتباع الأنبياء السابقين.

وهذا هو سبب إشارة القرآن فيه إلى انحطاطات اليهود الخلقية وإيراد تصوراتهم المستغربة وأفكارهم الخاطئة عن الدين ، وذكر طرقهم الضالة في التفكير وأساليبهم الساقطة في العيش والحياة واحدة بواحدة^١ .

كل هذا يجعلنا نفهم لماذا ركزت سورة (البقرة) - وهي سورة مدنية^٢ ، بالإتفاق - عن الحديث عن بني إسرائيل وتاريخهم، حتى قال بعض علماء القرآن: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية^(٣) سوى البقرة .

ولئن كانت أغلب قصص بني إسرائيل نزلت في العهد المكي، ولكنها هناك كانت تذكر لشبث القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة ، أما - هنا في سورة البقرة- فالقصد هو كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود .. وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكي والقرآن المدني اختلفت طريقة العرض، وإن كانت الحقائق التي عرضت

(١) أبو الأعلى المودودي، تفهيم القرآن، ص ٦٧-٦٨

(٢) مدنية : أي أنزلت بعد هجرة النبي ﷺ.

(٣) مكية : أي نزلت قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

هنا وهناك عن انحراف بني إسرائيل ومعصيتهم واحدة^١.

- وحينما نقول إن هذا هو المحور الرئيس لسورة البقرة فإن هذا لا يعني أن السورة أغفلت جوانب أخرى فهذه السورة الكريمة ((لكونها سنام القرآن ذكر فيها كليات الأحكام الدينية من الصيام والحج والصلاة والجهاد على نمط عجيب، مستطرداً تارة للاهتمام بشأنها، يكرّ عليها كلما وجد مجال، وفيها مقصود آخر بالدلالة على أن المؤمن المخلص لا ينبغي أن يشغله حال عن حال، وأن المصالح الدنيوية ذرائع إلى الفراغة للمشاكل الأخروية))^٢.

وفي كل مجال من هذه المجالات التي تناولتها سورة البقرة تفصيلاً، كان لليهود ذكر فيها، نظراً لأهم النموذج المنحرف الذي كلف بالتكاليف الشبيهة بما كلف به المسلمون، ولكنهم غيروا وبدلوا وانحرفوا^٣.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٦٦/١

(٢) الألوسي، روح المعاني ١٦٣/٢

(٣) مصطفى مسلم، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، دمشق، دار القلم، ص ٥٨

المطلب الثاني: مناسبة الآيات للسورة

الآيات [٢٤٦-٢٥٢] من سورة البقرة هي جزء لا يتجزأ من الأهداف الرئيسة لسورة البقرة، وقد وضعها النبي ﷺ في هذا الموضوع بوحى من الله سبحانه فقد ((انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف ، كان بتوفيق من النبي ﷺ عن الله تعالى، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه))^(١).

ومع أن الجزء الأكبر من سورة البقرة نزل خلال العامين الأولين من حياة الرسول ﷺ في يثرب إلا أن هناك آيات نزلت في فترات أخرى وضعت في هذه السورة لأن ما تحويه تتصل تماماً بما قد عولج فيها^(٢).

ولعلنا نضع مناسبة هذه الآيات للسورة في نقطتين: -

أولاً: من معالم السورة الأساسية الحديث عن الجهاد والقتال في سبيل الله، ((قال الحرالي: لما كان أمر الدين مقاماً بمعامله الخمس التي أقامها ظاهرها تمام في الأمة، وإنما تتم إقامتها بتقوى القلوب وإخلاص النيات كان القليل من المواعظ والقصص في شأنه كفاية.

ولما كان حضرة الدين إنما هو الجهاد الذي فيه بذل الأنفس وإنفاق الأموال كشرت فيه مواعظ القرآن وترددت، وعرض لهذه الأمة بإعلام بما يقع فيه، فذكر ما وقع من الأقاليم في الأمم السالفة وخصوصاً أهل الكتاب من بني إسرائيل ومن لحق بهم من أبناء العيص، فكانت وقائعهم مثلاً لوقائع هذه الأمة، فلذلك أحيل النبي ﷺ على استنطاق أحوالهم بما يكشفه الله سبحانه وتعالى له من أمرهم عياناً، وبما يتزله من خبرهم بياناً^(٣).

قال الشوكاني: ((وعلى هذا يكون إيراد هذه القصة لتشجيع المسلمين على الجهاد))^(٤)، وفي هذا دلالة تامة على مدنية هذه السورة إذ ((أن القسم المكي خلاخلاً

(١) الزرقاني، مناهل العرفان . ٣٤٦/١

(٢) المودودي، تفهيم القرآن . ص ٣٩

(٣) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . ٣٨٦/٣-٣٨٧

(٤) فتح القدير ٢٨٧/١ و ٢٩٠/١ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥١/٢

تماماً من تشريع القتال والجهاد والمخاشنة، كما خلت أيامه في مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التكييل والمصاولة، فلم يسمع للمسلمين فيها صلصلة لسيف، ولا قعقة لسلاح، ولا زحف على عدو، إنما هو الصبر والعفو والجمالة والحاسنة، بالرغم من إيغال الأعداء في أذاهم، ولجأهم في عتوهم وأساهم، سباً وطعناً، وقتلاً ونهباً، ومقاطعة ومهاترة، ومصاولة ومكابرة))^(١).

ثانياً: ختم الله قصص بني إسرائيل في سورة البقرة بهذه القصة لتنبية الجماعة المسلمة بحالهم بعد ذهاب الأنبياء، والعوامل الحقيقية لرفعتهم وسنن انتصار الأمم .

((قال الحراي: فكما قص في صدر السورة حالهم مع موسى عليه السلام ففي خواتيمها حالهم من بعد موسى، لتعتبر هذه الأمة من ذلك حالها مع نبيها ﷺ وبعده))^(٢).
ولعل ختام قصص بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبي ﷺ من وضوح الأدلة على صحة دعواه الرسالة لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حدّاق علماء بني إسرائيل، ثم أعقبها بآية الكرسي التي هي العلم الأعظم من دلائل التوحيد فكان ذلك في غاية المناسبة لما في أوائل السورة في قوله تعالى ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم....﴾ [البقرة: ٢٠] إلى آخر الآيات من دلائل التوحيد المتضمنة لدلائل النبوة المفتوح بها قصص بني إسرائيل، فكانت دلائل التوحيد مكتنفة قصصهم أولها وآخرها مع ما في أثنائها، جرياً على الأسلوب الحكيم في مناظلة العلماء ومجادلة الفضلاء^(٣).

(١) الزرقاني، مناهل العرفان ٢١٣/١

(٢) البقاعي، نظم الدرر ٤٠٨/٣

(٣) المصدر السابق نفسه ٤٤٢/٣

المطلب الثالث: مناسبة الآيات لما قبلها

قال البقاعي: ((لما انقضى مالا بد منه بعد الإعلام بفرض القتال المكروه للأنفس من تفصيل ما أجمل في ليل الصيام من المشارب والمناكح وما تبعها، وكان الطلاق كما سلف كالموت، وكانت المراجعة كالإحياء، وختم ذلك بالصلاة على حال الخوف الذي هو أغلب صورة الجهاد، ثم بتبيين الآيات أعم من أن تكون في الجهاد أو غيره، عقب ذلك بقوله دليلاً على آية كتب القتال المحثوث فيما على الإقدام على المكاره لجهل المخلوق بالغايات))^(١).

وقد سبقت الآيات التي معنا بآيات تتحدث عن الناكثين عن الجهاد إذ قال الله سبحانه:

" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴿٢٤٤﴾ ﴿٢٤٥﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ " [البقرة: ٢٤٣-٢٤٥]

والمشهور أن هؤلاء فروا من الجهاد، وقيل من الطاعون، والأقرب المناسب مع الآيات أنهم فروا من الجهاد ((والمشهور أنهم بقوا موتى مدة حتى تفرقت عظامهم، فمرّ بهم حزقييل الشهير بابن العجوز، خليفة كالب بن يوفنا خليفة يوشع بن نون، وقيل: شعون، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال وهب: شمويل ذوالكفل، وقيل: يوشع نفسه .

فوقف متعجباً لكثرة ما يرى منهم فأوحى الله إليه أن ناد: أيتها العظام: إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمعت حتى التصق بعضها ببعض فصارت أجساداً من العظام لا لحم ولا دم، ثم أوحى الله إليه أن نادي: أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً فاكتست لحماً .

ثم أوحى الله تعالى إليه أن نادي: إن الله يأمرك أن تقومي فبعثوا أحياء يقولون:

(١) البقاعي، نظم الدرر ٣/٣٨٦

سبحانك اللهم ربنا وبمحمدك لا إله إلا أنت .

والروايات في هذا الباب كثيرة))^(١)

- بعد هذا نقول: أن وجه الاتصال بين الآيات هذه وآيات القصة التي تليها: " ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل ... " هو أن هذه الآيات نزلت في شرع القتال وحماية الحقيقة وإعلاء شأن الحق وبذل المال في هذا السبيل - سبيل الله - لعزة الأمم ومنعتها وحياتها الطيبة، التي يقع من ينحرف عنها من الأقوام في الهلاك والموت، كما علم من قصة الذين خرجوا من ديارهم فارين من عدوهم على كثرتهم، وهذه القصة قصة قوم من بني إسرائيل تؤيد ما قبلها من حاجة الأمم إلى رفع الهلاك عنها .

فهي تمثل لنا حال قوم لهم نبي يرجعون إليه، وعندهم شريعة تهديهم إذا استهدوا، وقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم بالقهر، كما خرج أصحاب القصة الأولى بالجبن، فعلموا أن القتال ضرورة لا بد من ارتكابها ما دام العدوان في البشر .

وبعد هذا كله جنبوا وضعفوا عن القتال فاستحقوا الخزي والنكال، فهذه القصة المفصلة فيها بيان لما في تلك القصة الجملة، فر أولئك من ديارهم فماتوا بذهاب استقلالهم واستيلاء العدو على ديارهم، فالآيات هنا صريحة في أن موقم هذا بسبب خروجهم فارين بجنبهم، ولم يصرح بسبب إحيائهم الذي تراخت مدته، ولكن ما جاء بعدها من الأمر بالقتال وبذل المال الذي يضاعفه الله أضعافاً كثيرة، وقد هدانا إلى سنته في حياة الأمم، وجاءت هذه القصة الإسرائيلية تمثل العبرة فيه، وتفصل كيفية احتياج الناس إليه، إذ بينت أن هؤلاء الناس احتاجوا إلى مدافعة العادين عليهم، واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم، واشتد الشعور بالحاجة حتى طلبوا من نبيهم - الزعيم الذي يقودهم في ميدان الجلال - وقاموا بما قاموا به من الاستعداد، ولكن الضعف كان بلغ من نفوسهم مبلغاً لم تنفع معه تلك العدة، فتولوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها، وألهم القليل منهم رشدهم واعتبروا فانتصروا^(٢).

قال (ابن حبان) عن قصة الذين أماتهم الله ثم أحياهم بأنها خطاب لهذه الأمة بالجهاد في سبيل الله، وتنبه هذه الأمة أن لا تفر من الموت كفرار أولئك، وتشجيعاً لها وتشبيهاً،

(١) الألويسي، روح المعاني ١٦١/٢

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار . ٤٧٥/٢

وفيه حث عظيم على القتال، والقتال في سبيل الله مورث للعز الأبدي، والفوز السرمدي^(١).

ثم قال عن قوله ﴿ ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل من بعد موسى ... ﴾ : ((مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وذلك أنه لما أمر المؤمنين بالقتال في سبيل الله وكان قد قدم قبل ذلك قصة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، إما بالقتال أو بالطاعون، على سبيل التشجيع والتثبيت للمؤمنين والإعلام بأنه لا ينجي حذر من قدر، أردف ذلك بأن القتال كان مطلوباً مشروعاً في الأمم السابقة، فليس من الأحكام التي خصصتم بها لأن ما وقع فيه الاشتراك كانت النفس أميل لقبوله من التكليف الذي يكون يقع به الانفراد))^(٢).

ويرى (ابن عاشور) أن ((جملة " ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل " استئناف ثانٍ بعد جملة " ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم " سيق مساق الاستدلال لجملة " وقاتلوا في سبيل الله " ، وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال بعد التهيؤ له في سبيل الله، والتكرير في مثله يفيد مزيد تحذير وتعريض بالتوبيخ، فإن المأمورين بالجهاد في قوله " وقاتلوا في سبيل الله " لا يخلون من نفر تعريضهم هو اجس تشبهم عن القتال حباً للحياة، ومن نفر تعريضهم خواطر قهون عليهم الموت عند مشاهدة أقدار الحياة ومصائب المذلة .

فضرب الله لهذين الحاليين مثلين: أحدهما تقدم في قوله " ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم " والثاني قوله " ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل "))^(٣)

ثم يقول عن سبب ترتيب هذين المثليين: ((وقد قدّم أحدهما وآخر الآخر: ليقع التحريض على القتال بينهما، ومناسبة تقديم الأولى أنها تشنع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم، فخرجوا من ديارهم مع كثرتهم، وهذه الحالة أنسب بأن تقدم بين يدي الأمر بالقتال والدفاع عن البيضة، لأن الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة .

ومناسبة تأخير الثانية أنها تمثيل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله لقولهم " وما

(١) البحر المحيط ٢٦٠/٢

(٢) المصدر السابق نفسه ٢٦٢/٢

(٣) ابن عاشور، التحرير و التنوير ٤٨٤/٢

لنا ألا نقاتل" . فسألوه دون أن يفرض عليهم، فلما عيّن لهم القتال نكصوا على
أعقابهم، وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم بعد الشروع في القتال، أو
بعد كتبه عليهم .

فله بلاغة هذا الكلام، وبراعة هذا الأسلوب تقديماً وتأخيراً ((^(١)).

(١) المصدر السابق نفسه ٤٨٤/٢

المطلب الرابع: مناسبة الآيات لواقع الصحابة

كان الإسلام في مكة يولي اهتمامه وعنايته لنشر مبادئه الأساسية وتدريب أتباعه وتشكيلهم خلقياً، أما بعد هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة - حيث نزع المسلمون من كل بقاع الجزيرة ليتخذوا لهم مقراً وحيث أنشئت بمعاونة الأنصار دولة إسلامية صغيرة - كان ولا بد - بالطبع - من التفات القرآن إلى المشاكل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والقانونية.. وهذا يفسر الفرق بين موضوعات السور المكية وموضوعات السور المدنية، وعلى هذا فإن ما يقارب نصف هذه السور يعالج المبادئ والقواعد الأساسية الفردية لتكامل وتضامن ودمج جماعة بشرية كما يتناول أيضاً الأسس اللازمة لحل مشاكلها. (١)

كما تضي سورة البقرة في الاستمرار في موضوعها الرئيس وهو إعداد الجماعة المسلمة في المدينة لتنهض بتكاليف الأمة المسلمة.. تنهض بها وقد هيأت لهذه الأمانة الضخمة بالتصور الإيماني الصحيح، وزودت بتجارب الأمة المؤمنة على مدار الرسالات السابقة، وعرفت زاد الطريق كما عرفت مزلق الطريق (٢).

- قال الإمام ابن جرير عن هذه القصة أنهما:

((١ / حضّ لأهل الإيمان بالله وبرسوله من أصحاب محمد ﷺ على الجهاد في سبيله.
٢ / وتحذير منه لهم أن يكونوا في التخلف عن نبيهم محمد ﷺ عند لقائه العدو، ومناهضته أهل الكفر بالله وبه، على مثل الذي كان عليه الملائم من بني إسرائيل في تخلفهم عن ملكهم طالوت إذ زحف لحرب عدو الله جالوت، وإيثارهم الدعة والخفض على مباشرة مرّ الجهاد والقتال في سبيل الله .

٣ / وشحذ منه لهم على الإقدام على مناجزة أهل الكفر به الحرب .

٤ / وترك تمهيب قتلهم أن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم واشتدت شوكتهم بقوله
"قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ" [البقرة: ٢٤٩] .

(١) المودودي، تفهيم القرآن ، ص ٤١

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢٧٥/١

٥/ وإعلام منه - تعالى ذكره - عباده المؤمنين به أن بيده النصر والظفر والخير
والشر))^(١).

- وقد كان بعض الصحابة رضي الله عنهم يتمنون تشريع القتال منذ أن كانوا في مكة،
ولذلك قال الله عنهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً
وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ
وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧].^(٢)

((ولما كان الصحابة رضي الله عنهم يتمنون في مكة المشرفة الإذن في مقارعة الكفار
ليردهم عما هم عليه من الأذى والغى والعمى، عجب من حال بني إسرائيل حيث سألوا
الأمر بالقتال ثم لم ينصفوا إذ أمروا تحذيراً من مثل حالهم، وتصويراً لعجيب قدرته على
نقض العزائم وتقليب القلوب، وإعلاماً بعظيم مقادير الأنبياء وتمكنهم في المعارف
الإلهية))^(٣).

ولما وصل هؤلاء إلى المدينة - وقد أخرجوا من مكة - ظلوا ((يلحون في طلبهم إلى
الرسول عليه الصلاة والسلام أن يأذن لهم بقتال الكافرين الذين لم تلن لهم قناة في
اضطهادهم على مدى أعوام خلت ، حتى إذا ما أذن لهم الرسول بقتال الكافرين بدأت
تفتر همة بعضهم وتذبل شجاعتهم .. وهذا هو سبب إيراد واقعتين هامتين من وقائع
تاريخ بني إسرائيل لتحذير المسلمين من ناحية ، ولشجذ شجاعتهم وإيقاد حماسهم من
ناحية أخرى))^(٤).

قال ابن عاشور: ((وهنا محل العبرة والموعظة لتحذير المسلمين من حال هؤلاء أن
يتولوا عن القتال بعد أن أخرجهم المشركون من ديارهم وأبنائهم، وبعد أن تمنوا قتال
أعدائهم وفرضه الله عليهم))^(٥).

لكن الغريب أن (ابن عاشور) يرى أن هذه الآيات نزلت في مدة صلح الحديبية وأنها

(١) الطبري، جامع البيان ١/ ٦٢٠، والترقيم من عندي .

(٢) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٤١٢/٢

(٣) المصدر السابق نفسه ٤٠٥/٢

(٤) المودودي، تفهيم القرآن ص ١٥٨

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٧/٢

تمهيد لفتح مكة! (١)

بينما سياق الآيات يشهد أن هذه القصة توطئة لغزوة بدر وتدريب لمن كتب عليهم القتال وهو كره لهم ، وتأديب لهم وتهذيب (٢) .

– ويدلّ على ذلك أن هذه الآيات في بداية تشريع القتال ما ذكره (الفخر الرازي) من أن قوله تعالى ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ – أي الآية التي قبل القصة – قال ((فيها قولان:

الأول: أن هذا خطاب للذين أحيوا . قال الضحاك: أحياهم ثم أمرهم بأن يذهبوا إلى الجهاد لأنه تعالى إنما أماتهم بسبب أن كرهوا الجهاد)) (٣).

ثم ضعّف هذا القول بقوله: ((واعلم أن هذا القول لا يتم إلا بإضمار محذوف تقديره: وقيل لهم قاتلوا .

والقول الثاني: وهو اختيار جمهور المحققين: أن هذا استئناف خطاب للحاضرين، يتضمن الأمر بالجهاد، إلا أنه سبحانه بلطفه ورحمته قدم على الأمر بالقتال ذكر الذين خرجوا من ديارهم لئلا ينكص عن أمر الله بحب الحياة بسبب خوف الموت، وليعلم كل أحد أنه بترك القتال لا يثق بالسلامة من الموت، كما في قوله سبحانه ﴿ قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلاً ﴾ فشجعهم على القتال الذي به وعد إحدى الحسينيين، إما في العاجل الظهور على العدو، أو في الآجل الفوز بالخلود في النعيم، والوصول إلى ما تشتهي النفس وتلذ الأعين)) (٤).

ولقد علم الله سبحانه أن أجيالاً من هذه الأمة المسلمة ستمر بأدوار كالتي مرّ فيها بنو إسرائيل، وتقف من دينها وعقيدتها مواقف شبيهة بمواقف بني إسرائيل، تعرض عليها مزلق الطريق مصورة في تاريخ بني إسرائيل لتكون لها عظة وعبرة (٥).

(١) المصدر السابق نفسه ٢/٤٧٥

(٢) البقاعي، نظم الدرر ٢/٤٢٥

(٣) فخر الدين الرازي ، الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب (مفاتيح الغيب)، ط ١٤١٤هـ ، بيروت، دار الفكر ٣/١٧٩ ، و المقصود بالذين أحيوا في الآية التي قبلها . وقد جاء هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً من رواية أبي صالح . انظر : السمرقندي ، بحر العلوم/١/٢١٦ .

(٤) المصدر السابق نفسه ٣/١٧٩

(٥) سيد قطب، في ظلال القرآن ١/٢٦١

ومن ثم فقد نزلت هذه الآيات بما فيها من إرشادات وتعاليم لا يعتمد عليها نجاح الجماعة فحسب بل بقاؤها ودوامها ... ومن هذه التعاليم: -

أ/ إن على الجماعة أن تغرس في أعضائها - وكانت غالبيتهم فقراء بلا زاد أو متاع أو مسكن تكتنفهم الأخطار والمهالك من كل ناحية - الشجاعة والجلد والصبر والعزم الذي لا غنى عنه أبداً في معركة وجودهم وبقائهم في مثل تلك الظروف التي كانوا يناضلون فيها، وأن تعددهم وتهيئهم لمواجهة هذه الظروف في إقدام وجرأة .

ب/ على الجماعة أن تجعلهم مستعدين في أية لحظة لمواجهة أي خطر مسلح قد يأتي من هنا أو هناك ليسحق فكرهم، وصدده بكل قواهم دون اعتبار لقوة أعدائهم العددية الضخمة ومواردهم المادية الهائلة .

ج/ إن على الجماعة أن تعمل بأقصى طاقة وحماس لنشر أفكارها واستقطاب أكبر عدد ممكن إلى صفوفها .

د/ على الجماعة أن تصنع في لبناتها الطاقة والشجاعة اللازمة لاستئصال طرق الباطل وإقامة الطريق الإسلامي في مكانها .^(١)

- ومن الأشياء الطريفة التي ذكرها (البقاعي) أن في هذه الآيات ((إشارة عظيمة واضحة إلى خلافة الصديق ﷺ بما دل عليها من أمر استخلافه في الإمامة في الصلاة التي هي خلاصة هذا الدين ، كما أن ما في تابوت الشهادة كان خلاصة ذلك الدين))^(٢) وهذا من التفسير الإشاري^(٣) البعيد المعنى .. وفي الاستدلال به ضرب من التكلف، وإلا كان احتج بهذه الآيات الصحابة رضي الله عنهم حين وقع الخلاف بينهم في خلافة أبي بكر ﷺ وهم أفهم الناس للقرآن .

(١) المودودي ، تفهيم القرآن ، ص ٤١

(٢) البقاعي ، نظم الدرر ٤٢٥/٣

(٣) التفسير الإشاري هو إدراك ما وراء التفسير الظاهر للقرآن من الإشارات الخفية التي تظهر لأرباب السلوك .. [منع القطان، مباحث في علوم القرآن ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م الرياض ، مكتبة المعارف، ص ٣٦٨]

المطلب الخامس: مناسبة الآيات لواقع اليهود في المدينة

كان القرآن الكريم في مكة يخاطب مشركي قريش بشكل عام، وهم من كانوا يجهلون الإسلام تماماً، أما في المدينة فقد اهتم القرآن إلى جانب هذا باليهود الذين لم يكونوا غرباء عن عقيدة التوحيد والنبوة والوحي والآخرة والملائكة، وكانوا يتظاهرون بالإيمان بالقانون الذي أنزله الله على نبيهم موسى عليه السلام ، وكان طريقهم - من حيث المبدأ - نفس طريق محمد عليه الصلاة والسلام لكنهم حادوا عنه على كرّ قرون الانحطاط، وابتدعوا لهم عقائد ومذاهب وعادات غير إسلامية لا سند لها ولا تصديق في التوراة على الإطلاق .

وليس هذا فحسب بل أنهم عبثوا بالتوراة فأدخلوا تفسيراتهم وتأويلاتهم الخاصة على نصها الأصلي، وامتدت أيديهم إلى كلام الله بالتحريف والوضع وطرحوا عنه روح الدين الحقيقي، وتشبثوا - إلى اليوم - بهيكل شكلي من الطقوس الفارغة التي لا حياة فيها، فتبع ذلك أن انحطت معتقداتهم وأخلاقهم وسلوكهم وغاصوا في أعماق الإسفاف والهبوط .

ومما يؤسف له أنهم لم يكتفوا بمجرد رضاهم بوضعهم هذا ، بل عشقوا التمسك به والثبات عليه، فضلاً عن هذا أن روحهم وعقولهم خلت من أي استعداد أو نية لأدنى نوع من الإصلاح، فأضحوا لذلك ألد أعداء من جاءوا يعلمونهم الطريق الصحيح . فما كان منهم إلا أن كدحوا في سبيل إحباط كل محاولة أو جهد من هذا النوع .

ورغم أنهم - في الأصل - مسلمين إلا أنهم انخرفوا عن الإسلام الحقيقي وأحدثوا فيه تغييرات، وابتدعوا ما راق لهم، ووقعوا فرائس الجدل في أمور تافهة صغيرة، وغرقوا في الحجاج الطائفية والعنصرية، ونسوا الله ونبذوه، وراحوا يعبدون المال والثراء، وبلغ الأمر منهم مبلغاً فخلعوا عن ذواتهم أسماءهم الأصلية (المسلمين) وتسموا بـ (اليهود) وجعلوا الدين حكراً لبني إسرائيل من دون البشر .

هكذا كان حلمهم الديني حين شرف الرسول يثرب بقدمه إليها ودعا اليهود إلى العقيدة الصحيحة، وإلى هذا يرجع السبب في هذه الآيات، وأكثر من ثلث هذه السورة موجه إلى بني إسرائيل، حيث سددت آياته النقد إلى تاريخهم وانحطاطهم الخلقي وضلالهم

وانحرافهم الديني، كما عرضت الأخلاقيات الرفيعة العالية ومبادئ الدين النقية العميقة الجوهرية كي توضح في جلاء كيف يسقط قوم نبي من أنبياء الله وينحرفون عن فهمه، ولكي تفرّق - بخطوط بيّنة واضحة - بين التقوى الصادقة الحقيقية وبين التمسك بالشكليات والرسوم^(١).

قال الإمام (ابن جرير): ((وهذه القصة وإن كانت خبراً من الله تعالى ذكره عن الملائ من بني إسرائيل ونيهم، وما كان من ابتدائهم نبيهم بما ابتدأوا به من مسألة أن يسأل الله لهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيله، ونبأ عما كان منهم من تكذيبهم نبيهم بعد علمهم بنبوته، ثم إخلافهم الموعد الذي وعدوا الله ووعدوا رسوله من الجهاد في سبيل الله، بالتخلف عنه حين استنهضوا لحرب من استنهضوا لحربه، وفتح الله على القليل من الفئة، مع تخذيل الكثير منهم عن ملكهم وقعودهم عن الجهاد معه، فإنه تأديب لمن كان بين ظهري مهاجر رسول الله ﷺ من ذراريهم وأبنائهم يهود قريظة والنضير، وأنهم لن يعودوا في تكذيب محمد ﷺ فيما أمرهم به ونهأهم عنه، مع علمهم بصدقه، ومعرفتهم بحقيقة نبوته، بعد ما كانوا يستنصرون الله به على أعدائهم قبل رسالته، وقبل بعثة الله إياهم إليهم وإلى غيرهم، أن يكونوا كأسلافهم وأوائلهم الذين كذبوا نبيهم شمويل بن باني، مع علمهم بصدقه، ومعرفتهم بحقيقة نبوته، وامتناعهم من الجهاد مع طالوت لما بعثه الله ملكاً عليهم، بعد مسألتهم نبيهم ابتعث ملك يقاتلون معه عدوهم ويجاهدون معه في سبيل ربهم، ابتداءً منهم بذلك نبيهم وبعد مراجعة نبيهم شمويل إياهم في ذلك))^(٢).

وقال في موضع آخر: ((وهذا من الله تعالى ذكره تقرّيع لليهود الذين كانوا بين ظهري مهاجر رسول الله ﷺ، في تكذيبهم نبينا محمداً ﷺ، ومخالفتهم أمر ربهم . يقول الله تعالى ذكره لهم: إنكم يا معشر اليهود عصيتم الله وخالفتم أمره فيما سألتموه أن يفرضه عليكم ابتداءً، من غير أن يبتدئكم بركم بفرض ما عصيتموه فيه، فأنتم بمعصيته - فيما ابتدأكم به من إلزام فرضه - أخرى))^(٣).

(١) المودودي، تفهيم القرآن، ص ٤٠

(٢) الطبري، جامع البيان ١/٦٢٠

(٣) الطبري، جامع البيان ١/٦١٥

المبحث الثالث: الهدف من الآيات

المطلب الأول: بنو إسرائيل في القرآن

لقد تحدث القرآن العظيم عن أمة بني إسرائيل بكثير من التفصيلات وذكر الجزئيات في حياتهم وأحوالهم مع أنبيائهم، الشيء الذي لم تحظ به أي أمة من الأمم السابقة، ولعل وراء ذلك بعض الحكم والأسرار التي يمكن أن نتلمسها، فمن ذلك: -

أولاً: - ((ظهر من القرآن ومن السيرة أن اليهود هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد؛ أولاً في المدينة، ثم في الجزيرة العربية كلها، فاحتضنوا النفاق والمنافقين، وحرصوا المشركين وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة، كل ذلك قبل أن ينفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من أعداؤها؟ ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي نخوضها معهم؟))¹

ولعل هذا الأمر ليس خاصاً بجيل الصحابة فقط، بل سيخدم مراحل وعهوداً جاءت بعد جيل الصحابة إلى يومنا هذا، والذي أخذ فيه الصراع مع اليهود أبعاداً أخرى. وهذا شيء معجز حقاً، إذ علم الله أن الصراع مع أمة بني إسرائيل ليس صراعاً وقتياً في عهد محمد ﷺ بل هو صراع دائم وقائم إلى عهد نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

((وفي هذا يلفت القرآن أنظار الإنسانية إلى أن هؤلاء هم مصدر الشر والإفساد في الإنسانية كلها، في طول الأرض وعرضها وفي كل مكان يتزلون وعلى أي موضع يكونون هم شياطين الشياطين، وأعدى أعداء الإنسان، وأفحش الخلق على الأديان، فهم شر الدواب، وعنوان الخراب، ونموذج العذاب.

ولعل الذي نفهم من حكمة الله في الإبقاء عليهم هو أن يستيقظ بتوالي عدوانهم المؤمنون فيستعدوا، وأن ينتبه لهم أفهام العاملين فيجدوا، وأن يستبصر المعتبرون بهم فيتمسكوا بدينهم، وأن يعتبر المستبصرون بهم فيرجعوا إلى ربهم، ليرجع إليهم بأسهم الشديد وعزمهم الحديد وتخطيطهم الرشيد، وسلوكهم القوي الأكيد، فيطهروا الأرض

¹ - سيد قطب، معركتنا مع اليهود، الطبعة الحادية عشر ١٤١٣هـ - ، القاهرة، دار الشروق، ص ٣٤

من أرجاس اليهود ويجعلوهم لنار الحرب هم الوقود)^١.

ثانياً: - ((إن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير، وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام مدة من التاريخ طويلة، ووقعت الانحرافات في عقيدتهم، ووقع فيهم النقص المتكرر لميثاق الله معهم ووقع في حياتهم آثار هذا النقص وهذا الانحراف، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم .. فافتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة - وهي وارثة الرسالات وحاضنة العقيدة الربانية بجمليتها - بتاريخ القوم وتقلبات هذا التاريخ، وتعرف مزالق التاريخ وعواقبها، ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة - في حقل العقيدة والحياة - إلى حصيلة تجاربها، وتتفع بهذا الرصيد على مدار القرون، ولتتقي بصفة خاصة مزالق الطريق ومداخل الشيطان، وبوادر الانحراف، على هدي التجارب الأولى)^٢، (ومعلوم أن أعظم المؤمنين قبلنا هم بنو إسرائيل)^٣.

ثالثاً: - إن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتى في المدى الطويل، وقد علم أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيال منها، وأن الأمة الإسلامية التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة، ستصادفها مراحل تمثل فيها مراحل من حياة بني إسرائيل، فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها، ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته.

ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدى والاستقامة هي القلوب التي عرفت ثم انحرفت، فالقلوب الغفل الخامة أقرب إلى الاستجابة لأنها تفجأ من الدعوة بجديد يهزها، وينفض عنها الركام، لجدته عليها، وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق نظرها لأول مرة. فأما القلوب التي نوديت من قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته، ولا تكون له هزته، ولا يقع فيه الإحساس بضخامته وجديته، ومن ثم تحتاج إلى الجهد المضاعف وإلى الصبر الطويل^٤.

^١ - صابر طعيمة ، بنو إسرائيل ، ص ١٢٠

^٢ - سيد قطب ، في ظلال القرآن ٢ / ٨٦٨

^٣ - ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم، الاستقامة ، تحقيق: د . محمد رشاد سالم ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ، جامعة الإمام محمد

بن سعود الإسلامية ٢ / ٢٠٥

^٤ - سيد قطب ، في ظلال القرآن ٢ / ٨٦٩

المطلب الثاني: الهدف الأساسي من قصة طالوت

اشتملت قصة (طالوت وجالوت) في هذه الآيات على حكم وأهداف كثيرة وبالغة.. حتى قال (البقاعي): ((علت هذه الآيات عن أقصى ما يعرفه البصراء البلغاء من الغايات، وتجاوزت إلى حد تعجز العقول عن مناله، وتضاءلت نوافذ الإفهام عن الإتيان بشيء من مثاله)) (١).

ولكننا نحاول أن نلتمس هدفاً رئيسياً واحداً تنضوي تحته كل الأهداف ... فقد كان بنو إسرائيل درساً حياً للمسلمين الذين يتولون زعامة العالم في مكانهم .
فلقد أنعم الله على بني إسرائيل بالنبوة والكتاب، وجعلهم للناس إماماً وأسند إليهم لواء الزعامة لهداية البشرية أجمعين، لكنهم حرموا أنفسهم نعمة الزعامة بدخولهم في مداخل السوء، وسقوطهم في قذارة التزوات والرغبات الدنيوية وجنوحهم إلى النفاق وفعل الشر والمعرفة الزائفة (٢).

وقد أشار البقاعي إلى هذا الهدف العظيم بقوله: ((ومما يجب التنبيه له من قصتهم هذه ما فيها، لأنها تدريب لمن كتب عليهم القتال، وتأديب لملاقاة الرجال من الإرشاد إلى أن أكثر حديث النفس وأمانيتها الكذب، لاسيما بالثبات في مزال الأقدام فتشجع الإنسان، فإذا تورط أقبلت به على الملح حتى لا يتمنوا لقاء العدو كما أدبهم به نبيهم ﷺ ، وذلك أن بني إسرائيل مع كونهم لا يحصون كثرة سؤال نبيهم ﷺ بعث ملك للجهاد، فلما بعث فخالف غرضهم لم يفاجئوه إلا بالاعتراض، ثم لما استقر الحال بعد نصب الأدلة وإظهار الآيات ندبهم، فانتدب جيش لا يحصى كثرة، فشرط عليهم الشاب الفارغ بناء دار وبناء بامرأة، فلم يكن الموجود بالشرط إلا ثمانين ألفاً، ثم امتحنوا بالنهر فلم يثبت منهم إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر وهم دون الثلث من ثمن العشر من المتصفين بالشرط من الذين هم دون الدون من المنتدبين الذين هم دون الدون من السائلين في بعث الملك، فكان الخالصون معه، كما قال بعض الأولياء المتأخرين لآخر قصده بالزيارة:

ألم تعلم بأنني صيرفي أحك الأصدقاء على المحك

(١) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . ٤٤٤/٣

(٢) المودودي، تفهيم القرآن ، ص ١٤٢

فمهنم بهرج لاخير فيه
وأنت الخالص الذهب المصفى
ومنهم من أجوزه بشك
بتزكيتي ومثلي من يزكي

وهذا سر قول الصادق عليه الصلاة والسلام: " أمي كإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة " (١) وقوله ﷺ: " لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا " (٢). فالحاصل أنه على العاقل المعتقد جهله بالعواقب وشمول قدرة ربه أن لا يثق بنفسه في شيء من الأشياء، ولا يزال يصفها بالعجز وإن ادعت خلاف ذلك، و يتبرأ من حوله وقوته إلى حول مولاه وقوته ولا ينفك يسأله العفو والعافية ((٣).

وبهذا يتضح أن العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجاً بعد فوج في مراحل الطريق - على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جداً ... فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين . ولقد جاءت لهم بملك داوود، ثم ملك سليمان - وهذه أعلى قمة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدثون عنه ؛ والذي لم يبلغوه من قبل عهد النبوة الكبرى - وكان هذا النصر كله ثمرة مباشرة لانتفاضة العقيدة من تحت الركाम، وثبات حفنة قليلة عليها أمام جحافل جالوت (٤)!

(١) رواه البخاري، باب رفع الأمانة ١٥١/٢٠ برقم ٦٠١٧، وابن ماجه، باب من ترجى له السلامة من الفتن، ٤٩٠/١١

برقم ٣٩٨٠

(٢) رواه البخاري، باب لا تمنوا لقاء العدو ١٢٤/١٠ برقم ٢٨٠١، ورواه مسلم، باب كراهة تمني لقاء العدو ١٦٨/٩

برقم ٣٢٧٥

(٣) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٤٣/٣

(٤) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢٦٢/١

المطلب الثالث: المقصود العبرة وليس مجرد الحدث

يجب أن نلاحظ أن هدف القرآن من قصصه ليس مجرد الحدث، ولا مجرد السرد التاريخي للتسلية والمعرفة المجردة، وإنما للعبرة التي تفرض الاستفادة بما حل بالسابقين، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى..﴾ [يوسف: ١١١] ومع ذلك فيجب أن لا يغيب عن بالنا - دائماً وأبداً - أن هذا القصص، إن هو إلا الحق الصراح، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ومن أصدق من حديثاً﴾ [النساء: ٨٧] ويقول: ﴿إن هذا هو القصص الحق﴾ [آل عمران: ٦٢] ويقول ﴿نحن نقص عليهم نبأهم بالحق﴾ [الكهف: ١٣] ويقول ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾ [فاطر: ٣١] ^(١)، فالقصة القرآنية ليست رواية تاريخية لا بد لها من السرد الكامل، والتحديد الواضح للأشخاص والأماكن بالأسماء والصفات، وإنما هي قصة ذات هدف، تأخذ من حقائق الأحداث الجانب الذي يحقق لها الغاية ويصل بها إلى الهدف، فإن كان ذلك يتحقق من خلال التعرف على اسم الشخص ذكر اسمه، وإن كان يتحقق من خلال التعرف على سجاياه وصفاته عرف بها وترك ما عدا ذلك ^(٢).

- ولأن مقصد القرآن العبرة فقد نكر اسم (النبي) ولم يبين اسمه هنا سواء كان (شمويل) أو (صموئيل) أو غير ذلك، ولهذا قال ابن عاشور: ((وتنكير " نبي لهم " للإشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي فلا حاجة إلى تعيينه، وإنما المقصود حال القوم وهذا دأب القرآن في قصصه)) ^(٣).

قال (الفخر الرازي): ((لا شك أن المقصود حاصل، سواء علمنا أن النبي من كان من أولئك، وأن أولئك الملائمة كانوا أو لم نعلم شيئاً من ذلك، لأن المقصود هو الترغيب في باب الجهاد وذلك لا يختلف، وإنما يعلم من ذلك النبي؟ ومن ذلك الملائمة؟ بالخبر المتواتر وهو مفقود، وأما خبر الواحد فإنه لا يفيد إلا الظن)) ^(٤).

أما إذا كان الاسم مقصوداً لتحقيق هدف معين فإنه يذكر، مثل ذكر (طالوت) أو

(١) د. محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، ص ٤١

(٢) محمود السيد حسن ، روائع الإعجاز في القصص القرآني ، ص ٧٠

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٨٥/٢

(٤) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ١٨٤/٣

(جالوت) أو (داوود) وعندما نقرأ مثل هذه الاسماء فإنه ينبغي لنا أن ((نوسع اللوحة التي تجري عليها أحداثه وأشخاصه، فلا تقف فيها الحادثة عند دلالتها المفردة، ولا الشخص عند كيانه الفرد، وإنما تشير الحادثة إلى السنة الشاملة، ويشير الشخص إلى "الإنسان " من وراء الظروف والملابسات . وترتسم يد القدر من وراء الأشخاص والأحداث، على أنها القوة الموجهة المريدة التي تسيّر كل شيء بمقتضى الناموس الأكبر الذي يحكم الوجود))^(١).

فاسم (طالوت) ~~الطالوت~~ فيه إشارة رمزية لشخصية القائد الفذ، بينما اسم (جالوت) فيه إشارة لشخصية الطاغية المحارب للخير، أما اسم(داود)فهو إشارة لشخصية النبي المنتصر.

إن القرآن الكريم لم يتبع - في حديثه عن بني إسرائيل - طريقة التفصيل التاريخي الدقيق لأحداثهم ووقائعهم ويومياتهم، لأنه لا يتفق مع منهجه في العرض التاريخي، ذلك المنهج الذي يبرز أهم المشاهد واللقطات ويقف عندها - كما سنبين في الخصائص الفنية - ليستخلص منها الدلالات والدروس، ويتحقق من خلالها هدفه من القصص والتاريخ . لقد عرض القرآن أمامنا بعض مشاهد من تاريخهم، وأرانا أهم اللقطات من هذا التاريخ، وهذا يعني أن كثيراً من أحداث حياتهم قد أغفله القرآن وأسقطه، وهذا يعني أن هناك " حلقات " من تاريخهم قد تجاوزها القرآن عمداً لا نسياناً .

ونعتقد أن هذه الحلقات المفقودة - إذا جاز هذا التعبير - لا ضرورة لها عند الناظر في تاريخ اليهود، ولا تقدم له الكثير من الفوائد والدروس والدلالات . ونعتقد أن الوقوف أمام الحلقات التي عرضها القرآن، والمشاهد التي قدمها يكفي الباحث، ويقدم له الكثير من الدروس والدلالات والعبء والعظات . فإذا ما تجاوز الباحث تقارير القرآن إلى تفصيلات لم ترد فيه، فإنه لن يجد شيئاً جديداً عندها من الدروس والدلالات، ولن يحصل فيها على حقائق ومسلّمات يقينية، ولن يجد فيها إلا " ركاماً " من الأقوال والروايات والتفصيلات الأسطورية^(٢).

(١) سيد قطب ، منهج الفن الإسلامي ١٥٦

(٢) د. صلاح الخالدي ، الشخصية اليهودية من خلال القرآن ، ص ٥٥-٥٦ .

ملخص الفصل الثاني:

- يدور محور سورة البقرة حول (اليهود)، وما آيات القصة إلا جزء من ذلك الخور، لمعالجة قضية الجهاد وذكر العوامل الحقيقية لرفعة الأمم .
- جاءت آيات (قصة طالوت) بعد آيات الناكثين عن الجهاد لترسم صورتين متقابلتين للعاجزين والعازمين .
- هذه القصة توطئة لغزوة بدر وتدريب للصحابة رضي الله عنهم، كما أنها تحذير لليهود من تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .
- الهدف الأساس من آيات القصة: أن من التزم عوامل النصر المذكورة سيصل إلى العزة والمكانة .. ولو كانوا قلة قليلة .

الفصل الثالث

الدراسة التحليلية

المبحث الأول: أهمية الدراسة التحليلية

ينبغي لكل باحث في علم التاريخ القرآني أن يكون له عناية فائقة بالدراسة التحليلية للنصوص القرآنية، لأن الألفاظ القرآنية لها دلالات قد لا تدرك بالنظرة المجردة السطحية، فحينما يقول الله مثلاً ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ - كما في قصتنا - فكيف يكون بإمكان المؤرخ أن يدرك معنى (بقية) وما هي الآثار التاريخية المتروكة لولا رجوعه الى تحليل النص ومعرفة أبعاده.

وإن من الأدوات المهمة في هذه الرسالة تحليل ألفاظ القصة القرآنية الواردة معنا، فإن من المهم للباحث أن يستعين بكل العلوم والوسائل بالقدر الذي يخدم موضوع السورة، ويكشف عن مضمونها، ويحقق هدفها العام، وغرضها الرئيس دون الخوض في كل ما يشغل عن ذلك، وستكون كتب التراث التفسيري عوناً للباحث .

والدراسة التحليلية هي التي يتولى فيها المفسرون بيان معنى الألفاظ في الآية، وبلاغة التركيب والنظم، وأسباب النزول، واختلاف المفسرين في الآية والقراءات الواردة وإعراب الجمل والألفاظ.

ومن هنا يتقرر لدينا أن الدراسة التحليلية على كل الأحوال خادمة للدراسة الموضوعية، فهي وسيلة لتقرير موضوعات القرآن والكشف عن حقائقه، وبيان الموقف القرآني في كل موضوع^١.

* وأود أن أنوه إلى القصور الواقع من قبل المفسرين الأوائل في الاهتمام بالدراسة

^١ - الدغامين، د. زياد خليل، منهجية البحث في التفسير الموضوعي، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ، دار البشير، ص ١٣٨

الموضوعية حتى قال الشيخ / محمد رشيد رضا: ((ولم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن، والحديث عن سنن الله تعالى في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك، والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام، وقواعد الكلام، لأفادوا الأمة ما يحفظ به دينها ودنياها. وهو مالا يغني عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة والطهارة والسلم والإجارة، فإن العلم بسنن الله تعالى في عباده لا يعلوه إلا العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو من طرقه ووسائله))^١.

ولكن لعلنا نلتمس لهم العذر بأمرين: -

أولاً: - أنهم قد تحدثوا عن ذلك في ثنايا كتب السلوك والاجتماع وكتب التاريخ ونحوها.

ثانياً: - ربما كان ذلك من العلوم البديهية لهم الحاصلة من النظر والتفكير في آيات القرآن الكريم، ولم تكن تحتاج منهم إلى كثير عناء وبحث لإخراجها للناس كما هو الحال اليوم. والله أعلم.

ولكن ذلك لا يغني بحال عن الدراسة التحليلية، ولا نذريها، يقول (محمد البهي): ((وإذا كان المتقدمون من علماء المسلمين خدموا القرآن الكريم بتجلية معاني كلماته وآياته .. وبيان موقعها في فصاحة العرب: في الأسلوب و التراكيب، والإعجاز .. واستخلاص الأحكام الفقهية منها .. والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات في العقيدة والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة .. فإن ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذي يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية للقرآن ... وإنما كان أشبه بتوضيح مفكك للهداية الإلهية. وربما كان التفسير الموضوعي، أو استخلاص جوانب هذه الهداية ... هو السبيل الأيسر للإيمان بمستواها الرفيع الذي يعجز عنه البشر . ومحاولة التفسير الموضوعي لم تحظ لديهم، بمثل ما حظي عندهم: وقوفهم عند حد الآيات .. والعناية بتراكيبها .. وارتباط اللاحق منها بالسابق))^٢.

ولا شك أن هذا من المبالغة التي يجب أن تجتنب، فالدراسة الموضوعية مهمة، ولها

^١ - محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٧ / ٤٩٩

^٢ - محمد البهي، نحو القرآن، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ، القاهرة، مطبعة التقدم، ص ٨٩

جوانب في غاية النفع والفائدة، ولكنها لا تستغني عن الدراسة التحليلية بحال. بل هي قائمة عليها، ومرحلة تالية لها. والدراسة التحليلية هي التي يتم بها بيان المراد من كلام الله تعالى.

فالعلاقة إذاً بين الدراسة التحليلية والدراسة الموضوعية علاقة تكامل، ولا غنى للباحث في الدراسة الموضوعية عن تفسير السلف، والسير على منهج المفسرين في فهم كلام الله.

((وإن المنهج الموضوعي في التفسير هو أهم ما ينبغي أن تتوجه له العناية في الوقت الراهن؛ لأنه يجلي حقائق القرآن التي غابت عن أذهاننا في كل ميدان، وذلك يكون بطريقتين متكاملتين:

أولاهما: بتتبع موضوع معين في القرآن الكريم كله ودراسته دراسة واعية واقعية منضبطة، لبلورة تلك الحقائق والمواقف القرآنية التي تعد عوامل ضرورية للتغيير والسعي نحو الشهود الحضاري.

والأخرى: بتتبع الموضوع الذي عاجته كل سورة من سور القرآن الكريم، ودراسته دراسة واعية واقعية عملية كذلك على ضوء منهج شمولي^١.

وطريقة البحث فيه: أن يحدد الباحث الهدف أو الأهداف الأساسية للسورة ثم يختاره أو يختار إحداها إن كانت ثمة أهداف متعددة ثم يحاول إبراز عناصر بحث هذه السورة للموضوع وتقسيماً وتبويبها، ثم يدرس علاقة كل المقاطع بهذا الهدف بدءاً بمقدمة السورة، وانتهاءً بخاتمها، مع التعرف على أسباب نزولها، ومكان نزولها، وترتيبها من بين سور القرآن وبين علاقة كل ذلك بهدف السورة عنوان البحث، وسيجد الباحث الصلة بينه وبين الرابطة جلية عند إحالة النظر وإمعان الفكر، وسيعلم أن للسورة هدفاً واضحاً ترمي إلى أيضاًه وبيانه والاستدلال له وبه، وتفصيل جوانبه وأبعاده، وكل سورة من القرآن لها شخصية مستقلة تعلم عند البحث فيها، بل ويمكن أن يكون للسورة أهداف متعددة بينها من الترابط والتعاقد والتداخل شيء يصعب معه التفريق بينهما أو أفراد إحداها بالبحث مع إغفال البواقي. وليعلم أنه ينبغي عند البحث في هذا اللون ألا ينطلق الباحث في دراسة موضوع

^١ - د. زياد الدغامين، منهجية البحث في التفسير الموضوعي. ص ١٧١

السورة من آيات لم ترد فيها، بل يكون منطلقه آيات ومباحث ومقاطع السورة وأما غيرها فتذكر استثناساً لا تأسيساً، وتوكيداً لا تأصيلاً، واستشهاداً لا استناداً.

وإن كان بعض السلف قد تمنى شيئاً من ذلك حتى قال ابن العربي في (سراج المريدين): ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة منسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد في سورة البقرة ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له جملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه^١.

ويقعد لذلك الإمام الشاطبي فيقول: ((تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي، وحيث جاء جزئياً فمأخذه على الكلية ... ويدل على هذا المعنى - بعد الاستقراء المعبر - أنه محتاج إلى كثير من البيان فإن السنة على كثرتها وكثرة مسائلها إنما هي بيان للكتاب ... فإذا نظرنا إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية وجدناها قد تضمنها القرآن على الكمال)).

ويقول: ((اعتبار جهة النظم في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر؛ فالإقتصار على بعضها غير مفيد للمقصود منها، كما أن الإقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها. فسورة البقرة مثلاً كلام واحد باعتبار النظم وإن احتوت على أنواع من الكلام بحسب ما ثبت فيها؛ فمنها ما هو كالمقدمات والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال وذلك تقرير الأحكام على تفاصيل الأبواب. ومنها الخواتم العائدة على ما قبلها بالتأكيد والتثبيت، وما أشبه ذلك))^٢.

* نخلص من ذلك إلى أن: الدراسة التحليلية + الموضوعية = طريق هداية، وبرنامج أمة، وخطة علمية واحدة المصدر والمسائل والغايات.

((اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد، ونقل تفكيرك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت

^١ - السيوطي، الإتيقان، ٣٥٦/١

^٢ - الشاطبي، الموافقات، ٣ / ٢٧٤ و ٣ / ٤١٥

أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعارضت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها؟ ووطأت أولها لآخرها؟

وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد، أم في نجوم شتى؟
ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن الكريم قد نزلت كل واحدة منها دفعة واحدة^١.

وإننا حين نبحت بطريقة الدراسة التحليلية والموضوعية في قصتنا هذه سنجد أن آلة التصوير ترصد كل الجوانب، ما بطن فيه وما ظهر من التاريخ اليهودي، نرى أدق ما فيه وأبسطه، وما عظم أو صغر، وتقيم الدليل على ما يطرحه القرآن الكريم من دروس العبر والتوجيه الإلهي في تجربة (طالوت وأتباعه) من بيت إسرائيل.

إن جملة الجوانب التي رصدها القرآن الكريم وسجلها للدرس والتدبر وقصّها على قلب محمد ﷺ، قد جعل لكل منها مرحلة أو جانباً أو معتقداً، أو خبراً أو حرباً أو سلماً، في إطار مستقل تتقارب صورته وتتحد عناصر موضوعه وأفرد له القرآن مكاناً بين سورته ومختلف آياته^٢.

^١ - دروزة، محمد عزة، النبأ العظيم ونظرات جديدة في القرآن، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م، الكويت، دار القلم، ص ١٥٤

^٢ - صابر طعيمة، بنو إسرائيل، ص ٢٣٣

المبحث الثاني: تحليل الآيات القرآنية

المطلب الأول : دراسة الآية الأولى

{ الإستدلال المرير }

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذِ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ اأَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]

**﴿ ألم تر ﴾:

(ألم تر) هنا جاءت مكونة من همزة الاستفهام و (لم) النافية .

• المخاطب في الآية: أ / إما أن يكون قد علم بالخبر قبل نزول هذه الآية فيكون الخطاب من باب التقرير .

ب / وإما أنه لم يكن يعلم بالخبر فتكون الآية من باب التعجيب والتعريف^(١) .

• (تَرَ) مأخوذة من الرؤية، وقد جزم الفعل بحذف حرف العلة لدخول (لم) النافية عليه وأصله (ترى) .

• حقيقة الرؤية هنا: يرى ابن جرير وجههور المفسرين على أن الرؤية هنا خبرية قلبية^(٢)، ((أي لم تعلم بإعلامي إياك وهو من رؤية القلب))^(٣)، ((وحاصله أن الرؤية

(١) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد - علي معوض، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ،

بيروت، دار الكتب العلمية ٢٨٥/٢ - الألوسي، روح المعاني ١٦٠/٢ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب (١٧٥/٦)

(٢) الطبري، جامع البيان (٦١٠/١)

(٣) البغوي، معالم التنزيل (٢٩٤/١)

هنا التي بمعنى الإدراك مضمّنة معنى التنبه، ويجوز أن تكون مضمّنة معنى الإنتهاء: أي ألم ينته علمك إليهم ؛ أو معنى الوصول: أي ألم يصل علمك إليهم))^(١).

((وذلك راجع إلى العلم، كقوله ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ معناه: علّمنا، وقال " فاحكم بين الناس بما أراك الله " أي علمك))^(٢).

• ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية: أي ألم تنظر إلى الملاء ...^(٣).

لكن القول بالرؤية الخبرية أقوى لمساندة اللغة له، وواقع الحال. لكننا من ناحية بلاغية بإمكاننا أن نقول ((بتضمين فعل الرؤية معنى النظر، ليحصل الإدعاء أن هذا الأمر المدرك بالعقل كأنه مدرك بالنظر، لكونه بين الصدق لمن علمه، فيكون قولهم (ألم تر إلى كذا) في قوله: جملتين: ألم تعلم كذا وتنظر إليه))^(٤)، فهو هنا استعارة الفعل الموضوع لإدراك المبصرات إلى معنى المدرك بالعقل المجرد لمشاهدته للمدرك بالبصر في الوضوح واليقين .

((وقد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب بأن شبه حال من (لم ير) الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن يتعجب منه، ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب))^(٥).

• التعدية بـ (إلى): نلاحظ في الآية أن الفعل (ترى) عدّي بالحرف (إلى) ﴿ ألم تر إلى الملاء ﴾ ولم يقل (ألم تر الملاء) لأن الرؤية هنا رؤية علمية^(٦)، ((ويحتمل أن يكون لأجل أن (إلى) عندهم حرف للإنتهاء كقولك من فلان إلى فلان، فمن علم بتعليم معلم، فكأن ذلك المعلم أوصل ذلك المتعلم إلى ذلك المعلوم وأنهاه إليه فحسن من هذا الوجه دخول حرف (إلى) فيه))^(٧).

(١) الشوكاني، فتح القدير ٢٨٧/١

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب (١٧٥/٦)

(٣) الشوكاني، فتح القدير ٢٨٧/١

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٧٦/٢

(٥) الألوسي، روح المعاني ١٦٠/٢

(٦) المصدر السابق نفسه ١٦٠/٢

(٧) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٧٦/٦

• ولم تأت لفظة (ألم تر) في القرآن إلا متعدية بالحرف (إلى) كقوله ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ [الحشر: ١١] ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا .. ﴾ [المجادلة: ١٤] ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ [الفرقان: ٤٥] لكن ذلك لا يعني أن التعدية بـ (إلى) لازمة، بل قد جاء عند العرب تعديته بنفسه دون حرف الجر، كما يشهد له قول امرئ القيس:

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب^(١) .

• نوع الاستفهام: اتفق المفسرون على أن الاستفهام هنا ليس المقصود به الاستفسار للعلم والمعرفة ، فالله سبحانه أعلم وأعظم من أن يسأل غيره .
لكنهم بشكل إجمالي يفسرون أي استفهام في القرآن بأحد ثلاثة أمور: -
١/ استفهام للتعجب . ٢/ استفهام للتقرير . ٣/ استفهام للإنكار .

قال ابن عاشور: ((واعلم أن تركيب (ألم تر إلى كذا) إذا جاء فعل الرؤية منه متعدياً إلى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه، كان كلاماً مقصوداً منه التحريض على علم ما عدي إليه فعل الرؤية، وهذا مما اتفق عليه المفسرون، ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الإستفهام بل في معنى مجازي أو كنائي، من معاني الاستفهام غير الحقيقي ، وكان الخطاب به غالباً موجهاً إلى غير معين، وربما كان المخاطب مفروضاً متخيلاً .

ولنا في بيان وجه إفادة هذا التحريض من ذلك التركيب وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: أن يكون الاستفهام مستعملاً في التعجب، أو التعجب من عدم علم المخاطب بمفعول فعل الرؤية ...

الوجه الثاني: أن يكون الاستفهام تقريرياً، فإنه كثر مجيء الاستفهام التقريري في الافعال المنفية، مثل: ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ، ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ ...

الوجه الثالث: أن تجعل الاستفهام إنكارياً ((^(٢)) .

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٥٨ - الألو سي، روح المعاني ٢/١٦٠ - الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار،

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة مصورة لم يكتب عليها معلومات الطباعة ١/٢٨٤ .

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/٤٧٧

وأكثر استفهام القرآن للإنكار أو للتقرير، ولكن الاستفهام هنا للتعجب، وهو ما يحدث العجب للنبي ﷺ وللسامع ويوجب الشوق له إلى ما يقص عليه^(١)، قال البغوي: ((قال أهل المعاني: هو تعجب يقول: هل رأيت مثلهم؟ كما تقول: ألم تر إلى ما يصنع فلان؟ وكل ما في القرآن (ألم تر) ولم يعاينه النبي ﷺ، فهذا وجهه))^(٢)، وهو قول ابن قتيبة أيضاً^(٣).

- والخطاب في (ألم تر) ((يجوز أن يكون للنبي ﷺ ويجوز أن يكون لكل سامع))^(٤)، والأقرب أن الخطاب وإن كان وقع ابتداء للنبي ﷺ إلا أن المراد به هو وأمته ولكل سامع، وظهر من هذا قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء...﴾ [الطلاق: ١] وغيرها من الآيات^(٥).

• وسبب ابتداء الخطاب بالفرد (ألم تر) بدلاً من الجمع (ألم تروا) لعلو معنى الآيات فأشرف المعاني ما قيل فيه ﴿ألم تر﴾ إقبالا على النبي ﷺ، وعموم المعاني ما قيل فيه ﴿ألم تروا﴾ إقبالا على الأمة^(٦).

* القراءات فيها: قرأ الجمهور بفتح الراء في (ألم تر) وقرأ السلمي (تر) بسكون الراء، قالوا:

أ/ على توهم أن الراء آخر الكلمة، قال الراجز:

قالت سليمة اشتر لنا سويقاً واشتر فعجل خادماً لبيقاً

ب / ويجوز أن يكون من إجراء الوصل مجرى الوقف، وقد جاء في القرآن كإثبات ألف (الظنوناً) و (السيلا) و (الرسولا) في الوصل^(٧).

** - ﴿إلى الملاء﴾:

• أصل كلمة (الملاء): اسم للجماعة في اللغة لا واحد له من لفظه، وهو اسم جمع

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤٥٧/٢

(٢) البغوي، معالم التنزيل ٢٩٤/١

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير ٢٣٨/١

(٤) أبو حيان، البحر المحيط ٢٥٨/٢

(٥) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٧٥/٦

(٦) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٣٨٧/٣

(٧) أبو حيان، البحر المحيط ٢٥٨/٢

كالقوم والرهط والإبل والخيل، وجمعه أملاء^(١). قال الشاعر^(٢):

وقال لهم الأملاء من كل معشر وخير أقاويل الرجال سديدها
والملاء، مهموز مقصور: الجماعة^(٣).

((وقال الفراء: الملاء الرجال في كل القرآن لا تكون فيهم امرأة))^(٤).

ويرى (ابن عاشور) أن الكلمة مشتقة من (الملاء) وهو ((تعمير الوعاء بالماء ونحوه، وأنه مؤذن بالتشاور لقولهم: تمالأ القوم إذا اتفقوا على شيء والكل مأخوذ من ملء الماء، فإنهم كانوا يملأون قربهم وأوعيتهم كل مساء عند الورد، فإذا ملأ أحد لآخر فقد كفاه شيئاً مهماً؛ لأن الماء قوام الحياة، فضربوا ذلك مثلاً للتعاون على الأمر النافع الذي به قوام الحياة، والتمثيل بأحوال الماء في مثل هذا منه قول علي { اللهم عليك بقريش فإنهم قد قطعوا رحمي وأكفأوا إنائي { تمثيلاً لإضاعتهم حقه))^(٥).

قال القرطبي: ((والملاء أيضاً: حسن الخلق، ومنه الحديث { أحسنوا الملاء فكلكم سيروى { أخرجه مسلم))^(٦).

● معنى الملاء هنا: والمقصود هنا (ملاء بني إسرائيل وأشرفهم ورؤسأؤهم)^(٧) وهم (الوجوه وذوو الرأي)^(٨).

● سبب التسمية: يعيد المفسرون سبب تسمية الاشراف والقادة بالملاء إلى أمور منها:

أ) ((أن الناظر إذا نظر إليهم امتلأت عينه هيبة منهم))^(٩).

ب) ((ممتلئون مما يحتاجون إليه منهم))^(١٠).

(١) البغوي ، معالم التنزيل ٢٩٥/١

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٥٧/٢ - الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ١٨٤/٦

(٣) ابن منظور ، لسان العرب ٤٢٥٢/٦ مادة [م ل أ]

(٤) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٥٨/٢ - ابن الجوزي ، زاد المسير ٢٤١/١

(٥) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٨٥/٢

(٦) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥١/٢ ، والحديث أخرجه مسلم ، باب قضاء الصلاة الفائتة، ٤٥١/٣ برقم ١٠٩٩

(٧) الطبري ، جامع البيان ٦١٠/١ - السمرقندي ، أبو الليث نصر بن محمد ، بحر العلوم ، تحقيق: علي

معوض ، عادل أحمد ، د. زكريا النوي ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ٢١٨/١

- البغوي ، معالم التنزيل ٢٩٥/١

(٨) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٥٨/٢

(٩) السمرقندي ، بحر العلوم ٢١٨/١

(١٠) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠١٥/١ - أبو حيان ، البحر المحيط ٢٥٧/٢

- ج) ((يملئون العيون هيبة ورواء))^(١) و((لأن هيبتهم تملأ الصدور))^(٢).
 د) ((يملئون المكان إذا حضروه))^(٣).
 هـ) ((لأنهم يتماثلون: أي يتعاونون بما لا مزيد عليه))^(٤).

**** ﴿ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾**

● إعراهما: في إعراهما وجهان:

أ- الوجه المشهور أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من الملاء، والتقدير: كائنين من بني إسرائيل.^(٥)

ب - على مذهب الكوفيين: هو صلة للملاء، لأن الاسم المعرف بالألف واللام يجوز عندهم أن يكون موصولاً كما زعموا ذلك في قوله: [لعمرى لأنت البيت أكرم أهله] فـ(أكرم) عندهم صلة لـ(البيت) لا موضع لها من الإعراب، كذلك (من بني إسرائيل) العامل فيه لا موضع له من الإعراب.^(٦)

● أما (من) هنا فيرى (الألوسي) و(أبو حيان) أنها تبعيضية^(٧).

● و(إسرائيل) مضاف إليه مجرور بالفتحة بدل الكسرة لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

* معنى (إسرائيل): وردت كلمة (إسرائيل) ثلاثاً وأربعين مرة في القرآن، مرتان منها اسماً آخر لنبي الله يعقوب عليه السلام، وإحدى وأربعون مرة مضافة إلى (بني)، إخباراً عن (بني إسرائيل)^(٨).

وإذا نظرنا إلى هذه المواضع التي وردت فيها كلمة (بنو إسرائيل) فإننا نجد أنها كانت تعرض أطرافاً ولقطات ومشاهد من تاريخ بني إسرائيل، ابتداءً مما قبل بعثة موسى عليه

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨٤/٦ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٥٧/٢

(٢) الألوسي، روح المعاني ١٦٥/٢

(٣) أبو حيان، البحر المحيط ٢٥٧/٢ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٦٤/٦

(٤) الألوسي، روح المعاني ١٦٥/٢

(٥) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٢/٢ - الألوسي ١٦٤/٢

(٦) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٢/٢

(٧) روح المعاني ١٦٤/٢ - البحر المحيط ٢٦٣/٢

(٨) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٢-٤٣

السلام إلى ما بعد بعثة عيسى عليه السلام^(١).

• (إسرائيل) علم أعجمي، ولا عبرة بكلام من قال أنه عربي ومشتق من (سرل) أو (سرأل)، فهذا قول باطل^(٢)، ومنه قول (ابن منظور): إسرائيل وإسرائيلين: زعم يعقوب أنه أنه بدل اسم ملك^(٣).

وهذا كلام غريب فأسماء الملائكة توقيفية لا تثبت إلا من خلال القرآن الكريم أو الأحاديث الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم^(٤).

• والصحيح أن (إسرائيل) اسم من أسماء (يعقوب) عليه السلام ولا معنى له في اللغة العربية، فقد زعم بعضهم أن معناه (الأمير المجاهد مع الله) وقد ردّ (رشيد رضا) هذا الزعم بقوله: ((وقد علمت ما عندهم - أي اليهود - في سبب إطلاقه عليه من عبارة سفر التكوين .. ثم أطلق على جميع ذريته كما هو شائع في كتب القوم))^(٥). والأقرب أن المعنى المذكور هو الترجمة العربية للفظة العبرية (إسرائيل)، فقد جاء في (قاموس أعلام الكتاب المقدس): ((إسرائيل: يسرئيل: رئيس لله))^(٦).

• سبب التسمية: يرجع سبب تسمية (يعقوب) بـ (إسرائيل) كما زعم (سفر التكوين) إلى أن الله سماه بذلك وغير اسمه، وقد ورد ذلك في موضعين في (سفر التكوين): -

أ/ حينما أراد أن يجتاز (يعقوب) محاضرة (بيوق) فصارع الله هناك: - جل الله عما يقولون علواً كبيراً - تقول الرواية [وعندما رأى - أي الرب - أنه لم يتغلب على يعقوب ضربه على حقّ فخذته، فأنخلع مفصل فخذ يعقوب في مصارعتة معه . وقال له: أطلقني فقد طلع الفجر. فأجابه يعقوب: لا أطلقك حتى تباركني . فسأله: ما اسمك ؟ فأجاب: يعقوب. فقال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . فسأله يعقوب: أخبرني ما اسمك ؟ فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه

(١) د. صلاح الخالدي، الشخصية اليهودية، ص ٣٤

(٢) د. صلاح الخالدي، الأعلام الأعجمية في القرآن، ص ٦٣

(٣) ابن منظور، لسان العرب ٢٢٤/٦ مادة (سرأل) (سرأن)

(٤) د. صلاح الخالدي، الشخصية اليهودية، ص ٢٦

(٥) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٥/٤

(٦) قاموس أعلام الكتاب المقدس: خاصة بدار الكتاب المقدس بمصر، ط ٢٠٠٦م، القاهرة، مطبعة كنيسة الإخوة، ص ١٥

هناك . ودعا يعقوب اسم المكان (فنييل)^(١)، إذ قال: لأني شاهدت الله وجهاً لوجه وبقيت حياً] ^(٢) [التكوين ٣٢: ٢٥ - ٣١].

ب / بعد إقامة يعقوب المذبح للرب في (بيت إيل) [وظهر الله ليعقوب مرة أخرى بعد رجوعه من سهل أبرام وباركه، وقال له: لن يدعى اسمك يعقوب فيما بعد، بل إسرائيل. وهكذا سماه إسرائيل] [التكوين ٣٥: ٩ - ١٠].

• ولا شك أن الروايتين متباينتان، فلماذا لم يغير (يعقوب) عليه السلام اسمه من المرة الأولى؟ ولكن يكفينا أن الله سبحانه وتعالى سمى يعقوب بـ(إسرائيل) في القرآن الكريم في موضعين:-

١ / ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا...﴾ [مريم: ٥٨].

٢ / ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ...﴾ [آل عمران: ٩٣].

** ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾:

• (من) هنا للإبتداء، ولا يضر تنالي الحرفين ﴿من بني إسرائيل من بعد﴾ لاختلافهما في المعنى ^(٣).

• ومعنى اللفظة: من بعد ما قبض موسى وبعد وفاته ^(٤).

• إعرابها: مثل سابقتها فالجار والجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من الملاء والتقدير: كائنين من بعد موسى ^(٥).

• معنى (موسى): هو اسم للنبي العظيم (موسى) عليه السلام، وهو اسم علم

(١) معناها بالعبرية: وجه الله.

(٢) لاحظ في هذه الحادثة عظم جرم اليهود في تحريف (التوراة) وافتراءهم على الله بأنه مثل الإنسان: بمشي، يصارع، يضرب، محصور، يخشى أضواء النهار حتى لا ينكشف، يجهل اسم يعقوب! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً

(٣) الألويسي، روح المعاني ١٦٤/٢ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٢/٢

(٤) الطبري، جامع البيان ٦١٠/١ - الشوكاني، فتح القدير ٢٩٠/١

(٥) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٢/٢ - الألويسي، روح المعاني ١٦٤/٢

أعجمي، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة.

وقد ذهب بعض علماء اللغة إلى أنه مركب من جزئين: (مو) و(سا) قال الفيروزآبادي: (موسى: اسم معرّب. أصله: موشا. و(مو) بالعبرية: الماء. و(شا) الشجر. وسمي موسى لأنه وجد في الماء والشجر، الذي كان حول قصر فرعون^(١). وقال السمين الحلبي: (موسى: اسم أعجمي غير منصرف . وهو في الأصل مركب: لأن (ماء) بلغتهم يقال له (مو) والشجر يقال له: (شا) . فعربته العرب فقالوا: (موسى)، وقد لقيه آل فرعون عند ماء وشجر... وليس لموسى اسم النبي ﷺ اشتقاق، لأنه أعجمي)^(٢) .

-ومع تقديرنا لما نقلوه عن (العبرية) إلا أن (قاموس أعلام الكتاب المقدس) يقول أن معنى (موسى: موشيه: منتشل، طفل)^٣.

** ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ﴾ : -

● (إذ) متعلقه بمضمرة يستدعيه المقام أي: (ألم تر) قصة الملائ: أو حديث الملائ حين قالوا^(٤)، والعامل في هذا الظرف هو هذا المحذوف على الصحيح وقد أجاب (أبو حيان) بكلام يطول لمن زعم أن العامل (تر) أو (من بعد)^(٥)، ويرى (ولي الله الدهلوي) أنه لا حاجة للعامل هنا إذ يقول: ((كلمة (إذ) ظرف فعلي، ولكنها نقلت إلى معنى التخويف والتهويل وأمثال ذلك، فكأن شخصاً يستحضر المواضع الهائلة أو الوقائع الهائلة العظيمة من دون تركيب للجمل، ومن غير وقوع للكلمات في حيز الإعراب فإن الغرض المطلوب هو استحضارها وذكرها حتى ترتسم صورتها البارزة في ذهن المخاطب، ويستولي الخوف منها واستهواها على قلبه وضميره، فالتحقيق هو أنه في أمثال هذه المواضع لا حاجة إلى التفتيش والبحث عن العوامل في هذه الكلمة، والله

(١) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز (٦/٦١)

(٢) الدر المصون في تفسير الكتاب المكنون . ٣٥٤/١

(٣) ص ١٨٧

(٤) الألويسي ، روح المعاني ١٦٤/٢

(٥) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٦٣/٢

أعلم^(١).

• (قالوا): أي بالسنتهم، ولا شك أن الكلام المحكي ومقول القول قد غير تركيبه وأسلوبه، وإنما الباقي هو معناه .

قال ابن الأمير الصنعاني: ((ما حكاه الله تعالى من قصص الأولين من رسله وأقوامهم المصدقين والمكذبين، فإنه كلام رب العالمين، حكاه عنهم بمعناه، فالمعنى كلامهم واللفظ كلام الله قطعاً وإجمالاً ؛ لما هو معلوم من أن ألفاظ من حكى الله عنهم ألفاظ عبرانية كموسى وقومه .

ومعلوم بالضرورة أن القرآن عربي بل أبلغ كلام عربي وبنص الله سبحانه وتعالى حيث قال: ﴿ قرآنًا عربيًّا ﴾ [يوسف: ٢] وقال: ﴿ نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] ((^(٢)).

• (لني): تنكير اسم النبي للإشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي، فلا حاجة إلى تعيينه، وليس ذكر الاسم مما يخدم هدف القصة، ولذلك قال البقاعي: ((نكره لعدم مقتض لتعريفه))^(٣) .

• لماذا قال ((لني لهم)) ولم يقل ((لنيهم)) ؟: اجاب عن ذلك (ابن عاشور) بقوله: ((لم يقل: إذ قالوا لنيهم، إذ لم يكن هذا النبي معهوداً عند السامعين حتى يعرف لهم بالإضافة)) ثم قال ((وفي قوله ﴿ لني لهم ﴾ تأييد لقول علماء النحو أن أصل الإضافة أن تكون على تقدير لام الجر))^(٤) .

** ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ :

• أصل كلمة (البعث) : إرسال المبعوث من المكان الذي هو فيه . لكن يختلف باختلاف متعلقه، يقال: (بعث البعير من مبركه) إذا أثاره، (بعثته في السير) إذا هيجه، و (بعث الله تعالى الميت) إذا أحياه، و (ضرب البعث على الجند) إذا أمروا

(١) الفوز الكبير في أصول التفسير . ص ١١٢

(٢) الإيضاح والبيان ص ٣٠-٣١

(٣) البقاعي، نظم الدرر ٤٠٨/٣

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٥/٢

بالارتحال^(١).

- لماذا عَبَّرَ بـ (ابعث) بدلاً من (عَيِّن)؟: قال ابن عاشور: ((لما يكن فيهم ملكٌ في حالة الحاجة إلى ملك، فكأن الملك غائب عنهم وكان حالهم يستدعي حضوره فإذا عين لهم شخص ملكاً فكأنه كان غائباً عنهم فبعث أي أرسل إليهم))^(٢).
- أصل كلمة (الملك): قال الطبري: ((ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن المَلِك من المُلْك مشتق))^(٣) ، ((وأصل الملك في الكلام: الربط والشد، يقال ملكت العجين أملكه ملكاً إذا شددت عجنه... وقال أصحاب المعاني: المَلِك: النافذ الأمر في ملكه))^(٤) ، قال الراغب: ((الملك: هو المتصرف بالأمر والنهي))^(٥) ، وقد نقل الطبري عن مجاهد أن المقصود بالملك هنا هو ((الأمير على الجيش))^(٦) ، ولكنه تفسير بأحد جزئيات (الملك) ، إذ أن دور الملك أعظم وأكبر.

**** ﴿ نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ :**

- (نقاتل): مأخوذ من (القتال): وهو بمعنى استخدام الأدوات المتاحة للإعتداء على الآخر، وهو (مفاعلة) بين طرفين. ومعنى كلمتي (الجهاد) و (القتال) مترادفان في آيات كثيرة، والمتبادر أن هذا الترادف هو الذي رسخ في الأذهان، كون الجهاد هو بمعنى القتال. غير أن في القرآن آيات عديدة تفيد أن الجهاد أوسع مدى وتناولاً من القتال. وأنه يعني بذل الجهد مطلقاً في حرب وفي غير حرب. أما إذا جاء القرآن بعبارة (القتال) فهو يقصد المعنى المخصص للحرب.

- القراءات والإعراب في (نقاتل): جاء في هذه الكلمة أربع قراءات: -

أ-قراءة الجمهور (نقاتل) بالنون والجزم على أنه جواب الطلب.

ب- (نقاتل) بالنون والرفع على أنه حال، أي ابعثنه لنا مقدرين القتال، أو استئناف

(١) الألويسي، روح المعاني ١٦٤/٢

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٥/٢

(٣) الطبري، جامع البيان ١٤٨/١

(٤) الزجاج، شرح الأسماء الحسنی، ص ٣٠

(٥) المفردات، ص ٤٧٢

(٦) الطبري، جامع البيان ٦١٨/١

كأنه قيل: ما تصنعون بالملك؟ قالوا: نقاتل.

ج - (يقاتلُ): بالياء والجزم على جواب الطلب .

د - (يقاتلُ): بالياء والرفع على أنه صفة لقوله (ملكاً)، وهي قراءة الضحاك وابن أبي عبلة^(١).

إلا أن الإمام ابن جرير الطبري له رأي آخر في هذه القراءات فهو لا يميز منها سوى قراءتان حيث قال: ((وغير جائز في قول الله تعالى ذكره ﴿ نقاتل في سبيل الله ﴾ إذا قرئ بالنون غير الجزم، على معنى المجازاة وشرط الأمر . فإن ظن ظان أن الرفع فيه جائز وقد قرئ بالنون، بمعنى: الذي نقاتل به في سبيل الله، فإن ذلك غير جائز؛ لأن العرب لا تضم حرفين. ولكن لو قرأ ذلك بـ (الياء) لجاز رفعه، لأنه يكون لو قرئ كذلك صلة لـ (الملك)، فيصير تأويل الكلام حينئذ: ابعث لنا الذي يقاتل في سبيل الله))^(٢).

● معنى (في سبيل الله): ((السبيل: هو الطريق، وسميت العبادات سبيل إلى الله تعالى من حيث أن الإنسان يسلكها، ويتوصل إلى الله تعالى بها، ومعلوم أن الجهاد تقوية للدين، فكان طاعة، فلا جرم أن كان المجاهد مقاتلاً في سبيل الله))^(٣) وإن في القرآن آيات كثيرة تفيد أن سبيل الله التي أمرت الآيات بالجهاد والقتال من أجلها هي الرسالة الإسلامية. سواء منها العقائد الإيمانية أم الواجبات الفعلية الإيجابية والسلبية^(٤).
وإن المتدبر لكتاب الله يجد أن كلمة ﴿ في سبيل الله ﴾ تأخذ عمقاً بعيداً ومعنىً واسعاً بحيث يظل الجهاد من أجل الله فقط ، لا من أجل أي شيء آخر .

** ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ :-

● لماذا استخدم (هل) ولم يستخدم همزة الإستفهام؟: سبب ذلك أن (هل) كلمة تنبئ عن تحقيق الاستفهام وتأكيد أكثر مما تعطيه دلالة همزة الاستفهام^(٥).

(١) انظر:- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٢/٢ - الألويسي ، روح المعاني ١٦٥/٢ - أبو حيان ، البحر المحيط ٢٦٣/٢

- الشوكاني ، فتح القدير ٢٩٠/١ - الزمخشري ، الكشاف ٢٨٧/١ - الفخر الرازي ١٨٥/٦

(٢) ابن جرير الطبري ، جامع البيان ٦١٣/١

(٣) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ١٧٩/٦ - ١٨٠

(٤) محمد عزة دروزة ، الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث. ص ٦

(٥) البقاعي ، نظم الدرر (البقاعي) ٤١٠/٣

• وقد استدل بعضهم بدخول (هل) على الفعل (عسى) على أن (عسى) فعل خبري وليس إنشائي.. والصحيح أن (عسى) إنشاء لأنه يفيد الترجي مثل (لعل)^(١).

• القراءات في (عسيتم): جاءت فيها قراءتان: -

أ / قراءة الجمهور (عسيتم) بفتح السين . وهي اللغة المعروفة^(٢) واللغة الفصيحة^(٣).
ب / قراءة نافع (عسيتم) بكسر السين^(٤)، وقرأ بها أيضاً الحسن وطلحة^(٥) وقد تكررت الكلمة نفسها في سورة (محمد) وقرأ بها بالكسر أيضاً^(٦)، وقد ضعف (الزمخشري) القراءة بها^(٧).

• توجيه قراءة (عسيتم) بالكسر: هي لغة لبعض العرب^(٨)، ولكنها لا تستخدم إلا إذا اتصل بها ضمير المتكلم ، أو المخاطب، أو نون النسوة^(٩)، كأنهم قصدوا من كسر السين التخفيف بإماتة سكون الياء^(١٠) قال أبو بكر الأدفيوي وغيره: إن أهل الحجاز يكسرون السين من عسى مع المضمرة خاصة^(١١) ، وإذا قيل (عسى زيد) فليس إلا الفتح^(١٢).

وقد طعن (أبو عبيد) في هذه القراءة فقال: لو جاز ذلك لجاز (عسى ربكم) بالياء، فأجاب أصحاب (نافع) عنه من وجهين: -

-الأول: أن الياء إذا سكنت وانفتح ما قبلها حصل في التلظظ بها نوع كلفة ومشقة، وليست الياء من (عسى) كذلك، لأنها وإن كانت في الكتابة ياء إلا أنها في اللفظ مدّة، وهي خفيفة فلا تحتاج إلى خفة أخرى .

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٤

(٢) السمرقندي ، بحر العلوم ١/٢١٨

(٣) البغوي ، معالم التنزيل ١/٢٩٦

(٤) السمرقندي ، بحر العلوم ١/٢١٨ - البغوي ، معالم التنزيل ١/٢٩٦ - فتح القدير (الشوكاني) ١/٢٩٠

(٥) الشوكاني ، فتح القدير ١/٢٩٠ - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢/١٠٥٢

(٦) البغوي ، معالم التنزيل ١/٢٩٦ - الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٦/١٨٥

(٧) الزمخشري ، الكشاف ١/٢٨٧

(٨) السمرقندي ، بحر العلوم ١/٢١٨

(٩) أبو حيان ، البحر المحيط ٢/٢٦٤

(١٠) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٢/٤٨٦

(١١) المقصود بـ (المضمرة) ما ذكرناه : ضمير المتكلم أو المخاطب أو نون النسوة

(١٢) أبو حيان ، البحر المحيط ٢/٢٦٤

-الثاني: هب أن القياس يقتضي جواز(عسي ربكم) إلا أن ما ذكرنا أنهما لغتان، فله أن يأخذ باللغتين فيستعمل أحدهما في موضع والأخرى في موضع آخر^(١)، قال أبو حيان: هذا جهل من أبي عبيد بهذه اللغة^(٢).

● معنى (عسيتم): هل قاربتم أن لا تقاتلوا كما أتوقعه منكم^(٣). قال الطبري: ((هل تعدون))، وقال البقاعي: ((الأحسن عندي أن يكون المعنى: هل تخافون من أنفسكم))^(٤).

** ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾:-

- معنى (إن كتب): إن فرض عليكم القتال^(٥). ومنه قوله عن الصلاة: ﴿إِنْ الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣] أي مفروضاً.
- سبب بنائه للمفعول: بني الفعل (كتب) للمفعول المجهول ولم يُبَيَّن للفاعل المعلوم (كتب) تزيهاً لاسم الله (الفاعل) عن مخالفة يتوقع تقصيرهم فيها^(٦).
- لماذا قدم ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾؟: كان يمكن أن يقال (هل عسيتم ألا تقاتلوا إن كتب عليكم القتال"حسب البناء اللغوي، ولكن قدّمت ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ من باب العناية بتأديب السائلين في هذا الأمر المهم وهو قضية فرض القتال، وأن النكوص بعد فرض القتال كبيرة من كبائر الدين.

** ﴿أَلَا تُقَاتِلُوا﴾:

- معناها: ألا تفوا بما تعدون الله من أنفسكم من الجهاد في سبيله، فإنكم أهل نكث وغدر وقلة وفاء بما تعدون^(٧).

(١) الفخرالرازي، مفاتيح الغيب ١٨٥/٦

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٤/٢

(٣) الألويسي، روح المعاني ١٦٥/٢ - الزمخشري، الكشاف ٢٨٧/١

(٤) نظم الدرر ٤١٠/٣

(٥) الطبري، جامع البيان ٦١٣/١

(٦) البقاعي، نظم الدرر ٤١٠/٣ - الألويسي، روح المعاني ١٦٥/٢

(٧) الطبري، جامع البيان ٦١٣/١

● لماذا لم يقل (أن تعجزوا) ؟: وذلك أن نبيهم عليه السلام علم أن بعضهم سترك الجهاد لا عن ضعف وعجز، وإنما ستركونه عن قوة وهم قادرون عليه ولذلك نفى الفعل (تقاتلوا)^(١).

● إعرابها: هي خبر للفعل (عسى) في محل نصب، والتقدير: (هل عسيتم مقاتلة)^(٢) وهذا على المشهور من أن (عسى) تدخل على المبتدأ والخبر. ومن ذهب إلى أن (عسى) يتعدى إلى مفعول جعل (أن لا تقاتلوا) هو المفعول^(٣).

* استفهام النبي هل المقصود به التقرير أم الشك؟: هذا الاستفهام من النبي على ما هو متوقع فهو استفهام تقرير، وليس استفهاماً للتوقع والشك.

((وهذا من أبداع الإيجاز فقد حكى جملاً كثيرة وقعت بينهم، وذلك أنه قرره على إضمارهم نية عدم القتال اختباراً أو سبراً لمقدار عزمهم عليه، ولذلك جاء في الاستفهام بالنفي فقال ما يؤدي معنى (هل لا تقاتلون ؟) ولم يقل (هل تقاتلون؟)، لأن المستفهم عنه هو الطرف الراجح عند المستفهم، وإن كان الطرف الآخر مقدراً^(٤)، ((فأدخل (هل) مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون، وأراد بالاستفهام التقرير، وثبت أن التوقع كائن له، وأنه صائب في توقعه كقول الله تعالى ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ [الإنسان: ١] معناه التقرير))^(٥).

● هم هناك لم يطلبوا فرضية القتال، بل طلبوا الملك الذي يقاتلون معه، فلماذا ذكر النبي عليه السلام فرض القتال ؟

- قال الألوسي: ((ذكر كتابة القتال دون ما التمسوه مع أنه أظهر تعلقاً بكلامهم، مبالغة في بيان تخلفهم عنه، فإنهم إذا لم يقاتلوا عند فرضية القتال عليهم بإيجاب الله تعالى فلا أن لا يقاتلوا عند عدم فرضيته أولى))^(٦)، وليبين أيضاً أن سبب تخلفهم عن القتال ليس هو عدم وجود الملك ولكن لعله في نفوسهم، وفي ذلك أيضاً ((إيماء إلى

(١) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٤١١/٣

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٢٥/٢ - الشوكاني، فتح القدير ١/ - الرازي ١٨٥/٦

(٣) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٤/٢ - الألوسي، روح المعاني ١٦٥/٢

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٥/٢

(٥) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨٥/٦ - الزمخشري، الكشاف ٢٨٧/١

(٦) الألوسي، روح المعاني ١٦٥/٢

أن ذلك البعث المترتب عليه القتال إذا وقع فإنما يقع على وجه يترتب عليه
الفرضية^(١).

**** ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾: -**

- المعنى: ومالداعي لنا إلى أن لا نقاتل ، أي إلى ترك القتال^(٢) .
- إعراب الجملة: الأكثر أن يكون ما بعد الاستفهام في موضع حال . ولكن الإعراب يختلف ومآل المعنى متحد.

و(ما)مبتدأ، و(لنا)خبره، والمعنى: أي شيء كان لنا ، وجملة (أن لا نقاتل) حال^(٣)، والشائع في مثل هذا التركيب: ما لنا نفعل أو لا نفعل، على أن الجملة حال^(٤).

- نوع الاستفهام: (ما) اسم استفهام بمعنى: أي شيء، واللام للإختصاص، والاستفهام إنكاري وتعجبي من قول نبيهم ﴿ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ لأن شأن المتعجب منه أن يسأل عن سببه^(٥).

ويرى (أبو حيان) أنه استفهام إنكاري^(٦)، أي أنهم أنكروا ما توقعه نبيهم منهم.

- سبب دخول الواو: دخلت الواو في قولهم: (وما لنا ...) ولم تقل الآية(قالوا ما لنا...) لتدل على ربط هذا الكلام بما قبله ، ولو حذف لجاز أن يكون منقطعاً عنه^(٧). قال (ابن عاشور): ((كان في كلامهم ما يفيد إرادة أن يكون جوابهم عن كلامه معطوفاً على قولهم ﴿ ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴾ ما يؤدي بمثله بواو العطف فأرادوا تأكيد رغبتهم، في تعيين ملك يدبر أمور القتال، لأنهم ينكرون كل خاطر يخطر في نفوسهم من التشيط عن القتال، فجعلوا كلام نبيهم بمثلة كلام معترض في اثناء كلامهم الذي كملوه، فما يحصل به جوابهم عن شك نبيهم في ثباتهم، فكان نظم كلامهم على

(١) نفس المصدر ١٦٥/٢

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٧/٢

(٤) الألو سي ، روح المعاني ١٦٥/٢

(٥) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٢٨٦/٢

(٦) البحر المحيط ٢٦٤/٢

(٧) الألو سي ، روح المعاني ١٦٥/٢ - أبو حيان ،البحر المحيط ٢٦٤٩/٢

طريقة قوله تعالى حكاية عن الرسل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾ [إبراهيم: ١٢] ((^(١) .

ويجوز أن تكون (الواو) عاطفة على محذوف كأنهم قالوا: (عدم القتال غير متوقع منا، وما لنا ألا نقاتل) وإنما لم يصرحوا به تحاشياً عن مشافهة نبيهم بما هو ظاهر في ردّ كلامه^(٢) .

• سبب دخول (أن): (أن) ههنا حرف مصدر واستقبال، لكن السؤال الذي أطال فيه أهل اللغة أن الأصل أن يقال فيها (وما لنا لا نقاتل في سبيل الله) بدون (أن).. وللتنبية فإن لفظة ((الّا)) في الرسم العثماني إنما هي مكونة من (أن - لا) . وقد أجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة منها: -

أ - إنهما لغتان فصيحتان للعرب: فتارة يحدفونها ويقولون: مالك لا تفعل كذا، وذلك هو الكلام الذي لا حاجة بالمتكلم به إلى الاستشهاد على صحته، لفشو ذلك على السنة العرب وقد جاء ذلك في القرآن كثيراً ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم ﴾ [الحديد: ٨] ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ [نوح: ١٣] وأحياناً تشبثها العرب، فيقولون: مالك أن لا تفعل كذا، وقد وردت في القرآن في مواضع أيضاً منها: ﴿ ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾ [الاعراف: ١٢] ﴿ مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾ [الحجر: ٣٢] وهذا هو الصحيح في دخولها، وهو ما رجحه ابن جرير والبعوي^(٣) .

ب - إنَّ (أن) ههنا زائدة بعد (مالنا) وقال بهذا القول الأخفش، ورد عليه الفخر الرازي بقوله (والقول بثبوت الزيادة في كلام الله خلاف الأصل)^(٤)، وقال ابن جرير: جرير: ((وأنكر ما قال هذا القائل من قوله الذي حكينا عنه آخرون، وقالوا: غير جائز أن تجعل (أن) زائدة في الكلام وهو صحيح في المعنى وبالكلام إليه حاجة))^(٥) .

ج - إن هناك (واو) محذوفه، والتقدير (ومالنا ولأن لا نقاتل) كما يقال في الكلام:

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٦/٢

(٢) الألوسي ، روح المعاني ١٥٦/٢

(٣) الطبري ، جامع البيان ٦١٣/١ - البعوي ، معالم التنزيل ٢٩٦/١

(٤) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ١٨٦/٦

(٥) الطبري ، جامع البيان ٢١٤/١

مالك ولأن تذهب إلى فلان^(١).

د - إن هناك حرف جر مقدر، تقديره: مالنا في أن لا نقاتل . أو يقال: مالنا لألاً نقاتل، وذلك لأن حرف المصدر يقتضي أن يكون بعده في تأويل المصدر، وينبغي أن يكون المصدر مجروراً بحرف جر مقدر^(٢). قال (أبو حيان) في معرض رده على ذلك: ((الزيادة والحذف على خلاف الأصل، ولا نذهب إليهما إلا لضرورة ولا ضرورة تدعو هنا إلى ذلك مع صحة المعنى في عدم الزيادة والحذف))^(٣).

**** ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانَا ﴾ :-**

● معنى الجملة: وقد أخرج الأعداء من غلب عليه من رجالنا ونسائنا من ديارهم وأولادهم ومن سبي، بالقهر والغلبة^(٤) ، ففي الكلام إسناد مالم لبعض للكل إذ المخرج بعضهم لا كلهم^(٥) فظاهره العموم ومعناه الخصوص^(٦) ، وكلمة (أخرجنا) أعم من أن يكون مع الإخراج إبعاد^(٧) .

● القراءات في (أخرجنا): القراءة المشهورة (أخرجنا) بضم الهمزة وسكون الجيم، وقد قرأ عبيد ابن عمير (وقد أخرجنا) بفتح الهمز والجيم، أي العدو، ويحتمل أن يكون الفاعل بـ (أخرجنا) على قراءة عبيد ضميراً يعود على الله، أي أخرجنا الله بعصياننا وذنوبنا، فنحن نتوب ونقاتل في سبيله ليردنا إلى أوطاننا، ويجمع بيننا وبين أبنائنا، كما تقول: مالي لا أطيع الله وقد عاقبني على معصيته، فينبغي أن أطيعه حتى لا يعاقبني^(٨) .

● لماذا بني الفعل للمجهول في (أخرجنا) ؟: لأن موجب القتال نفس الإخراج

(١) نفس المصدر والصفحة ، وقد زعم (أبو حيان) أن هذا قول ابن جرير (البحر المحيط ٢/٢٦٥) ، والصحيح أن ابن

جرير نقله عن آخرين ورجح ما ذكرناه .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٢/٤٨٦

(٣) البحر المحيط ٢/٢٦٥

(٤) الطبري ، جامع البيان ١/٦١٣ - ٦١٥ .

(٥) روح المعاني (الألو سي) ٢/١٦٦

(٦) زاد المسير (ابن الجوزي) ١/٢٤٢

(٧) البقاعي ، نظم الدرر ٣/٤١٢

(٨) أبو حيان ، البحر المحيط ٢/٢٦٥

بغض النظر عن نسبتته لأحد معين^(١) .

● إعراب الجملة: هي جملة حالية منصوبة ، وهي تعليل لحال الإنكار^(٢) أي أنهم في هذه الحال أبعد الناس عن ترك القتال، لأن أسباب حب الحياة تضعف في حال الضر^(٣) .

● إعراب (وأبنائنا): واو العطف في قوله (وأبنائنا) ادّعى بعضهم أن بعد الواو عاملاً محذوفاً تقديره: وأبعدنا عن أبنائنا . والصحيح أنه لا حاجة إلى ذلك لأن الإخراج يطلق على إبعاد الشيء عن حيزه، وعلى إبعاده من بين ما يصاحبه .^(٤) ولكن بالإمكان أن يقال أن المحذوف تقديره: ومن بين أبنائنا، وهذا قول أبي البقاء، وهو الأقرب. وقيل: لا حذف، والعطف على حد قول [علفتها تبناً وماءً بارداً]^(٥) .

● لماذا أفردوا (الأبناء) بالذكر؟ ذكروا (الأبناء) لأسباب منها: -

١- لأنهم الذين وقع عليهم السي .

٢- لأنهم بمكان فوق سائر القرابة^(٦) .

٣- لمزيد تقوية أسباب القتال^(٧) .

** - ﴿ لَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا ﴾ : -

● في هذا الكلام متروك قد استغني بذكر ما ذكر عما ترك منه .

وذلك أن معنى الكلام: ﴿ قالوا ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ فسأل نبيهم ربه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فبعث لهم ملكاً، وكتب عليهم القتال ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾^(٨) .

(١) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٤١٢/٣

(٢) الشوكاني، فتح القدير ٢٩١/١ - الألويسي، روح المعاني ١٦٦/٢ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٥/٢

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٧/٢

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) الألويسي، روح المعاني ١٦٦/٢

(٦) الشوكاني، فتح القدير ٢٩١/١

(٧) الألويسي، روح المعاني ١٦٦/٢

(٨) الطبري، جامع البيان ٦١٥/١ . وانظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨٦/٦

- معنى " تولوا " من التولي وهو شدة الإدبار والهروب بعد شدة ذلك الإقبال والحماس (١).

** - ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾: -

- القراءة فيها: جاء عن أبي بن كعب في قراءة شاذة (تولوا إلا أن يكون قليل منهم) (٢).

- إعراهما: النصب (قليلاً) على الاستثناء المتصل (٣).

** - ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾:

- المعنى: هو عالم بمن ظلم نفسه حين خالف ربه ولم يف بما قيل من ربه (٤).
- و(العلم) صفة من أعظم صفات الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه عالم بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

(١) البقاعي، نظم الدرر ٤١٣/٣

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٥/٢

(٣) نفس المصدر والصفحة

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٨٦/٦

المطلب الثاني: دراسة الآية الثانية

{ القائل المنتظر }

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. [سورة البقرة: ٢٤٧]

** - ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ : -

• من هنا بدأ الشروع في تفصيل ما جرى بينهم وبين نبيهم من الأقوال والأفعال^(١).

• لماذا أعاد الفعل (قال)؟: أعاد الفعل في قوله ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ للدلالة على أن كلامه هذا ليس من بقية كلامه الأول، بل هو حديث آخر متأخر عنه: وذلك أنه بعد أن حذرهم عواقب الحكومة الملكية، وحذرهم التولي عن القتال، تكلم معهم كلاماً آخر في وقت آخر^(٢).

• سبب التصريح بكلمة (نبيهم): لتلا يظن أحد أن القائل هو الله وأنهم واجهوه بالاعتراض^(٣).

** - ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾

• (إن): تأكيد الخبر بـ (إن) إيذان بأن من شأن هذا الخبر أن يتلقى بالاستغراب والشك، كما أنبأ عنه قولهم (أنى يكون له الملك علينا)^(٤).

• (قد): جاء الكلام مؤكداً معظماً محققاً بأداة التوقع لأن سؤا لهم على لسان نبي

(١) الشوكاني، فتح القدير ٢٩١/١

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٩/٢

(٣) البقاعي، نظم الدرر ٤١٤/٣

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٩/٢

يقتضي توقع الإجابة: (إن الله) أي بجلاله وعز كماله (قد...)^(١).

● (بعث): استخدم لفظ (بعث) لأنه (لما كان إلباس الشخص عزّ الملك مثل إعزاز الجماد بنفخ الروح كان التعبير عن ذلك بالبعث أليق فقال ﴿ بعث لكم ﴾)^(٢).

● اشتقاق الاسم (طالوت): (طالوت) هو اسم بطل القصة التي نحن بصددتها في الآيات الكريمة، وهو القائد العظيم والملك الأول لبني إسرائيل في تلك المدة .

وقد اختلف المفسرون في اشتقاق اسم (طالوت) خصوصاً وأنه لا يوجد هذا الاسم في (العهد القديم) ، ولا عند مؤرخي أهل الكتاب، بل يطلق عليه لديهم (شاؤل) أو (شاؤل)، ولذلك فقد ذهب علماء اللغة والتفسير إلى ثلاثة أقوال: -

الأول: - إن (طالوت) اسم أعجمي عبري، كداوود وجالوت، والدليل على ذلك أنه ممنوع من الصرف^(٣)، وقد منعه العلمية والعجمة^(٤)، (قال الزجاج: طالوت، وجالوت وداوود لا تصرف لأنها أسماء أعجمية، وهي معارف فاجتمع فيهما التعريف والعجمة)^(٥).

والجمع: طوالت وجوالت ودواويد^(٦).

فإذا كان الاسم أعجمياً فلماذا نبحت عن اشتقاق له في اللغة العربية؟

الثاني: - إن اسم (طالوت) مشتق من (الطول)، وكان أطول من كل أحد برأسه ومنكبيه^(٧)، قالوا: أصل الكلمة (طَوَلوت) على وزن (فَعَلوت) كـ (جبروت) و(ملكوت) و(رهبوت) و(رحموت)، وأن الواو والتاء فيه للمبالغة مثل (طاغوت)^(٨)، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ومنع صرفه حينئذٍ للعلمية وشبه العجمة لكونه ليس من أبنية العرب^(٩).

(١) البقاعي، نظم الدرر ٤١٤/٣

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) الصرف عند أهل النحو هو: التنوين، فلا يقال (طالوتاً) مثلاً.

(٤) الألوسي، روح المعاني ١٦٦/٢

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير ٢٣٤/١

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٣/٢

(٧) البغوي، معالم التنزيل ٢٩٧/١ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٥٨/٢

(٨) طاغوت: أصله (طغيوت) فوقع فيه قلب مكاني. (التحرير والتنوير) ابن عاشور ٤٨٩/٢

(٩) الألوسي، روح المعاني ١٦٦/٢

قال السمين الحلبي: ((لو كان مشتقاً من الطول لكان ينبغي أن ينصرف ، لأنه ليس فيه إلا العلمية))^(١).

قال ابن عاشور: ((ولعله عومل معاملة الاسم الأعجمي لما جعل علماً على هذا العجمي في العربية، فعجمته عارضة وليس هو عجمياً بالأصالة، لأنه لم يعرف هذا الاسم في لغة العبرانيين كداوود وشاؤول، ويجوز أن يكون منعه من الصرف لمصيره بالإبدال إلى شبه وزن (فاعول)، ووزن (فاعول) في الأعلام عجمي، مثل هاروت وماروت وداود، ولذلك منعوا (قابوس) من الصرف، ولم يعتدوا باشتقاقه من القبس))^(٢).

الثالث: - أن يقال هو اسم عبراني وافق عربياً، كما وافق لفظ (حطة) اللغتان، و(بشمالا لها رحمانا رخيما) = (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فهو من الطول كما لو كان عربياً، وكان أحد سببيه العجمة لكونه عبرانياً^(٣).

- أو أن اللغتان اتفقتا في مادة الكلمة كما زعموا في (يعقوب) أنه مشتق من (العقب)^(٤)، قال الفيروز آبادي ((طالوت: اسم أعجمي لقب به، وكان اسمه في الأصل الأصل (سارا) وقيل: (ساوا)، فقيل: طالوت، ل طول قامته ... ومعنى طالوت في اللغة العبرية: طويل))^(٥).

• ويشكل على هذا القول أن لفظة (طالوت) ليست موجودة أصلاً في اللغة العبرية عبر قواميسها الموجودة اليوم بأيدينا.. بل حتى لفظة (شاول) (saul) لا تمت في لغتهم إلى (الطول) بصلة، بل هي مختلفة تماماً، إذ أنها تعني: (المستعار) أو (عارية الله)^(٦)، وأغلب الترجمات الحديثة على أنه (المطلوب من الله) أو (الذي سئل من الإله)^(٧)، وإن كان كان قد جاء لديهم في وصفه أنه ((من أكثر شبان بني إسرائيل وسامة وأكثرهم طولاً، لم يزد طول قامته أحد من الشعب عن ارتفاع كتفيه)) [صموئيل الأول ٩: ٢] .

(١) الدر المصون ٥١٩/٢

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٨٩/٢

(٣) الكشاف (الزمخشري) ٢٨٨/١

(٤) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٦/٢

(٥) بصائر ذوي التمييز ٨٢/٦

(٦) قاموس أعلام الكتاب المقدس ، ص ١١٣

(٧) د. عبد الوهاب المسيري، الموسوعة الصهيونية واليهودية .

• والذي ذهب إليه (ابن عاشور) من ان (شاول) هو اسمه و (طالوت) لقبه، بل ذهب إلى أن هذا اللقب خاص بالقرآن، وأن القرآن عدل عن اسمه الحقيقي (شاول) لثقل هذا اللفظ وخفة النطق بـ (طالوت) !

وعلى هذا اللقب القرآني بأمرين: -

١ - للإشارة إلى الصفة التي عُرفَ بها للنبي صمويل، وهي صفة (الطول)، بحسب رواية العهد القديم .

٢ - لمراعاة التنظير بينه وبين جالوت غريمه في الحرب .

ثم عَقِبَ على كلامه: (أو كان ذلك لقباً له في قومه قبل أن يؤتى الملك، وإنما يلقب بأمثال هذا اللقب من كان من العموم)^(١) .

* والذي يميل إليه الباحث أن (طالوت) هو الاسم الحقيقي، وأن (شاول) كان لقباً له، والذي يدعم هذا القول أمور منها: -

أ - إن معنى (شاول) بلغتهم العبرية يعني (المطلوب) - wanted - أو (الذي تُلب من الإله) كما بينا، والله سبحانه لم يطلب إلا في وقت كان فيه (طالوت) كبيراً في العمر، فلقب بـ (شاول) بعد اختياره من الله ملكاً عليهم .

ب - إن اليهود أضعوا هذا الاسم حرصاً منهم على تشويه صورة (طالوت) الجميلة ومحوه من ذاكرة أجيالهم، وإلا فإن هذا الاسم كان معروفاً لدى اليهود قبل مجيء النبي ﷺ إليهم بالمدينة، ومن ذلك (طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم اليهودي) الذي سحر النبي ﷺ، مع أن هذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب قبل نزول القرآن .

ج - إن النبي ﷺ لما أخبرهم بابتعاث الله إياه أخبرهم بأن اسمه (طالوت) " إن الله قد بعث لكم طالوت " فقد كان هذا هو الأنسب من ذكره بـ (اللقب) .

* مميزات اسم (طالوت) :-

١ - إذا افترضنا أنه مأخوذ من (الطول) في اللغة العبرية كما ذكر ذلك الفيروزآبادي، فإن نظيره (جالوت) والذي هو (جليات) باللغة العبرية من معانيه

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/٤٨٩ - ٤٩٠

(السّمين) كما في (قاموس أعلام الكتاب المقدس)^(١)، وفي هذا تناظر عجيب فالطويل مقابل السمين، وعند بني آدم (الطول) محمود ومرغوب، وفيه نوع عزّة وشموخ، ومن صفات المؤمنين في الجنة الطول { ستون ذراعاً في السماء }^(٢)، بينما (السمين) مذموم عند الناس ومعيب { إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ }^(٣).

٢ - إن وزن كلمة (طالوت) متناغم مع وزن (تابوت) و (جالوت) وهو ما يمثل {ثلاثية} رمزية لعناصر الصراع والمدافعة: فـ (طالوت) رمز قيادة الخير، و(جالوت) رمز قيادة الشر، و(تابوت) رمز الدعم الإلهي، وهذه (الثلاثية) تشكل حقيقة ما يجري من الصراعات في العالم .

٣ - إن اسم (طالوت) فيه إشارة إلى معلم من معالم انتصار الحق ولو طال الزمان، وأن أهل الخير عليهم أن يتحلوا بطول النفس وبعد النظر في التعامل مع الشر .
أما اسم (جالوت) ففيه إشارة لجولات الشر وأن الباطل مهما انتفش فهو جولة .
• إعراب (ملكاً): حال من (طالوت) .

** - ﴿ قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾

- معنى (أنى): كيف ومن أين، وهو إنكار لتملكه عليهم واستبعاد له^(٤) .
- نوع الاستفهام: قد يكون استفهاماً حقيقياً^(٥)، والأقرب أنه للتعجب، تعجبوا من جعل مثله ملكاً وهو رجل فقير من بيت وضيع^(٦)، وهذا الاستفهام ليس إنكارياً وإلا لكانوا قد كذبوا نبيهم في ذلك ووقعوا في الكفر^(٧) .
- إعراب الاستفهام: -

(١) ص ٦٩ .

(٢) رواه البخاري، باب خلق آدم ١٠٨/١١ برقم ٣٠٨٠، ورواه مسلم، باب أول زمرة تدخل الجنة ٤٦٨/١٣ برقم ٥٠٦٨

(٣) رواه البخاري، باب "اولئك الذين كفروا" ١٤/٣٥٥ برقم ٤٣٦٠، ورواه مسلم، كتاب صفة القيامة ١٣/٣٦٩ برقم ٤٩٩١

(٤) الزمخشري، الكشاف ١/٢٨٨ .

(٥) الألويسي، روح المعاني ٢/١٦٦ .

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/٤٩٠ .

(٧) الألويسي، روح المعاني ٢/١٦٦

- أ - إذا قلنا أنها بمعنى (كيف) فهي منصوبة على الحال من الملك ^(١) .
- ب - وإذا قلنا أنها بمعنى (من أين) فتصبح (أنى) في موضع نصب على الظرف ^(٢) .
- إعراب (يكون له الملك علينا) :
- أ - يجوز أن تكون (كان) الناقصة، و (له) خبر ، و (علينا) حال، وقيل:
بالعكس (له) حال، و (علينا) خبر، متعلق بـ (الملك) على معنى الاستعلاء تقول
فلان ملك على بني فلان .
- ب - ويجوز أن تكون لفظة (يكون) التامة، فيكون (له) متعلق بـ (يكون)،
و (علينا) حال ^(٣) .

** - ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ : -

- معنى الجملة: أن من اجتمع فيه هذان الوصفان: ١/ وجود من هو أحق منه .
٢/ فقره . فهو لا يصلح للملك ^(٤) .
- إعراب الجملة: (نحن أحق) الضمير للمتكلمين وهم المألأ، وهي جملة حالية
اسمية، عطف عليها جملة فعلية، وهي (لم يؤت سعة من المال) والمعطوف على الحال
حال ^(٥) .
- الفرق بين الواوین: الواو الأولى: للحال (ونحن أحق) . والثانية: (ولم يؤت)
لعطف الجملة على الجملة الواقعة حالاً، قد انتظمتها معاً في حكم واو الحال ^(٦) .
- أصل كلمة (سعة) : أصلها (وسعه) بالواو، وحذفت الواو لحذفها من الفعل
المضارع (يَسَعُ) .. والأصل أن يقال (يَسَعُ) (سِعة) بكسر السين مثل (يعد -
عدة)، ولكن فتحت السين لعارض وهو حرف الحلق (ع)، فقليل: (يَسَعُ - سعة) ^(٧) .

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٦ - الألويسي، روح المعاني ٢/١٦٧

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢/١٠٥٤

(٣) الألويسي، روح المعاني ٢/١٦٧ - أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٦

(٤) البحر المحيط (أبو حيان) ٢/٢٦٧

(٥) الشوكاني، فتح القدير ١/٢٩١ - أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٦

(٦) الزنجشيري، الكشف ١/٢٨٨ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٦/١٨٧ - الألويسي، روح المعاني ٢/١٦٧

(٧) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٦ - الألويسي، روح المعاني ٢/١٦٧

** - ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ : -

● معنى (اصطفاه): اختاره، وهو (افتعل) من الصفوة. (١) (أي أخذ الملك من غيره صافياً له، واصطفاه واستصفاه بمعنى الاستخلاص، وهو أن يأخذ الشيء خالصاً لنفسه، وقال الزجاج: إنه مأخوذ من الصفوة، والأصل فيه اصطفى بالتاء فأبدلت التاء طاء ليسهل النطق بها بعد الصاد) (٢).

● معنى (بسطة): البسطة: السعة والامتداد. (٣) وهي الوفرة والقوة من الشيء (٤) (٤). قال ابن قتيبة: هو من قولك: بسطت الشيء: إذا كان مجموعاً ففتحته ووسعته (٥).

● القراءة في (بسطة): ((قرأ أبو عمرو وابن كثير والجمهور بالسين (بسطة) وقرأ نافع وابن كثير رواية النقاش وزرعان والشموني بالصاد (بصطة) .. وروى نحوه أبو نسيط عن قالون)) (٦).

** - ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ : -

● الخطاب هنا من من؟ هل هذا تنمة لكلام النبي ﷺ؟ أم تذييل من الله سبحانه لما بعد خطاب النبي ﷺ؟ -

أ - الأظهر أن هذا من كلام النبي ﷺ لهم لما علم بغيتهم في مسائلهم، ومجادلتهم في الحجج التي تبديها، فأتم كلامه بالأمر القطعي، وهو أن الله هو الفاعل المختار يفعل ما يشاء ويدل على صحة ذلك أنهم لما قالوا " ونحن أحق بالملك منه " فكان في قولهم ادعاء الأحقية في الملك ، حتى كأن الملك هو في ملكهم ! فأضاف النبي (الملك) إلى الله،

(١) زاد المسير (ابن الجوزي) ٢٤٣/١

(٢) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ١٨٨/٦

(٣) الزمخشري ، الكشاف ٢٨٨/١

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٩٢/٢

(٥) ابن الجوزي ، زاد المسير ٢٤٣/١

(٦) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٦٧/٢

فالملك ملكه يتصرف فيه كما أراد ، فلستم بأحق فيه لأنه ملك الله يؤتيه من يشاء .
هذا ما رجحه القرطبي وأبو حيان .

ب - وقيل: بل هي إخبار من الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ فهي معترضة في هذه
القصة جاءت للتشديد والتقوية لمن يؤتيه الملك، أي: فإذا كان الله تعالى هو المتصرف في
ملكه فلا اعتراض عليه ولا يُسأل عما يفعل (١) .

** - ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

• معنى اسم الله (الواسع): ذهب (البغوي) و (السمرقندي) إلى أن اسم الله
الواسع يدور معناه حول: الغني ذو السعة الذي يعطي عن غنى، ويقال: واسع بعطية
الملك عالم لمن يعطيه (٢)، قال ابن منظور: ((من أسمائه سبحانه وتعالى الواسع: وهو الذي
وسع رزقه جميع خلقه ووسعت رحمته كل شيء، وغناه كل فقر)) (٣) أما (البقاعي) فقد
وسّع المعنى فقال ((" واسع " أي في إحاطة قدرته وشمول عظمته وكثرة جنوده ورزقه)) (٤).
ورزقه)) (٤).

• معنى اسم الله (العليم): (يعني أنه تعالى مع قدرته على إغناء الفقير فهو عالم بما
يحتاج إليه في تدبير نفسه وملكه) (٥)، فالعليم هو العالم بما يكون وما كان وما سيكون
لو كان كيف يكون، وصيغة (العليم) على وزن (فعيل) للمبالغة، قال البغوي:
(وقيل: العالم بما كان، والعليم بما يكون)) (٦) .

• أسماء الله الحسنى يشتهها أهل السنة والجماعة وفق الأصول العامة لإثبات هذه
الأسماء والصفات، فلا يشبهوا إلا ما ورد في القرآن و السنة من غير تمثيل ولا تعطيل.

• لماذا اختتمت الآية بذلك ؟: قال الألوسي: ((في اختيار (واسع) و (عليم) في
الإخبار عنه تعالى هنا من حسن المناسبة لبسطة الجسم وكثرة العلم ما تفتش له

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٦ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢/١٠٥٥ - ابن عاشور، التحرير والتنوير ١/٤٩٢

(٢) البغوي، معالم التنزيل ١/٢٩٨ - السمرقندي، بحر العلوم ١/٢١٨

(٣) ابن منظور، لسان العرب . مادة (وسع)

(٤) البقاعي، نظم الدرر ٣/٤١٩

(٥) الحازن، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، ١٣٩٩هـ، بيروت،

دار الفكر ١/٢٥٦

(٦) البغوي ١/٢٩٨

الخواطر^(١)، ويقصد أن اسم الله (الواسع) جاء في مقابلة (بسطة الجسم) لطالوت،
و(عليم) جاء في مقابلة (بسطة العلم) لطالوت، وأن الله سبحانه هو الذي أسبغ عليه
هذه الفضائل، لأن المحامد كلها مرجعها إليه سبحانه .

(١) روح المعاني ١٦٧/٢

المطلب الثالث: دراسة الآية الثالثة

{ الحجة الباهرة }

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نبيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٨]

** - ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نبيُّهُمْ ﴾ : -

• تقدير محذوف في الكلام: قال بعض المفسرين: أنه قال لهم النبي ذلك من غير سؤال منهم للآية، وإنما على جهة التغييط والتنبيه^(١)، والذي تضافرت عليه روايات القصص على أنهم سألوا نبيهم، ما آية ملكه؟^(٢)، قال ابن عطية: ((والأول أظهر بمساق الآية والثاني أشبه بأخلاق بني إسرائيل الذميمة))^(٣).

وهو ما ذهب إليه الطبري حيث قال: ((هذا الخبر من الله تعالى ذكره عن نبيه ... دليل على أن الملائكة من بني إسرائيل الذين قيل لهم هذا القول، لم يقرّوا ببعثة طالوت عليهم ملكاً إذ أخبرهم نبيهم بذلك، وعرفهم فضيلته التي فضله الله بها، ولكنهم سألوه الدلالة على صدق ما قال لهم من ذلك . فتأويل الكلام: إذ كان الأمر كما وصفنا ﴿والله يوتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ فقالوا له: ما آية ذلك إن كنت من الصادقين؟ قال لهم نبيهم أن آية ملكه))^(٤).

• لماذا لم يذكر سؤالهم؟: لعل ذلك ((للإيماء أن ذلك السؤال للنبي بعد تصديقهم له وبيانه لهم ما استفهموا عنه مما لا ينبغي أن يكون حتى يجاب، لأن له شبيهاً تاماً بالتعنت حينئذ، وإن عدّ من باب السؤال لتقوية العلم، وهذا بناء على أن القوم كانوا مؤمنين))^(٥).

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٥/٢

(٢) الألوسي، روح المعاني ١٦٧/٢ - البغوي، معالم التنزيل ٢٩٨/١

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٥/٢

(٤) الطبري، جامع البيان ٦٢٠/١

(٥) الألوسي، روح المعاني ١٦٨/٢

- سبب إعادة جملة ﴿وقال لهم نبههم﴾: للإشعار بعدم اتصال كلام النبي وأنه قد تخلله كلام من جهة المخاطبين وحصل بينهم أخذ ورد إلى أن جاء طلبهم للمعجزة^(١).

** - ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾: -

- معنى (يأتيكم): هل (إتيان) التابوت هنا على المجاز أم على الحقيقة؟:

تلك قضية ناشئة من اختلاف أهل العلم في طريقة إتيان التابوت: -

أ- فمن قال أن الذي حملته الملائكة، أو الشيران ونحوهم فقالوا: إنه محمول على المجاز.. وأنه مثل قوله تعالى ﴿فمارجت تجارتهم﴾ [البقرة: ١٦] وإنما جاز مثل هذا لزوال اللبس فيه، فالتابوت يؤتى به ولا يأتي^(٢).

ب- ومن قال: أن إتيانه كان بالتزول من السماء إلى الأرض بعد أن جاء بأمر الله له حتى نزل بين يدي طالوت. قالوا: بأن الإتيان حقيقي^(٣).

ولكن يرد على هذا القول أن الله نص بأنه "تحمله الملائكة".

- أصل كلمة (التابوت): التابوت هو الصندوق الذي له غطاء يغلق به .

وفي وزن الكلمة قولان: -

أ- إن وزنه (فاعول)، ولا يعرف له اشتقاق، قال أبو بكر بن مجاهد: التابوت بالتاء قراءة الناس جميعاً^(٤)، وقد قرأ أبيّ وزيد بن ثابت: (تابوه) بالهاء وهي لغة الأنصار، وهو على وزن (فاعول) . أما (تابوت) فهي لغة قريش، وهي التي أمر بها عثمان رضي الله عنه بكتابتها في المصحف (الإمام) لما ترفع إليه زيد وأبان رضي الله عنهما^(٥).

قال القاسم بن معن: لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلا في التابوت، فلغة قريش بالتاء ولغة الأنصار بالهاء^(٦).

(١) نفس المصدر ١٦٧/٢

(٢) زاد المسير (ابن الجوزي) ٢٤٣/١ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٠/٢

(٣) تفسير فخر الدين الرازي ١٩١/٦

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة (توب) ٦٢/٢

(٥) الألو سي، روح المعاني ١٦٨/٢

(٦) ابن منظور، لسان العرب، مادة (توب) ٦٢/٢

ب - إن وزنه (فعلوت) وأصل الكلمة (تَوَبوت) فقلبت الواو ألفاً - كما قلنا في (طالوت) - ولا يصح أن يكون (فاعول) لأنه تركيب غير معروف، فلا يجوز ترك المعروف إليه، كما أن العرب تستثقل ما كانت فاؤه ولامه من حرف واحد لأنه توأم التكرار .

أما وزن (فعلوت) فهو من (التوب)، وهو الرجوع، لأنه ظرف وصندوق توضع فيه الأشياء وتودعه، فلا يزال يرجع إليه الشخص ما يخرج منه، وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته .

-قالوا: وأما قراءة (تابوه) فهذه الهاء بدلاً من التاء، لاجتماعهما في أنهما من حروف الهمس وأنهما من حروف الزيادة، وقد استخدم العرب إبدالها في الوقف مثل (طلحة) و (طلحه) ^(١)، ولكن الإبدال هنا ضعيف لأن الإبدال في غير تاء التأنيث ليس بثابت، غير أن (الجوهري) يرى أصلاً أن التاء في (تابوت) للتأنيث ^(٢)، قال ابن بري: التصريف الذي ذكره الجوهري في هذه اللفظة حتى ردها إلى تابوت تصريف فاسد، ثم قال: والصواب أن يذكر في (تبت) لأن تاءه أصلية، ووزنه (فاعول) مثل: عاقول وحاطوم ^(٣) .

* والصحيح في ذلك أن وزنه (فاعول)، وأنا لا نحتاج إلى تكلف الاشتقاق، وذلك أن الكلمة أعجمية معرّبة، وهذا وإن كان قليلاً في الاسماء العربية، لكن هذا الوزن يدل على ما كان أصله أعجمياً ثم عُرب ، مثل: ناقوس، وناموس ^(٤) .

** - ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ : -

● أصل كلمة (سَكِينَةٌ) : (السكينة) فعيلة من (السكون)، وهو ضد الحركة . وهي مصدر وقع موقع الاسم، نحو: القضية والبقية والعزيمة ^(٥) ، نقول في فلان سَكِينَةٌ:

(١) الزمخشري، الكشاف ٢٩٨/١ - البحر المحيط (أبو حيان) ٢٦٩/٢ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٢/٦

(٢) الألويسي، روح المعاني ١٦٨/٢

(٣) ابن منظور، لسان العرب، مادة (توب) ٦٢/٢، ومادة (تبت) ١٢/٢

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٣/٢

(٥) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٢/٦

أي وقار وثبات (١) .

• معنى (سكينة): اختلف المفسرون في السكينة ههنا اختلافاً كبيراً ودخل على هذه الأقوال شيء من الإسرائيليات والخيالات، والأقوال بشكل عام على قسمين: -

القسم الأول: أن المراد بـ (السكينة) أمر معنوي:

أ - (السكينة): ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليه، وهذا القول مروى عن عطاء بن أبي رباح حيث قال: السكينة ما يعرفون من الآيات يسكنون إليها (٢) ، وكذا قال الحسن البصري (٣) وقال أبو بكر الأصبم: ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ أي تسكنون عند مجيئه وتقرون له بالملك، وتزول نفرتكم عنه، لأنه متى جاءهم التابوت من السماء وشاهدوا تلك الحالة فلا بد وأن تسكن قلوبهم إليه وتزول نفرتكم بالكلية (٤) .

ب - السكينة: الرحمة، وهو مروى عن الربيع بن أنس .

ج - السكينة: الوقار، وهو مروى عن قتادة .

د - السكينة: الطمأنينة، أي طمأنينة من ربكم ففي أي مكان كان التابوت أطمأنوا إليه وسكنوا . وهو منقول عن قتادة والكلبي (٥) .

القسم الثاني: أن المراد بالسكينة أمر حسي: -

أ - السكينة: روح من الله . قال بكار بن عبد الله سألنا وهب بن منبه فقلنا له: ما السكينة؟ قال: روح من الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء تكلم فأخبرهم ببيان ما يريدون.

ب - السكينة: ريح هفافة (٦) لها وجه كوجه الإنسان . وهو مروى عن علي بن أبي

طالب رضي الله عنه بطرق متعددة، وذكرها الإمام الطبري في تفسيره، والنقل فيها صحيح إليه .

ج - إن السكينة لها رأس كراس الهرة وجناحان، وهو قول ثابت عن مجاهد من طرق

أيضاً، وروى عنه أيضاً: أن لعينيه شعاع، فإذا نظر إلى الجيش انهزم (٧)!

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٩

(٢) الطبري، جامع البيان ١/٦٢٦

(٣) ابن كثير، التفسير ١/٣٢٣

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٦/١٩٣

(٥) أي متواصلة

(٦) البغوي، معالم التنزيل ١/٢٩٩ - ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، جمعه: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي

، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١/٤١١

(٧) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٢/١٠٥٧

- ويشبه هذا القول قول وهب بن منبه عن بعض أهل العلم من بني إسرائيل، قال: السكينة رأس هرة ميتة، كانت إذا صرخت في التابوت بصراخ هر، أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح^(١)!

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي صورة من زبرجد أو ياقوت لها رأس كراس الهر، وذنب كذنبه، فإذا صاحت كصياح الهر ذهب التابوت نحو العدو وهم يمضون معه، فإذا وقف وقفوا ونزل النصر^(٢).

وقال مقاتل: السكينة كانت دابة ورأسها كراس الهرة ولها جناحان فإذا صوتت عرفوا أن النصر لهم.

ويقال: كانت جوهرًا أحمر يسمع منه الصوت^(٣).

• وكل هذه الأقوال تدور حول هذا الكائن الغريب!

د - السكينة: طست من ذهب من الجنة، كان يُغسل فيه قلوب الأنبياء. وهو قول مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما من طريق السدي^(٤)، عن أبي مالك.

هـ - السكينة: بشارات من كتب الله تعالى أنزلها على موسى وهارون ومن بعدهما من الأنبياء عليهم السلام، بأن الله ينصر طالوت وجنوده، ويزيل خوف العدو عنهم. وهو قول مروى عن أبي مسلم^(٥).

* واحتج القائلون بأنه أمر حسي حاصل داخل التابوت بأمرين:

(١) الطبري، جامع البيان ٢٤٨/١ - ٢٤٩

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٣/٦

(٣) السمرقندي، بحر العلوم ٢١٩/١

(٤) السدي: هنا هو السدي الكبير، إسماعيل بن عبد الرحمن، وروايته مقبولة عن المحدثين، قال عنه ابن حجر في (التقريب): صدوق يهيم. وليس هو السدي الصغير المتهم بالكذب. (انظر: الاتقان في علوم القرآن [السيوطي] ١٨٨/٢)

(٥) انظر الأقوال في: - الطبري، جامع البيان ٦٢٤-٦٢٧ - ابن كثير، التفسير ٣٢٣/١ - السمرقندي، بحر العلوم ٢١٩/١ - الألوسي، روح المعاني ١٦٩/٢ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٧/٢ - البغوي، معالم التنزيل ٢٩٩/١ - الزمخشري، الكشاف ٢٨٩/١ - ابن القيم، بدائع التفسير ٤١١/١ - ابن الجوزي، زاد المسير ٢٤٤/١ - تفسير الفخر (الرازي) ١٩٢/٦ - ١٩٣ - الخازن ٢٥٦/١ - ابن كثير، البداية والنهاية ٧/٢ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٥٠ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك ٢٧٤/١ - ٢٧٧/١ - الشوكاني، فتح القدير ٢٩٤/١

الأول: بالحرف (في) في قوله ﴿ فيه سكينه ﴾ فإنها للظرفية، فدل ذلك على وجود شيء ما في داخل الثابت .

الثاني: أنه عطف عليه (وبقية مما ترك) فكما أن البقية أمر محسوس وملمس، فكذلك السكينة .

- والجواب عن ذلك: أن الحرف (في) قد يأتي أيضاً للسببية كما يأتي للظرفية ، وهو هنا بمعنى السببية: أي بسببه تحصل السكينة ^(١) ، كما لا يلزم لغة أن يعطف الحسي على الحسي، فقد تقول: جئتك بصندوق فيه هدية ومحبة . فتعطف المعنوي على الحسي .

- والراجع من ذلك كله، بعد أن ذكرنا كثرة المرويات في معنى (السكينة)، ومنها ما لا يدل عليه نقل صحيح ولا يقبله عقل، والتعارض بينها ظاهر ولا يمكن الجمع بينها، ^(٢) خصوصاً فيما ذكر من الأمور الحسية، حتى قال الإمام الشوكاني: ((هذه التفسير المتناقضة لعلها وصلت إلى هؤلاء الأعلام من جهة اليهود أقماهم الله، فجاءوا بهذه الأمور لقصة التلاعب بالمسلمين رضي الله عنهم والتشكيك عليهم، وانظر إلى جعلهم لها تارة حيواناً وتارة جماداً وتارة شيء لا يعقل ... وهكذا كل منقول عن بني إسرائيل يتناقض ويشتمل على ما لا يعقل في الغالب، ولا يصح أن يكون مثل هذه التفسير المتناقضة مروياً عن النبي ﷺ ... إذا تقرر ذلك هذا عرفت أن الواجب الرجوع في مثل ذلك إلى معنى (السكينة) لغة، وهو معروف، ولا حاجة إلى ركوب هذه الأمور المتعسفة المتناقضة فقد جعل الله عنها سعة، ولو ثبت لنا في السكينة تفسير عن النبي ﷺ لوجب علينا المصير إليه والقول به، ولكنه لم يثبت من وجه صحيح)) ^(٣) .

لكننا نستطيع الاستفادة مما ورد في صحيح مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان

(١) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ١٩٣/٦

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤٨٤/٢ ، إلا أن الإمام (الطبري) و (الخازن) لهما رأي آخر بأنه يمكن الجمع ، حيث قال الطبري ((وإذا كان معنى السكينة ما وصفت - أي ترجيحه أنها ما تسكن إليه النفوس - فجائز أن يكون ذلك على ما قاله علي بن أبي طالب .. وجائز أن يكون ذلك على ما قاله مجاهد .. وجائز أن يكون ما قاله وهب بن منبه وما قاله السدي، لأن كل ذلك آيات كافيات تسكن إليهن النفوس)) [الطبري ، جامع البيان ٦٢٧/١] أما الخازن فقال : ((فيحمل على جميع ما قيل فيه، لأن كل شيء يسكن إليه القلب فهو سكينه ، ولم يرد فيه نص صريح ، فلا يجوز تصويب قول وتضعيف آخر)) [الخازن ٢٥٦/١] وقولهم مقبول في الأمور المعنوية ، لكن التفسيرات المحسوسة كيف نقول بما جميعاً !

(٣) فتح القدير ٢٩٤/١

رجل يقرأ سورة (الكهف) وعنده فرس مربوط بشطينين ^(١) فتغشته سبحانه فجعلت تدور وتدنو وجعل فرسه ينفر منها، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: {تلك السكينة تنزلت للقرآن} ^(٢)، وفي حديث أبي سعيد الخدري: أن أسيد بن الحضير رضي الله عنه بينما هو يقرأ في مربهه ^(٣)... الحديث، وفيه فقال رسول الله ﷺ: {تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصاحت يراها الناس ما تستر منهم} أخرجه مسلم ^(٤).

فأخبر عن نزول السكينة مرة وعن نزول الملائكة مرة ^(٥)، ودل حديث أسيد على أن نزول السكينة في حديث عمران هو على حذف مضاف، أي: تلك أصحاب السكينة وهم الملائكة المخبر عنهم في حديث أسيد، وجعلوا ذوي السكينة لأن إيمانهم في غاية الطمأنينة، وطواعيتهم دائمة لا يعصون الله ما أمرهم ^(٦).

وقد جاء في الصحيح: { ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده ^(٧) }، فتزول السكينة عليهم كناية عن التباسهم بطمأنينة الإيمان، واستقرار ذلك في قلوبهم، لأن من تلا كتاب الله وتدارسه يحصل له بالتدبر في معانيه والتفكر في أساليبه ما يطمئن إليه قلبه، وتستقر له نفسه، وكأنه كان قبل التلاوة له والدراسة خالياً من ذلك، فحين تلا نزل ذلك عليه ^(٨)، فدلّت هذه الأحاديث بمجمليها على أن (السكينة) التي كان يعرفها العرب هو ما أشرنا إليه سابقاً في أقوالهم بالتفسير بالأمر المعنوية - وليست الحسيه -، وكل الأقوال المعنوية المذكورة صحيحة وهي من اختلاف التنوع في التعبير بالمعنى المتقارب .

(١) شطينين : تشية شطن ، وهو الجبل الطويل المضطرب ، وقد ربط بشطينين لقوته وشدته .

(٢) رواه البخاري ، باب فضل سورة الكهف ٤١٥/١٥ برقم ٤٦٢٥ ، ومسلم، باب نزول السكينة لقراءة القرآن ٢١٣/٤ برقم (٧٩٥) ، والترمذي،باب ما جاء في فضل سورة الكهف ١١٨/١٠ برقم (٢٨٨٧) .

(٣) الموضوع الذي يبس فيه التمر .

(٤) رواه مسلم برقم [٧٩٦] ، ورواه أحمد [٨١/٣]

(٥) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٧/٢

(٦) استدلل (ابن عاشور) على أن من أسماء الملائكة (السكينة) ، مستدلاً بمجدين الحديثين [التحرير والتنوير ٤٩٧/٢] ، وهو استدلال بعيد .

(٧) جزء من حديث طويل رواه مسلم، باب فضل الاجتماع على قراءة القرآن ٢١٢/١٣ برقم ٤٨٦٧، ورواه أبو داود،باب في ثواب قراءة القرآن ٢٤٨/٤ برقم ١٢٤٣

(٨) أبو حيان،البحر المحيط ٢٧١/٢ .

-القراءة في (سكينه) : القراءة المشهورة والمعروفة هي القراءة بكسر الكاف وتخفيفها، وقد جاء في قراءة عن أبي السماك (سكينه) بتشديد الكاف (١) .
-إعراب الجملة: الجملة في موضع الحال، أي: كائناً فيه سكينه.
(من) هنا إما تكون:

أ / لا ابتداءً الغاية، أي: كائنة من ربكم .

ب / ويحتمل أن تكون للتبعيض، على تقدير حذف مضاف، أي: من سكينات ربكم (٢) .

- لماذا أضاف (من ربكم) ؟: فيه زيادة مدح للتأبوت، حيث أنه جاء من قبل الله، واستخدم تعبير (الرب) ليشعرهم بأنه الذي طال إحسانه إليهم وتربيته باللفظ لهم (٣) .
لهم (٣) .

** ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ : -

- معنى (البقية) : أصل كلمة (بقية) في الأصل: (فضلة جملة ذهب جلّها) (٤) ، وهو بمعنى: ما يفضل من شيء بعد إنقضاء معظمه (٥) ، وبقية: الشيء الباقي، على وزن (فعيلة) (٦) .

وقد اختلف المفسرون في المقصود بـ (البقية) ههنا على أقوال متعددة ... ومعظم هذه الأقوال تدور حول بعض الآثار التي تركها موسى وهارون عليهما السلام، واختلفوا في عدد الآثار التي تركوها داخل التابوت حتى قال (البغوي) و (أبو حيان) أن كل ما ذكر من هذه الآثار قد تركوه بالفعل داخل هذا التابوت ! (٧) ، وهذا بعيد، وسأستعرض كل أثر من الآثار ومن قال به على النحو الآتي: -

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧١

(٢) الألوسي، روح المعاني ٢/١٦٩ - أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧١

(٣) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٣/٤٢١

(٤) نفس المرجع ٣/٤٢٢

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/٤٩٣

(٦) الطبري، جامع البيان ٢/٦٢٧، ومن الطوائف أن الإمام أبا هلال العسكري له معجم أسماء (المعجم في بقية

الأشياء) استعرض فيه كل الألفاظ العربية في الباقي من كل شيء !

(٧) البغوي، معالم التنزيل ١/٢٩٩ - أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧١

- ١ - عصا موسى: قال به ابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والسّدي، ووهب بن منبه، وأبو صالح، ومقاتل بن سليمان، وعطية بن سعد.
- ٢ - عصا هارون: قال به أبو صالح، وعطية بن سعد.
- ٣ - رضاض الألواح: قال به ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والسّدي، وعكرمة، وأبو صالح، ومقاتل بن سليمان، وسفيان الثوري، وعطية بن سعد. وقصدوا بالرضاض الألواح المتكسرة، قال ابن عباس: كان موسى حين ألقى الألواح تكسرت ورفع منها، فجعل الباقي في ذلك التابوت (١).
- ٤ - النعلان: قال به سفيان الثوري.
- ٥ - ثياب موسى: قال به أبو صالح، وعطية بن سعد.
- ٦ - ثياب هارون: قال به أبو صالح، وعطية بن سعد. والمقصود الثياب التي ألبسها موسى أخاه هارون (٢).
- ٧ - قفيز من من: قال به الثوري، وأبو صالح، ومقاتل بن سليمان.
- ٨ - ألواح التوراة من صخر: ذكرها المؤرخ (ابن خلدون)، وذكر أنها كانت بديلاً عن التي تكسرت (٣).
- ٩ - التوراة: قال به مجاهد، وعطاء بن أبي رباح.
- ١٠ - عمامة موسى: قال به مقاتل بن سليمان.

- وذهب بعض المفسرين إلى أنه ليس أثراً محسوساً وإنما هو معنوي:

- أ - فمن قائل أنها كلمة الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكريم، وسبحان الله رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين (٤).
- ب - ومن قائل: أنه الجهاد في سبيل الله وقتال الأعداء، قال به الضحاك. ((قال ابن عطية: أي الأمر بذلك في التابوت، إما أنه مكتوب فيه، وإما نفس الإتيان به هو كالأمر

(١) الطبري، جامع البيان ٢٤٨/٢

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٤/٢

(٣) ابن خلدون ١١١/٢

(٤) الألويسي، روح المعاني ١٦٩/٢

بذلك))^(١) .

- الترجيح: وبعبكس ما رجحنه في (السكينة) إذ رجحنه الأمر المعنوي، لكننا هنا نميل إلى أنها أثر محسوس وليس أمراً معنوياً، وكل ذلك بحسب ما يتبادر للذهن من المعنى اللغوي المعروف عند العرب . فالبقية هنا لاشك أنها شيء نفيس من الأشياء، لأن الناس إنما يحافظون على النفائس فتبقى، كما قال النابغة:

بقية قدر من قدور تُورثت لآل الجلاح كابرأ بعد كابر^(٢)

ولكننا لا نعلم تحديداً ما هي (البقية)، وليس في ذلك نصّ قاطع يرجع إليه، ولذلك قال الإمام الطبري: ((وجائز أن تكون تلك البقية: العصا، وكسّر الألواح، والتوراة، أو بعضها، والنعلين، والثياب .. وجائز أن تكون بعض ذلك . وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم . ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا . وإذا كان كذلك، فغير جائز تصويب قول وتضعيف آخر غيره، إذ كان جائزاً فيه ما قلنا من القول))^(٣) .

ولكن غالب الظن أن هذه (البقية) هي فعلاً (جزء من التوراة) سواء كانت رضاض الألواح أو نحوها ويدلّ على ذلك أمران: -

١- أن ذلك موافق لما ورد في (العهد القديم)، وذلك حينما فتح سليمان عليه السلام التابوت فلم يجد فيه سوى اللوحان المكتوبان في (حوريب) . ولم يجد التوراة كاملة كما كان يظن _ بحسب الرواية _ [الملوك الأول: ٦] .

٢- أن الأنبياء عليهم السلام أعظم موروثاتهم العلم { إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم }^٤، كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام .

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٨/٢ وانظر تفصيلات الأقوال في : الطبري ، جامع البيان ٦٢٧-٦٢٤/٢

- ابن كثير ، التفسير ٣٢٣/١ - الألوسي ، روح المعاني ١٦٩/٢ - السمرقندي ، بحر العلوم ٢١٩/١

- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٨ - أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧١/٢ - البغوي ، معالم التنزيل

٢٩٩/١ - تفهيم القرآن (المودودي) ص ١٦٢ - ابن الجوزي ، زاد المسير ٢٤٤/١ - الطبري ، تاريخ

الأمم والملوك ٢٧٧/١ - ابن كثير ، البداية والنهاية ٧/٢

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٩٤/٢

(٣) الطبري ، جامع البيان ٦٢٩/٢

(٤) رواه أحمد ١٩٢/٤٤ برقم ٢٠٧٢٣، ورواه أبو داود ، باب الحث على طلب العلم ٤٩/١٠ برقم ٣١٥٧، وصححه الألباني

في صحيح سنن أبي داود ١٤١/٨

٣- أن التعبير بـ (البقية) تعبير دقيق، بأنها التوراة ولكنها ليست كاملة (ونرجح ضياع الكتاب حين كان بديار الأعداء) (١).

- معنى (مما ترك): مأخوذ من (التَّرك): وهو أن لا يعرض للأمر حساً أو معنى (٢).
- إعراب (مما ترك): أصل الكلمة (من ما ترك) من: تبعيضه . ما: الموصولة، أو مصدرية . والجملة في موضع الصفة لـ (البقية) (٣).
- أصل كلمة (آل): اختلف في اشتقاقها على ثلاثة آراء: -

١- أن أصلها من كلمة (أهل) ثم قلبت الهاء همزة فقييل (آل) ثم سهلت على قياس أمثالها فقييل: (آل)، بدليل تصغيره على (أهيل) .

٢- أن أصلها من: (آل يؤول) إذا رجع قال الرجل هم الذين يرجعون إليه ويضافون، ويؤولهم أي يسوسهم فيكون مآلمهم إليه، بدليل أن العرب التزموا إضافته فلا يستعمل مفرداً إلا نادراً كقول الشاعر:

نحن آل الله في بلدتنا
لم نزل آلاً على عهد إرم (٤)

٣- الآل: أصل معناه السراب، الذي تبدو فيه الأشياء البعيدة كأنه مرآة تجلو الأشياء، قال الرجل من إذا حضروا فكأنه لم يغب (٥).

- وقد انتصر (ابن منظور) للرأي الأول وأجاب عن الأقوال الأخرى بكلام يطول ذكره (٦)، وفي القاموس: آل، وأهله وأتباعه وأولياؤه، ولا يستعمل إلا فيما فيه شرف غالباً، فلا فيقال: آل الإسكاف^٧، كما يقال أهله (٨).

• المقصود بـ (آل) هنا: ذكر المفسرون في ذلك أربعة أقوال:

الأول: أن المقصود بهم الأنبياء الذين كانوا من بعدهم، سواء كانوا ينتمون لهم بقراية أو بشرعية، فإنهم كانوا يتوارثون آثارهم .

(١) البهي الخولي، بنو إسرائيل في ميزان القرآن، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، دمشق، دار القلم، ص ١٩٣

(٢) البقاعي، نظم الدرر ٤٢٢/٣

(٣) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧١/٢

(٤) السفاريني، محمد الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، دار الاتحاد العربي ٢٥/١

(٥) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٤٢٣/٣

(٦) لسان العرب، مادة (أهل) ٢٥٤/١ - مادة (أول) ٢٦٨/١

(٧) الاسكافي: مصلح الأحذية

(٨) السفاريني، غذاء الألباب ٢٥/١

الثاني: أن (آل) هنا مفخمه وزائدة لتفخيم شأن موسى وهارون، فكأن الآية: مما ترك موسى وهارون، بأنفسهما^(١)، ومن ذلك قول النبي ﷺ { لقد أوتي هذا زميراً من مزامير آل داوود }^(٢)، أي من مزامير داوود . ومن قول جميل:

بشينة من آل النساء وإنما يكن لأدنى لا وصال لغائب
أي: من النساء .

الثالث: الآل هم (الأتباع)^(٣)، قال القفال: ((إنما أضيف ذلك إلى آل موسى وآل هارون، لأن ذلك الثابت قد تداولته القرون بعدهما إلى وقت طلوت، وما في الثابت أشياء تورثها العلماء من أتباع موسى وهارون، فيكون الآل هم الأتباع))^(٤) .

الرابع: أنهم أبناء هارون، فإنهم عصبه موسى، لأن موسى ﷺ لم يترك أولاداً^(٥) .

● والصحيح - إن شاء الله - هو القول الثاني، ولكننا لا نقول بأن (آل) زائدة، وإنما هي هنا بمعنى (نفس) أو (شخص) . قال أبو حيان: ((دعوى الإقحام والزيادة في الأسماء لا يذهب إليه نحوي محقق ... فإنه يطلق على شخص الرجل آله، فكأنه قيل: مما ترك موسى وهارون أنفسهما ... فجرى (آل) هنا مجرى التوكيد الذي يراد به أن المتروك من ذلك الخير هو منسوب لذات موسى وهارون، فيكون في التنصيص عليهما بذاتهما تفخيم لثأتهما))^(٦) .

● من لطائف إعادة كلمة (آل): ((قال الحرالي: وفي إشعار تشبية ذكر الآل ما يعلم باختصاص موسى ﷺ بوصف دون هارون ﷺ، بما كان فيه من الشدة في أمر الله، وباختصاص هارون ﷺ بما كان فيه من اللين والاحتمال))^(٧) .

● من هو (هارون) ؟: هو أخو موسى عليهما السلام، وهو هارون بن عمران من

(١) الزمخشري، الكشاف ٢٨٩/١

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة ٤٧٠/١٥ برقم ٤٤٦٠

(٣) الألوسي، روح المعاني ١٦٩/٢

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٣/٦

(٥) وللزيد من معرفة الأقوال انظر: - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٨/٢ - البغوي، معالم التنزيل

٢٩٩/١ - الكشاف الزمخشري ٢٨٩/١ .

(٦) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٢/٢

(٧) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٤٢٣/٣

سبط لاوي، وهو أكبر من موسى، ولما كلم الله موسى بالرسالة أعلمه بأنه سيشرك معه أخاه هارون فيكون كالوزير له (١).

• واسم هارون اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة (٢). ((وقيل هو معرب [أرون] . والأرن النشاط، سمي به لنشاطه بالطاعة، ثم قيل: هارون)) (٣).
والصحيح أنه ((لا اشتقاق له في العربية)) (٤).

** ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾:

• معنى (الحمل): في اللغة: هو ما استقلَّ به الناقل (٥). وهل هو حقيقي هنا أو مجازي؟ ذهب إلى القولين طائفة من المفسرين: -

أ- فمنهم من رأى أن (الحمل) مجازي، وأن الحمل هنا بمعنى الترحيل، كما في قوله تعالى ﴿ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٩٢] لأن الراحلة هي التي تحمل راكبها، وقال النابغة: يخال به راعي الحمولة طائراً، ومثله أن تقول: حمل زيد متاعي إلى مكة .
وعلى هذا يصبح معنى حمل التابوت هو تسييرهم بإذن الله البقرتين السائرتين بالعجلة التي عليها التابوت إلى محلة بني إسرائيل، من غير أن يسبق لهما إلف بالسير إلى تلك الجهة، وهذا هو الموجود في (العهد القديم) (٦)، وهو الذي جاء في (الإسرائيليات) .

ب - أن الحمل هنا على الحقيقة: وهذا هو الأقرب، وذلك لأمر: -

١ - إن المعنى الحقيقي لا يصرف للمعنى المجازي إلا بدليل قوي صارف، ولا دليل هنا سوى مرويات اليهود، التي لا تصدق ولا تكذب، وقد ناقضت هنا صريح القرآن بحمل الملائكة، فلا نصدقها . قال ابن جرير الطبري ((الحمل المعروف: هو مباشرة الحامل بنفسه حمل ما حمل، فأما ما حملة على غيره، وإن كان جائزاً في اللغة ... فليس سبيله

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٤/٢

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٩/٢

(٣) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التمييز ٦٧/٦

(٤) ابن منظور، لسان العرب ١٥/١٣، مادة: هـ - رن

(٥) البقاعي، نظم الدرر (البقاعي) ٤٢٤/٣

(٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٠٥/٢ .

للتوسع انظر: - السمرقندي ٢١٩/١ - الألويسي، روح المعاني ١٦٩/٢ - ابن كثير، البداية والنهاية ٧/٢

- الطبري، تاريخ الأمم والملوك ٢٧٧/١

سبيل ما باشر حملة بنفسه، في تعارف الناس إياه بينهم . وتوجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من اللغات، أولى من توجيهه إلى الأنكر، ما وجد إلى ذلك سبيل)) (١) .

٢ - إن الملائكة قد أعدوا أصلاً للأمور العظام ((ولهم القوة والتمكين والإطلاع بإقدار الله لهم على ذلك، ألا ترى إلى تلقيهم الكتب الإلهية، وتزيلهم بها على من أوحى إليهم، وقلوبهم مدائن العصاة، وقبض الأرواح، وإزجاء السحاب، وحمل العرش، وغير ذلك من الأمور الخارقة)) (٢) .

٣ - إن المقصود بحمل التابوت هنا أن يكون معجزة وخارقة تبهر العقول ﴿ إن آية ملكه ﴾ فأيهما أكثر إعجازاً أن يأتي التابوت فوق بقرتين؟! أو أن يأتي محمولاً من قبل الملائكة والناس ينظرون إلى التابوت ولا يرون الملائكة.

لا شك أن الثاني أعظم، خصوصاً إذا علمنا أن بني إسرائيل - بعد الاستقراء - قد جاءتهم أعظم المعجزات مما هو أكبر من ذلك. ((قال ابن عباس: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض وهم ينظرون إليه، حتى وضعت عند طالوت)) (٣) .

• إعراب جملة (تحمله الملائكة): هذه الجملة حال من التابوت، أي: حاملاً له الملائكة .

ويحتمل الاستئناف كأنه قيل: ومن يأتي به وقد فقد؟ فقال: تحمله الملائكة، استعظماً لشأن هذه الآية العظيمة (٤) .

• القراءة في (تحمله): جاء في قراءة مخالفة لقراءة الجمهور ورويت عن مجاهد (يحملة) بالياء (٥) .

**** ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾**

- ختام الآية هل هو من كلام النبي أم تعقيب وخطاب للصحابة من الله سبحانه؟: يحتمل أن يكون هذا تنمة كلام نبي بني إسرائيل لهم، أي أن مجيء هذا التابوت علامة أو

(١) الطبري، جامع البيان ٦٣٠/٢

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٢/٢

(٣) البحر المحيط (أبو حيان) ٢٧٢/٢ - الطبري، جامع البيان ٦٢٩/٢

(٤) الألوسي، روح المعاني ١٦٩/٢

(٥) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٢/٢

حجة لكم تدل على عناية الله بكم، واصطفاه لكم هذا الملك الذي ينهض بشئونكم وينكل بأعدائكم، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تفرقوا عنه .

ويحتمل أن يكون استئناف في كلام منه تعالى لهذه الأمة معناه: أن فيما أوحاه الله تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام من هذه القصة آية بينة على نبوته إذ لولا الوحي لما كان يعرفها، وهو الأمي الذي لم يقرأ ولم يتعلم شيئاً، ولا كان يعرف ما انطوت عليه من العبرة والفائدة، ولا سيما ما يعتبر في الملوك من الصفات التي تؤهلهم للقيام بأعباء السياسة وأعمال الرياسة^(١) .

● الإشارة في (ذلك) لمن ؟: الإشارة ليست للتابوت أو لإتيانه فقط^(٢)، ولكنها ((لجميع الحالة، أي: في رجوع التابوت من يد أعدائكم إليكم بدون قتال، وفيما يشتمل عليه التابوت من آثار موسى عليه السلام، وفي مجيئه من غير سائق، ولا إلف سابق))^(٣) .

● شبهة (إن) الشرطية: قد يتبادر للذهن بقوله (إن كنتم مؤمنين) التشكيك في إيمانهم، فهل هذا على وجهه ؟:

أ - رأى بعض المفسرين أنها على حالها وحقيقتها وذلك لأنه قيل أن هؤلاء من بني إسرائيل قد صاروا كفرة بإنكارهم على نبيهم، والصحيح أنهم سألوا تعرفاً لوجه الحكمة، والسؤال عن الكيفية لا يكون إنكاراً بالكلية .

ب - والأرجح أن المراد بها ليس حقيقة الشرطية^(٤)، وبالإمكان أن يقال أن معناها: إن كنتم مصدقين أن الله جعل لكم طالوت ملكاً .
أو تكون (إن) هنا بمعنى (إذ)^(٥) .

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤٨٥/٢ ، وانظر : الألوسي ، روح المعاني ٢ / ١٦٩

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط ٢ / ٢٧٢

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٢ / ٤٩٥

(٤) الألوسي ، روح المعاني ٢ / ١٦٩

(٥) أبو حيان ، البحر المحيط ٢ / ٢٧٢

المطلب الرابع: دراسة الآية الرابعة

{ الإمتحان الرهيب }

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩]

** ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾

● تقدير محذوف: السياق القرآني على طريقته في سياق القصص يترك هنا فجوة بين المشهدين .. (١) ، وهذا الكلام المحذوف قد استغني بدلالة ما ذكر عليه من ذكره . ومعنى الكلام: " إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين " فأتاهم التابوت فيه سكينه من ربهم ... فصَدَّقُوا عند ذلك نبينهم وأقروا بأن الله قد بعث طالوت ملكاً عليهم، وأذعنوا له بذلك .

يدل على ذلك قوله " فلما فصل طالوت بالجنود " وما كان ليفصل بهم إلا بعد رضاهم وتسليمهم الملك له، لأنه لم يكن ممن يقدر على إكراههم على ذلك، فيظن به أنه حملهم على ذلك كرهاً (٢)، ثم أنه جند الجنود واستعد للحرب ... فلما فصل طالوت (٣).

● أصل كلمة (فَصَلَ): أصل الفصل: القطع، يقال منه: (فصل الرجل من موضع كذا وكذا)، يعني به قطع ذلك فجأوزه شاخصاً إلى غيره، (يفصل فصولاً) و (فصل العظم والقول من غيره فهو يفصله فصلاً) إذا قطعه فأبانه، و (فصل الصبي فصلاً) إذا قطعه عن اللبن .

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن ٢٦٨/١

(٢) الطبري، جامع البيان ٦٣١/١

(٣) انظر: أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٢/٢ - البقاعي، نظم الدرر ٤٢٦/٣ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٤/٦

- ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٥/٢ .

و (قول فصل) يقطع فيفرق بين الحق والباطل لا يرد .
وأصل الفعل (فَصَلَ) متعدي، فتقول: فصل جنده، ولكنه كثر حذف المفعول للعلم
به، فصار يستعمل استعمال اللازم (١) .

- والمعنى: خرج بهم طالوت، وإنما استخدم لفظة (فصل) للدلالة على أمرين: -
١ - أن خروج أغلب الجند كان على مضض وتردد، فقطع بهم طالوت وحسم
إخراجهم.

٢- إن فيه معنى (الإبانة) وذلك أنهم قد ابتعدوا عن الديار وفاقوا الأهل وأصبحوا
على مسافة بعيدة .

- إعراب الباء في (بالجنود): الباء للحال، أي: والجنود مصاحبوه (٢) .
- أصل كلمة (الجنود): جمع (جُنْد) بضم الجيم، واشتقاقه من (الجُنْد) وهو الغليظ
من الأرض ذات الحجارة، إذ بعضهم يعتصم ببعض (٣) ، ثم قيل لكل مجتمع قوي
جند (٤)، وكل صنف من الخلق جند على حدة، يقال للجراد الكثيرة مثلاً إنها جنود
الله (٥). والمقصود هنا الأتباع الذين يكونون للنجدة (٦) .

** ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ :-

● الضمير في (قال) راجع لمن ؟: اختلفوا في هذا القائل من كان ؟:
أ/ فقال الأكثرون: أنه هو طالوت، وهذا هو الأظهر، لأنه أقرب مذكور في
الآية.

ب/ وقيل أن القائل هو النبي في أول القصّة، وهذا بعيد (٧).

-
- (١) انظر: الطبري، جامع البيان ٦١٣/٢ - البغوي، معالم التنزيل ٣٠١/١ - ابن عاشور، التحرير
والتنوير ٤٩٥/٢ - البقاعي، نظم الدرر ٤٢٦/٣ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٨/٢ -
أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٢/٢ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٤/٦ - الزمخشري، الكشاف ٢٩٠/١
- (٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٣/٢
- (٣) نفس المصدر ٢٦٩/٢
- (٤) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤٨٦/٢
- (٥) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٤/٦
- (٦) البقاعي، نظم الدرر ٤٢٦/٣
- (٧) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٤/٦ - ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٦/٢

- وإنما لجأ بعضهم إلى القول بأنه النبي لما استشكل كيف أن طالوت ينقل عن الله (إن الله مبتليكم ...) وهو ليس بنبي؟: والجواب عن ذلك بأحد أمور أربعة:

١ - إما أن يكون قد أخبره النبي قبل خروجه .

٢ - أو أن النبي خرج معهم وأخبرهم بذلك، والذي يظهر أنه لم يخرج معهم، وإلا كان سيتكلم حين نكل الجيش .

٣ - أن الله تعالى ألهم طالوت ذلك (١) .

٤ - وهو الذي أميل إليه: أن طالوت قد علم من سنن الله الكونية أنه لا نصر إلا بابتلاء، وأن ما سيتخذه من قرار إنما هو وفق هذه السنن . والله أعلم، وهو قريب من معنى الإلهام .

- معنى (مبتليكم): أي مختبركم، من الابتلاء . وفيه لغتان: بلا يبلو، وابتلى يبتلي، قال الشاعر:

ولقد بلوتك وابتليت خليفتي ولقد كفاك مودتي بتأدب

فجاء باللغتين (٢) .

- (نَهْر) : النَّهْرُ والنَّهْرُ لغتان، واشتقاقه من السعة ، ومنه سمي (النهار) (٣)، وكل ثلاثي حشوه حرف من حروف الحلق فإنه يجيء على هذين اللغتين بالإسكان والفتح، كقولك: صَخْرٌ و صَخَرٌ، و شَعْرٌ و شَعَرَ، و بَحْرٌ و بَحَرَ (٤) .

- القراءة في (نَهْر) : قرأ الجمهور بفتح الهاء (نَهْر)، وقرأ مجاهد وحמיד الأعرج وأبو السماك بإسكان الهاء (نَهْر) في جميع القرآن (٥) .

** ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾

● الهاء في قوله " شرب منه " و " من لم يطعمه " عائدة على النهر، والمعنى لمائه،

(١) انظر: الألو سي، روح المعاني ١٧٠/٢ - السمرقندي، بحر العلوم ٢١٩/١ - ابن كثير، البداية والنهاية ٨/٢

- أبو حيان ٢٧٣/٢ - الزمخشري ٢٩٠/١ - ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٦/٢ .

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٥/٦

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٩/٢

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٥/٦ - ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٧/٢

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٥٩/٢ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٣/٢

وإنما ترك ذكر (الماء) اكتفاء بفهم السامع، وأن المراد الماء الذي في النهر (١) .

● معنى (فليس مني) : أي: ليس من أصحابي في هذه الحرب، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان، فقد كان فيهم المؤمن والمنافق والمجد والكسلان .

وفي الحديث { من غشنا فليس منا }^٢، أي ليس من أصحابنا ولا على طريقنا وهدينا، قال النابغة الذبياني:

إذا حاولت في أسد فجوراً فإني لست منك ولست مني

وهذا مهيع في كلام العرب، يقول الرجل لابنه إذا سلك غير أسلوبه: لست مني (٣)

● نوع (من) : سماها بعض النحاة بـ (من) الإتصالية، وهي غير التبعية لأن معناها: ليس متصلاً بي ولا علاقة بيني وبينه (٤) .

** ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ :

● معنى (يطعمه) : جمهور المفسرين على أن (الطعم) هنا بمعنى الذوق . فقوله: (من لم يطعمه) أي لم يذقه، سواء كان الذي ذاقه مأكولاً أو مشروباً، واستعمال (طعم الماء) بمعنى: ذاقه، مستفيض لا يعاب استعماله لدى العرب، ويشهد له قوله:

وإن شئت حرمت النساء سواكم وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً

والنقاخ: هو عذب الماء .

—وأما استعماله بمعنى شربه واتخذه طعاماً فقيح، إلا أن يقتضيه المقام، كما في حديث زمزم: {طعام طعم} ° فإنه تنبيه على أنه مغذي بخلاف سائر المياه.

ولذلك عاب العرب على (خالد بن عبدالله القسري) لما قال على منبر الكوفة وقد خرج عليه (المغيرة بن سعيد): أطعموني ماء . فهجاه العرب وعابوا عليه ذلك، وقيل فيه:

بل المناير من خوف ومن وهل واستطعم - الماء - لما جدّ في الهرب

(١) الطبري ، جامع البيان ٦٣٣/٢

(٢) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب من غشنا ٢٦٥/١ برقم ١٤٦

(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٠/٢ - ابو حيان ٢٧٣/٢

(٤) الألويسي ، روح المعاني ١٦٩/٢ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٩٧/٢ .

(٥) رواه مسلم ، باب فضائل أبي ذر ٢٥٣/١٢ ، برقم ٤٥٢٠

وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق بالخطب^(١)

-وقد ذكر (ابن العربي) وبعض المفسرين جواز إطلاق اسم (الطعام) على الماء، ورتبوا على ذلك أنه ما دام طعاماً فهو قوت يجري فيه الربا، والقول بأن الربا منهي عنه في (الماء) قول منقول عن الشافعي، وهو الصحيح من مذهب مالك^(٢) .

- لماذا لم يقل (ومن لم يشربه ؟) : علل (الفخر الرازي) ذلك بأمرين: -

أ - إن الإنسان إذا كان عطشاً جداً يجد الماء في فمه ألد من الطعام والعسل، فكأنه يقول: حتى ولو وصل بكم الحال في العطش إلى ذلك فإنه يجب الاحتراز منه .

ب - أن من أدخل الماء إلى لسانه فقط وتمضض به ثم أخرجه، يصدق عليه أنه: طعمه وذاقه، ولا يقال: شربه . فلو قال طالوت (ومن لم يشربه) لظن البعض جواز (الطعم)، خصوصاً وأن الممنوع من شرب الماء إذا تمضض به وجد نوع خفة وراحة^(٣)، وذلك مثل الصائم إذا تمضض .. ولكن التكليف هنا أشق، نظراً لأن اليهود غير مأمونين أنه إذا سمح لهم الذوق أن يشربوا .

** ﴿ إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ : -

● الإستثناء ووجهه: في قضية الإستثناء هنا مسائل: -

الأولى: الإستثناء هل يعود إلى الجملة الأولى: ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أو إلى الجملة الثانية ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ ؟ فبينما يرى ابن جرير أن الاستثناء يعود إلى الثانية، يرى جمهور أهل اللغة أن الإستثناء يعود إلى الأولى .

والمعنى عند ابن جرير: ومن لم يطعم ماء ذلك النهر، إلا غرفة يغترفها بيده فإنه مني^(٤) -والاستثناء إذا جاء عقب جملتين أو جملاً فإن الأصل أنه يعود إلى الجميع، ما لم يدل

(١) الألويسي، روح المعاني ١٧٠/٢ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٣/٢ وانظر: - الزمخشري، الكشاف ٢٩٠/١

- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٦/٦ - ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٨/٢ .

(٢) أحكام القرآن (ابن العربي) ٣٠٩/١ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٠/٢ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٣/٢ والصحيح أن الربا لا يجري إلا فيما كان مكيلاً أو موزوناً من الأطعمة .

(٣) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٦/٦

(٤) الطبري، جامع البيان ٦٣٣/٢

دليل على تعلقه بواحدة.. حسب رأي بعض الأصوليين^(١) .

وهنا دلّ الدليل على تعلقها بالجملة الأولى، فيصبح معناها (فمن شرب منه فليس مني إلا من اغترف غرفة بيده) وهذا هو الأقرب^(٢) .

• والصحيح أيضاً أن هذا الاستثناء متصل، إذ أن المقصود بالشرب المنهي عنه كل طرق الشرب، سواء كانت بالكروع أو بغيره لأن بعض المفسرين حصر الشرب المنهي عنه بطريقة (الكَرَع)^(٣)، فقط، وهذا لا يتناسب مع المقصود العام للقرار.

• سبب تأخير الإِستثناء: سبب ذلك أمور منها: -

١- أن جملة (ومن لم يطعمه) إنما هي تنمة للجملة الأولى، والغرض منها تأكيد الجملة الأولى في النهي عن الشرب^(٤)، لأن التأكيد شديد الاتصال بالمؤكد.

٢- ليعلم السمعون أن المغترف غرفة بيده هو كمن لم يشرب شيئاً، وأنه ليس دون من لم يشرب في الولاء والقرب، وليس هو قسماً ثالثاً^(٥) .

• في الاستثناء محذوف تقديره: إلا من اغترف غرفة بيده فشرّبها فإنه مني أيضاً^(٦) .

• معنى (الغرفة): الاعتراف: الأخذ من الشيء باليد أو بآلة ومنه (المغرفة)، والغرف مثل الاعتراف^(٧)، وقيل الغرفة: ملء الكف^(٨) .

- والعجيب أن الإمام أبا حنيفة استدلل بهذه الآية على أن (الشرب) هو (الكَرَع)

(١) في مسألة رجوع الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة أم يعود إلى كل الجمل خلاف أصولي طويل ، حاصلة ثلاثة

أقوال : ١ - الجمهور على أنه يعود على كل الجمل . ٢ - الأحناف قالوا : يعود إلى الأخيرة . ٣ - بعض الأصوليين

كالغزالي والباقلاني والشنقيطي يرون أنه يتوقف فيه وينظر للقرينة ، وهو الصحيح .

انظر : الأمدي ، الأحكام ١٣١/٢ - الغزالي ، المستصفي ١٧٤/٢ - أصول السرخسي ٤٤/٢

- تفسير سورة النور (الشنقيطي) ص ٤٧ ، دار المجتمع ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ -

(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٤/٢ - الألويسي ، روح المعاني ١٧٠/٢ .

(٣) الكرع : تناول الماء بالفم مباشرة من غير استخدام الإناء ولا الكفين . [ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (كَرَع)]

(٤) الألويسي ، روح المعاني ١٧٠/٢

(٥) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٩٧/٢ ، وذكر (الحرّالي) قسماً ثالثاً : من لم يشرب البتة [البقاعي ، نظم الدرر

٤٢٨/٣] وهذا غير صحيح .

(٦) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٤/٢ .

(٧) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦١/٢

(٨) ابن منظور ، لسان العرب ٥٣/١ ، مادة : غ ر ف - الثعلبي ، قصص الأنبياء ، ص ١٥١

فقط، مستدلاً على أنه أجاز (الغرفة) وهي ليست كرعاً ! وهذا غريب، إذ لو كانا مختلفين لما احتاج أصلاً إلى الاستثناء، ولكان الإستثناء منقطعاً، وذلك كمن قال: (لا تشرب من البحر إلا أن تشرب من البئر).

فالقول بانقطاع الاستثناء هنا بعيد، فإن شرب الماء يطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب ^(١) .

وعند (الأحناف) أن من حلف أن لا يشرب من النهر، ثم أخذ من النهر بالكأس وشرب أنه لم يحنث ! ويرجع ذلك - كما أشرنا - إلى أن الشرب عندهم إنما هو (الكرع = مباشرة ماء النهر بالفم) ^(٢) !

● القراءات في (غرفة): جاء في (غرفة) قراءتان مشهورتان: -

أ - (غُرْفَة) بضم الغين: قرأ بها حمزة والكسائي وعاصم .

ب - (غَرَفَة) بفتح الغين: قرأ بها نافع وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وأبو عمرو ^(٣)، وهي قراءة أهل الحجاز والبصرة .

- الفرق بين القراءتين: ذكر علماء التفسير ^(٤) بعض الاختلاف بين اللفظتين على

أقوال: -

الأول: أن (غَرَفَة) بالفتح: هي المرة الواحدة من الغرف، وهو مصدر بمعنى (الاغتراف)

(١) ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبدالله، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - بيروت، دار الكتب العلمية ٣٠٩/١، وقد ردّ عليه (القرطبي) ومال إلى قول الأحناف [القرطبي]، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦١/٢ [ولكن الصحيح هو ما ذكرناه وهو قول الجمهور .

(٢) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٦/٦

(٣) جاء في ترجمة (أبي عمرو بن العلاء) : عن الأصمعي قال : أنشدنا أبو عمرو بن العلاء قال : سمعت أعرابياً ينشد ، وقد كنت خرجت إلى ظاهر البصرة متفرجاً مما نالني من طلب الحجاج واستخفائي منه :

صبر النفس عند كل مسلم

إن في الصبر صيلة المختال

ربما تجزع النفوس من الأمر

له فرجة كحل العقال ...

فقلت : ما وراءك يا أعرابي ؟ فقال : مات الحجاج . فلم أدرِ بأيهما أفرح : بموت الحجاج ، أو بقوله : له فرجة ! لأنني كنت أطلب شاهداً لاختياري القراءة " إلا من اعترف غرّة " ، [تاريخ دمشق ، لابن عساكر ، ١١٥/٦٧ ، تحقيق: علي شيري، دار الفكر] .

(٤) انظر في القراءات ومعانيها : - الطبري ، جامع البيان ٦٣٣/٢ - السمرقندي ، بحر العلوم ٢١٩/١

- البغوي ، معالم التنزيل ٣٠١/١ - الألويسي ، روح المعاني ١٧٠/٢ - البقاعي ، نظم الدرر ٤٢٨/٣

- أبو حيان ، البحر المحيط ٢٦٩/٢ - ٢٧٤/٢ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٩٨/٢ .

و(غُرْفَة) بالضم: اسم للماء وهو المقدار المغروف، فهي (اسم) لما حوته الغرفة.
وذلك مثل (خَطْوَة) و (خُطْوَة) .والصحيح هو هذا .

الثاني: أن (غُرْفَة) بالفتح: بكف واحدة و(غُرْفَة) بالضم بالكفّين .

الثالث: لغتان ومعناهما واحد (١) .

الرابع: (غُرْفَة) بالفتح: مصدر يقع على ما في اليد قليله وكثيره .

(غُرْفَة) بالضم: اسم ملء الكف أو ما اغترف به، وهذا رأي المبرد (٢) .

● للإمام (ابن جرير) في بعض القراءات نظر، فيفضل قراءة على قراءة، وهو هنا يقول: (وأعجب القراءتين في ذلك إليّ: ضمّ العين في (الغُرْفَة) بمعنى: (إلا من اغترف من ماء) ثم ذكر سبب ترجيحه لهذه القراءة (٣)، ولكن الصحيح كما قال (أبو حيان): ((الترجيح بين القراءتين لا ينبغي، لأن هذه القراءات كلها صحيحة، ومروية ثابتة عن رسول الله ﷺ، ولكل منها وجه ظاهر حسن في العربية فلا يمكن فيها ترجيح قراءة على قراءة)) (٤) .

** ﴿ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ : -

- (فشرَبوا منه): المقصود أنهم زادوا على (الغرفة) وافرطوا في الشرب، والفاء

تقتضي التعقيب: أي سرعان ما شربوا ولم يبالوا .

- القراءة في (إلا قليلاً): القراءة المتفق عليها بنصب (قليلاً)، ونقل عن أبي كعب

والأعمش برفع (قليلٌ) وهي قراءة شاذة، ومع ذلك فقد تكلف العلماء في كيفية

إعراب المستثنى هنا بالضم مع أن المعلوم لدى النحاة: أن المستثنى منه إذا كان موجباً تاماً

فإنه يجب نصب المستثنى هنا ﴿ فشرَبوا منه إلا قليلاً ﴾ سواء كان الاستثناء، متصلاً أو

منفصلاً (٥) . قال ابن مالك في ألفيته: (ما استثنت إلا مع تمام ينتصب)

والإتباع - أي إعرابه بدل أو صفة - للمستثنى منه، لا يكون إلا في المنفي، مثل (ما

(١) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص ١٤٠ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦١/٢ - السمرقندي، بحر العلوم ٢١٩/١

(٢) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٧/٦

(٣) الطبري، جامع البيان ٦٣٣/٢ .

(٤) أبو حيان، البحر المحيظ ٢٧٥/٢ .

(٥) محمد محي الدين عبد الحميد، شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام، المكتبة العصرية ١٤٠٩هـ، ص ٢٦٧

قام إلا زيد) .. فمن أين أتى رفع (قليل) : -

● أجاب بعضهم عن ذلك: بأن المستثنى منه ليس هو ﴿ فشرّبوا منه ﴾ وإنما متعلق بـ " فليس مني "، والمعنى: فليس مني إلا قليل ممن اغترف غرفة واحدة (١) .

● أما (الزمخشري) فيرى أن هذا من (ميلهم إلى المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً، وهو باب جليل من علم العربية، فلما كان معنى ﴿ فشرّبوا منه ﴾ في معنى: فلم يطيعوه، حمل عليه . كأنه قيل: فلم يطيعوه إلا قليل منهم ... فيظهر أن ارتفاعه على أنه بدل من جهة المعنى، فالموجب فيه كالنفي (٢) .

● ويردّ (أبو حيان) كلام الزمخشري بأن (الإتيان) قد ورد أصلاً في لغة العرب في التام الموجب، فلماذا التكلف بالتأويل، واستشهد بقول عمرو بن معدي كرب:

وكل أخ مفارقة أخوه لعمر أبيك إلا الغرقدان (٣)

وقد حكم (ابن الحاجب) بشذوذ هذا البيت (٤) .

كما أن (البقاعي) نقل عن (سيبويه) جواز الإتيان حيث قال: ((وعقد سيبويه - رحمه الله تعالى في نحو نصف كتابه لإتيان مثل هذا باباً ترجمه بقوله: باب ما يكون فيه (إلا) وصفاً بمتزلة (غير) و (مثل) ... وجوز في: ما قام القوم إلا زيداً، بالرفع: البدل والصفة)) (٥) .

عموماً فنحن لسنا بحاجة إلى كثرة الخلاف فيها، خصوصاً وأنها قراءة تحتاج إلى التأكيد من صحة نسبتها إلى أبي والأعمش وعبدالله - كما ذكروا -

** ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ : -

● أصل (المجاوزة): جاوز: فاعل فيه بمعنى فعل (٦)، فالمجاوزة مفاعلة من الجواز وهو

(١) انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١٤٢/٢ دار الفكر .

(٢) الكشاف ٢٩١/١

(٣) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٥/٢

(٤) شرح الوافية نظم الكافية، تحقيق: موسى العليبي، ط ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، النجف الأشرف، مطبعة الآداب

(٥) البقاعي، نظم الدرر ٤٣١/٣-٤٣٢ وانظر: - سيبويه، الكتاب ٣٣١/٢، تحقيق: عبدالسلام هارون، الهيئة العامة المصرية للكتاب .

(٦) البحر المحيط (ابو حيان) ٢٧٦/٢ .

وهو العبور^(١).

قال ابن منظور: ((جاوزت الموضوع جوازاً: بمعنى جزته))^(٢)، والمجاز في الكلام ما جاز في الاستعمال ونفذ واستمر على وجهه^(٣).

● عودة الضمائر: فلما جاوز النهرَ طالوتُ، والهاء في (جاوزه) عائدة على النهر. و (هو) كناية اسم طالوت، وجاءت لتأكيد الضمير المستتر في (جاوزه)، وقوله ﴿والذين آمنوا معه﴾ يعني: وجاوز النهر معه الذين آمنوا، قالوا: لا طاقة لنا اليوم...^(٤).

- والواو عطفت (الذين) على الضمير المستتر الذي يرجع لطالوت، وهي واو حالية لأنهم جاوزوا معه النهر^(٥).

- إعراب (معه): خبر، على اعتبار أن الواو في (والذين) للحال، فيصبح المعنى: والحال أن الذين آمنوا كائنون (معه) . وهو متعلق بالفعل (جاوز) لا بالفعل (آمنوا)^(٦)، أي أنهم متحدون مع طالوت في المجاوزة لا في الإيمان.

** ﴿ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ :-

- من القائل ؟: اختلف المفسرون فيمن هو القائل على قولين :-

أ- إنهم الذين شربوا من النهر، وأنهم قد كفروا بذلك، ولكنهم تجاوزوا النهر مع طالوت ثم قالوا هذا الكلام، ثم انخذلوا، وانتصر (ابن جرير) لهذا القول جداً حتى قال: ((وأولى القولين في ذلك بالصواب ... أنه جاوز النهر مع طالوت المؤمن الذي لم يشرب من النهر إلا الغرفة، والكافر الذي شرب منه الكثير .

ثم وقع التمييز بينهم بعد ذلك برؤية جالوت ولقائه، وانخذل عنه أهل الشرك والنفاق، وهم الذين قالوا ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ ومضى أهل البصيرة بأمر

(١) البقاعي، نظم الدرر ٤٣٣/٣

(٢) لسان العرب ٧٢٤/١، مادة: ج و ز

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٢/٢ .

(٤) الطبري، جامع البيان ٦٣٤/٢ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٢/٢

(٥) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٦/٢

(٦) الألويسي، روح المعاني ١٧١/٢

الله على بصائرهم ، وهم أهل الثبات على الإيمان، فقالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ .

ثم قال: ((فإن ظن ذو غفلة أنه غير جائز أن يكون جاوز النهر مع طالوت إلا أهل الإيمان الذين ثبتوا معه على إيمانهم، ومن لم يشرب من النهر إلا الغرفة، لأن الله تعالى ذكره قال: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه﴾ فكان معلوماً أنه لم يجاوز معه إلا أهل الإيمان ... فإن الأمر في ذلك بخلاف ما ظن . وذلك أنه غير مستنكر أن يكون الفريقان - أعني فريق الإيمان وفريق الكفر - جاوزوا النهر . وأخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ عن المؤمنين بالمجازة، لأنهم كانوا من الذين جاوزوه مع ملكهم، وترك أهل الكفر، وإن كانوا قد جاوزوا النهر مع المؤمنين .

والذي يدل على صحة ما قلنا في ذلك قول الله تعالى ذكره: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ ... دون غيرهم الذين لا يظنون أنهم ملاقوا الله - وأن الذين لا يظنون أنهم ملاقوا الله، هم الذين قالوا ﴿لا طاقة لنا اليوم...﴾ وغير جائز أن يضاف الإيمان إلى من جحد أنه ملاقي الله، أو شك فيه)) (١) .

• وزعم بعضهم أنهم قالوا ذلك والنهر بينهما ولا يخفى بعده ؛ لأن الظاهر أنهم قالوا هذه المقالة عند لقاء العدو، ولم يكن الشاربون معهم إذ ذاك، وأيضاً أي حاجة إلى إبداء العذر عن التخلف مع أن طالوت قال أنهم ليسوا منه ولا يريدونهم (٢) .

ب - إن القائل لذلك هم من قلت بصيرته من المؤمنين، وأن الذين جاوزوا النهر هم المؤمنون فقط، وقد كانوا أربعة آلاف ثم انخزل منهم الأغلب بعد قولهم ﴿لا طاقة لنا اليوم...﴾ ولم يبق سوى ثلاثمائة وبضعة عشر - كما في حديث البراء - وهم الذين قال الله عنهم ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ .

وهذا الرأي أقرب لروح النص القرآني من وجوه: -

• الوجه الأول: أن المراد بقوله ﴿الذين آمنوا معه﴾ الذين وافقوه في الطاعة، فلما ذكر الله تعالى كل العسكر، ثم خص المطيعين بأنهم عبروا النهر، علمنا أنه ما عبر النهر أحد إلا المطيعين .

(١) الطبري ، جامع البيان ٦٣٦/٢

(٢) الألويسي ، روح المعاني ١٧١/٢

● الوجه الثاني: أن طالوت قال ﴿ فمن شرب منه فليس مني ﴾ أي لن يصاحبني في سفري، فلما شربوا منه تسبب ذلك في رجوعهم لفساد دينهم وقلوبهم .

● الوجه الثالث: أن المقصود من النهي عن الشرب كان بمثابة الاختبار^(١) الأول حتى يتميز المطيع والمنضبط من العاصي والمتمرد، وأن بعض الذين صمدوا في الاختبار الأصغر لم يستطيعوا الصمود في الاختبار الأكبر أمام جيش العدو.

ويجب عن كلام (ابن جرير) بأنهم كفّار بأمرين:

أ - مقاتلتهم ﴿ لا طاقة لنا اليوم... ﴾ لا تستلزم تكفيرهم وليست هي من نواقض الإيمان.

ب - إن مفهوم المخالفة لقوله تعالى ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله ﴾ ليس هو أن الطرف المقابل: لا يعتقدون أنهم ملاقوا الله، وإنما أولئك كان اعتقادهم جازماً وإيمانهم بالغاً، أما هؤلاء فكانوا ضعاف الإيمان والعقيدة، ممن أحب الحياة وكره الموت، وكان الخوف والجزع قد غلب عليهم^(٢).

- أصل كلمة (الطاقة): قال الزجاج: يقال أطقت الشيء إطاقة وطاقة وطوقاً، مثل قولك: أطقته إطاعة وطاعة وطوعاً^(٣).

ومثلها: أغار يغير إغارة، والاسم الغارة . وأجاب يجيب إجابة والاسم الجابة . وفي المثل: أساء سمعاً فأساء جابة، أي جواباً^(٤).

والطاقة: بمعنى القوة، وتقال لما استقل به الفاعل ولم يعجزه^(٥).

وقال محمد رشيد رضا أنها ((أدنى درجات القوة))^(٦).

● ومعنى الآية: لا قدرة لنا بمحاربتهم ومقاومتهم فضلاً عن الغلبة عليهم^(٧).

- معنى (اليوم): أي على ما نحن فيه من الحال^(١)، في زمننا .

(١) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٨/٦

(٢) انظر: في معرفة من القائل: - ابن الجوزي، زاد المسير ٢٤٧/١ - الزمخشري، الكشاف ٢٩١/١ - الحازن ٢٥٩/١ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٦/٢ - الثعلبي، قصص الأنبياء، ص ١٥١ .

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير ٢٤٧/١ وانظر: - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٦/٢

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ١٩٩/٦

(٥) البقاعي، نظم الدرر ٤٣٣/٣

(٦) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤٨٧/٢

(٧) الألويسي، روح المعاني ١٧١/٢

- أصل اسم (جالوت) : اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة (٢) .
وقد ردّ (السمين الحلبي) على من زعم أنه مشتق من (الجولان) فقال: ((في [جالوت] قولان: أظهرهما أنه أعجمي لا اشتقاق له، فلذلك منع من الصرف للعلمية والعجمة . وهو اسم جبار، وقصته مشهورة مع داوود عليه السلام .
والثاني: إنه مشتق من (جال)، ووزنه (فعَلوت)، مثل: رهبوت . والأصل (جَوَلوت)، فقلبت الواو ألفاً . وهذا ليس بشيء)) (٣) ، ومثلما قلنا في (طالوت) نقول هنا .

وهو في اللغة العبرية بمعنى (سمين) أو (عظيم) (٤) .

● مسألة لطيفة: نلاحظ أنهم جعلوا (جالوت) قسم، و (جنود جالوت) قسم، ولم يقولوا (بجنود جالوت) .. وفي ذلك إشارة إلى خوفهم العظيم من شخصية (جالوت) وسمعته الرهيبة التي ملأت قلوبهم رعباً، فكأنهم جعلوا خوفهم من ذات (جالوت) أكثر من خوفهم من جيشه وجنده .

خصوصاً إذا علمنا أنه حتى المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقوا لم يتجرأ أحد منهم مبارزة (جالوت) وإنما انبرى له (داوود) عليه السلام.

** ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ ﴾ : -

● هذه الجملة استئناف بياني، جاءت على سبيل التشجيع لأولئك المخذلين (٥) .
● وجه (الظن) هنا ومعناه: اتفق العلماء على ان القائلين ذلك موقنون باليوم الآخر والبعث، واختلفوا هل (الظن) هنا بمعناه الحقيقي، أم هو (الظن) بمعنى العلم؟:
أ - قال كثير من المفسرين وعلى رأسهم الإمام (ابن جرير) أنها هنا بمعنى العلم

(١) البقاعي، نظم الدرر ٤٣٣/٣

(٢) ابن منظور، لسان العرب ٢١/٢ مادة: ج ل ت — أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٩/٢

(٣) عمدة الحفاظ ٣٨٣/١

(٤) قاموس أعلام الكتاب المقدس . ص ٦٩

(٥) الألويسي، روح المعاني ١٧١/٢

واليقين ((فتأويل الكلام: قال الذين يوقنون بالمعاد ويصدقون بالمرجع إلى الله)) (١) .
واستعمال (ظن) ومشتقاتها في معنى اليقين كثير في القرآن وفي لغة العرب عامة (٢) .
وهو ما نميل إلى القول به هنا .

وقد سرد الإمام (ابن القيم) أدلة الفريقين في جواز استعمال (الظن) موضع اليقين في كتابه (مفتاح دار السعادة) (٣) .
ب - إن (الظن) على حقيقته (٤)، وإذا قلنا بذلك فيمكننا تفسير الكلام على أحد المعاني الآتية: -

١ / إن المراد بلقاء الله (الموت والشهادة في سبيل الله) فقد كان المرجح لديهم وكانت أمنيتهم، وقد سمي النبي ﷺ الموت بلقاء الله: { من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه } (٥) .

٢ / إن المقصود: ملاقوا ثواب الله بسبب هذه الطاعة، وذلك لأن أحداً لا يعلم عاقبة أمره، فلا بد أن يكون ظاناً راجياً وإن بلغ في الطاعة منزلة عظيمة .

٣ / إن يكون المعنى بـ (ملاقوا الله): أي قصدوا الإخلاص وابتغاء وجه الله وثوابه، فإن المؤمن لا يأمن على نفسه من الرياء والسمعة .

٤ / إن (السكينة) التي كانت في التابوت، كان فيها وعد الله بالنصر والظفر لطالوت وجنوده، ولكن هؤلاء ما كانوا يدرون هل سيكون النصر في هذه المعركة أو معركة بعدها؟.. هكذا قال بعض المفسرين فكأن معناها: قال الذين يظنون أنهم ملاقوا وعد الله بالنصر (٦) .

قال الألوسي في معرض ردّه على (مفتي الديار الرومية): ((لا حاجة في تحصيل المعنى إلى ما ذكره رحمه الله من إخراج اللفظ عن ظاهره الشائع استعماله فيه - يوم

(١) الطبري ، جامع البيان ٦٣٨/٢

(٢) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٦٩/١

(٣) ابن القيم ، مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإدارة ، ١٥٥/١ ، طبعة مكتبة الرياض الحديثة .

(٤) أي أنه شك في المعلوم مع ترجيح أحد الأطراف .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله ٢٣٢/٤ برقم ٦٠٢٦ ، ومسلم في صحيحه ،

كتاب الذكر والدعاء ، باب من أحب لقاء الله ١٨٣/١٣ برقم [٦٥٨]

(٦) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ١٩٩/٦ - ٢٠٠

ملاقاته تعالى - وحمل ملاقاته سبحانه على ملاقاته نصره تعالى وتأيدته (١) .

٥ / أن فيه إشارة إلى أنه يكفي في الخوف من الله ورجاء ما عنده الظن لأنه يوجب فرار العاقل مما يكرهه سبحانه إنقاذاً لنفسه من الهلاك، ويوصله ذلك إلى اليقين (٢) .

- وتقصد الآية ﴿الذين يظنون﴾ الخلص الذين استنارت بصائرهم وقوي يقينهم (٣) .
وهؤلاء هم أهل العلم منهم (٤) .

**** ﴿كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ :**

• معنى (كم): المقصود بها هنا (كم) الخبرية، وليس الاستفهامية والذي يدل على ذلك أن (من) لا تأتي إلا بعد (كم) الخبرية .
ومعناها (كثير) (٥)، والمقصود: أنه لما كان قد سبق ذلك في الأزمان الماضية وعلموا بذلك، أخبروا بصيغة (كم) المقتضية للتكثير (٦) .

• أصل كلمة (فتنة): (الفتنة) الجماعة من الناس والقطعة منهم، ولا واحد له من لفظه، وهو مثل (الرهط) و (النفر)، ويجمع على (فئات) و (فتون) في الرفع، و (فنين) في النصب والخفض (٧) .

١ / قيل هو مأخوذ من (فأوت) رأسه أي كسرتة وشققته، وأصلها على هذا (فيوة) فحذفت لامها، فوزنما (فِعة) .

٢ / وقيل هو مأخوذ من (فاء يفيء)، إذا رجع و (الفيء) الرجوع لأن بعضهم يرجع إلى بعض، وأصلها على هذا (فيئة) فحذفت عينها، فوزنما (فِلة) . ومنه سميت

(١) روح المعاني ١٧٢/٢

(٢) البقاعي، نظم الدرر ٤٣٤/٣ ، وانظر في معنى (الظن) : - القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٣/٢

- البغوي ، معالم التنزيل ٣٠٢/١ - ابن الجوزي ، زاد المسير ٢٤٧/١ - الألوسي ، روح المعاني ١٧١/٢

- الزمخشري ، الكشاف ٢٩١/١ - السمرقندي ٢٢٠/١ - ابن عاشور ٤٩٩/٢

(٣) الزمخشري ، الكشاف ٢٩١/١

(٤) السمرقندي ، بحر العلوم ٢٢٠/١

(٥) الألوسي ، روح المعاني ١٧١/٢ - ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٤٩٩/٢

(٦) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٧/٢

(٧) الطبري ، جامع البيان ٦٣٨/٢ - البغوي ، معالم التنزيل ٣٠٢/١ - ابن الجوزي ، زاد المسير ٢٤٧/١

- مؤخرة الجيش (فئة) لأن الجيش يفئ إليها ويرجع . وهذا الأقرب ^(١) .
- وقد جاءت (فئة) هنا بلفظ المفرد، لكنها لما جاءت بعد (كم) التي للتكثير صارت بمعنى الجمع، كأنه قيل: كثير من فئات قليلة غلبت ^(٢) .
 - ((وإذا حمل التنوين في (فئة) الأولى للتحقير، وفي (فئة) الثانية للتعظيم كان أبلغ في التشجيع وأكمل في التسكين، وقد ورد مثل ذلك في قوله:
 - له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب)) ^(٣) .
 - معنى (غلبت): مأخوذ من (غلب غلباً وغلبة) بمعنى قهر، والأغلب القوي الغليظ، والأنتى غلبى ^(٤) .
 - وقد استخدموا لفظة (غلبت) بدلاً من كلمة (أطاقت) حسبما وقع في كلام أصحابهم الذين قالوا (لا طاقة لنا)، مع أن معنى (الغلبة) أعظم، مبالغة في تشجيعهم وتسكين قلوبهم ^(٥) .
 - القراءة في (كم): جاء في قراءة شاذة رويت عن أبي بن كعب أنه قرأ (وكأين) بدلاً من (كم)، وهي مرادفة لها في التكثير ^(٦) .
 - القراءة في (فئة): جاء في قراءة عن الأعشى (فية) بإبدال الهمزة ياء ، وهو إبدال نفيس ^(٧) .
 - إعراب الكلمات: (كم) في موضع رفع على الابتداء .
 - (من) قال بعضهم أنها زائدة ^(٨) - يعني إعرابياً - قال أبو حيان: ((وليس هذا من موضع زيادتها)) واختار أنها في موضع الصفة لـ (كم) ^(٩) .

(١) انظر: الألويسي، روح المعاني ١٧١/٢ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٣/٢

- أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٩/٢ - ابن عاشور، التحرير والتنوير ٤٩٩/٢

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٧/٢

(٣) الألويسي، روح المعاني ١٧١/٢

(٤) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٩/٢

(٥) الألويسي، روح المعاني ١٧١/٢

(٦) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٧/٢

(٧) نفس المصدر والصفحة .

(٨) الألويسي، روح المعاني

(٩) البحر المحيط ٢٧٧/٢

قال الفراء: ((لو ألغيت (من) ههنا جاز في (فئة) الرفع والنصب والحفض، أما النصب فلأن (كم) بمترلة عدد فنصب ما بعده- يعني على التمييز- نحو: عشرين رجلاً. وأما الحفض فبتقدير دخول حرف (من) عليه .
وأما الرفع فعلى نية تقديم الفعل كأنه قيل: كم غلبت فئة)) (١) .
(قليلة): نعت لـ (فئة) على لفظها (٢) ، و(غلبت) خبر لـ (كم) (٣) .

** ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ :-

● هل هذه الجملة من سياق حكاية كلام المؤمنين ؟ أم أنها تعليق من الله سبحانه ؟
١ / يحتفل أن يكون ابتداء كلام من الله سبحانه، جاء به تقريراً لكلامهم، ودعاءً للسامعين إلى مثل حال هؤلاء .

٢ / ويحتمل أن يكون تنمة لكلام المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، جاءوا به من أجل التشجيع والترغيب بالصبر (٤) ، وهذا الاحتمال أظهر (٥) .

● معية الله سبحانه: المقصود بالمعية هنا باتفاق المفسرين أنها المعية الخاصة بالنصر والتأييد (٦) ، يقول سيد قطب ((هو معهم، يؤيدهم، ويثبتهم، ويقويهم، ويؤنسهم، ولا يدعهم يقطعون الطريق وحدهم، ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة، وقوتهم الضعيفة، إنما يمدّهم حين ينفد زادهم، ويجدد عزيمتهم حين تطول بهم الطريق)) (٧) . ويقول الإمام أحمد أحمد بن حنبل في تفسير هذه الآية: ((وهو معكم في النصر لكم على عدوكم)) (٨) .
قال ابن جرير: ((وكان يقال لكل معين رجلاً على غيره: هو معه، بمعنى: هو معه بالعون له والنصرة)) (٩) .

(١) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠٠/٦

(٢) الألويسي ، روح المعاني ١٧١/٢

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٧/٢

(٤) الألويسي ، روح المعاني ١٧٢/٢ - أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٧/٢

(٥) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠٠/٦

(٦) انظر في ذلك :- البغوي ، معالم التنزيل ٣٠٢/١ - أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٧/٢ - الألويسي ، روح المعاني ١٧٢/٢

(٧) في ظلال القرآن ١٤٢/٢

(٨) حكمت بشير ياسين ، مرويات الإمام أحمد في التفسير، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ، مكتبة المؤيد ، ٢١٣/١ .

(٩) الطبري ، جامع البيان ٦٣٨/٢

المطلب الخامس : دراسة الآية الخامسة

{ المواجهة }

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامَنَا
وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٠]

• جاءت هذه الآية عاطفة محذوف تقديره: فلما قالوا لهم ذلك جمع الله كلمتهم فاعتمدوا عليه وبرزوا للقتال بين يديه، ولما برزوا ... (١) .

• أصل كلمة (برزوا) : (البراز) بالفتح: المكان الفضاء من الأرض البعيد الواسع، وإذا خرج الإنسان إلى ذلك الموضع قيل: برز يبرز بروزاً (٢) ، وامرأة برزة: أخذ منها السن فلم تستر وجهها (٣) . قال الطبري: ((برزوا: صاروا بالبراز من الأرض، وهو ما ظهر منها واستوى، ولذلك قيل للرجل الذي يقضي حاجته (تبرز) ، لأن الناس قديماً في الجاهلية، إنما كانوا يقضون حاجتهم في البراز من الأرض، فقيل: قد يبرز فلان، إذا خرج إلى البراز من الأرض)) (٤) .

والمبارزة في الحروب ، هي أن يبرز كل واحد منهم لصاحبه وقت القتال، وهو أن يكون كل واحد منهما بحيث يرى صاحبه (٥) .

• معنى كلمة (أفرغ) : الإفراغ: الصب، يقال: أفرغت الإناء إذا صببت ما فيه، قال البقاعي: ((الإفراغ هو السكب المفيض على كلية المسكوب عليه)) (٦) .
وأصله من الفراغ، يقال: فلان فارغ، معناه: أنه خال مما يشغله، والإفراغ إخلاء الإناء مما فيه، وإنما يخلو بصب كل ما فيه (٧) .

(١) البقاعي، نظم الدرر ٤٣٥/٣

(٢) ابن منظور، لسان العرب ٢٥٥/١ مادة (برز) .

(٣) الطبري، جامع البيان ٦٣٨/٢

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٠١/٦ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٧/٢ - البقاعي، نظم الدرر ٤٣٥/٣

- البغوي، معالم التنزيل ٣٠٢/١ .

(٥) أبو حيان، البحر المحيط ٢٦٩ /٢

(٦) البقاعي، نظم الدرر ٤٣٦/٣

(٧) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٠٢/٦ وانظر: البغوي، معالم التنزيل ٣٠٢/١

- والمقصود بالصبر ههنا ((حبس النفس للقتال))^(١) .
- وهنا معنى بلاغي عجيب: حيث دعوا الله وسألوه أن يصب عليهم الصبر حتى يكون مستعلياً عليهم^(٢)، ويكون الصبر لهم كالصندوق وهم في داخله وقد اتمثلوا به وأحاط بهم من كل جانب .
- وفيه نوع من الاستعارة أيضاً لقوة الصبر بكثرة الصبر، ((فإن القوة و الكثرة يتعاوران الألفاظ الدالة عليهما . كقول أبي كبير الهذلي:
- كثير الهوى شتى النوى والمسالك
- فاستعير الإفراغ هنا للكثرة مع التعميم والإحاطة))^(٣) .
- معنى (ثَبَّت) : مأخوذ من (ثَبَت) : بمعنى استقر ورسخ، وثَبَّتَه أقره ومكنه بحيث لايتزحزح^(٤)، و(التثبيت) تفعيل من الثبات وهو التمكن في الموضوع الذي شأنه الاستزلال^(٥) .
- و (الأقدام) جمع قدم وهو ((ما يقوم عليه الشيء ويعتمده))^(٦) .
- والقدم: الرجل، وهي مؤنثة، تقول في تصغيرها (قُدَيْمَة)، والاشتقاق في هذه الكلمة يرجع لمعنى: التقدم^(٧) .
- والمقصود بـ (تثبيت الأقدام): كناية عن تقوية القلوب وتشجيعها حتى لا تفرّ الأقدام وتنهزم القهقري^(٨) .
- قال الألويسي: ((هب لنا كمال القوة والرسوخ عند المقارعة بحيث لا تنزل، وليس المراد بتثبيت الأقدام مجرد تقررها في حيز واحد ! إذ ليس في ذلك كثير جدوى))^(٩) .

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧٧ - الألويسي، روح المعاني ٢/١٧٢

(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧٧

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/٤٩٩

(٤) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٩

(٥) البقاعي، نظم الدرر ٣/٤٣٦

(٦) نفس المصدر والصفحة .

(٧) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٦٩

(٨) ابن جرير الطبري، جامع البيان ٢/٦٣٨ - ابن الجوزي، زاد المسير ١/٢٤٧ .

(٩) الألويسي، روح المعاني ٢/١٧٢

- جاءوا بوصف (الكافرين) بدلاً في موضع الضمير العائد إلى جالوت وجنوده للإشعار بعلّة النصر عليهم، وخذلان أعدائهم، ألا وهي صفة (الكفر)^(١) .

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧٧ - الألويسي، روح المعاني ٢/١٧٢ .

المطلب السادس: دراسة الآية السادسة

{ نبي وقائده اسمه " داود " }

﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١]

** ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

- قبل هذه الآية تقدير متروك من الكلام، ترك ذكره لدلالة الآية عليه، وذلك أن معنى الكلام: فاستجاب لهم ربهم فأفرغ عليهم صبره، وثبت أقدامهم، ونصرهم على القوم الكافرين (فهزموهم بإذن الله) (١)، ويدل على ذلك الفاء الفصيحة (٢).
- أصل كلمة (الهزيمة): أصل الهزم في اللغة: الكسر ((قال الزجاج: كسر الشيء وثني بعضه على بعض، يقال: سقاء منهزم و مهزم إذا كان بعضه قد ثني على بعض مع جفاف، وقصب منهزم: قد كسر وشقق، والعرب تقول: هزمت على زيد أي: عطفت عليه . قال الشاعر:

هزمت عليك اليوم يا ابنة مالك فجوذي علينا بالنوال وأنعمي

- ويقال: سمعت هزيمة الرعد، قال الأصمعي: كأنه صوت فيه تشقق)) (٣)، والهزيمة أيضاً نقرة في الجبل أو الصخر، قال سفيان بن عيينة في ماء زمزم: هي هزيمة جبريل، يريد هزمتها برجله فخرج الماء، ويقال للسحاب: هي هزيم: لأنه يتشقق بالمطر (٤).
- (بإذن الله): الباء إما أن تكون للسببية أو الاستعانة، وإما تكون للمصاحبة (٥)، والأول أقرب، ويكون المعنى أن الله أخبر أن تلك الهزيمة كانت بإذن الله وبإعانتة وتوفيقه

(١) الطبري، جامع البيان ٦٣٩/٢ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٠٣/٦

(٢) الألويسي، روح المعاني ١٧٣/٢

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير ٢٨٤/١

(٤) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٠٣/٦ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٤/٢

(٥) الألويسي، روح المعاني ١٧٢/٢

وتيسيره، وأنه لولا إعانتة وتيسيره لما حصل ذلك البتة (١).

** ﴿ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ ﴾ : -

• أصل الاسم (داود) : هو اسم علم أعجمي، ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وبالآتي فلا نبحت له عن اشتقاق في اللغة العربية .

قال الفيروز آبادي: ((دواد: اسم أعجمي ممنوع من الصرف . وقيل معنى داود: قصر العمر، وكان داود أقصر الأنبياء عمراً .

وقيل معنى داود: داوى جرحه بُودَ .

وقيل: إنما سُمي داود لأنه داوى الذنوب بوّده الودود .

وقيل: داوى ذنبه ووّد ربه)) (٢) .

ونلاحظ أن الذين ذهبوا للاشتقاق من العربية اعتبروه مكوناً من جزئين: (داو) بمعنى

المداواة والمعالجة، و (وُد) بمعنى الحب، فكأن معناه: الذي يعالج بود وحب !

وهذا اشتقاق مرفوض في اللغة العربية ومعاني أصولها، فلا نبحت له عن معنى في لغتنا.

أما في اللغة العبرية فإن معناه (محبوب) أو (عزيز) (٣) .

** ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ : -

• معنى (الحكمة) : أصل كلمة (الحكمة) : وضع الأمور في مواضعها على الصواب والصلاح (٤) .

وقد اختلف المفسرون في المقصود بـ (الحكمة) هنا التي أوتيتها داود وأهم هذه

الأقوال: ١ / النبوة .

٢ / الزبور - الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام -

٣ / العدل في السيرة .

٤ / ما قاله الضحّاك: سلسلة كانت متدلّية من السماء لا يمسكها ذو عاهة إلا برئ،

(١) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠٣/٦

(٢) بصائر ذوي التمييز ٨٣/٦

(٣) قاموس أعلام الكتاب المقدس . ص ٨٧ .

(٤) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠٥/٦

يتحاكم إليها، فمن كان محققاً تمكن منها، حتى إن رجلاً عنده درّة لرجل فجعلها في عكازته، ودفعها إليه أن احفظها حتى أمسك السلسلة . فتمكن منها لأنه ردّها، فرفعت السلسلة لشؤم احتياله (١) .

٥ / وقيل: الملك مع الحكمة، هو العلم مع العمل (٢) .

- وقد رجّح (محمد رشيد رضا) أنها الزبور الذي أوحاه الله إليه كما قال سبحانه ﴿وآتينا داود زبوراً﴾ [النساء: ١٦٣] وبه كان نبياً (٣) .

ولكن الصحيح هو قول جمهور المفسرين الذين فسّروا (الحكمة) ههنا بالنبوة (٤) ، وهو رأي ابن عباس رضي الله عنهما (٥) .

وقد فرق الله بين (الكتاب) والحكمة (في قوله: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾ [النساء: ٥٤] وقوله سبحانه فيما بعث به محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ [الجمعة: ٢] .

• سبب تقديم (الملك) على (الحكمة): يرجع إلى أحد أمرين: -

أ - (لأن الله تعالى بين في هذه الآية كيفية ترقى داود عليه السلام إلى المراتب العالية، وإذا تكلم المتكلم في كيفية الترقى، فكل ما كان أكثر تأخراً من الذكر كان أعلى حالاً وأعظم رتبة) (٦) .

ب - أن النبوة جاءت لداود عليه السلام بعد الملك بسبع سنين (٧) .

- ماذا علّمه الله ؟: في قوله ﴿وعلمه مما يشاء﴾، ذهب كثير من المفسرين إلى ذكر آحاد من الأمور التي علمها الله لداود عليه السلام وكل ما ذكره المفسرون ههنا صحيح، ولا تعارض فيه أصلاً، ومما ذكره المفسرون ههنا: -

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢/٢٧٨

(٢) أبو المظفر السمعاني، تفسير القرآن، بتحقيق: ياسر إبراهيم - غنيم عباس ١/٢٥٤ .

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٢/٤٩٠

(٤) الطبري، جامع البيان ٢/٦٤٥

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير ١/٢٤٨

(٦) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٦/٢٠٥

(٧) السمعاني، تفسير القرآن . ١/٢٥٤

- ١ / منطق الطير وكلامه للنمل والنحل ﴿ وَعَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٦] .
- ٢ / الزبور . ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].
- ٣ / صناعة الدروع ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحَصِّنْكُمْ مِّنْ بِأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]
- ٤ / الصوت الطيب والألحان .. ومن المعلوم أن الله لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود عليه السلام، فقد كان إذا قرأ الزبور تدنوا الوحوش حتى يأخذ بأعناقها، وتظله الطير مصغية له، ويركد الماء الجاري، وتسكن الريح، وما صنعت المزامير والصنوج إلا على صوته ^(١) .
- ٥ / فعل الطاعات والأمر بها، واجتناب المعاصي .
- ٦ / أن المراد ما يتعلق بمصالح الدنيا وضبط الملك، فإن آباءه لم يكونوا ملوكاً حتى يتعلم منهم بل كانوا رعاة ^(٢) .
- * وهذه الأقوال كلها صحيحة ويمكن أن يحمل عليها معنى الآية، فيما عدا القول الأول وهو (منطق الطير والحيوان) فهذا من خصائص نبي الله سليمان عليه السلام ابن داود عليه السلام، كما هو معلوم من سياق الآيات القرآنية .
- قوله (مما يشاء) فيه مسألتان: –
- الأولى: أن الفعل (يشاء) جاء بصيغة المستقبل، والمراد به هنا الماضي (مما شاء)، وقد يأتي المستقبل موضع الماضي أيضاً ^(٣) .
- الثانية: الضمير العائد المستتر في الفعل (يشاء) يعود على من ؟: –
- ذكر بعض المفسرين انه يعود على داود عليه السلام، أي: مما يشاء داود ^(٤) .
- والصحيح أنه راجع إلى الله تعالى، ويدل على ذلك أن معظم ما علمه الله لداود لم يكن يخطر له على بال، ولا يقع في أمنية بشر ليتمكن من طلبه ومشيتته ^(٥) .

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٨/٢

(٢) انظر في معرفة الأقوال: - الشنقيطي، أضواء البيان ٢٨٤/١ - ابن كثير، التفسير ٣٢٥/١

- السمرقندي، بحر العلوم ٢٢١/١ - ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/٢ - الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٠٥/٦

- ابن الجوزي، زاد المسير ٢٤٨/١ .

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٧/٢

(٤) أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٨/٢

(٥) الألويسي، روح المعاني ١٧٣/٢

**** ﴿ وَلَوْ لَّا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ : -**

• مناسبة الجملة للحادثة: ((لما بين الله سبحانه أن الفساد الواقع بجالوت وجنوده زال بما كان من طالوت وجنوده، وبما كان من داود من قتل جالوت، بين عقيب ذلك جملة تشتمل كل تفصيل في هذا الباب، وهو أنه تعالى يدفع الناس بعضهم ببعض لكي لا تفسد الأرض)) (١).

• (لَوْ لَّا) : حرف امتناع لوجود، وأصل (لولا) [لو + لا] النافية، أي لو كان انتفاء الدفاع موجوداً لفسدت الأرض (٢).

• معنى (دَفَع) : الدفع: الإزالة بقوة، دفعه يدفعه دفعاً ، ودافعه مدافعه ودفاعاً (٣).

• ومعنى الآية: لولا أن الله يدفع ببعض الناس، وهم أهل الطاعة له والإيمان به، بعضاً: وهم أهل المعصية لله والشرك به، لهلك أهلها (٤).

وللعلماء في فساد الأرض نوعان: -

أ - إما يهلك الله إياهم بعقوبة من عنده .

ب - أن معناه: لغلب المشركون وأهل الباطل على الأرض وقتلوا أهل الصلاح والخير، وخرّبوا المساجد (٥).

وهذا الرأي أقرب لمعنى الآيات هذه، فهي تتحدث عن السلطان والسيطرة في الأرض تكون لمن؟ ((فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين، أن أذن لأهل دينه المصلحين في الأرض، بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبلغاة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان والله ناصرهم ما نصره الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض)) (٦).

• والمقصود بـ (فساد الأرض): إما أن يكون على وجه الحقيقة بخراب الأرض

(١) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢٠٦/٦

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٥٠٣/٢

(٣) ابن منظور، لسان العرب ١٣٩٣/٢ مادة (دَفَع)

(٤) الطبري، جامع البيان ٦٤٦/٢

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير ٢٤٨/١

(٦) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٤٩١/٢

وتعطل منافعتها ومصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يصلح الأرض ويعمرها .

- وإما أن يكون على وجه الكناية والمجاز بفساد أهل الأرض وعموم الشر فيهم^(١).
- القراءات في (دَفَع) وتوجيهها: قرأ جمهور القراء هنا بـ (دَفَع)، أما قراءة (نافع) فهي ﴿ ولولا دفاع الله ﴾ وقد استشكل العلماء هذه القراءة، حتى أن (أبا عبيدة) أنكر أن يقرأ القارئ (دفاع) وقال: لأن الله عز وجل لا يغالبه أحد . قال (مكّي) : هذا وهم توهم فيه باب المفاعلة وليس به^(٢) .

((وحيّة نافع: أن الدفاع مصدر لـ (لفاعل) تقول: دافع الله عنك الشيء يدافع مدافعة ودفاعاً، والعرب تقول: أحسن الله عنك الدفاع .

وأما قراءة الباقيين (بغير ألف) فحجّتهم: أن الله عز وجل لا مدافع له، وأنه هو المنفرد بالدفع من خلقه، وكان أبو عمرو يقول: إنما الدفاع من الناس والدفع من الله^(٣)، فوجه الإشكال ظنّهم أن لفظة (الدفاع) هي من باب المفاعلة بين اثنين فأكثر، والله متّزه عن ذلك ! والصحيح أن تفسير القراءتين واحد، وهما لغتان معروفتان عند العرب^(٤) .. كما أنه قد يكون الدفاع من واحد^(٥) .

قال أبو جعفر - يعني الطبري - : والقول في ذلك عندي أنهما قراءتان قد قرأت بهما القراءة، وجاءت بهما جماعة الأمة، وليس في القراءة بأحد الحرفين إحالة معنى الآخر ... فبيّن إذاً أنه سواء قراءة من قرأ ﴿ ولولا دفع الله ﴾ وقراءة من قرأ " ولولا دفاع الله " في التأويل والمعنى^(٦)، فكلاهما (دَفَع) و (دفاع) مصدر لفعل واحد، كما يقال: حسب الشيء حساباً، وآب إياباً، ولقيته لقاءً، ومثله كتبه كتاباً، ومنه ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ [النساء: ٢٤] قال النحاس: وهذا حسن فيكون (دفاع) و (دَفَع) مصدرين لدَفَع ، وهو مذهب سيبويه . وقال أبو حاتم: دافع ودَفَع بمعنى، مثل طرقت

(١) الألويسي، روح المعاني ١٧٥/٢ - أبو حيان، البحر المحيط ٢٧٩/٢ .

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٧/٢ .

(٣) ابن زنجلة، حجة القراءات ص ١٤١ .

(٤) السمرقندي، بحر العلوم ٢٢١/١ .

(٥) البيهقي، معالم التنزيل ٣٠٧/١ .

(٦) الطبري، جامع البيان ٦٤٧/٢ .

النعل وطارقت: أي خصفت إحداهما فوق الآخري (١) .

وهناك وجه آخر ذكره (الفخر الرازي) وهو قول ((من جعل (دفاع) من الفعل (دافع) ، فالمعنى أنه سبحانه إنما يكف الظلمة والعصاة عن ظلم المؤمنين على أيدي أنبيائه ورسله وأئمة دينه، وكان يقع بين أولئك المحقين وأولئك المبطلين مدافعات ومكافحات، فحسن الإخبار عنه بلفظ المدافعه، كما قال ﴿ يجاربون الله ﴾ و ﴿ شاقوا الله ﴾ وكما قال ﴿ قاتلهم الله ﴾ ونظائره، والله أعلم)) (٢) .

• إعراب " بعضهم ببعض " : (بعضهم) بدل من (الناس) ، وهو بدل بعض من كل . أما (الباء) فهي للتعدية، فتصبح كلمة (بعض) مفعول ثانٍ للمصدر (دَفَع) (٣)

** ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ :

• لما كانت الآية مسوقة مساق الامتنان، كان من المناسب ختامها بهذه الجملة وهذا الاستدلال، وعلق الفضل بالعالمين كلهم لأن هذه المنة لا تختص (٤)، فالمقصود إذاً أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلهم (٥) .

• وفائدة الاستدلال بـ (لكن): أن طالب الفساد ولو لم يبلغ مقاصده إلا أن الله ذو فضل عليه، ويحسن إليه، ويندرج في عموم العالمين ، و ما من أحد إلا والله عليه فضل، ولو لم يكن إلا فضل الإيجاد والخلق (٦) .

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٧/٢

(٢) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠٦/٦

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٩/٢

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ٥٠٣/٢

(٥) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠٨/٦

(٦) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٩/٢

المطلب السابع: دراسة الآية السابعة

{ ختام الحادثة }

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

[سورة البقرة: ٢٥٢]

** ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ : -

الإشارة بـ (تلك): الإشارة هنا للبعيد، وقد استخدمت بدلاً من الإشارة للقريب (هذه) لأمرين: -

١ / إن العرب يستخدمون ذلك للتعظيم، فيقولون: (ذلك الرجل) بقصد تعظيمه وإن كان قريباً، ومثله قول الله عن القرآن ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة: ٢] .
٢ / إن (هذه القصص لما ذكرت صارت بعد ذكرها كالمشيء الذي انقضى ومضى، فكانت في حكم الغائب، ولذلك قال " تلك ")^(١) .

- ما المقصود بـ (الآيات) ؟: ليس المقصود بالآيات القرآن بأكمله، ولا ما جاء من أول سورة (البقرة)، ولكن المقصود هي: قصة الذين أماتم الله ثم أحياهم، ثم قصة طالوت وما فيها من آيات: في قضية تملكه على بني إسرائيل، والإتيان بالثابوت بعد فقدته تحمله الملائكة، وذلك الإبتلاء العظيم بالنهر، وإجابة من توكل على الله في النصر، وقتل داود جالوت ... فهذه كلها آيات عظيمة وخوارق تلاها الله على نبيه بالحق^(٢) .

- وسبب تسميتها بـ (الآيات): لما فيها من الحجج والعلامات والأدلة على نبوة محمد ﷺ، وحجة قاطعة على اهل الكتابين التوراة والإنجيل، بما اقتضه الله من الأنبياء الخفية التي يعلمون أنها من عند الله، ولم يتفوهها محمد ﷺ، فقد كان أمياً لا يحسن قراءة أسفارهم فيزعموا أنه أخذ منهم .. بل هو الحق اليقين من الله بلا زيادة ولا تحريف ولا تغيير شيء منه عما كان^(٣) .

- إعراب الجملة: (تلك) مبتدأ . (آيات الله) خبر . (نتلوها) جملة حالية . ويمكن

(١) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠٩/٦

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط ٢٧٩/٢ - ٢٨٠ - الزمخشري ، الكشاف ٢٩٢/٢

- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ١٠٦٩/٢ - ابن كثير ، التفسير ٣٢٥/١

(٣) الطبري ، جامع البيان ٦٤٨/٢

أن تكون (آيات) بدل من (تلك) ، والخبر هو (نتلوها) (١) .

** ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ : -

● معنى " نتلوها عليك " : التلاوة: بمعنى القراءة، فالله سبحانه وتعالى تلا هذه الآيات على جبريل، وأنزلها جبريل الأمين لمحمد ﷺ، فالذي تلاها على محمد ﷺ هو جبريل عليه السلام ((لكن الله تعالى جعل تلاوة جبريل عليه السلام تلاوة لنفسه، وهذا تشریف عظيم لجبريل عليه السلام)) (٢) .

● معنى (بالحق) : الحق من الناحية اللغوية: هو الحكم المطابق للواقع .

ويفرق (البقاعي) بين كلمة (الحق) و(الصدق) بفروق بليغة: ((قال الإمام سعد الدين التفتازاني في [شرح العقائد] :

أ - الحق: الحكم المطابق للواقع، يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتغالها على ذلك ويقابله (الباطل) .

وأما (الصدق) فقد شاع في الأقوال خاصة ، ويقابله الكذب .

ب - وقد يفرق بينهما بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع، وفي الصدق من جانب الحكم، فمعنى (صدق الحكم) مطابقتة الواقع، ومعنى (حقيقته) مطابقة الواقع إياه)) .

ثم يزيد (البقاعي) المسألة أيضاً بقوله: ((فمعنى الآية على هذا: إنا عالمون بالواقع من هذه الآيات، فأتينا بعبارة يطابقها ذلك الواقع لا يزيد عنها ولا ينقص، فتلك العبارة ثابتة ثبات الواقع لا يتمكن منصف عالم من إنكارها ، ولا إنكار شيء منها كما لا يتمكن من إنكار الواقع المعلوم وقوعه، ويكون الخبر عنها صدقاً، لأنه مطابق لذلك الواقع بغير زيادة ولا نقص ؛ والحاصل: أن الحق يعتبر من جانب المُخْبِر، فإنه يأتي بعبارة يساويها الواقع فتكون حقاً .

وأن الصدق يعتبر من جانب السامع، فإنه ينظر إلى الخبر فإن وجدته مطابق للواقع

قال: هذا صدق .))

(١) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢/١٠٦٩

(٢) الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ٦/٢٠٩

ثم يقول: ((وجملة الأمر أن الواقع أحق باسم الحق لأنه الثابت، والخبر أحق باسم الصدق))^(١).

• كما أن دلالات وجود كلمة (الحق) هنا له وجوه متعددة وصحيحة: -

١ / الاعتبار: أن يعتبر بها محمد ﷺ، وتعتبر بها أمته في احتمال الشدائد في الجهاد، كما احتمالها المؤمنون في الأمم المتقدمة .

٢ / اليقين: الذي لا يشك فيه أحد ، سواء من أهل الكتاب أو غيرهم .

٣ / الإعجاز: الذي يدل على أنه من قبل الله، وليس من إلقاء الشياطين ولا من تحريف الكهنة والسحرة^(٢) .

- إعراب (بالحق): في موضع نصب على أنه حال من مفعول (نتلوها)^(٣).

** ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ : -

• ختمت هذه الآيات بالخطاب لحمد ﷺ: تنويهاً بشأنه، وتشبيهاً لقلبه، وتعريضاً بالمنكرين رسالته^(٤) .

• والمعنى: لولا الرسالة لما عرفت شيئاً من هذه القصص، وأنت لم تكن في أزمنة وقوعها، ولا تعلمت شيئاً من التاريخ، وقد قرر تعالى هذه الحجة على نبوته ﷺ بعد ذكر قصة موسى عليه السلام في مدين ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسَلِينَ ﴾^(٥) [القصص: ٤٤-٤٥] .

- جاءت الجملة مؤكدة بـ (إن) و (اللام) الموطئة للقسم^(٦)، للدلالة على أن الكفار سينكرون رسالته كما تقرر في (فن المعاني)، وقد صرح بهذا المفهوم في قوله:

(١) البقاعي، نظم الدرر ٣/٤٤٥ - ٤٤٨

(٢) انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٦/٢١٠

(٣) الألوسي، روح المعاني ٢/١٧٤

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢/٥٠٣

(٥) محمد رشيد رضا، تفسير المنار ٢/٤٩٢

(٦) ابن كثير، التفسير ١/٣٢٥

﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا﴾^(١) [الرعد: ٤٣].

- (من المرسلين): (من) ههنا تبعيضية، وقد جاءت الآية بلفظة (من المرسلين) ولم تقل (إنك لرسول الله) .. وفي ذلك دلالات بليغة منها: -

١ / الرد على المنكرين بتذكيرهم أن محمداً ﷺ ما كان بدعاً من الرسل، وأنه أرسله كما أرسل من قبله، وليس في حاله ما ينقص عن أحوالهم^(٢).

٢ / التسلية لرسول الله ﷺ وكأن الخطاب يقول: قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم السلام في بني إسرائيل، فلا يعظمن عليك كفر من كفر بك، وخلاف من خالف عليك . لأنك مثلهم^(٣)، وحكمك حكمهم، فمن صدقك، فسبيله سبيل من صدقهم، ومن عصاك فسبيله سبيل من عصاهم^(٤).

(١) الشنقيطي، اضواء البيان ٢٨٥/١

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٥٠٣/٢

(٣) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب ٢١٠/٦

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير ٢٤٩/١ .

المبحث الثالث: الخصائص الفنية لقصة طالوت

إن القصة القرآنية معجزة ترتقي إلى أعلى مقامات الفن الأدبي الرفيع بخصائصها ..
ويتميز القرآن العظيم بأنه استطاع أن يجمع بين الخصائص الفنية الراقية للقصة وبين
الصدق التاريخي .

فأي أديب أو كاتب بشري يجعل الصدق التاريخي معوقاً عن الوصول بعمله من
الوجهة الفنية الخالصة إلى الذروة العليا من الإحكام والنجاح، لأن الكاتب إذا أراد
الالتزام بالسرد التاريخي الحقيقي ألحق عمله بكتب التاريخ، وخرج من نطاق الكتابة
الأدبية .. وإذا أراد لعمله النجاح احتاج إلى ركوب الخيال المنجح، أو التهويل المخوف ..
حتى لكأن الجمع بين الصدق التاريخي والفن الأدبي من الأمور البعيدة، أو أن أحدهما
يجور على الآخر على الدوام .

أما القصص القرآني فقد بلغ أعلى الدرجات في الجمع بين الصدق التاريخي والمزايا
الأدبية الرفيعة .

إن القرآن يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني، فيخاطب حاسة الوجدان
الدينية، بلغة الجمال الفنية، ونحن نستعرض هنا الخصائص الفنية لقصة طالوت ومظاهر
التسيق الفني لهذه القصة: -

أولاً: وفق الهدف الذي عرضت من أجله القصة، فقد جاءت بالقدر الذي يكفي
لأداء هذا الهدف، ومن الحلقة التي تتفق معه ويتضح هذا في (قصة طالوت) بثلاثة
أمور: -

أ - إن القصة جاءت من وسطها، فالنبي المذكور (شمويل) لم نعرف عنه شيئاً قبل
سؤال بني إسرائيل للملك .

ب - الحلقات المفقودة بين ثنايا القصة مما لا تهم معرفته - كما سيمر معنا بعد قليل
- إذ أنها لا تخدم الهدف .

ج - إغفال مولد الشخصيات وبداية النشأة، فطالوت تبدأ قصته منذ اختيار الله له
أما قبل ذلك فلم تذكره الآيات .. وتبدأ قصة داوود وهو في مقتبل الشباب بحلقة صراع
مع (جالوت) فيغلب عليه داوود، ومن هنا تبدأ قصته .. بخلاف قصة موسى عليه السلام والتي

ذكرت منذ ولادته .

ثانياً: جاءت قصة طالوت متوسطة التفصيل مقارنة بالقصص الأخرى ، فليست قصيرة مثل قصة لوط وزكريا عليهما السلام ، وليست طويلة مثل قصة موسى ويوسف عليهما السلام .

ثالثاً: مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة، قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك، فنجد قبل قصة طالوت ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً... ﴿[البقرة ٢٤٤-٢٤٥]. ونجد في ختام القصة وبعدها ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴿[البقرة: ٢٤٦] .

وهو أظهر هدف وردت القصة من أجله، وفي الوقت ذاته يتفق هذا الختام مع الأصول الفنية، ويبدو وكأنه ختام فني لذاته .
ونجد في ثنايا الآيات ﴿والله عليم بالظالمين﴾ [البقرة ٢٤٦] - ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ [البقرة ٢٤٧] .

رابعاً: طريقة العرض: فقد ذكرت القصة في بدايتها ملخصاً سبق القصة ثم شرعت الآيات في تفصيلات القصة .. فتلاحظ الآية الأولى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ ائْتِنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ٢٤٦] .

ذلك ملخص للقصة، ثم تتبعه تفصيلات اختيار طالوت وعلامة ملكه وتفصيل المعركة مع جالوت . وهذا الملخص هو ما يسمى في البلاغة العربية بـ (اللفّ والنشر)، فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات .

خامساً: بدأت القصة بأغرب مشهد يلفت النظر إليها ﴿وقال لهم نبيهم إن الله

قد بعث طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا .. ﴿ [البقرة ٢٤٧] .
حتى إذا أثار ذلك انتباه القارئ أو السامع انطلق البيان القرآني في عرض بقية
المشاهد.

سادساً: استخدام طريقة المفاجأة للقارئ، فمعرفة نتيجة المعركة ومعرفة البطل
كانت مكتومة السر عن القارئ إلى آخر القصة ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داوود
جالوت ... ﴾ [البقرة ٢٥١] ، فقد كان جو المعركة ملتبس بالغموض، وخروج
البطل الذي قتل جالوت كان مجهولاً .. ثم في سرعة خاطفة يكشف السر وتظهر المفاجأة.

سابعاً: ((تلك الفجوات بين المشهد والمشهد التي يتركها تقسيم المشاهد وقصّ
المناظر، مما يؤديه في المسرح الحديث إنزال الستار، وفي السينما الحديثة انتقال الحلقة ؛
بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين
المشهد السابق والمشهد اللاحق))^(١).

ونحن نلاحظ في قصة طالوت فجوات متعددة في الآيات، لعل من أهمها ما بين الآية
التي تتحدث عن آية الملك ﴿ إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت ... ﴾ والآية التي تليها ﴿
فلما فصل طالوت بالجنود .. ﴾ [البقرة: ٢٤٨-٢٤٩] ، فقد أغفلت الآيات كثيراً
مما يمكن لنا تخيله عقلاً من مثل: فبعد أن أذعنوا لملكه بدأ طالوت بممارسة حكمه ثم بدأ
بإعداد الجيش وترتيبه كما بدأ بتربية الأتباع والجنود وإعداد الخطط ثم أعلن عن بدء
الاجتماع والانطلاق .. فلما فصل طالوت بالجنود ... الخ .

إذاً فقد ركزت الآيات على المشاهد التي فيها العظة والاعتبار وأغفلت هامشاً كثيراً
ليس من هدف الآيات .

ثامناً: الدقة التامة في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها ووضعها في مواضعها، وهو
ما يسمى (إصابة المعنى) ، وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير،
حينما يوجه إليها انتباهه ، وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية . لاحظ معي كلمة
(ابعث) في قوله ﴿ ابعث لنا ملكاً ﴾ فقد استخدمها بدلاً من (أرسل) أو (أخرج) لما

(١) سيد قطب، التصوير الفني في القرآن ، ص ١٨٧

في (البعث) من حركة حسية قوية وكأنهم خرجوا بعد موت .
ولاحظ كلمة (تولوا) في قوله ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا ﴾ فقد استخدمها
بدلاً من (أعرضوا) أو (نكصوا) لما في دلالة التولّي من شديد النفور والهروب .
وهكذا في ألفاظ كثيرة في الآيات من أمثال (اصطفاه) بدلاً من (اختاره)، ولفظة
(فصل) بدلاً من (خرج)، ولفظة (يطعمه) بدلاً من (يشربه)، ولفظة (أفرغ) بدلاً
من (أنزل) .

فكل لفظة من هذه الألفاظ جاءت لمعنى عظيم الدلالة^(١)، قد يدركه القارئ وقد لا
يدركه إلا بالتعمق في علوم اللغة .

((ولما كان الأصل في نظم الكلام أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من
الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف
مضطرب أو ما يجري مجرى الحشو والاعتراض، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت
عليه طبيعة البلاغة ، ولو نزع كلمة منه أو أزيلت عن وجهه ثم أدبر لسان العرب كله
على أحسن منها في تأليفها وموقعها وسدادها، لما تهيأ ذلك ولا اتسعت له اللغة بكلمة
واحدة، وهو سر من إعجازه قد أحس به العرب .

لا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزئ واحد منها في موضعه عن الآخر إن
أراد به شرط الفصاحة، لأن لكل لفظ صوتاً ربّما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة
المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة ؛ وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه))^(٢)

- وهنا تنبيه قد يرد على القارئ حينما يرى العبارات المحكية في الآيات (وقال
لهم...) (قالوا ...) وهي في أصلها العبراني فكيف نقل القرآن هذه المعاني ؟ وهل جاءوا
هم بهذه البلاغة في مقالاتهم ؟ أم أنها من بلاغة القرآن ؟ وهنا يردّ الإمام الصنعاني على
من ظن بلاغة المعاني كانت من أصحاب القول بقوله: ((إن حقيقة البلاغة عند علماء
البيان وأئمة تفسير القرآن: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة كلماته، فالكلام
البليغ: ما طابق مقتضى الحال، وهذا مشترك بين لفظه ومعناه، فإنه لا بد أن يطابق بمعناه

(١) اهتم الإمام برهان الدين البقاعي في تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) بتتبع هذه الألفاظ وذكر الحكمة
من إيرادها..وقد مر معنا في الدراسة التحليلية ذكر شيء من ذلك.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، مطبعة الاستقامة ١٩٥٢م، ص ٢٥٥.

وبلفظه .

ففصاحة كلماته: خلوصها عن الغرابة والتعقيد وضعف الآتي .

وكلام الله الذي عبّر به عن غيره أبلغ الكلام قطعاً لكونه كلام علام الغيوب قد علم مطابقة كل عبارة اقتضاها ... وهو في كلامه أفصح كلام كما عرفناه، من خلوصه عن الثلاثة العيوب .

وعلى هذين الأمرين - مطابقة مقتضى الحال والخلوص عما ذكر - يدور قطب رحي البلاغة ولا نسلم أن العبرة في الكلام بمعانيه، بل بلفظ ومعناه، بل قد يأتي المعنى بعبارة جافية وألفاظ عن الأكدار غير صافية، ولذا يقال: ربّ معنى سار بعبارة تنفر عنها الأسماع، وسار ذلك المعنى بعينه، في عبارة أخرى تعشقها وتمتز لها الطباع، والمعنى واحد. فإذا عرفت هذا علمت أن عبارة القرآن أبلغ العبارات، فإنها التي كست معاني تلك القصص حلة الإعجاز، وصيرتها معجزة، وأوردتها إلى الأسماع في تلك الحلاوة، وأنزلتها في القلوب أشرف منزلة عند التلاوة، وكانت قبل حكاية الله لها مثل كلام الناس، أي ناس عصرها: من عبرانية أو سريانية أو غيرها ليست بمعجزة ... بل ربما نفرت عنها الطباع وبذلتها الأسماع، فعلمت يقيناً أن حكاية القرآن لمعاني كلام الأولين وقصص الماضين ألبستها حلاوة وطراوة، وأنزلتها في القلوب محلاً عالياً تكتسبه تارة الخشية فترى طرفاً باكياً، وتارة يجلب لها أسباب الرجاء في رحمة الله فتراه مستبشراً سالياً، فهو قرة عين الآتي والسامع، وروح رُوح الراكع والخاشع، فتحت كل لفظ من ألفاظه رياض، وكل جملة منها فنحراها بجواهر معانيها فياض، تاهت عند بلاغتها العقول، وأقرت بأنه في غاية لا ينال الأئمة الفحول))^(١).

تاسعاً: رسم الشخصيات وإبرازها، وتلك سمة بارزة في قصتنا من خلال شخصية

(طالوت)، وهي سمة فنية محضة - وهي بذاتها غرض للقصص الفني الطليق - والقرآن هنا يلمّ بهذه السمة أيضاً، فيرسم بضع " نماذج إنسانية " من هذه الشخصيات، تتجاوز حدود الشخصية المعنية إلى الشخصية النموذجية، والمقدمة في قصتنا عبر شخصية

(١) الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير ، الإيضاح والبيان في تحقيق عبارات قصص القرآن، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ، صنعاء ، مكتبة الإرشاد. ص٤٧-٤٩

(طالوت) .. ولعل هذا من أقوى الأسباب التي جعلت الآيات القرآنية تذكر اسم القائد الملك (طالوت) وتغفل اسم النبي .. وذلك حتى تغرس الآيات في الذهن شخصية القائد المقصود بالهدف من الآيات .

عاشراً: طول الفاصلة القرآنية في الآيات وذلك تبعاً للموضوع الهدف ومراعاة حال المخاطبين في المدينة النبوية، وطريقة البناء اللفظي السهل والحكم، كما أن القافية التي ختمت بها الآيات جاءت مناسبة لمقتضى الخطاب، وجاءت الحروف الأخيرة مختارة للوقوف المريح بعد طول الفاصلة ﴿ والله مع الصابرين ﴾ ، ﴿ ذو فضل على العالمين ﴾ ﴿ وإنك لمن المرسلين ﴾ فياء المد قبل الحرف الأخير أعطت الوقوف نوعاً من الإطالة المريحة، وذلك نابع من النظم الخاص بالآيات من حيث انسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة .

وقد جمع النسق القرآني مزايا النثر والشعر جميعاً، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من شعر الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن والتي تغني عن التفاعيل والتقفية التي تغني عن القوافي ، وضم ذلك إلى الخصائص الأخرى (١).

(١) هذه الخصائص مستفادة من الكتب التالية :-

- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن .
- محمود السيد حسن، روائع الإعجاز في القصص القرآني .
- د. عدنان زرزور، علوم القرآن .
- محمد قطب، منهج الفن الإسلامي .
- د. محمود الشريف، القصة في القرآن .

الفصل الرابع

العبر من قصة طالوت وتقويمها

لقد رسم القرآن صورة طالوت في أذهان المسلمين كأعلى ما يكون من القيادة الحكيمة والملك الرشيد .. بل وطلب منا أن نستلهم من قصته العبرة، وما أكثر الدروس والعبر في تاريخ طالوت .. ومع ذلك فإن اليهود - أقمأهم الله - رسموا صورة مغايرة لشخصية طالوت، فبدأ في مروياتهم وتاريخهم كالجرم الذي كانت نهايته وخيمة.. وكل ذلك محض افتراء، كما سنبين في هذا الفصل .

المبحث الأول: المرويات الإسرائيلية للقصة

أعيد وأذكر بمراجعة ما كتبناه سابقاً في الموقف من (الإسرائيليات).. وأنا هنا أنه على أن الروايات التي سأذكرها كلها ، قد اقتبسها رواها من طريق أهل الكتاب .. حتى ما نقل عن الصحابة فهو مما أخذوه عن أهل الكتاب سواء كان ذلك عن طريق (وهب بن منبه) أو غيره.. وهذه المرويات قريبة المعنى جداً من أخبار(العهد القديم) الموجود اليوم، وربما تكون تلخيصاً له.. وقبل الدخول في الروايات أذكر أسماء وأنساب الشخصيات التي معنا:—

*اسم النبي: اتفق أغلب العلماء والمؤرخين وأهل الكتاب على أن اسم النبي(شمويل) أو (صموئيل) بحسب الكتاب المقدس، وهو نفس الاسم ، والخلاف في طريقة لفظ الحرف في اللغة العربية والعبرية، ومعناه إسماعيل بلغة العرب. ولا عبرة بقول من قال أنه (يوشع) فقد مر معنا أنه كان قبل هذا الزمان بكثير ، كما أن البعض يسميه (شمعون = سمعون) ولعله لقب له بمعنى أنه (سمع كلام الله). ونسبه كما في (سفر صموئيل ١: ١): هو ابن القانة بن يروحام بن أليهو بن توحو بن صوف. واسم أمه حنة. ((وقيل ان شمويل من عقب فورح وهو قارون بن يصهار بن قاهات بن لاوى ونسبه إليه شمويل بن القنا ابن يروحام بن اليهود بن يوحا بن صوب بن القانا بن يويل بن عزيز ابن صنعينا بن تاحت بن أسر بن القانا بن النشاسات بن قارون)) ١.

*اسم طالوت في التوراة: شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح. أضاف (الثعلبي) و(الطبري): بن أفيح بن أيش بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

أما المسعودي فيقول: طالوت وهو ساود بن بشر بن أنيال بن طرون بن بحرون بن أفيح بن سميداح بن فالخ بن بنيامين بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام^١.

*داود عليه السلام في التوراة: هو داود بن يسي، بن عوبيد، بن بوعز، بن سلمون، بن نحشون، بن عمينا داب، بن ارام، بن حصرون بن فارص بن يهوذا، بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

المطلب الأول: الرواية الأولى

قال الطبري: حدثني المشي، قال، حدثنا إسحاق بن الحجاج، قال: حدثنا إسماعيل ابن عبد الكريم^١، قال: حدثني عبد الصمد بن معقل^٢: أنه سمع وهب بن منبه يقول: كان لعيلي^٣ الذي ربي شمویل ابنان شابان، أحدثا في القربان شيئاً لم يكن فيه، وكان مسووط القربان الذي كانوا يسووطونه به كلابين^٤، فما أخرجنا كان للكاهن الذي يسووطه، فجعله ابنه كلاب، وكانا إذا جاءت النساء يصلين في القدس يتشبثان بهن. فبينما أشمويل نائم قبل البيت الذي كان ينام فيه عيلي إذ سمع صوتاً يقول: أشمويل! فوثب إلى عيلي فقال: لبيك، فقال: مالك دعوتي؟ قال: لا! ارجع فتم، فنام، ثم سمع صوتاً آخر يقول: أشمويل! فوثب إلى عيلي أيضاً، فقال: لبيك؛ مالك دعوتي؟ فقال: لم أفعل، ارجع فتم، فإن سمعت شيئاً فقل: " لبيك " مكانك، " مرني فافعل "، فرجع فنام فسمع صوتاً أيضاً يقول: أشمويل، فقال: لبيك، أنا هذا فمرني أفعل، قال: انطلق إلى عيلي، فقل له: منعه حبّ الولد من أن يزجر ابنه أن يحدثا في قدسي وقرباني، وأن يعصياني، فلأنزعنّ منه الكهانة ومن ولده، ولأهلكته وإياهما، فلما أصبح سأله عيلي فأخبره، ففرع لذلك فرعاً شديداً، فسار إليهم عدوٌّ ممن حوله، فأمر ابنه أن يخرجنا بالناس ويقاتلا ذلك العدو، فخرجنا وأخرجنا معهم التابوت^٥ الذي فيه الألواح وعصا

١ - إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه بن كامل اليماني، أبو هشام الصنعاني. قال ابن حجر: عن يحيى بن معين: ثقة، رجل صدق. توفي باليمن سنة عشر و مئتين. (تهذيب التهذيب ١ / ٣١٦)

٢ - عبد الصمد بن معقل بن منبه بن كامل اليماني، ابن أخي وهب بن منبه و همام بن منبه، وعم إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل. مات سنة ثلاث و ثمانين و مئة. قال الحافظ في (تهذيب التهذيب ٦ / ٣٢٨): يمان ثقة. اهـ

٣ - اسمه في التوراة (عالي الكاهن)، قال ابن خلدون: عالي بيطات بن حاصاب بن اليان بن فنحاص بن العيزار بن هرون وقيل من ولد ايثامار بن هارون (ابن خلدون ٢/٩٢) وقال ابن العبري: "عالي الكاهن" حكم على الرأي السبعيني عشرين سنة وعلى رأي اليهود أربعين سنة. (ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ١/١٣)

٤ - والمسووط (بكسر الميم): المسووط خشبية أو ما يشبهها، يجرى بها ما في القدر ليختلط. ساط الشيء في القدر يسووطه سوطاً: إذا حركة وخاصة، ليختلط ويمتزج. وقربان اليهود هذا هو "التقدمة"، كانت من دقيق مع زيت ولبان، يؤخذ قليل من الدقيق المقدم والزيت وكل اللبان، ويوقد على المذبح، أو يعمل منه قطائف علي صاج، وأما البقية فكانت للكهنة (قاموس الكتاب المقدس ٢: ٢٠٨). والكلاب (بضم الكاف وتشديد اللام): سفود من حديد أو خشب، في رأسه عقافة معطوفة كالخطاف، وجمعه: "كلاليب".

٥ - وهو صندوق أمر موسى عليه السلام بصنعه، صنعه (بصلتليل) الملهم في صناعة الذهب والفضة والنحاس ونجارة الخشب فصنعه من خشب السنط "وهو شجرة من صنف القرظ" وجعل طوله ذراعين ونصفاً وعرضه ذراعاً ونصفاً وارتفاعه ذراعاً ونصفاً وغشاه بذهب من داخل ومن خارج وصنع له إكليلاً من ذهب وسبك له أربع حلق من ذهب على قوائمه الأربع

موسى لينتصروا به. فلما تمهئوا للقتال هم وعدوهم جعل عيلى يتوقع الخبر: ماذا صنعوا؟ فجاءه رجل يخبره وهو قاعد على كرسية: أن ابنيك قد قتل، وأن الناس قد انهزموا، قال: فما فعل التابوت؟ قال: ذهب به العدو، قال فشهِق ووقع على قفاه من كرسية فمات، وذهب الذين سَبَّوا التابوت حتى وضعوه في بيت آلهتهم، ولهم صنم يعبدونه، فوضعوه تحت الصنم والصنم من فوقه، فأصبح من الغد الصنم تحتته، وهو فوق الصنم، ثم أخذوه فوضعوه فوقه، وسَمَّروا قدميه في التابوت، فأصبح من الغد قد قطعت يد الصنم ورجلاه، وأصبح ملقىً تحت التابوت، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء! فأخرجوه من بيت آلهتكم. فأخرجوا التابوت فوضعوه في ناحية من قريتهم، فأخذ أهل تلك الناحية التي وضعوا فيها التابوت وَجَع في أعناقهم، فقالوا: ما هذا؟ فقالت لهم جارية كانت عندهم من سبي بني إسرائيل: لا تزالون ترون ما تكرهون! ما كان هذا التابوت فيكم، فأخرجوه من قريتكم. قالوا: كذبت، قالت: إن آية ذلك أن تأتوا ببقرتين،^١ لهما أولاد لم يوضع عليهما نيرٌ قط، ثم تضعوا وراءهما العجل، ثم تضعوا التابوت على العجل وتسيروهما وتحبسوا أولادهما، فإنهما تنطلقان به مذعنتين، حتى إذا خرجتا من أرضكم ووقعتا في أدنى أرض بني إسرائيل كسرتا نيرهما، وأقبلتا إلى أولادهما، ففعلوا ذلك، فلما خرجتا من أرضهم ووقعتا في أدنى أرض بني إسرائيل، كسرتا نيرهما وأقبلتا إلى أولادهما، ووضعتاه في خربة فيها حصاد من بني إسرائيل، ففزع إليه بنو إسرائيل، وأقبلوا إليه فجعل لا يدنو منه أحد إلا مات،^٢ فقال لهم نبيهم أشمويل اعترضوا، فمن آنس من نفسه قوة فليدن منه، فعرضوا عليه الناس، فلم يقدر أحد على أن يدنو منه؛ إلا رجلان من بني إسرائيل، أذن لهما بأن يحملاه إلى بيت أمهما، وهي أرملة، فكان في بيت أمهما، حتى ملك طالوت، فصلح أمر بني

وجعل له عصوين من خشب مغشأتين بذهب لتدخل في الحلقات لحمل التابوت وجعل غطاءه من ذهب وجعل على طريق الغطاء صورة تخيل بها اثنين من الملائكة من ذهب باسطين أجنحتهما فوق الغطاء وأمر الله موسى أن يضع في هذا التابوت لوحى الشهادة اللذين أعطاه الله إياهما وهى الألواح التي ذكرها الله في قوله (ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح) [ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٤٠٧/٢].

١ - سنذكر في تفسير الآيات أن الصحيح أن الملائكة حملته وليس البقرتين.

٢ - ظاهر سياقه أن رجوع التابوت إليهم كان قبل تملك شاول! وكذلك هو في سفر (صموئيل الأول).. وصريح القرآن يخالف ذلك ويمكن تأويل كلام السفر بما يوافق هذا بأن تحمل الحوادث على غير ترتيبها في الذكر وهو كثير في كتابهم المحرف. (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٤٠٧/٢)

إسرائيل مع أشمويل^١، فقالت بنو إسرائيل لأشمويل ابعث لنا ملكاً يقاتل في سبيل الله، قال: قد كفاكم الله القتال^٢، قالوا إنا نتخوف من حولنا، فيكون لنا ملك نرفع إليه، فأوحى الله إلى أشمويل: أن ابعث لهم طالوت ملكاً وادهنه بدهن القدس، فضلت حمر لأبي طالوت، فأرسله وغلاماً له يطلبانها فجاءا إلى أشمويل يسألانه عنها، فقال إن الله قد بعثك ملكاً على بني إسرائيل، قال: أنا! قال: نعم، قال أو ما علمت أن سبطي أدنى أسباط بني إسرائيل! قال: بلى، قال: أفما علمت أن قبيلتي أدنى قبائل سبطي! قال: بلى، قال: أما علمت أن بيتي أدنى بيوت قبيلتي؟ قال: بلى، قال: فبأية آية؟ قال: بأية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره، وإذا كنت في مكان كذا وكذا نزل عليك الوحي. فدهنه بدهن القدس^٣، وقال لبني إسرائيل: "إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون

١ - قال ابن العبري: ولي أمر بني إسرائيل عشرين سنة. وكان قد بلغ شمويل النبي من العمر سبعاً وسبعين سنة حينما طلبوا منه الملك. (تاريخ مختصر الدول ١/١٣) أما ابن خلدون فيرى: أنه دبرهم عشر سنين وقال جرجيس بن العميد عشرين سنة (ابن خلدون ٢/٩٣)

٢- في الاصحاح الثامن من صموئيل الأول: "فاجتمع كل شيوخ إسرائيل، وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة. وقالوا له: هو ذا أنت قد شخت، وابناك لم يسيرا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب. فساء الأمر في عيني صموئيل، إذ قالوا أعطنا ملكاً يقضي لنا. وصلى صموئيل إلى الرب. فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت، بل إياي رفضوا، حتى لا أملك عليهم. حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أسعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركواي وعبدوا آلهة أخرى، هكذا هم عاملون بك أيضاً. فالآن اسمع لصوتهم. ولكن أشهدن عليهم، وأحبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم." (١ صم ٨: ٤-٩)

قال ابن العبري: (فعلم الله بذلك فأوحى إليه قائلاً: إن بني إسرائيل لم يعصوك أنت لكن إياي عصوا فأحبرهم إني إن نصبت لهم ملكاً استعبدهم وجعل عليهم رؤوس ألوف ومئين ويجرثوا حرثه ويجصدوا حصاده ويعملوا أدوات قتاله ومراكبه. ويتسخر بناهم كساحات وطحانات وخبازات ويختلس مزارعهم وكرومهم ويعطيها لعبيده ويعشر أموالهم وأغنمهم ودواهم فيستغيثون منه إلى فلا أحييهم يومئذ. فأعلمهم شوايل بجميع ذلك فلم يقبلوا منه ولكن ألحوا عليه قائلين: لا بد لنا من ملك يسوسنا. فقال الله: سوف أملك عليهم ملكاً). (تاريخ مختصر الدول ١/١٣)

وهكذا، أمر الله صموئيل أن يعطي الشعب ما أراد، وأن يعين له ملكاً. ولم يكن الرب يرغب أن يكون هناك ملكاً آخر بجانبه! ولكن حيث كان الشعب يرفض ملك الله عليه، لم يكن الله ليقبل أن يملك على الشعب بالقوة!!

٣ - "فأخذ صموئيل قنينة الدهن، وصب على رأس شاول." (١ صم ١٠: ١) وهذا هو ما كان بنو إسرائيل يفعلونه كلما عينوا أحداً في منصب. فقد كانوا يصبون زيتاً على رأس النبي أو الكاهن أو الملك، ليعينه. قال ابن عاشور: وجمع صمويل بني إسرائيل بعد أيام في بلد المصفاة وأحضر طالوت وعينه لهم ملكاً وذلك سنة ١٠٩٥ قبل المسيح. (التحرير والتنوير ٢/٤٠٤). وكان عمر طالوت ٣٠ سنة حين صار ملكاً (١ صم ١٣: ١)

له المُلْك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يؤتْ سَعَةً من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم " ١ .

ولما سلّمت بنو إسرائيل المُلْك لطالوت، أوحى الله إلى نبي بني إسرائيل: أن قل لطالوت: فليغزُ أهلَ مدين، فلا يترك فيها حياً إلا قتله، فإني سأظهره عليهم، فخرج بالناس حتى أتى مدين، فقتل مَنْ كان فيها، إلا ملكهم فإنه أسره، وساق مواشيهم، فأوحى الله إلى أشمويل: ألا تعجبُ من طالوت إذ أمرته بأمرٍ فاختل فيه، فجاء بملكهم أسيراً، وساق مواشيهم! فآلقه فقل له: لأنزعنَّ الملك من بيتك ثم لا يعود فيه إلى يوم القيامة، فإني إنما أكرم من أطاعني، وأهين من هان عليه أمري. فلقبه فقال له: ما صنعت! لم جئت بملكهم أسيراً، ولم سقت مواشيهم؟ قال: إنما سقت المواشي لأقربهما، قال له أشمويل: إن الله قد نزع من بيتك المُلْك ثم لا يعود فيه إلى يوم القيامة، ٢ فأوحى الله إلى أشمويل: انطلق إلى إيشى فيعرض عليك بنيه، فادهن الذي آمرك بدهن القدس، يكنُ ملكاً على بني إسرائيل. فانطلق حتى أتى إيشى، فقال: اعرض عليّ بنيك، فدعا إيشى أكبرَ ولده، فأقبل رجل جسيم حسن المنظر، فلما نظر إليه أشمويل أعجبه، فقال: الحمد لله، إن الله بصير بالعباد! فأوحى الله إليه: إن عينيك تبصران ما ظهر، وإني أطلع على ما في القلوب، ليس بهذا! فقال: ليس بهذا، اعرض عليّ غيره. فعرض عليه ستة، في كل ذلك يقول: ليس بهذا، اعرض عليّ غيره، فقال: هل لك من ولد غيرهم؟ فقال: بلى، لي غلام أمغر وهو راع في الغنم. قال: أرسل إليه، فلما أن جاء داود، جاء غلام أمغر؛ فدهنه بدهن القدس، وقال لأبيه: اكرم هذا، فإن طالوت لو يطّلع عليه قتله ٣.

١ - في سفر صمويل: أن الذين لم يرضوا به هم بنو " بليعال " فقط [وأما بنو بليعال فقالوا: كيف نخلصنا هذا؟ فاحتقروه ولم يقدموا له هدية. فكان طالوت صامتاً] (١ صم ٢٧: ١٠) والقرآن ذكر أن بني إسرائيل -على الأقل الأغلبية- رفضوه ابتداء لما ذكر، ولعل سبب إخفائهم للنص وتحريفهم هو محاولتهم إسقاط مكانة طالوت - كما سيأتي - وذلك بحذفهم ما امتدح الله به طالوت " إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم " .

٢ - إنه لغريب جداً أن يجتهد طالوت للمصلحة الدينية فيكون هذا جزاؤه!! .. وهذا من أكاذيب اليهود ولا شك .. فكيف ينسبون عظام الجرائم للأنبياء في كتابهم المخرف .. ثم يسقطون طالوت لخطأ جهادي؟

٣ - "فقال الرب لصمويل: حتى متى تنوح على شاول، وأنا قد رفضته عن أن يملك على إسرائيل. املا قرنك دهناً، وتعال أرسلك إلى يسى البيت لحمي، لأنّي قد رأيت لي في بنيه ملكاً. فقال صمويل: كيف أذهب؛ إن سمع شاول، يقتلني. فقال الرب: خذ بيدك عجلة من البقر، وقل: قد جئت لأذبح للرب. وادعُ يسى إلى الذبيحة، وأنا أعلمك ماذا تصنع، وامسح لي الذي أقول لك عنه. ففعل صمويل كما تكلم الرب، وجاء إلى بيت لحم. فارتعد شبوخ المدينة عند استقباله، وقالوا: أسلامٌ مجيئك؟ فقال: سلامٌ. قد جئت لأذبح للرب. تقدسوا وتعالوا معي إلى الذبيحة. وقدس يسى وبنيه، ودعاهم إلى الذبيحة. وكان لما جاءوا، أنّه

فسار جالوت في قومه إلى بني إسرائيل فعسكر، وسار طالوت ببني إسرائيل وعسكر،
وتهيئوا للقتال، فأرسل جالوت إلى طالوت: لم يُقتل قومي وقومك؟ ابرز لي، أو ابرز لي
من شئت، فإن قتلتك كان الملك لي، وإن قتلني كان الملك لك. فأرسل طالوت في
عسكره صائحاً: من يبرز لجالوت! ثم ذكر قصة طالوت وجالوت وقتل داود إياه، وما
كان من طالوت إلى داود.

رأى أليآب، فقال إن أمام الرب مسيحه. فقال الرب لصموئيل: لا تنظر إلى منظره وطول قامته، لأنني قد رفضته. لأنه ليس كما
ينظر الإنسان. لأن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب. فدعا يسى أبنيناداب، وعبره أمام صموئيل. فقال:
وهذا أيضاً لم يختره الرب. وعبر يسى شمه. فقال: وهذا أيضاً لم يختره الرب. وعبر يسى بنه السبعة أمام صموئيل. فقال ليسى:
الرب لم يختره هؤلاء. وقال صموئيل ليسى: هل كملوا الغلمان؟ فقال: بقي بعد الصغير، وهوذا يرعى الغنم. فقال صموئيل
ليسى: أرسل وأت به. لأننا لا نجلس حتى يأتي إلى ههنا. فأرسل وأتى به. وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. فقال
الرب: قم امسحه لأن هذا هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن، ومسحه في وسط إخوته. وحل روح الرب على داود من ذلك
اليوم فصاعداً. (اصم ١٦: ١-١٣)

المطلب الثاني: الرواية الثانية

قال الطبري: حدثني موسى بن هارون الهمداني، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط عن السدي، في خبر ذكره عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس - وعن مرة عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم^١: كانت

^١ - هذا الخبر مما نقله الصحابة رضي الله عنهم عن بعض أهل الكتاب في زمنهم، وأحسن من تكلم في هذا الإسناد (المحدث/أحمد شاكر) رحمه الله، وسأنتقل أجزاء من كلامه - بتصرف - لأهميته في معرفة الخبر الذي بين أيدينا : هذا الإسناد من أكثر الأسانيد دوراناً في الطبري، تاريخ الأمم والملوك، إن لم يكن أكثرها. وقد عرض الطبري نفسه فقال، وقد ذكر الخبر عن ابن مسعود وابن عباس بهذا الإسناد: "فإن كان ذلك صحيحاً، ولست أعلمه صحيحاً، إذ كان بإسناده مرتاباً . . .". ولم يبين علة ارتيابه في إسناده، وهو مع ارتيابه قد أكثر من الرواية به. ولكنه لم يجعلها حجة قط. بيد أني أراه إسناداً يحتاج إلى بحث دقيق. ولأئمة الحديث كلام فيه وفي بعض رجاله : أما شيخ الطبري، وهو "موسى بن هارون الهمداني": فما وجدت له ترجمة، ولا ذكراً في شيء مما بين يدي من المراجع، إلا ما يرويه عنه الطبري أيضاً في تاريخه. وما بنا حاجة إلى ترجمته من جهة الجرح والتعديل، فإن هذا التفسير الذي يرويه عن عمرو بن حماد، معروف عند أهل العلم بالحديث. وما هو إلا رواية كتاب، لا رواية حديث بعينه. "وعمر بن حماد": هو عمرو بن حماد بن طلحة القناد، وقد ينسب إلى حده، فيقال عمرو بن طلحة، وهو ثقة، روى عنه مسلم في صحيحه، وترجمه ابن سعد في الطبقات ٦: ٢٨٥، وقال: "وكان ثقة إن شاء الله" مات سنة ٢٢٢. وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٣ / ١ / ٢٢٨، وروى عن أبيه ويحيى بن معين أنهما قالاه في: "صدوق". أسباط بن نصر الهمداني: مختلف فيه، وضعفه أحمد، وذكره ابن حبان في الثقات: ٤١٠، وترجمه البخاري في الكبير ٢ / ٥٣ فلم يذكر فيه جرحاً، وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ١ / ٣٣٢، وروى عن يحيى بن معين قال: "أسباط بن نصر ثقة".

إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي: هو السدي الكبير، قرشي بالولاء، مولى زينب بنت قيس بن مخزومة، من بني عبد مناف، وهو تابعي، سمع أنساً، وروى عن غيره من الصحابة، وعن كثير من التابعين. وهو ثقة. أخرج له مسلم في صحيحه، ووثقه أحمد بن حنبل، وروى أيضاً عن أحمد، قال: "قال لي يحيى بن معين يوماً عند عبد الرحمن بن مهدي: السدي ضعيف، فغضب عبد الرحمن، وكره ما قال": وفي الميزان والتهديب "أن الشعبي قيل له: إن السدي قد أعطي حظاً من علم القرآن، فقال: قد أعطي حظاً من جهل بالقرآن!". وعندني أن هذه الكلمة من الشعبي قد تكون أساساً لقول كل من تكلم في السدي بغير حق. ولذلك لم يعأ البخاري بهذا القول من الشعبي، ولم يروه، بل روى في الكبير عن مسدد عن يحيى قال: "سمعت ابن أبي خالد يقول: السدي أعلم بالقرآن من الشعبي". وروى في تاريخه عن ابن المديني عن يحيى، وهو القطان، قال: "ما رأيت أحداً يذكر السدي إلا بخير، وما تركه أحد". وتوفي السدي سنة ١٢٧.

و "السدي": بضم السين وتشديد الدال المهملتين، نسبة إلى "السدة"، وهي الباب، لأنه كان يجلس إلى سدة الجامع بالكوفة، ويبيع بها المقانع.

أبو مالك: هو الغفاري، واسمه غزوان. وهو تابعي كوفي ثقة. ترجمه البخاري في الكبير ٤ / ١ / ١٠٨، وابن سعد في الطبقات ٦: ٢٠٦، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٥٥.

أبو صالح: هو مولى أم هانئ بنت أبي طالب، واسمه باذام، ويقال باذان. وهو تابعي ثقة، وترجمه البخاري في الكبير ٢ /

١٤٤

هذا عن القسم الأول من هذا الإسناد. فإنه في حقيقته إسنادان أو ثلاثة. أولهما هذا المتصل بابن عباس.

بنو إسرائيل يقاتلون العمالقة، وكان ملك العمالقة (جالوت)، وأنهم ظهروا على بني إسرائيل فضربوا عليهم الجزية، وأخذوا توراتهم، فكانت بنو إسرائيل يسألون الله أن

والقسم الثاني ، أو الإسناد الثاني : "وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود" . والذي يروي عن مرة الهمداني : هو السدي نفسه .
ومرة : هو ابن شراحيل الهمداني الكوفي ، وهو تابعي ثقة ، من كبار التابعين ، ليس فيه خلاف بينهم .
والقسم الثالث ، أو الإسناد الثالث : "وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم" .
وهذا أيضًا من رواية السدي نفسه عن ناس من الصحابة .
فالسدي يروي هذه التفسير لآيات من القرآن : عن اثنين من التابعين عن ابن عباس ، وعن تابعي واحد عن ابن مسعود ، ومن رواية نفسه عن ناس من الصحابة .
وللعلماء الأئمة الأقدمين كلام في هذا التفسير ، بهذه الأسانيد ، قد يوهم أنه من تأليف من دون السدي من الرواة عنه ، إلا أني استيقنت بعدُ ، أنه كتاب ألفه السدي .
والذي يرجح أنه كتاب ألفه السدي ، جمع فيه التفسير ، بهذه الطرق الثلاث ، قول أحمد بن حنبل في التهذيب ١ : ٣١٤ ، في ترجمة السدي : "إنه ليحسن الحديث، إلا أن هذا التفسير الذي يجيء به ، قد جعل له إسنادًا ، واستكلفه" . وقول الحافظ في التهذيب أيضًا ١ : ٣١٥ : "قد أخرج الطبري وابن أبي حاتم وغيرهما ، في تفاسيرهم ، تفسير السدي ، مفرقًا في السور ، من طريق أسباط بن نصر عنه" .
وقول السيوطي في الإتيان ٢ : ٢٢٤ فيما نقل عن الخليل في الإرشاد : "وتفسير إسماعيل السدي ، يورده بأسانيد إلى ابن مسعود وابن عباس . وروى عن السدي الأئمة ، مثل الثوري وشعبة . ولكن التفسير الذي جمعه ، رواه أسباط بن نصر . وأسباط لم يتفقوا عليه . غير أن أمثل التفسير تفسير السدي" . ثم قال السيوطي : "وقد قال ابن كثير : إن هذا الإسناد يروي به السدي أشياء فيها غرابة" .
أما كلمة الإمام أحمد بن حنبل في السدي "إلا أن هذا التفسير الذي يجيء به ، قد جعل له إسنادًا واستكلفه" فإنه لا يريد ما قد يفهم من ظاهرها : أنه اصطنع إسنادًا لا أصل له ؛ إذ لو كان ذلك ، لكان -عنده- كذابًا وضاعًا للرواية . ولكنه يريد -فيما أرى ، والله أعلم- أنه جمع هذه التفسير ، من روايته عن هؤلاء الناس : عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة ، ثم ساقها كلها مفصلة ، على الآيات التي ورد فيها شيء من التفسير ، عن هذا أو ذاك أو أولئك ، وجعل لها كلها هذا الإسناد ، وتكلف أن يسوقها به مساقًا واحدًا .
أعني : أنه جمع مفرق هذه التفسير في كتاب واحد ، جعل له في أوله هذه الأسانيد . يريد بما أن ما رواه من التفسير في هذا الكتاب ، لا يخرج عن هذه الأسانيد . ولا أكاد أعقل أنه يروي كل حرف من هذه التفسير عنهم جميعًا . فهو كتاب مؤلف في التفسير ، مرجع فيه إلى الرواية عن هؤلاء ، في الجملة ، لا في التفصيل .
إنما الذي أوقع الناس في هذه الشبهة ، تفريق هذه التفسير في مواضعها ، مثل صنيع الطبري بين أيدينا ، ومثل صنيع ابن أبي حاتم ، فيما نقل الحافظ ابن حجر ، ومثل صنيع الحاكم في المستدرک . فأنا أكاد أجزم أن هذا التفريق خطأ منهم ، لأنه يوهم القارئ أن كل حرف من هذه التفسير مروى بهذه الأسانيد كلها ، لأنهم يسوقونها كاملة عند كل إسناد ، والحاكم يختار منها إسنادًا واحدًا يذكره عند كل تفسير منها يريد روايته . وقد يكون ما رواه الحاكم -مثلاً- بالإسناد إلى ابن مسعود ، ليس مما روى السدي عن ابن مسعود نصًا . بل لعله مما رواه من تفسير ابن عباس ، أو مما رواه ناس من الصحابة ، روى عن كل واحد منهم شيئًا ، فأسند الجملة ، ولم يسند التفاصيل .
ولم يكن السدي يبدع في ذلك ، ولا يكون هذا جرحًا فيه ولا قدحًا . إنما يريد إسناد هذه التفسير إلى الصحابة ، بعضها عن ابن عباس ، وبعضها عن ابن مسعود ، وبعضها عن غيرهما منهم . [انظر: تفسير الطبري، بتحقيق /أحمد شاكر، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، مؤسسة الرسالة، ١/١٥٦]

يبعث لهم نبياً يقاتلون معه، وكان سبط النبوة قد هلكوا، فلم يبق منهم إلا امرأة حُبلى فأخذوها فحبسوها في بيت، رهبة أن تلد جارية فتبدله بغلام، لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها، فجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاماً، فولدت غلاماً فسمته (سمعون)، تقول: الله سمع دعائي. فكبر الغلام فأسلمته يتعلم التوراة في بيت المقدس وكفله شيخ من علمائها وتبناه فلما بلغ الغلام أن يبعثه الله نبياً، أتاه جبريل والغلام نائم إلى جنب الشيخ، وكان لا يأمن عليه أحداً غيره فدعاه بلحن الشيخ: يا شمویل، فقام الغلام فرعاً إلى الشيخ، فقال: يا أبتاه، دعوتني! فكره الشيخ أن يقول: لا فيفرع الغلام، فقال: يا بني، ارجع فتم، فرجع الغلام فنام. ثم دعاه الثانية فلباه الغلام أيضاً، فقال: دعوتني! فقال ارجع فتم، فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني، فلما كانت الثالثة ظهر له جبرئيل عليه السلام فقال: اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك، فإن الله قد بعثك فيهم نبياً. فلما أتاهم كذبوه وقالوا: استعجلت بالنبوة وقالوا: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً يقاتل في سبيل الله، آية من نبوتك، قال لهم سمعون: عسى إن كُتِبَ عليكم القتال ألا تقاتلوا.

قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا بأداء الجزية، فدعا الله فأتى بعصاً، تكون مقداراً على طول الرجل الذي يُبعث فيهم ملكاً، فقال: إن صاحبكم يكون طوله طول هذه العصا، ففاسوا أنفسهم بها، فلم يكونوا مثلها، وكان طالوت رجلاً سقاءً يستقي على حمار له، فضل حماره، فانطلق يطلبه في الطريق، فلما رآه دعوه ففاسوه بها فكان مثلها؛ وقال لهم نبيهم: "إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً" قال القوم: ما كنت قط أكذب منك الساعة، ونحن من سبط المملكة، وليس هو من سبط المملكة، ولن يؤت أيضاً سعة من المال فنتبعه لذلك، فقال النبي: "إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم"، فقالوا: فإن كنت صادقاً فأتنا بآية أن هذا ملك، قال: "إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيته مما ترك آل موسى وآل هارون"... فأصبح التابوت وما فيه في دار طالوت، فأمنوا بنبوة سمعون، وسلّموا الملك لطالوت.

١ - قال عكرمة والسدي كان سقاءً وقال وهب بن منبه كان دباغا. وقيل كان مكاريا.

فخرجوا معه وهم ثمانون ألفاً^١، وكان جالوت من أعظم الناس وأشدهم بأساً يخرج يسير بين يدي الجند، ولا يجتمع إليه أصحابه حتى يهزم هو من لقي، فلما خرجوا قال لهم طالوت: " إن الله مبتليكم بنهر^٢ فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني " وهو نهر فلسطين^٣، فشربوا منه هيباً من جالوت، فعبر معه منهم أربعة آلاف ورجع ستة وسبعون ألفاً، فمن شرب منه عطش، ومن لم يشرب منه إلا غرفة روى، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه، فنظروا إلى جالوت رجوعاً أيضاً وقالوا: " لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين". فرجع عنه أيضاً ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة وثمانون، وخلص في ثلاثمائة وتسعة عشر عدة أهل بدر.

" ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً " فعبر يومئذ أبو داود فيمن عبر في ثلاثة عشر ابناً له، وكان داود أصغر بنيه وإنه أتاه ذات يوم فقال: يا أبتاه، ما أرمي بقذافتي شيئاً إلا صرعته، قال: أبشر يا بني، إن الله قد جعل رزقك في قذافتك، ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا أبتاه لقد دخلت بين الجبال فوجدت أسداً رابضاً فركبت عليه وأخذت بأذنيه فلم يهجنني، فقال: أبشر يا بني، فإن هذا خيرٌ يعطيكه الله، ثم أتاه يوماً آخر، فقال: يا أبتاه إني لأمشي بين الجبال فأسبح فلا يبقى جبل إلا سبّح معي، فقال: أبشر يا بني، فإن هذا خيرٌ أعطاكه الله - وكان داود راعياً، وكان أبوه خلفه يأتي إلى أبيه وإلى إخوته بالطعام - فأتى النبي عليه السلام بقرن فيه دهن وتور من حديد، فبعث

١ - قال ابن كثير تعقيماً على هذا الرقم الخيالي: (وقول السدي أن عدة الجيش كانوا ثمانين ألفاً فيه نظر، لان أرض بيت المقدس لا تحتمل أن يجتمع فيها جيش مقاتلة يبلغون ثمانين ألفاً والله أعلم.) [ابن كثير، البداية والنهاية ١٠/٢].

٢ - لم تذكر التوراة المحرفة هذا الأمر بترك شرب الماء من النهر حين مرور الجيش في قصة شاول وإنما ذكرت قريباً منه، قال في سفر صمويل لما ذكر أشد وقعة بين اليهود وأهل فلسطين: "وظنك رجال إسرائيل في ذلك اليوم؛ لأن شاول حلف القوم قائلاً: ملعون من يأكل خبزاً إلى المساء حتى انتقم من أعدائي". ولكني أحزم أنها ليست المذكورة في القرآن، إذ أنها مختلفة من حيث وقائع المعركة والهدف ونوعية الاختبار.

وذكر في سفر (القضاة) في الإصحاح السابع مثل واقعة النهر في حرب (جدعون) قاضي إسرائيل للمدبانين، وهذا من أقوى الأدلة على تحريف كتابهم، فحادثة الاختبار بالنهر بالتفاصيل المذكورة في كتابهم ليست إلا لطالوت، والظاهر أن الواقعة أهملتها كتبهم في أخبار شاول حتى لا يكون له صفة يمدح بها.

٣ - قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشرية... وروى ابن عساکر عن سعيد بن عبدالعزيز: أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذي هناك هو المذكور في الآية فإله أعلم. (ابن كثير، البداية والنهاية ٩/٢ - ١٣/٢).

به إلى طالوت، قال: إن صاحبكم الذي يقتل جالوت يوضع هذا القرن على رأسه، فيغلي حتى يدهن منه ولا يسيل على وجهه، ويكون على رأسه كهينة الإكليل، ويدخل في هذا التنور فيملأه. فدعا طالوت بني إسرائيل، فجرّبهم به فلم يوافقهم منهم أحد، فلما فرغوا قال طالوت لأبي داود: هل بقي لك ولد لم يشهدنا؟ قال: نعم، بقي ابني داود، وهو يأتينا بطعام، فلما أتاه داود مرّ في الطريق بثلاثة أحجار فكلّمه وقلن له: خذنا يا داود تقتل بنا جالوت، قال: فأخذهنّ وجعلهنّ في مخلاته، وكان طالوت قد قال: من قتل جالوت زوجته ابني، وأجريت خاتمه في ملكي، فلما جاء داود وضعوا القرن^١ على رأسه، فعلى حتى ادهن منه، ولبس التنور فملأه، وكان رجلاً مسقماً مصفراً، ولم يلبسه أحد إلا تقلقل فيه، فلما لبسه داود تضايق التنور عليه حتى تنقّض، ثم مشى إلى جالوت، وكان جالوت من أجسم الناس وأشدّهم، فلما نظر إلى داود قذف في قلبه الرعب منه، فقال له: يا فتى، ارجع فإني أرحمك أن أقتلك، فقال داود: لا بل أنا أقتلك. فأخرج الحجارة فوضعها في القذافة، كلما رفع منها حجراً سمّاه، فقال: هذا باسم أبي إبراهيم، والثاني باسم أبي إسحاق، والثالث باسم أبي إسرائيل، ثم أدار القذافة فعادت الأحجار حجراً واحداً، ثم أرسله فصكّ به بين عيني جالوت فنقبت رأسه، ثم قتله؛ فلم تزل تقتل كلّ إنسان تصيبه تنفذ فيه، حتى لم يكن بجياها أحد، فهزموهم عند ذلك، وقتل داود جالوت، ورجع طالوت فأنكح داود ابنته، وأجرى خاتمه في ملكه، فمال الناس إلى داود وأحبوه.

فلما رأى ذلك طالوت وجد في نفسه وحسده، وأراد قتله^٢، فعلم داود أنه يريد به بذلك، فسجّى له زقّ خمر في مضجعه، فدخل طالوت إلى منام داود وقد هرب داود، فضرب الزقّ ضربة فخرقه، فسالت الخمر منه، فوقعت قطرة من خمر في فيه، فقال: يرحم الله داود، ما كان أكثر شربه للخمر ثم إن داود أتاه من القابلة في بيته وهو نائم،

١ - القرن : قرن الثور وغيره ، وكأنه أراد هنا : القنينة التي يكون فيها الدهن والطيب ، وكأنهم كانوا يتخذونها من قرون البقر

٢ - نص التوراة الحالية بسفر صموئيل: "وكان عند مجيئهم، حين رجع داود من قتل الفلسطينيين، أن النساء خرجت من جميع مدن إسرائيل بالغناء والرقص، للقاء شاول الملك بدفوف وبفرح ويمثلات. فأجابت النساء اللاعبات وقلن: ضرب شاول أئوفه، وداود ربواته. فاحتسى شاول جداً، وساء هذا الكلام في عينيه، وقال: أعطين داود ربواتي، وأما أنا فأعطيني الألوف. وبعد فقط تبقّى له المملكة. فكان شاول يعاين داود من ذلك اليوم فصاعداً." (١صم ١٨: ٦-٩)

فوضع سهمين عند رأسه، وعند رجله وعن يمينه وعن شماله سهمين سهمين، ثم نزل. فلما استيقظ طالوت بصراً بالسهم فعرّفها فقال: يرحم الله داود، هو خيرٌ منّي، ظفرت به فقتلته وظفر بي فكفّ عني! ثم إنه ركب يوماً لوحده يمشي في البرية، وطالوت على فرس، فقال طالوت: اليوم أقتل داود - وكان داود إذا فزع لم يدرك - فركض على أثره طالوت، ففزع داود، فاشتدّ فدخل غاراً، فأوحى الله إلى العنكبوت فضربت عليه بيتاً، فلما انتهى طالوت إلى الغار نظر إلى بناء العنكبوت^١، فقال: لو كان دخلها هنا لخرق بيت العنكبوت، فخيّل إليه فتركه.

وطعن العلماء على طالوت في شأن داود، فجعل طالوت لا ينهأ أحدٌ عن داود إلا قتله، وأغراه الله بالعلماء يقتلهم^٢، فلم يكن يقدر في بني إسرائيل على عالم يطيق قتله إلا قتله، حتى أتى بامرأة تعلم اسم الله الأعظم، فأمر الحبّاز أن يقتلها، فرحمها الحبّاز، وقال: لعلنا نحتاج إلى عالم. فتركها، فوقع في قلب طالوت التوبة وندم، وأقبل على البكاء حتى رحمه الناس، وكان كل ليلة يخرج إلى القبور فيبكي، وينادي: أنشد الله عبداً علم أن لي توبةً إلا أخبرني بها! فلما أكثر عليهم ليالي، ناداه منادي من القبور: أن يا طالوت، أما ترضى أن قتلنا أحياء حتى تؤذينا أمواتاً! فازداد بكاءً وحزناً، فرحمه الحبّاز فكلّمه فقال: مالك؟ فقال: هل تعلم لي في الأرض عالماً أسأله: هل لي من توبة؟ فقال له الحبّاز: هل تدري ما مثلك؟ إنما مثلك مثل ملك نزل قريةً عشاءً فصاح الديك، فطير منه، فقال: لا تتركوا في القرية ديكاً إلا ذبحتموه، فلما أراد أن ينام قال: إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج، فقالوا له: وهل تركت ديكاً يُسمع صوته! ولكن هل تركت عالماً في الأرض! فازداد حزناً وبكاءً، فلما رأى الحبّاز منه الجدّ، قال: رأيتك إن دلتك على عالم لعلك أن تقتله! قال: لا، فتوثق عليه الحبّاز، فأخبره أن المرأة العالمة

١ - لم تذكر التوراة حكاية بيت العنكبوت .. ولعل هذا من إدراج بعض الرواة اقتباساً وخطأً مع قصة الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

٢ - يخرّنا الكتاب أنه بعد ما عيّن شاول ملكاً بعدة سنوات: "كان كلام الربّ إلى صموئيل قائلاً: نديمتُ على أنّي قد جعلت شاول ملكاً، لأنه رجع من ورائي ولم يُقيم كلامي. فاغتاض صموئيل، وصرخ إلى الربّ الليل كلّهُ. فبكر صموئيل للقاء شاول صباحاً .. ولما جاء صموئيل إلى شاول، قال له شاول: مباركٌ أنت للرب؛ قد أقيمتُ كلام الرب. .. فقال صموئيل: هل مسرةُ الربّ بالخرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب. هو ذا الاستماع أفضل من الذبيحة، والإصغاء أفضل من شحم الكباش. لأن التمرد كخطيئة العرافة، والعناد كالوثن والتراقيم. لأنك رفضت كلام الرب، رَفَضَكَ من الملك." (١صم ١٥: ١٠-٢٣) يا لله العجب .. ينسون الندم لله !! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً

عنده، قال: انطلق بي إليها أسألها هل لي من توبة؟ وكان إنما يعلم ذلك الاسم أهل بيت؛ إذا فئيت رجالهم علمت النساء، فقال: إنما إن رأيتك غشيَ عليها، وفزعتُ منك، فلما بلغ الباب خلفه خلفه، ثم دخل عليها الخباز، فقال لها: ألسنتُ أعظم الناس منة عليك؟ أنجيتك من القتل، وآويتك عندي. قالت: بلى، قال: فإن لي إليك حاجة، هذا طالوت يسألك: هل له من توبة؟ فغشي عليها من الفرق، فقال لها: إنه لا يريد قتلك، ولكن يسألك: هل له من توبة؟ قالت: لا، والله ما أعلم لطالوت توبةً، ولكن هل تعلمون مكان قبر نبي؟ قالوا: نعم هذا قبر يوشع بن نون، فانطلقت وهما معها إليه، فدعت، فخرج يوشع بن نون ينفض رأسه من التراب^١، فلما نظر إليهم ثلاثتهم قال: ما لكم؟ أقامت القيامة؟ قالت: لا، ولكن طالوت يسألك: هل له من توبة؟ قال يوشع: ما أعلم لطالوت من توبة إلا أن يتخلى من ملكه، ويخرج هو وولده فيقاتلون بين يديه في سبيل الله، حتى إذا قُتلوا شدَّ هو فقتل؛ فعسى أن يكون ذلك له توبة، ثم سقط ميتاً في القبر. ورجع طالوت أحزن ما كان، رهبة ألا يتابعه ولده، فبكى حتى سقطت أشجار عينيه، ونحلَّ جسمه، فدخل عليه بنوه وهم ثلاثة عشر رجلاً فكلّموه وسألوه عن حاله، فأخبرهم خبره، وما قيل له في توبته، فسألهم أن يغزوا معه، فجهزهم فخرجوا معه، فشدوا بين يديه حتى قتلوا، ثم شدَّ بعدهم هو فقتل^٢، وملك داود بعد ذلك، وجعله الله نبياً، فذلك قوله عز وجل: " وآتاه الله الملك والحكمة "

قال ابن كثير تعقيباً على هذه القصة: (وفي بعض هذا نظر ونكارة. والله أعلم)^٣.

١ - قال ابن كثير: لعله إنما رآه في النوم لا أنه قام من القبر حياً فإن هذا إنما يكون معجزة لنبي وتلك المرأة لم تكن نبيه والله أعلم. (ابن كثير، البداية والنهاية ١٢/٢)

٢ - مدة ملك طالوت من أولها إلى أن قتل في الحرب مع ولده كانت أربعين سنة.

٣ - ابن كثير، البداية والنهاية ١١/٢.

المطلب الثالث: الرواية الثالثة

قال الطبري: حدثني يونس بن عبد الأعلى^١، قال: أخبرنا ابن وهب^٢، قال: حدثني ابن زيد^٣، في قول الله: " ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت " إلى قوله: " والله عليم بالظالمين " قال: أوحى الله إلى نبيهم أن في ولد فلان رجلاً يقتل الله به جالوت، ومن علامته هذا القرن يضعه على رأسه فيفيض ماء، فأتاه فقال: إن الله عز وجل أوحى إليّ أن في ولدك رجلاً يقتل الله به جالوت. فقال: نعم يا نبي الله، قال: فأخرج له اثني عشر رجلاً أمثال السواري وفيهم رجلاً بارع عليهم، فجعل يعرضهم على القرن فلا يرى شيئاً، فيقول لذلك الجسم: ارجع، فيرده عليه، فأوحى الله إليه: إنا لا نأخذ الرجال على صورهم، ولكننا نأخذهم على صلاح قلوبهم، قال: يا رب، قد زعم أنه ليس له ولد غيره، فقال: كذب، فقال: إن ربي قد كذبك، وقال: إن لك ولداً غيرهم. قال: قد صدق يا نبي الله إن لي ولداً قصيراً استحيت أن يراه الناس فجعلته في الغنم، قال: فأين هو؟ قال: في شُعب كذا وكذا، من جبل كذا وكذا، فخرج إليه فوجد الوادي قد سال بينه وبين البقعة التي كان يريح إليها. قال: ووجدته يحمل شاتين شاتين، يُجيزُ بهما السيل ولا يخوض بهما السيل. فلما رآه قال: هذا هو، لا شك فيه، هذا يرحم البهائم، فهو بالناس أرحم! قال: فوضع القرن على رأسه ففاض.

١ - يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص بن حبان الصدقي، أبو موسى المصري. أحد الأئمة، ثقة فقيه محدث مقرأء قال الحافظ في تهذيب التهذيب (١١ / ٤٤١): و كان إماماً في القراءات، قرأ على ورش وغيره، و قرأ عليه ابن جرير الطبري وجماعة.

٢ - عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي الفهري، أبو محمد المصري. ثقة حافظ عابد.

٣ - عبد الرحمن بن زيد بن أسلم القرشي العدوي، المدني، مولى عمر بن الخطاب. قال الحافظ في تهذيب التهذيب (٦ / ١٧٨)، قال ابن حبان: كان يقلب الأخبار و هو لا يعلم، حتى كثر ذلك في روايته من رفع المراسيل، و إسناد الموقوف، فاستحق الترك. قال ابن الجوزي: أجمعوا على ضعفه.

المبحث الثاني: طالوت الملك الصالح

أحببت أن أنبه إلى خطورة ما نسبته أهل الكتاب إلى (طالوت) من جرائم وافتراءات، سواء كان ذلك في سفر (صموئيل الأول) أو في (الإسرائيليات) التي تعد ملخصاً لذلك السفر ومن ذلك:

أ/قالوا: إن الله ندم على اختياره ملكاً، وأنه اختار داود بدلاً منه ، بسبب خطأ اجتهادي بسيط ومع ذلك لم تقبل حتى توبته:

((قال له شمويل: ربك يقول لك أن تقاتل العمالقة وتبيدهم وتقتل رجالهم ونساءهم وولدانهم وماشيتهم. فسار شاول نحو العمالقة وأبادهم وأسر ملكهم ولم يقتله وأبقى أيضاً نقاوة ماشيتهم. فأوحى الله إلى شمويل يقول له: إني قد رذلت شاول لمخالفته إياي. فاشتد ذلك على شمويل وقال لشاول: ما لي أسمع ثغاء الغنم وخوار البقر. فأجابه شاول قائلاً: إن بني إسرائيل أقبلوا بما ليذبوها لله ربك. فقال له شمويل: أولم تعلم أن الله لا يرضى بالذبائح كمرضاته عمن يطيع أمره قد أسخطت ربك ، رذلك من الملك بمعصيتك له. فقال شاول: استغفر الله فقد أخطأت وأريد أن ترجع معي حتى أسجد له وأتوب إليه. فأبى عليه شمويل وجلس حزيناً. فأوحى الله إليه: حتام تحزن على شاول قم وانطلق إلى شخص اسمه ايشي من قرية بيت لحم فقد ارتضيت من بنيه ملكاً)).^١

ب/ قالوا: إنه أصيب ببلوثة عقلية ، ونوع من الصرع .. وأن علاجه كان بسماع الغناء من داود !

((وكان شاول قد أصابه ربح سوء فقيل له: ليكون عندك إنسان جيد الضرب بالصنج ذي الأوتار ليلهيك عما بك. ووصف له داود أنه ماهر في ذلك. فطلبه من أبيه وكان يلهيه. وكانت بنات إسرائيل بعد قتل داود جوليات يغنين ويفرحن ويقلن: قتل شاول ألوفاً وداود عشرات ألوفاً. فحسد شاول داود)).^٢

١ - ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٤٦/١ ، وانما نقلنا كلامه لأنه خلاصة ما في (العهد القديم).

٢ - نفس المصدر ٤٧/١

ج/ قالوا: أنه طلب مهر ابنته ٢٠٠ آلة ذكورة للأعداء!! وأنه حتى ابنته وابنه كانا مع داود ضد والدهما:

((وقال يوماً: من أتاني بغرلة مائتي فلسطيني زوجته ابنتي ملكيل. فخرج داود وقتل منهم مائتي رجل وأتاه بغرلهم فزوجه إياها فأحبت داود حباً شديداً ، وكذلك أخوها يونانان وجميع بني إسرائيل. وحذر يونانان داود من أبيه وهربه إلى بعض الجبال))^١ .

د/ قالوا: ملأت الغيرة قلب شاول، حتى أن كل ما كان يستحوذ على تفكيره، هو كيف يستطيع التخلص من داود. ومن ثم، هرب داود إلى الصحراء، واختبأ فيها، مع أربعمئة رجل إسرائيلي كانوا يتبعونه. وكان شاول وجنوده يبحثون عن داود ورجاله في البرية. وفعل شاول كل ما كان في وسعه ليقبض على داود، ويقتله. ولكنه لم يستطع أن يفعل هذا، لأن الله كان مع داود.

ونقرأ في سفر صموئيل الأول، في الإصحاح الثاني والعشرين: "وجاء بعض الناس إلى شاول، وأخبروه قائلين: هوذا داود في برية عين جدي. فأخذ شاول ثلاثة آلاف رجلٍ منتخبين من جميع إسرائيل، وذهب يطلب داود ورجاله على صخور الوعول. وجاء إلى صير الغنم التي في الطريق، وكان هناك كهفٌ، فدخل شاول لكي يُغطي رجله، وداود ورجاله كانوا جلوساً في مغابن الكهف. فقال رجال داود له: هو ذا اليوم الذي قال لك عنه الربُّ، هأنذا أدفع عدوك ليدك، فتفعل به ما يحسنُ في عينيك. فقام داود، وقطع طرفَ جبَّةِ شاول سراً. وكان بعد ذلك، أن قلب داود ضربه على قطعهِ طرفِ جبَّةِ شاول. فقال لرجاله: حاشا لي من قبلِ الربِّ أن أعمل هذا الأمر بسيدي، بمسيحِ الربِّ، فأمد يدي إليه لأنه مسيحِ الربِّ هو. فوبخ داود رجاله بالكلام، ولم يدعهم يقومون على شاول. وأما شاول، فقام من الكهف، وذهب في طريقه. ثم قام داود بعد ذلك، وخرج من الكهف، ونادى وراءَ شاول قائلاً: يا سيدي الملك. ولما التفت شاول إلى ورائه، خرَّ داود على وجهه إلى الأرض، وسجد. وقال داود إلى شاول: لماذا تسمع كلام الناس القائلين، "هوذا داود يطلب أذيتك"؟. هو ذا قد رأيت عينك اليوم هذا، كيف دفعك الربُّ اليوم ليدي في الكهف، وقيل لي أن أقتلك، ولكنني أشفقت عليك، وقلت لا أمدُّ يدي إلى سيدي، لأنه مسيحِ الربِّ هو. فانظر يا أي، انظر أيضاً طرفَ

جُبَّتْكَ بيدي. فمن قطعي طرف جُبَّتِكَ، وعدم قتلي إياك، اعلم وانظر أنه ليس في يدي شرٌ ولا جرمٌ، ولم أخطئ إليك، وأنت تصيد نفسي لتأخذها. يقضي الربُّ بيني وبينك، وينتقم لي الربُّ منك، ولكن يدي لا تكونُ عليك. كما يقول مثل القدماء، من الأشرار يخرجُ شرٌ. ولكن يدي لا تكون عليك." (١ صم ٢٤: ١٠-١٣).

”فلما فرغ داود من التكلم بهذا الكلام إلى شاول، قال شاول: أهذا صوتك يا ابني داود؟ ورفع شاول صوته، وبكى. ثم قال لداود: أنت أبرُّ مني، لأنك جازيتني خيراً، وأنا جازيتك شراً. وقد أظهرت اليوم، أنك عملتَ بي خيراً، لأنَّ الربَّ قد دفعني بيدك، ولم تقتلني. فإذا وجد رجلٌ عدوه، فهل يطلقه في طريقٍ خيرٍ؟ فالربُّ يجازيك خيراً عما فعلته لي اليوم هذا.“ (١ صم ٢٤: ١٦-٢٠).

وبعد ذلك، عاد شاول إلى بيته. ولكن، لم يمر وقت طويل قبل أن بدأت الغيرة تستحوذ على قلبه مرة أخرى، وتدفعه للرجوع إلى البرية، ليستأنف بحثه عن داود. وظل شاول يفعل ذلك لمدة ثماني سنوات؛ وكل ذلك كان بدافع الغيرة! ومع ذلك، كان الله في كل مرة، ينقذ داود من يد شاول.

هـ/ قالوا: أن طالوت نال عقابه بأن مات منتحراً!:

"وحارب الفلسطينيون إسرائيل، فهرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيين، وسقطوا قتلى في جبل جلبوع. فشد الفلسطينيون وراء شاول وبنيه، وضرب الفلسطينيون يوناثان وأبينادب وملكيشوع، أبناء شاول. واشتدت الحرب على شاول، فأصابه الرماة رجال القسي، فأنجرح جداً من الرماة. فقال شاول لحامل سلاحه: استل سيفك واطعني به، لئلا يأتي هؤلاء الغلف، ويطعنوني ويُقبِّحوني. فلم يشأ حامل سلاحه، لأنه خاف جداً. فأخذ شاول السيف، وسقط عليه." (١ صم ٣١: ١-٤).

وفي هذا اليوم، مات شاول وأبناؤه الثلاثة. وهكذا فني كل نسل شاول تماماً كما قالوا.

والجواب عن ذلك:

أن الذي نعتقده تماماً أن (طالوت) بريء من ذلك كله، بل كان - عليه السلام - مثلاً رائعاً في القيادة الرشيدة، وملكاً عادلاً مسدداً..والذي يثبت لنا ذلك أمور هامة، وهي كالآتي: -

أولاً: اصطفاء الله له: وقد بينت الآيات أن أول سبب في اختياره للملك هو ذلك، "إن الله اصطفاه عليكم" فكيف يصطفيه رب العالمين، وهو العليم بالخلق أجمعين، ثم يحدث من طالوت هذه الأمور العظام! "الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس" [الحج: ٧٥].

ثانياً: أنه من العلماء: وقد وصفه الله بالغاية في العلم "وزاده بسطة في العلم" وقد بين سبحانه أن أخشى الناس لله هم العلماء "إنما يخشى الله من عباده العلماء"، وأبعد الناس عن الانحراف والزلل في الدين هم العلماء، وذلك أن العلم حصن منيع يحمي من السقوط في الرذائل.

ثالثاً: ذكر اسمه: لقد جاءت الآيات بالتنصيص على اسمه (طالوت) في سياق المدح له، ووصفه بأحسن ما يتمناه المرء.. وقد علم رب العالمين أن المسلمين الذين يعتمدون على كتاب الله الكريم في تقويمهم للناس سيمدحون (طالوت) تبعاً لمدح الله له، فهل يصح أن يغفل القرآن عن هذا الأمر مع أهمية تبيانه للناس؟

رابعاً: الاستقراء للقرآن: فإنه لم يرد في الكتاب الكريم أن يمدح الله أحداً ويزكاه، ثم يحتج له بالخاتمة السيئة ولا يبين القرآن ذلك، وهذا من المعلوم بالتتابع لقصص القرآن.

خامساً: رمز الخير: فإن أعظم عبرة في الآيات ما ورد في ختامها من المدافعة بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض" وما قصة طالوت وجالوت إلا مثال للصراع، فقد كان طالوت يمثل رمز الخير، بينما جالوت يمثل رمز الشر.. فكيف يكون من جعله الله رمزاً للخير (طالوت) ينتهي بهذه النهاية البئيسة! حاشا طالوت من ذلك.

سادساً: حقد اليهود: لقد بينت الآيات القرآنية أن اليهود قبلوا بحكم طالوت على مضمض، وذلك لفقره ودنوّ نسبه، وبالجانب المقابل فقد سار بهم طالوت سيرة الحزم والشدة حتى يستقيم له الملك، كما هو واضح من اختباره لهم بعدم الشرب من ماء النهر. وقد بقيت هذه النظرة الدونية لطالوت وبغضهم لسياسته من قبل اليهود متوارثة في الأجيال اللاحقة بعد ذهاب ملكه، وهو ما جعلهم يلفقون الأكاذيب في محاولة منهم لإسقاط قدره ومكانته.

سابعاً: محبة داود له: فإن من التناقض العجيب في كتابهم المحرف أن يزعموا أن طالوت كان يحاول قتل النبي داود عليه السلام - وقتل النبي ردّة عن الدين - وأن داود استعان في حربه ضد طالوت حتى بالمشركين من الأمم الأخرى.. ثم نفاجاً أن داود عليه السلام يجزن عليه جداً ويرثيه بمرثية طويلة، بل ويقتل قاتله:

((وجاء شخص من بني إسرائيل وادعى انه قتل شاول. فقال له داود: كيف طاوعتك نفسك أن تقتل مسيح الله فقتله. وناح داود وأصحابه على شاول ويوناثان ابنه ورثاهما قائلاً: إن حجة شاول مصبوغة بدم القتلى وقوس يوناثان لم تكن تنثني إلى وراثتها وحرية شاول لم تكن تنثني. لقد كان أخف من النسور سيراً وأشجع من الأسد بطشاً. يا بنات إسرائيل ابكين شاول الذي كان يكسوكن الأرجوان والبهرمان))^١.

كل هذه الدلائل تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ما زعمه يهود كله محض افتراء وتشويه.

المبحث الثالث: السنن.. والخبير

أشارت الآيات إلى قصة عظيمة من تاريخ بني إسرائيل لما فيها من العلم والعبرة، فإن القرآن يأتي بذكر الحوادث التاريخية تعليماً للأمة بفوائد ما في التاريخ.

وإن السنن الربانية ثابتة في الكون، وتقع على الإنسان في كل زمان ومكان.. ولقد شاء الله رب العالمين أن يُجرى أمر هذا الدين - بل أمر هذا الكون - على السنن الجارية، لا على السنن الخارقة وذلك حتى لا يأتي جيل من أجيال المسلمين فيتقاعس، ويقول: لقد نصر الأولون بالحوارق، ولم تعد الحوارق تنزل بعد ختم الرسالة، وانقطاع النبوات^(١).

وعلى المسلمين أن يدركوا سنن ربهم الظاهرة لهم في كتاب الله تعالى حتى يصلوا إلى ما يرجون من عزة وتمكين ((فإن التمكين لا يأتي عفواً، ولا يتزل اعتباراً ولا يخبط خبط عشواء؛ بل إن له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة))^(٢).

وإن الوقوف على معرفة سنن الله ودراستها أمر لا بد منه للأمة الإسلامية وذلك حتى يستفيدوا منها، ولا يصطدموا بها.

وعندما أراد الله لبني إسرائيل أن ينصرهم على عدوهم ويمكن لهم في الأرض سبق ذلك التمكين وذلك النصر أمور ذكرها الله في قصة طالوت عليه السلام..

إن انتصار بني إسرائيل على جيش طالوت نوع من أنواع النصر التي ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم، وإن النظرة المتأملة للقرآن الكريم تكسب الذين يسعون لتحكيم شرع رب العالمين تجارب بشرية ضخمة، وتمدهم بتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحل، وتورث أجيال الأمة ميراث الأنبياء والمرسلين في نظرهم للواحد الديان، والحياة، والكون، وحقيقة الإنسان ومناهج التغيير التي خاضوها في هذه الحياة.

(١) محمد قطب، واقعتنا المعاصر، ص ٤١٤.

(٢) د. يوسف القرضاوي، جيل النصر المنشود، ص ١٥.

[أهم سنن حياة الأمم والشعوب التي يمكن استخلاصها في هذه القصة]:

حاول الشيخ محمد رشيد^(١) رحمه الله أن يتأمل في هذه القصة ويستنبط منها أهم السنن الاجتماعية في حياة الأمم والمجتمعات والشعوب وذكر منها:

السنة الأولى: أن الأمم إذا اعتدى على استقلالها، وأوقع الأعداء بها فهضموا حقوقها، تتنبه مشاعرهم للدفع الضيم، فتسعى للوحدة التي يمثلها الزعيم العادل، فتوجه إلى طلبه، كما وقع من بني إسرائيل، بعد تنكيل أهل فلسطين بهم.

السنة الثانية: إن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها، يكون موجوداً عند خاصتها وأهل الفكر والرأي فيها، فالملأ من بني إسرائيل، هم الذين طلبوا الملك.

السنة الثالثة: متى عظم الشعور بوجوب حفظ حقوق الأمة ومحاربة أعدائها عند خواص الأمة، فإنه لا يلبث أن يسرى إلى عامتها، حتى إذا خرجت من طور الفكر والشعور إلى طور العمل والظهور، انكشف عجز الأعداء، ولم ينفع إلا صدق الصادقين.

السنة الرابعة: من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس، والاختلاف مدعاة للتفرق، فلا بد من مرجح ترضى به الأمة، كما طالبت بنو إسرائيل من نبيهم اختيار ملك لهم، فكان هو المرجح، والمرجح عند المسلمين هم أهل الحل والعقد منهم.

السنة الخامسة: إن الناس لا يتفقون على التقليد أو الإلتباع فيما يرونه مخالفاً لمصلحتهم الاجتماعية، ولذلك اختلف بنو إسرائيل على نبيهم في جعل طالوت ملكاً عليهم، واحتجوا على ذلك بما لا ينهض حجة إلا في ظن المنكرين، ومن عجيب أمر الناس أن كلاً منهم يحسب أنه على صواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول.

السنة السادسة: إن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب

(١) هو محمد رشيد رضا القلموني البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وداعية التجديد والإصلاح وله تفسير اسمه: تفسير القرآن الحكيم، ومشهور باسم تفسير المنار، وهو غير كامل انتهى مؤلفه إلى الآية (١٠١) من سورة يوسف توفي سنة ١٣٥٣هـ. انظر: الأعلام للزركلي (١٢٦/٦).

الثروة الواسعة، كما في قول المنكرين على طالوت: أي يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال؟ فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الأمم الجاهلية.

السُّنة السابعة: أن الشروط التي ينبغي اعتبارها في الاختيار للملك هي: "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" [البقرة: ٢٤٧] فيما يأتي:

١ - الاستعداد الفطري للشخص "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ".

٢ - السعة في العلم الذي يكون به التدبير "وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ".

٣ - بسطة الجسم المعبر بها عن صحته، وكمال قواه المستلزم ذلك صحة الفكر "الْجِسْمِ".

٤ - توفيق الله تعالى لا سبب له، وهو المعبر عنه بقوله: "وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ".

السُّنة الثامنة: هي ما أفاده قوله تعالى: "وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ".

فمشيئة الله سبحانه، إنما تنفذ بمقتضى سنته العامة في تغيير أحوال الأمم، بتغييرهم ما في أنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين، وإيراث الأرض للصالحين، وتأويل هذه الآيات وأمثالها مشاهد في كل زمان، وأين المبصرون؟

السُّنة التاسعة: إن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر وقوانين الجندية في هذا الزمان حتى عند الغربيين مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره والمعقول وغير المعقول.

السُّنة العاشرة: إن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات وطاعة القواد، الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد مع طاعة القواد، لأن النصر مع الصابرين، أي جرت سنته بأن يكون النصر أثرًا للثبات والصبر، وأن أهل الجزع والجن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم وهذا مشاهد في كل زمان.

السنة الحادية عشرة: إن الإيمان بالله، والتصديق ببلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجلاء والقتال.

السنة الثانية عشرة: إن التوجه إلى الله بالدعاء مفيد في القتال كما يدل عليه قوله: "فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ" إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء، وذلك معقول المعنى، فإن الدعاء هو آية الإيمان بالله والتصديق ببلقائه.

السنة الثالثة عشرة: دفع الله للناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون إن الحرب طبيعة في البشر؛ لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة، وأنت ترى في قوله تعالى: "وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ" ليس نصاً فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس، الذي يقتضى المدافعة والمغالبة^(١).

ولعلنا نركز قليلا على هذه السنة الأخيرة لأهميتها وذكرها صريحة في ختام الآيات في المطلب الآتي:

المطلب الأول: سنة التدافع:

إن سنة التدافع متعلقة بالنصر تعلقاً وطيداً ((فالله تعالى يعلم أن الشر متبجح، ولا يمكن أن يكون منصفاً، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو - مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة - فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان، ولا بد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة... فمن هنا يقع التدافع بين الحق وأهله، والباطل وحزبه، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً))^(٢).

ولقد ورد تقرير هذه السنة الربانية في القرآن الكريم بصفة عامة ولكن جاء التنصيص عليها في آيتين كريمتين منه:

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار (٢/٤٩٢ - ٤٩٨). بتصرف وتلخيص

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن (٢/٧٤٢).

الآية الأولى: قوله تعالى في سورة البقرة: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" [البقرة: ٢٥١].

الآية الثانية: قوله تعالى في سورة الحج: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" [الحج: ٤٠].

إن من الضروري للأمة الإسلامية أن تعي سنة الله - تعالى - في دفع الناس بعضهم ببعض (لتدرك أن سنة الله - تعالى - في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق يتمثل في أمة، ثم يقذف الله - تعالى - بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) (١).

#ومن أعظم أنواع المدافعة: الجهاد في سبيل الله .. كما في الآيات:

- وإن من أهداف الجهاد دفع عدوان الكافرين، وهذا العدوان قد يتمثل بأن يعتدي الكفار على ديار المسلمين-أو- أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار لاسيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تآمن فيها على دينها، فإن الواجب أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها (٢).

قال تعالى: "فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٥﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا" [النساء: ٧٤، ٧٥]. قال القرطبي - رحمه الله -: ((حرض على الجهاد، ويتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس، وتخليص الأساري واجب على جماعة المسلمين إما بالقتال وإما

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (١٠٩١/٢)

(٢) انظر: د. عبد الله القادري، الجهاد في سبيل الله، (١٦٢/٢).

بالأموال وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هي أهون منها^(١).

وقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين يتعين الجهاد للدفاع عن الديار، لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذاباً ونفذ فيها أحكام الكفر وأجبر أهلها على الخضوع له، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام، قال ابن قدامة رحمه الله: (وتعين الجهاد في ثلاثة مواضع... الثاني: إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم)^(٢).

وقال بعض علماء الحنفية ((وحاصله إن كل موضع خيف هجوم العدو منه فرض على الإمام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقدرُوا فرض على الأقرب إليهم إعاتنتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو))^(٣).

**فأصحاب طالوت كان العدوان عليهم من ناحيتين:

١/ احتلال الأرض . ٢/ الإعتداء على الأبناء والنفوس

ملاحظة: حول العلو والفساد الأول لبني إسرائيل:

جاء في القرآن الكريم ﴿ وَقَصِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا {٤} فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا {٥} ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا {٦} إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا {٧} عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا {٨} ﴾ [الإسراء: ٤-٨]، فهذه الآيات قد ذكر فيها سبحانه وتعالى عصيان بني إسرائيل ومخالفتهم أمر الله تعالى وأنهم يستكبرون استكباراً شديداً بعلوهم

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/٢٧٩).

(٢) ابن قدامة، المعنى (٩/١٩٧).

(٣) حاشية ابن عابدين (٤/١٢٤).

وجراءتم على الله تعالى.

وقد أطل المفسرون رحمهم الله تعالى في بيان المرّتين المشار إليهما وذُكر من سلطَ عليهم فيهما، ولكن الشاهد أن بعض المفسرين زعم أن المرة الأولى في عقاب الله لهم كانت على يد جالوت، ومن ذلك ما رواه عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة قال: أما المرة الأولى فسلط الله عليهم جالوت حتى بعث طالوت، ومعه داود فقتله داود، ثم ردت الكرة لبني إسرائيل، ثم جاء وعد الآخرة من المرّتين ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾، قال: ليقبحوا وجوهكم ﴿وليتروا ما علوا تتبيرا﴾، قال: «ليدمروا ما علوا تدميرا»، قال: «هو مختصر بعث عليهم في المرة الآخرة» ثم قال: ﴿عسى ربكم أن يرحمكم، وإن عدتم عدنا﴾، «فعادوا فبعث الله عليهم محمدا صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون»^١.

وقال الامام ابن جرير الطبري: حدثني محمد بن سعد، قال: ثنا أبي، قال: ثني عمي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ قال: بعث الله عليهم جالوت، فجاس خلال ديارهم، وضرب عليهم الخراج والذلّ، فسألوا الله أن يبعث لهم ملكا يُقاتلون في سبيل الله، فبعث الله طالوت، فقاتلوا جالوت، فنصر الله بني إسرائيل، وقتل جالوت بيدي داود، ورجع الله إلى بني إسرائيل ملكهم^٢.

يقول الإمام ابن كثير: ((قد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلمين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزريّ وجنوده، سلط عليهم أولا، ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾.

وعن سعيد بن جبیر: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضا، وعن غيره: أنه مختصر ملك بابل...

١ — عبدالرزاق الصنعاني، تفسير القرآن (١٥/٤)

٢ — ابن جرير، جامع البيان (٣٦٨/١٧)

وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع (بعض) زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غنيّة عنها، والله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطمعوا سلّط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتّهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء... ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم^١.

ومن تحليل هذه المرحلة التي معنا والتي يمكن أن يطلق عليها مرحلة العلو الإسرائيلي فإننا نستطيع أن نضع حدًا فاصلاً لهذا العلو.. بين العلو المقرون بالفساد والعلو الغير إفسادي وإذا اعتمدنا التحليل القرآني، بعد البعد عن الرؤية التوراتية، نخلص إلى أن المرحلة الممتدة من ملك طالوت حتى نهاية حكم النبي سليمان، كان علوًا بدون إفساد وفساد باعتبار أن هذه المرحلة امتازت بقيادة الصالحين، وإن حدث بعض التجاوزات، وبالآتي لا يمكن أن تكون هي المرحلة المقصود بها بالعلو والإفساد الأول.

بدأ الفساد بانقسام الدولة بعد موت سليمان عليه السلام عام (٩٣٥ ق.م)، ثم سلط الله عليهم المصريين، ثم الآشوريين، ثم الكلدانيين.

وتم تدميرها نهائيًا عام (٥٨٦ ق.م) وبذلك تلاشت آثار المملكة التي أسسها طالوت^٢.

ويمكن أن تعتبر هذه المرحلة - بعد موت سليمان - هي مدة العلو والافساد الأول وليست في عهد طالوت كما بينا.

والعلو هو السيادة على الأرض سياسيًا وعسكريًا ودينيًا.. ومن خلال هذا العلو يفرضون الفساد والإفساد على الآخرين..

وأما كلمة (عبادًا لنا) فتعني خلقًا من خلق الله، وهي لفظة عامة تحتل أن يقصد بها المؤمنون الموحدون أو هم ممن خلق الله.. كما يقول بذلك ابن عباس وسعيد بن

١ - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٧/٥)

٢ - انظر: بسام نهاد جرار، زوال إسرائيل ٢٠٢٢، الطبعة الثانية ١٩٩٦م، لبنان، مكتبة البقاع، من ص ٢٤ الى ص ٤٨

جبير.. قال ابن كثير ((عبادًا لنا).. جنّدًا من خلقنا ﴿أولى بأس شديد﴾ أي قوة
 وعدة وعدد وسلطنة شديدة ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي تملكوا بلادكم وسلخوا
 خلال بيوتكم أي بينها ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدًا))^١.
 وكون الله سبحانه وتعالى قد تحدث عن إفسادين.. فإنما تحدث عنهما مقرونان
 بعلو^٢، وهذا لا ينفي عنهم صفة الفساد والإفساد المستمر الملازم لطبيعتهم
 وكيونتهم.. حيث توعدهم الله بأن يسخر لهم من يسومهم العذاب ﴿وإذ تأذن

١ — ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم (٤٧/٥)

٢ — يقول بعض المفسرين القدامى بوقوع العلو والإفساد الثاني قبل الاحتلال الصهيوني الأخير ولهم ما يبرر
 تأويلهم هذا قبل قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، إذ ربما لم يكونوا يتوقعون أيام ازدهار دولة الإسلام
 أن يحدث هذا ، أما الآن فلا مبرر لأحد بتبني هذا التأويل والله أعلم ، ومن هذه الشواهد:

(١) أن القرآن يؤكد بأنهم سوف يعلون في المستقبل بقوله (ثم) للتراخي في الزمن بين الإفساد الأول
 والثاني أي أن هناك زمنًا طويلًا بين الإفسادين مما يؤكد بأن العلو الثاني هو قيام الدولة العبرية في هذا
 العصر.

(٢) ثم رددنا لكم الكرة عليهم (والكرة تعني القوة والسلطان) أي جعلناكم تسيطرنا على القوم الذين
 يسكنون أرض فلسطين مرة ثانية.

(٣) أمددناكم بأموال وبنين.. المدد يأتي من الخارج.. فمنذ اللحظة الأولى لقيام دولتهم وهي تعتمد
 على المدد الخارجي سواء الأموال التي تتدفق عليهم أو البنين الذين يقدمون لهم من كل حدب وصوب
 ليقيموا في أرض الميعاد كما يزعمون.

(٤) وجعلناكم أكثر نفيرًا.. والنفير القدرة المادية والعسكرية والسيطرة لحظة النفير في المعركة، وهم
 فعلاً أكثر نفيرًا من الدول العربية والإسلامية (أي أكثر حشدًا للطاقت في المعركة) رغم أن العرب
 والمسلمين أكثر منهم عددًا.. وهذا ما يؤكد النص.

(٥) فإذا جاء وعد الآخرة (الفاء تفيد الترتيب والتعقيب).. حيث رتب وجود الوعد الآخر بعد قيام
 العلو والإفساد الثاني وهذا يؤكد أن علوهم وإفسادهم الثاني لن يمتد زمنًا طويلًا نسبيًا كما امتد علوهم
 وإفسادهم الأول.

(٦) وليتبروا ما علوا تتبيرًا.. حيث يدخل (عباد الله) بيت المقدس ويدمروا ما يسيطروا عليه، بدليل أن
 القدس تكون تحت السيطرة الإسرائيلية بكاملها، وأنها ستكون محصنة عسكريًا وأن غالبية معالمها سوف
 تؤول إلى الشكل العبري بفعل المؤامرات المستمرة عليها.

(٧) فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيقًا.. وهذا شرط هام للمعركة الفاصلة التي يخوضها عباد الله
 المؤمنون ضد اليهود حيث لا بد أن يتجمع اليهود من جميع بقاع العالم ويأتي غالبيتهم إلى أرض فلسطين
 فلا تتسع لهم فيضطروا لخوض حرب للتوسع جهة الشرق مما يستفز مشاعر المسلمين فيوحدهم ويجعلهم
 يتصدوا لهم ويهزمهم شر هزيمة.

مما سبق نستطيع أن نجزم بأن زوال العلو والإفساد الثاني لبني إسرائيل سيكون بواسطة عباد الله المسلمين
 الصادقين الذين ينتمون إلى ملة الإسلام .

ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴿ [سورة
الأعراف: ١٦٧].

يقول سيد قطب ((لقد قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم
سيفسدون في الأرض مرتين وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة وسيسيطرون.. وكلما
ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للفساد سلط الله عليهم من عباده من يقهرهم
ويستبيح حرماهم ويدمرهم تدميراً))^١.

١ — في ظلال القرآن (٦/٥)

المطلب الثاني: المواصفات المعنوية للأمة الغالبة

بينت الآيات في هذه القصة مواصفات الأمة التي ترجو النصر والغلبة وهي بشكل إجمالي على قسمين:

١/ مواصفات معنوية . ٢/ مواصفات حركية .

أما المواصفات المعنوية فأهمها :

أ- الإيمان:

هذه الجماعة المؤمنة من بني إسرائيل مع طالوت، بينت تعالى إيمانهم الخالص وثقتهم به تعالى مما أدى إلى نصرهم بإذن من الله لا بقوتهم ولا كثرتهم.

لقد كان طالوت ومن معه مؤمنين، وعلى درجة من الإيمان فاضلة، ولكن أغلبهم قالوا: ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ لما رأوا من قتلهم وكثرة جنود جالوت، فلقد كانوا جيوشاً متكاثرة، وجنوداً مجندة، فلا إمكان لخوض المعركة معهم بهذه القياسات المادية حتماً، ولكن كان مع طالوت والمؤمنين طائفة أخلص منهم إيماناً وأرفع، من الذين يظنون أنهم ملاقوا الله، والظن هنا بمعنى اليقين^(١)، والإيقان منهم بأنهم ملاقوا الله هو غاية اليقين وأخلص الإيمان وكمالته، كما جاء عن أبي بكر رضي الله عنه أنه خطب الناس فقال: "قام رسول الله ﷺ مقامي هذا عام الأول - وبكى أبو بكر - ثم قال أبو بكر يحكي قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: {سلوا الله المعافاة - أو العافية - فلم يؤت أحد قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة ...} ^(٢) الحديث.

لقد كان بين طالوت ومن معه طائفة اتصفت باليقين وهو درجة كمال الإيمان، كما جاء في الحديث، بل غاية اليقين، فيقينيهم منصرف هنا إلى لقاء الله وهذا غاية اليقين وأسنى مراتبه، وهنا قامت تلك الطائفة الموقنة وقاسوا لهم مقاييس الحروب بالإيمان، وأن القليل يغلب الكثير إذا أذن الله، وقابلوا الألوف المؤلفة وهم يتضرعون إلى الله

(١) انظر تفسير "جامع البيان" للطبري (٢/٦٢٤).

(٢) مسند الإمام أحمد (١/١٥٦) برقم ٥، وصححه أحمد شاكر.

﴿فهزموهم بإذن الله﴾ وإن قوله _تعالى_ هنا ﴿ياذن الله﴾ ليدل على أن الهزيمة ما كانت لتكون أبداً لولا إذنه _سبحانه_ فهو الذي نصر المؤمنين، ولولا نصره لهم، لذهبوا شربة ماء جالوت وجنوده، وما كان ذلك النصر ليكون ويأذن به الله لولا تلك الطائفة الموقنة المؤمنة.

وإن مرحلة الاستضعاف تولد التحدي، وإن شدة الطغيان من الأعداء لا بد أن يوقظ الايمان في بعض النفوس، وتتفض العقيدة في القلوب، وهذا ما هو موجود الآن في المسلمين، فإن المسلمين اليوم يعيشون -ولا شك- مرحلة استضعاف كبرى، فقد تسلط عليهم الأعداء من كل جانب، وفي هذه المرحلة ينبغي أن نستلهم بعض ما في هذه القصة من الفوائد التي تعين على مواجهة الاستضعاف الذي نعيشه .

ولابد عند إعداد الأفراد إعداداً ربانياً أن يتربى المسلم على أن تكون أقواله وأعماله وجهاده كلها لوجه الله وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر.

ب- الصبر:

بين _سبحانه وتعالى_ أن أولياءه المؤمنين كانوا يصبرون ﴿والله مع الصابرين﴾ ، بل ويدعون الله ويطلبونه أن يصب عليهم الصبر صباً حتى يفيض عليهم ويغمرهم وهو الإفراغ^(١) ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾، فيكونون بهذا الحال قد استعدوا للشدائد والكروب بأبلغ أنواع الصبر.

كما نلاحظ تناسقاً بين موقفي اغترافهم من النهر اغترافاً، بينما يطلبون إفراغ الصبر عليهم إفراغاً، وصبه عليهم صباً، ولعل في هذا إشارة أخرى: فمن استعلى على الدنيا وحاجاتها، لم تتعبده ملذاتها، ومن حرم نفسه من بعض متاعها ومباحاتها، ابتغاء وجه الله، عوّضه الله عن ذلك، وأمهده الله بمدد من عنده، فهذا هي القلة المؤمنة امتنعت من الشرب من النهر، واستعلت بذلك على متاع الدنيا ومباحاتها، فعوّضها الله عن ذلك

(١) راجع: الشوكاني، فتح القدير (٢/٢٣٥).

الصبر، حيث أفرغه عليهم إفراغاً.

إنه لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل.

إن كلمة الصبر قصيرة سهلة لا تتجاوز ثلاثة حروف، يستطيع كل إنسان أن ينطقها، وأن يوصي بها، ولكن معانها أمر آخر، فطالوت كان مقدماً على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه أمة غالبية، فلا بد إذاً من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف أمام القوى الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة التي تضبط الشهوات والتزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء. فلا بد للقائد إذاً أن يبلو جيشه وصموده وصبره، صموده أولاً للرجبات والشهوات وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب. ولقد اختار طالوت هذه التجربة وهم عطاش ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه^(١).

إنها سنة الابتلاء:

والابتلاء - بصفة عامة - سنة الله تعالى في خلقه، وهذا واضح من الآيات القرآنية الكريمة، والابتلاء مرتبط بالنصر ارتباطاً وثيقاً، فلقد جرت سنة الله - تعالى - ألا ينصر أمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب.

وهي سنة جارية لا تتخلف، فقد شاء الله - تعالى - أن يتلي المؤمنين، ويختبرهم ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك.

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص، ليقوم بنياهم بعد ذلك على تمكّن ورسوخ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار.

(١) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (١/٢٦٨).

فلو أن قائدا أراد إعدادا للفوز في معركة ضارية، أ يكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون عليهم الإعداد، أم تكون الرحمة الحقيقية أن يشد عليهم في التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدهم من أجلها؟

والمؤمنون هم حزب الله وجنوده - والله المثل الأعلى - والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى، معركة الحق والباطل، والنتيجة المطلوبة من المعركة ليست مجرد النصر، وإنما هي بعد ذلك إقرار المنهج الرباني في الأرض بكل المعاني والقيم التي يحملها ذلك المنهج، وهي الأمانة التي تعرض لحملها الإنسان بقدر الله.

وحمل الأمانة - بعد الانتصار على الباطل - لا يصلح له كل الناس، إنما يحتاج لقوم مختارين، يعدون إعدادا خاصا ليحسنوا القيام به^(١).

وقد علم الله تعالى أن الابتلاء هو وسيلة الإعداد لهذه المهمة العظيمة، وفي قصة طالوت شاهد على ذلك؛ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إن الابتلاء مكمل لحقيقة الإيمان، لأن الإيمان أمانة الله - تعالى - في الأرض، وهذه الأمانة لا يحملها إلا من هم أهل لها، وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، والذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى كل صنوف المتاع والإغراء.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

الفتنة: الامتحان بشدائد التكاليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبال فقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم.

(١) انظر: محمد قطب، حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ١١١، ١١٢.

قال ابن كثير - رحمه الله - : ((والاستفهام في قوله تعالى: "أَحْسَبَ النَّاسُ" إنكارياً، ومعناه: أن الله سبحانه لا بد أن يتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان^(١))) كما جاء في الحديث الصحيح: {أشد الناس بلاءً الأنبياءُ، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل: يتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء^(٢).

#ولكن الابتلاء لا يعني طلب استعجال القتال ، فإن الشخص لا يدري هل يثبت أم لا؟ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: {لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية؛ فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف^٣}. كما أن الله عز وجل عند الابتلاء يرحم الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾؛ لأنهم لا بد أن يشربوا للنجاة من الموت.

ج- الثبات:

الثبات الذي لا يتلون معه الإنسان وإن رأى شعاع السيف على رقبتة، أو رأى جبل المشنقة ينتظره، أو رأى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها.

ولا شك أن اللبنة التي تعد لحمل أعباء الجهاد تحتاج إلى الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية والغايات الجميلة والقيم الرفيعة^(٤).

ان الذين لا يثبتون في المواقف الصعبة لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقهم، وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة، والجيوش ليست بالعدد الضخم ولكن بالقلب الصامد والإرادة الجازمة والإيمان الثابت المستقيم على الطريق ، ودلت هذه التجربة- تجربة طالوت - على أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ؛ ولا بد من التجربة العملية ومواجهة واقع الطريق إلى المعركة قبل

(١) ابن كثير ، التفسير (٣/٤٠٥).

(٢) سنن الترمذي، كتاب ما جاء في زهد النبي ، باب ما جاء في الصبر على البلاء (٤/٦٠١) برقم ٢٣٢٢ حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يقاتل أول النهار أخرج القتال حتى تزول الشمس، ١٠/١٢٤ حديث رقم ٢٩٦٦، وأخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو...، ٩/١٦٩ حديث رقم ٤٥٤٢

(٤) د. علي جريشة، دعوة الله بين التكوين والتمكين، ص ٩١، ٩٢.

الدخول فيها، ودلت كذلك على صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكرية من جنده عند التجربة الأولى بل مضى في طريقه .

– كما أن للسكينة تأثيراً على ثبات القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾؛ وتأمل كيف أضافه إلى ربوبيته إشارة إلى أن في ذلك عناية خاصة لهؤلاء القوم؛ والسكينة إذا نزلت في القلب ثبتت الجوارح واطمأن الإنسان، وارتاح، وانشرح صدره.

د- كثرة الدعاء والتضرع:

لأن ذلك من أعظم وأقوى عوامل النصر، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿ إِذِ اسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩].

وقد أمر الله بالذكر والدعاء عند لقاء العدو، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

لأنه سبحانه النصير، فنعم المولى ونعم النصير، قال تعالى: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الله في جميع معاركه ومن ذلك قوله: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، مجري السحاب، هازم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلمهم وانصرنا عليهم» وكان يقول عند لقاء العدو «اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أجول، وبك أصول، وبك أقاتل»^(١).

وإن دعاء القلة المؤمنة ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ليس خاصاً بها، بل يصلح لكل فئة مجاهدة صابرة، تقف أمام أعدائها.

— وهناك لفظة في ترتيب فقرات الدعاء الثلاثة: الصبر وتثبيت الأقدام والنصر، فكل فقرة مبنية على ما قبلها وترتيبها ترتيباً مرحلياً، فعند مواجهة الأعداء يحتاج المجاهد أولاً إلى الصبر – بمفهومه الشامل وميادينه المتعددة – فإذا صبر حاز المرحلة الثانية وهي ثباته

(١) رواه أبو داود (٤٩٩/٢) كتاب الجهاد، باب: ما يدعى عند اللقاء (٤٩٩/٢) رقم ٢٢٩١.

وتثبيت قدميه، ولن تثبت الأقدام إلا عند الصابرين وإذا تثبت الأقدام واستبسِل المجاهد في القتال نصره الله على الأعداء.

— ونلاحظ في الدعاء الالتفات إلى أهمية الحالة النفسية والناحية المعنوية، وتقديمها على الحالة الخارجية المادية، ولذلك قدم الصبر على المعركة، وعلى تثبيت الأقدام فيها. وباستقراء قصص الأنبياء في القرآن وقصص الهالكين من الأمم، لا نجد نصراً حصل لنبي أو أتباع دعوة الحق إلا بعد رفع الضراعة ودوام الدعاء إلى الله، وكذلك نجد القرآن يقص لنا عن كثير من الأمم الهالكة، أن هلاكها سبقه ضراعة متضرع، أو جماعة مؤمنة التجأت إليه فألجأها وأنجأها، ثم أهلك من كأيدها وعادها، إن الضراعة سنة، لا تكاد تختلف في النصر والتمكين اللذين يصنعان على عين الله _ سبحانه وتعالى _ ومتى قلت ضراعة الطائفة المؤمنة أو أصبح أفرادها وقادتها يتوارون أو يستحيون من أن يبدوا تمسكهم وذلتهم وتذللتهم وهم يدعون الله ويسألونه إنجاح أمورهم ونصرهم على عدوهم، وأصبحوا يعولون كل التعويل على حسن التخطيط والتدبير، وشدة التحري والتربص لمخططات أعدائهم وكيفية فضحها ودفعها، فإن تلك الطائفة _ وإن كانت حسنة الإيمان في الجملة _ جديرة أن تنحط عن رتبة النصر وجديرة كذلك بالخذلان من ربها، وأن يكلها إلى ما عولت عليه وركنت إليه.

ولقد ذكر _ سبحانه وتعالى _ أن الضراعة إليه ودعائه هي القولة التي التزمها أهل التمكين من أتباع النبيين، واعتمدوها بل وأدمنوا عليها، حتى كأنهم لا يتلفظون بغيرها، وذلك في قوله _ تعالى _: ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾. [آل عمران: ١٤٧]

وقوله _ تعالى _: ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا ... ﴾ فيه دلالة ديمومة الضراعة إلى الله، وإدمان الابتهاال إليه في كل الأحوال، حتى لكأنهم لا يقولون قولاً ولا يلفظون كلاماً غير تلك الضراعة المبينة في الآية؛ وما كان بعد هذه الضراعة الدائمة إلا أن شهد الله _ سبحانه وتعالى _ أنه أنالهم "ثواب الدنيا" وهو الظفر والنصر والتمكين، "وحسن ثواب الآخرة" وشهد لهم _ سبحانه _ أنهم أحسنوا غاية الإحسان، وبلغوا بإحسانهم نعيم محبته لمن أحسن "والله يحب المحسنين".

ولقد ذكر الله _ سبحانه وتعالى _ ضراعة الطائفة المؤمنة الموقنة من بني إسرائيل وهم مع طالوت في حالة لقاءهم لأعدائهم الكافرين المتكاثرين، وثنى بعدها _ سبحانه _ بذكر هزيمة أعدائهم مباشرة، مما يفيد أن للضراعة دوراً خطيراً في انتصار أهل الإيمان، وهزيمة أعدائهم من حزب الشيطان قال _ تعالى _ في شأنهم: ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله ﴾ .
ولقد أحسن التوجيه والإيراد الإمام الشوكاني _ رحمه الله _ في تفسيره حين قال عند قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الأنفال: ٤٥]: ((وينبغي أن يكون الذكر في هذه الحالة بما قاله أصحاب طالوت _ ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين _))^(١).

هـ _ الشعور بمعية الله عز وجل:

قال _ سبحانه _ في الآيات: ﴿ والله مع الصابرين ﴾ . وفي مواضع عدة من كتابه الكريم يؤكد معيته للصابرين وأنه معهم، وما ظنك بقوم أو جماعة الله معهم، كيف يتصور أنهم سيغلبون أو يذلون!

ولقد بين _ سبحانه وتعالى _ أن معيته تستلزم عدم الخوف وتستلزم النصر والغلبة في الوقت نفسه، ولذلك حين أبدى موسى وهارون _ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام _ تخوفاتهم من زجرة فرعون الحادة وبطشاته الأكيدة التي يتعرض لها كل من يخاطبه بغير ما يهواه ﴿ قالوا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾، فكان الجواب ﴿ قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه: ٤٥-٤٦]، فبين _ سبحانه _ هنا أن معيته لهما تستلزم عدم الخوف منهما، فلا داعي للخوف البتة، وتستلزم رعايتهما ونصرهما وحفظهما من كيد فرعون وغطرسته العاشمة، وهذا الحال في معيته _ سبحانه وتعالى _ حيث كانت فلا خوف ولا حزن، وإنما نصر وبلج، ويسر وفرج.

فتلك إذن معيته التي أكدها للصابرين في كتابه الكريم مراراً وتكراراً، والله ما أصدق كلام الإمام الشوكاني وأروعه حين قال عند تفسيره لقوله _ تعالى _: ﴿ واصبروا إن الله

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣١٥).

مع الصابرين ﴿[الأنفال: ٤٦]﴾ ، ((ويا حبذا هذه المعية التي لا يغلب من رزقها غالب، ولا يؤتى صاحبها من جهة من الجهات، وإن كانت كثيرة)) (١).

-ومن حكمة الله تعالى في قتل داود لجالوت، أن داود كان فتى صغيراً من بني إسرائيل، وجالوت كان ملكاً قوياً وقائداً مخوفاً، ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها، إنما تجري بحقائقها، وحقائقها يعلمها هو، ومقاديرها في يده وحده، فليس عليهم إلا أن ينهضوا بواجباتهم، ويفوا الله بعهدهم ثم يكون ما يريد الله بالشكل الذي يريد، وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف.. يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم ٢.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٣١٥).

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ١/٢٧٠.

المطلب الثالث: الصفات الحركية

أ- القيادة الربانية:

بينت الآية أن للقائد صفتين مهمتين: الأولى: العلم. والثانية: القدرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فأول صفة من صفات القائد: العلم، والصفة الثانية: القدرة، ولا يستحق أن يكون قائداً ملكاً عليهم إلا إذا جمع بين العلم والقدرة. فإن الصفات المحتاج إليها في سياسة أمر الأمة ترجع إلى أصالة الرأي وقوة البدن؛ لأنه بالرأي يهتدي لمصالح الأمة لا سيما في وقت المضائق، وعند تعذر الاستشارة أو عند خلاف أهل الشورى، وبالقدرة يستطيع الثبات في مواقع القتال فيكون بثباته ثبات نفوس الجيش. ١.

أما غالب بني إسرائيل فقد اعترضوا وقالوا: هذا ليس بذي جاه: ﴿أَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة: ٢٤٧] والاعتراض الثاني: أنه فقير: ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله عز وجل عليهم بصفتين أهم من الصفتين اللتين اشترطوهما هم وفكروا فيهما، فقال لهم: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فلماذا كان العلم والقدرة أهم من الشرف والمال، وأهم من النسب والمال، وأهم من الجاه والمال؟

لأسباب: أولاً: أن العلم والقدرة من باب الكمالات الحقيقية، فهما: كمال حقيقي أن يوجد في الشخص علم وقدرة بخلاف الجاه والمال.

ثانياً: أن العلم والقدرة من الصفات الذاتية للشخص، بخلاف الجاه والمال الذي هو أمر منفصل عن الإنسان، فإن الإنسان قد يكون بغير جاه ولا مال ثم يكتسب جاهاً ومالاً، يكتسبه من شيء خارجي، لكن العلم والقدرة صفات ذاتية في الشخص لا تنفك عنه. ولذلك من الأسباب أن العلم والقدرة لا يمكن سلبهما عن الإنسان، لكن المال والجاه يمكن سلبهما عن الإنسان.

ثالثاً: العالم بأمر الحروب القوي الشديد على المحاربة، يحصل الانتفاع به في حفظ البلد ودفع شر الأعداء أكثر من الانتفاع بصاحب النسب والغنى إذا لم يكن عنده علم

ولا قدرة على دفع الأعداء.

* لكن الشخصية الإسرائيلية المتناقضة وقفت أمام الاختيار الرباني للقيادة .. وقد جاءت الآيات بوصف طبيعة النفس اليهودية بأمور:

١-سؤالهم الذي يحمل طبيعة الكبر لأنبيائهم وخاصة من قبل كبرائهم وساداتهم.

٢-الاعتراض على أوامر نبيهم ورفضها.

٣-امتناعهم عن القتال تحت راية ذلك النبي، لذلك سألوه أن يدعو الله تعالى

أن يبعث لهم ملكاً، يقاتلوا تحت إمرته.

٤-الاعتراض على أوامر الله تعالى، وقد قال لهم نبيهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.. ﴿قَالُوا أَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

٥-العودة والتذمر عند الجد وخلق المعاذير ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا

قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾.

٦-كثرة الكلام وتضخيم ما وقع عليهم وان كان صغيراً ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَانِنَا﴾.

٧-كثرة اختبار الله تعالى لهم لكثرة اعتراضهم لكي لا يبقى لهم حجة.

٨-جعل أحقية الملك لهم، تكبراً واستخفافاً بغيرهم ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾.

٩-اعتماد سعة المال وكثرته مقياساً لاستحقاق الملك والقيادة ﴿وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِنَ

الْمَالِ﴾

١٠-كثرة طلبهم للأدلة والبراهين ومشاهدة العلامات ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ

التَّابُوتُ﴾.

❖ وقد حاول النبي في حوارهم معهم أن يختار من الكلام ما يكون به الإقناع لهم

بادئاً بالأهم فالأهم؛ فقال في جوابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ؛ فبدأ بذكر ما

لا جدال فيه - وهو اصطفاء الله عليهم -؛ ثم ذكر بقية المؤهلات: وهي أن الله زاده

بسطة في العلم، وتدبير الأمة، والحروب، وغير ذلك، وأن الله زاده بسطة في

الجسم: ويشمل القوة، والطول...؛ وأن الله عز وجل هو الذي يؤتي ملكه من يشاء،

وفعله هذا لا بد وأن يكون مقروناً بالحكمة: فلولا أن الحكمة تقتضي أن يكون طالوت

هو الملك ما أعطاه الله عزّ وجلّ الملك؛ وأن الله واسع عليم: فهو ذو الفضل الذي يمهده إلى من يشاء من عباده؛ فله أن يتفضل على من يشاء؛ الله أعلم حيث يجعل رسالته؛ والله أعلم أيضاً حيث يجعل ولايته.

— إن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمترلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا فسد القادة سار هذا الفساد إلى الأمة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة في حياة الأمة الإسلامية، ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصي الأمور وأزمة الحكم في الأمة الإسلامية، ففي خطة لويس التاسع أوصى بـ «عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح» كما أوصى بـ «العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة»^(١).

وصرح المستشرق البريطاني (مونتجومري وات) في جريدة التايمز اللندنية قائلاً: «إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى»^(٢)، وقال المستشرق الصهيوني: (برنارد لويس) تحت عنوان: «عودة الإسلام» في دراسة نشرها عام ١٩٧٦م: «... إن غياب القيادة العصرية المثقفة؛ القيادة التي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم، إن غياب هذه القيادة قد قيدت حركة الإسلام كقوة منتصرة، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الإسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية هائلة إذا تمياً لها هذا النوع من القيادة»^(٣).

— نلاحظ أيضاً في الآيات نجاح القيادة في إدارة الأزمة والمواجهة. وحرص القيادة على تحقيق آمال الجماهير.

(١) جلال العالم، قادة الغرب يقولون، ص ٦٣.

(٢) جلال العالم، قادة الغرب يقولون، ص ٢٥.

(٣) محمد السيد، التمكين للأمة الإسلامية، ص ١٨٥.

- وكذلك فإنه يتبين أيضاً من هذه القصة أن الأدوار العظيمة للقادة لا تأتي من الفرش الدافئة، ومن بيئات الترف والنعومة والراحة، وإنما تأتي من ميادين المعركة، فداود عليه السلام خرج من وسط الجيش المجاهد، فمن ميدان المعركة بدأ أمره، وترقى في طريق القيادة والملك والحكمة والمسئولية، وفي هذا إشارة إلى أن العمل هو الذي يخرج القادة، والميدان هو الذي يكشف عن المواهب، فالقائدان طالوت وداود ظهرا من وسط الناس، وقدمهما للناس الميدان والعمل والواقع، فهذه هي طريقة القادة الذين يقودون الأمة إلى طريق النصر والتمكين^(١).

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (١/٣٣٢).

ب - الجماعة المناصرة:

مما لا شك فيه أن كل دعوة من الدعوات أياً كانت لا بد لها من جماعة تنهض بها وتناصرها.

ولقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - هذا في كتابه وبين أن وجود الجماعة المؤمنة المناصرة هو التأييد منه - سبحانه - لدعوة الحق، والسبب الظاهر في تحقق النصر، قال - سبحانه وتعالى - لنبية محمد ﷺ ﴿ وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢]، قال ابن كثير: ((أي جمعهم على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك، ومؤازرتك))^(١). فالجماعة التي تكون عاملاً أساسياً في ظهور دعوة الحق وتمكينها، لا بد لها من أمرين:

١ - أن تكون مؤمنة.

٢ - أن تكون مناصرة لدين الله حق المناصرة.

ومتى فقدت الجماعة هذين الأمرين أو أحدهما، أو نقصت في أحدهما، تخلف النصر والظهور، ولو كان ولاؤها لدين الله، ولا أدل على ذلك مما حدث مع نبي الله موسى وأخيه هارون - على نبينا وعليهم الصلاة والسلام - وهما يستحثان قومهما للدخول في الأرض التي كتبها الله لهم.

قال - سبحانه وتعالى - على لسان موسى: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢١]، فعند التأمل في قوله "كتب الله لكم" نجد التعبير بكلمة (كتب) له غاية من التأكيد تفيد أن الأرض لهم قد كتبها الله في علم الأزل لهم وقدر أنها ستكون تحت تصرفهم - وبالفعل كانت لهم فيما بعد ودخلوها - ولكن نرى هنا كيف نكلت الجماعة المؤمنة عن نصره أمر الله، وتحقيق ما كتب الله لهم، فامتنعت عن القتال، وتلكأت عن تنفيذ الأمر بمعاذير هي غاية في الجبن والهلع وعدم الثقة بوعد الله ورسوله، وسوء الأدب مع الله وأنبيائه ﷺ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﷻ.

[المائدة: ٢٤] وعند فقدان المناصرة من الجماعة المؤمنة تأخر ذلك الوعد المكتوب بدخول بني إسرائيل ولم يتخلف في ذاته، وإنما تخلف أولئك الناكلون فلم يستحقوا أن

(١) ابن كثير، التفسير (٢/٣٣٦).

ينالوا ما كُتِبَ لهم، وهنا نرى في وضوح كوضوح النهار كيف تنحط الدعوة من مراتب عظيمة من التمكين، حين ينكل وينخذل أبناءها من الجماعة المؤمنة، عن النصر والتمكين لأوامر الله وما رضي الله لهم، عند ذلك قال نبي الله موسى _على نبينا وعليه الصلاة والسلام_: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين. قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين﴾. [المائدة: ٢٥ - ٢٦]

وهنا نلمس عبرة للمعتبرين ونراها. لقد أصبحت الأرض المكتوبة لهم محرمة عليهم جزاء اتخذهم ونكولهم عن نصره أمر الله ونبيه.

وفي الجانب المشرق نرى كيف يكتب الله _سبحانه وتعالى_ التمكين والرفعة للجماعة المؤمنة مع طالوت، حين تتبنى نصره دين الله، ولو في ساعة العسرة، وكثرة المخالفين، وقلة المؤمنين، كيف يكتبه الله _سبحانه_ و_تعالى_ لهم ويجوهم ويجعل الرفعة لهم، أبد الآبدين إلى يوم الدين.

وقد أجاد سيد قطب - رحمه الله - في بيان حقائق الجماعة المناصرة، وكيفية الحصول عليها فقال: ومن خلال التجربة تبرز بضع عظمات أخرى جزئية، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين من ذلك:

١- أن الحماسة الجماعية، قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها فيجب أن يضعوها على محك التجربة، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة.. وذلك أنه لما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزمهم على القتال، وقال لهم "هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا" استنكروا عليه هذا القول، وارتفعت حماسهم إلى الذروة وهم يقولون له: "وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا" ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتماوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة؛ وكما يقول السياق بالإجمال: "فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم" ومع أن لبني إسرائيل طابعا خاصا في النكول عن العهد والنكوص عن الوعد والتفرق في منتصف الطريق.. إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغا عاليا من التدريب وهي خليقة بأن تصادف قيادة الجماعة المسلمة في أي جيل فيحسن الانتفاع فيها

٢- أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الثائر في نفوس الجماعات، ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.

أ- فإن كثرة بنى إسرائيل هؤلاء قد تولّوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم، ولم تبقى إلا قلة مستمسكة بعهدتها مع نبيهم، وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت.

ب- ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى وضعفوا أمام الامتحان الأول، وشربوا من النهر، ولم يجاوز معه إلا عدد قليل.

ج- وهذا القليل لم يثبت كذلك إلى النهاية، فأمام الهول الحي، وأمام كثرة الأعداء وقوتهم، تماونت العزائم، وزلزلت القلوب.

د- وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة، واعتصمت بالله، ووثقت بوعده، وهي التي رجحت الكفة وتلقت النصر، واستحقت العز والتمكين.

لقد تمت تصفية بنى إسرائيل ثلاث مرات، وخلاصة الخلاصة، هم الذين صدقوا الله في الجهاد فصدقهم الله وعده، وأنزل عليهم نصره.

٣- في ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت - تبرز فيها:

أ- خبرته بالنفوس.

ب- عدم اغتراره بالحماسة الظاهرة.

ج- عدم اكتفائه بالتجربة الأولى.

د- محاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة.

هـ - فصله للذين ضعفوا، وتركهم وراءه. و- ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله، وقد تضاعل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة فخاض بها المعركة.

٤- والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة.. أن القلب الذي يتصل بالله، تتغير موازينه وتصوراتته، لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود، فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر كانت ترى من قلبها وكثرة عدوها،

ما يراه الآخرون الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجُنُودِهِ﴾ ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف إنما حكمت حكماً آخر، فقالت: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ثم اتجهت لربها تدعوه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين، إنما هو في يد الله وحده، فطلبت منه النصر، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه.

وهكذا تتغير التصورات والموازن للأمر عند الاتصال بالله حقاً، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح، وهكذا يثبت أن التعامل مع الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون! (١).

ج - اصطفاء واختبار:

١- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

هذا كان أول اختبار للفتنة المقاتلة هو أن كتب الله عليهم القتال، ليميز أصحاب النيات الصالحة والصادقة والتي تود حقاً القتال في سبيل الله وإعلاء كلمته أمام الظلم والطغيان ومقاومة الشر والفساد، والتي تنظر حقاً إلى أجر القتال والشهادة في سبيله، وهؤلاء ليسوا من الذين يهولون ويصيحون بدون فعل مجد عن أصحاب النيات الفاسدة التي لم تنو القتال أصلاً، إنما هو كلام لا وزن له، كلام مجالس صادر عن لسان لاغ ليس وراءه نية قلبية صادقة، ويمكن أن يكون استخفافاً بذلك النبي، وهؤلاء لما علموا بان الله استجاب لطلبهم تقاعسوا ولم يقاتلوا كما قالوا وطلبوا.

٢- قال تعالى ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾. هذا هو الاختبار الثاني للفتنة التي سارت للقتال، بعد أن سار طالوت بالجنود وابتعد عن القرية، أخبرهم بوجود نهر، وجعل مقياس الشرب والقعود على الماء دليلاً

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن (١/٢٦٠-٢٦٣). بتصرف

على إيمانهم واستحقاقهم للقتال معه، وكان هذا أول توجيه من القائد لجنوده ليبين مقدار السمع والطاعة، ولأنه يرى بعلمه أن الشراب والقعود على الماء يمكن أن يؤدي إلى:

أ- القعود والتخلي عن السير.

ب- التأخير في أداء المهمة.

ج- الكسل والتراخي.

د- تذكيرهم بالنعم الدنيوية.

هـ- ضعف همة القتال والجهاد في نفوسهم.

و- كثرة شرب الماء بعد الجهد والتعب الشديد قد يؤدي إلى أضرار صحية تمنع من مواصلة السير والقتال.

ز- وجود نيات فاسدة قد تؤدي إلى زعزعة إيمان بعضهم نتيجة طول الطريق.

#ومع ذلك فقد سمح لهم طالوت بغرفة واحدة، وقد قيل: إذا أردت أن تطاع فمر بما استطاع، وإن من حكمة القائد ألا يمنعهم من شيء يحتاجون إليه منعاً باتاً، وإنما يبقي لهم فرصة لإزالة ما يحتاجونه من الحاجة؛ ولذلك فإن طالوت لم يقل: لا تشربوا أبداً حتى لو متم من العطش، بل قال: إلا من اغترف غرفة بيده؛ لأن التعسف يؤدي إلى النفور والخروج عن طاعته، ولم يشتط عليهم في التكليف ويغلق كل الوسائل، وإنما لما منعهم من شيء أباح لهم شيئاً آخر.

٣- قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

هذا هو الاختبار الثالث للقلعة المؤمنة المتبقية مع طالوت.

هذا الاختبار في ساحة المواجهة، في ساحة الصراع بين الخير والشر، وفي هذا الاختبار أراد الله تعالى أن يمحس هذه القلعة بأن ينقيها من أصحاب النيات غير المستقرة بعد للقتال في سبيل الله، والتي لا تستطيع المواجهة والصمود لكي لا تتسبب في خلخلة الصفوف.

وفي هذه الآيات نرى:

- أ- اختبارهم للقلّة المؤمنة لأنها أمام نصر أو هزيمة.
- ب- لا مكان لأصحاب النفوس الضعيفة في هذه المواجهة لأن المسألة مصيرية.
- ج- كشف الضعفاء الذين لم ينكشفوا في الاختبارين السابقين.
- د- قلة العدد يؤدي إلى زيادة الإيمان، ازداد إيمان البقية المتبقية بسقوط عدد منهم.

د - تعبئة الجيش:

من الأمور التي وردت في الآيات فيما يتعلق بالجهاد تعبئة الجيش وتجنيد الجند، " فلما فصل طالوت بالجنود" ولقد ذكرت في القرآن ذكراً ظاهراً وربط الله سبحانه وتعالى بها النصر والغلبة.

وبناءً على هذا فينبغي الإكثار من الجند والتجنيد عند الاقتدار، سواءً كان ذلك التجنيد في السلم أو لمواجهة الحرب وإنشاء الجهاد والفتوح كما قال نبي الله سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ [النمل: ٣٧]. أما تعبئة الجيش بما أمكن من طاقات وقدرات وتقويته، فهو مطلب لقوة الجيش وتمكينه من النصر. قال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ [الأنفال: ٦٠].

فالله سبحانه وتعالى أمر في هذه الآية بإعداد كل ما في الوسع والاستطاعة من قوة لمواجهة الأعداء، والقوة كل ما يتقوى به في الحرب^(١)، ومن ذلك السلاح والقيس والحصون وآلات الحرب، ولقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي ..﴾ قالها ثلاث مرات^(٢). فتقوية الجيش

(١) راجع "فتح القدير" للشوكاني (٢/٣٢٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمامة، باب في فضل الرمي (٦٤/٥) برقم ٣٥٤١، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب الرمي (١٣/٣) برقم ٢١٥٣.

مطلوبة بكل ما أمكن من عدة الحروب وعتادها وآلاتها، والرمي هو أقوى تلك القوى وأولها بالاعتناء.

* ومما ركزت عليه الآيات في إعداد الجيش (الإعداد المعنوي) وذلك عبر:

١/ تحمل المسؤولية: يجب أن يتولد لدى الجيش شعور ذاتي بمسئولية كل فرد منهم، وأن يكون عندهم استعداد كامل لتلبية حاجات هذه المسؤولية من النفس والجهد، فهو لا ينتظر التكليف الحركي لينهض بالأعباء والمسئوليات، وإنما يتولد في أعماقه شعور بالمسئولية ويجري في عروقه إحساس رباني بالتكليف.

وقد عدت الآية أن ترك تحمل المسؤولية من الظلم؛ لقوله تعالى: { تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين } أي المتولين الذين فرض عليهم القتال، ولم يقوموا به؛ وقرَّبوا من تبعاته وتكاليفه.

٢/ الانضباط: ينبغي للجندي مراعاة الضوابط الحركية حتى لا تكون حركته حركة غوغاء، ولا تمنعه الطاعة من إبداء آرائه في جو من الصراحة والوضوح، كما أن الآيات رسمت لنا بعض صور الانضباط مثل:

❖ عدم التذمر من قبول الأوامر القيادية.

❖ السمع والطاعة لأوامر القيادة.

❖ الجدية والحرص والايجابية في تنفيذ الأوامر.

❖ الثقة بالقيادة في كل ما تقول وتعمل وتوجه لأنها أكثر علماء وخبرة.

❖ التكاتف حول القيادة والتي ترى فيها، بأنها هي القادرة على تحقيق مصالح

الجماهير.

❖ عدم زعزعة الصفوف ببث روح الخوف والقلق.

❖ الابتعاد عن الإشاعة بالتهويل والصياح.

هـ - صناعة الأسلحة:

وذلك مأخوذ من قوله سبحانه عن داود ﴿وعلمه مما يشاء﴾ ، وذلك أن كثيراً من المفسرين يرون أن هذا العلم هو علم صناعة الدروع ، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقال تعالى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١، ١٠]

قال قتادة: "وهو أول من عملها - أي الدروع - من الخلق وإنما كانت قبل ذلك صفائح" (١)

أما السرد، فقال ابن عباس - رضي الله عنه -: "هو حلق الحديد" قال سيبويه: ((معنى سرد الدروع: إحكامها وأن يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف..)) (٢)، قال ابن كثير - رحمه الله -: ((هذا إرشاد من الله - تعالى - لنبيه داود - عليه السلام - في تعليمه صناعة الدروع)) (٣).

- وهذه الآية دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة، وهذه الآية فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع والأخذ بأسباب النصر على الأعداء، ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشريعة الديان. وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص، إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له ، أو تعليمه كيف يسيل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول وفي حسم انتصارات الجيوش.

يقول الدكتور عماد الدين خليل: وفي سورة الحديد نقرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(١) راجع: ابن كثير ، التفسير ٥٣٥/٣.

(٢) الشوكاني، فتح القدير ٣١٦/٤.

(٣) ابن كثير ، التفسير ٥٣٥/٣.

[الحديد: ٢٥]. هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها؟ هل ثمة أكثر إقناعاً لترعة التحضر والإبداع والبناء، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد (البأس الشديد) متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري، و(المنافع) التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كل مجالات نشاطه وبنائه (السلمي)؟

إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيح لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل.. وتستطيع -أيضاً- أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها^(١).

(١) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص ٢٢١، ٢٢٢.

ملخص الفصل الرابع:

- المرويات (الإسرائيلية) لدى المسلمين في قصة (طالوت) هي ملخص لما ورد في (العهد القديم)، ونقلها أغلب مؤرخي الإسلام كما هي، بدون أعمال النقد الصحيح، والتحري الكاشف للتزييف التاريخي .
- رسم القرآن الكريم شخصية (طالوت) في أعلى مقامات الاصطفاء للقيادة والملك، بينما شوه اليهود سيرته بالافتراءات والأكاذيب .
- السنن والعبر المستفادة من القصة كثيرة، وينبغي أن تستفيد منها الجماعات لمعرفة مقاييس الانتصار والهزيمة .
- الأمة الغالبة لها مواصفات معنوية وحركية أرشدت إليها آيات القصة .

الخاتمة

بعد هذا التطواف في حنايا هذا البحث، فإن بإمكاننا أن نلخص أهم ما أوردناه في النقاط الآتية: -

• القرآن الكريم أعظم المراجع التاريخية الصادقة، وقصص القرآن كلها حق وصدق.
• تركيز القرآن الكريم على الجزئيات التاريخية لحياة بني إسرائيل، حتى تعتبر الأمة المحمدية بأحوالهم وتستلهم ذلك واقعاً عملياً في حياتها .

• الموقف الشرعي من (الإسرائيليات) و (العهد القديم) قائم على الأمور الآتية:
أ- إننا نجزم أنها حرفت وبدلت، وإن الموجود اليوم هو نتاج العقول اليهودية، والأدلة كثيرة على ذلك .. فضلاً عن اعتراف مؤرخي أهل الكتاب في العصر الحديث بذلك .

ب- إنها أخبار تُحكى، ولا نعتقد صحتها، إلا ما صدقه شرعنا .. أما ما جاء مخالفاً لشرعنا أو للسنن العامة فإننا نرده ونكذبه .

ت- إن الأفضل أن لا تكتب في تفسير القرآن الكريم، حتى لا يعتقد القارئ صحتها.. إلا ما كان في الدراسات الأكاديمية المتخصصة .

• اهتمام (العهد القديم) بذكر تفاصيل (قصة طالوت)، والتي شملت أغلب (سفر صموئيل الأول) .. والذي كتب بيد أكثر من كاتب، وبطرق متباينة، بل ومتناقضة .

• بيت المقدس لم يسكن فيه (إبراهيم) عليه السلام - وإن كان هو أول من بنى المسجد الأقصى - ولا ذريته من بعده حتى افتتحه (داود) عليه السلام، وكانت بداية حركة الفتح هي معركة (طالوت) مع (جالوت) .

• تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر وقع فيه اختلاف كبير ناشئ من اختلافهم في (فرعون الخروج)، والذي رجحناه أنه (رعمسيس الثاني)، وبالآتي فإن تاريخ الخروج قرابة عام ١٢٢٧ ق.م.

- أعداد بني إسرائيل في (العهد القديم) من المبالغات الغير مقبولة، والصحيح أن عدد الذين خرجوا من مصر كان (٦٠٠) عشيرة، بدون معرفة العدد بالضبط .
- استقر بنوا إسرائيل بعد الخروج شرق نهر الأردن، ولم يدخلوا أي معركة في عهد موسى وهناك امتنعوا من دخول (أريحا) - الأرض المقدسة - فعاقبهم الله بالتيه، حتى هلك ذلك الجيل، وفيه توفي موسى وهارون عليهما السلام .
- في عهد يوشع عليه السلام قاد الجيل الجديد وكثرت الفتوحات في عهده، والتي من أهمها فتح أريحا .. ولكنه لم يفتح بيت المقدس .
- سميت المدة بعد وفاة (يوشع) ١١٦٠ ق.م. بعهد القضاة، واستمرت قرابة ١٥٠ عاماً، وهؤلاء القضاة كانوا عبارة عن زعماء عشائر محدودة، كما أنه لا يلزم أن يكون القاضي نبياً .
- اختلط بنوا إسرائيل بالمجتمعات الوثنية المجاورة وتأثروا بهم في النواحي العبادية والاجتماعية .
- كان بنوا إسرائيل إلى عهد طالوت يميلون إلى حياة البداوة في السكن ورعي الأنعام وتتبع المراعي والمياه .
- بلغ بنوا إسرائيل قمة الذلة والمهانة قبل مجيء (طالوت) .. فقد غزاهم جميع الأمم المجاورة لهم تقريباً .. ومكثوا تحت الاستعباد سنين طويلة، ونهب منهم (التابوت)، ولم يستطيعوا أن يحققوا أي نصر يذكر .. فضلاً عن الوصول إلى بيت المقدس .
- يدور محور سورة البقرة حول (اليهود)، وما آيات القصة إلا جزء من ذلك المحور، لمعالجة قضية الجهاد وذكر العوامل الحقيقية لرفعة الأمم .
- جاءت آيات (قصة طالوت) بعد آيات الناكلين عن الجهاد لترسم صورتين متقابلتين للعاجزين والعازمين .
- هذه القصة توطئة لغزوة بدر وتدريب للصحابة رضي الله عنهم، كما أنها تحذير لليهود من تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم .
- الهدف الأساسي من آيات القصة: أن من التزم عوامل النصر المذكورة سيصل إلى العزة والمكانة .. ولو كانوا قلة قليلة .

- المرويات (الإسرائيلية) لدى المسلمين في قصة (طالوت) هي ملخص لما ورد في (العهد القديم)، ونقلها أغلب مؤرخي الإسلام كما هي، بدون أعمال النقد الصحيح، والتحري الكاشف للتزييف التاريخي .
- رسم القرآن الكريم شخصية (طالوت) في أعلى مقامات الاصطفاء للقيادة والملك، بينما شوه اليهود سيرته بالافتراءات والأكاذيب .
- السنن والعبر المستفادة من القصة كثيرة، وينبغي أن تستفيد منها الجماعات لمعرفة مقاييس الانتصار والهزيمة .
- الأمة الغالبة لها مواصفات معنوية وحركية أرشدت إليها آيات القصة .
- امتلكت الآيات التاريخية في قصة (طالوت) خصائص فنية وأدبية في قمة البلاغة .
- التفسير التحليلي للألفاظ المفردة لآيات القصة من حيث: المعنى ، والقراءة، والإعراب مهم جداً لتكوين الرؤية التاريخية والتفسيرية العامة والموضوعية بشكل صحيح.

توصيات البحث:

١/ أقترح توزيع موضوع (تاريخ بني إسرائيل في القرآن) على أكثر من رسالة علمية، وذلك على شكل جزئيات تاريخية مثل (قصة سليمان وبلقيس) و (قصة قارون) و (تاريخ بني إسرائيل في مصر) ونحو ذلك، وأتمنى من الجامعة _ جامعة الملايا _ وغيرها من الجامعات العريقة إخراج مثل هذا المشروع الضخم .

٢/ لا بد من تصفية التاريخ اليهودي من الإسرائيليات الكثيرة والمغالطات التاريخية ولو سجلت دراسات نقدية معتمدة في ذلك على النظرة الإسلامية الصحيحة لكان شيئاً عظيماً.

٣/ أسجل دعوة للمفكرين والمؤرخين والعلماء إلى دراسة التاريخ اليهودي في القرآن ، ومعرفة المعايير السننية الإلهية في الأمم ، وتطبيق ذلك في علاج قضايانا المعاصرة، وبما يخدم واقع الأمة الإسلامية .

وأخيراً: هذا ما خطه قلبي، وبلغ فيه اجتهادي، فإن أصبت فبتوفيق الرحمن، وإن أخطأت فأسأل الله الغفران .

ربنا واجعل ثوابه لي ولوالديّ ولشايخي وإخواني المسلمين، واجعله نافعاً لأمة الإسلام.

والله المستعان ، ،

كتبه: حسين بن علي الزومي

المصادر والمراجع

- أولاً: القرآن الكريم.
ثانياً : كتب التفسير:
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن ، زاد المسير في علم التفسير، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
 - ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبدالله، أحكام القرآن، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.
 - ابن عاشور ، محمد الطاهر ، التحرير والتنوير ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط ١٩٩٧ م .
 - ابن قيم الجوزية ، بدائع التفسير ، جمعه : يسري السيد محمد ، دار ابن الجوزي ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .
 - ابن كثير، عمادالدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم ، دار الخير، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
 - أبو السعود، محمد بن محمد العمادي ، تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
 - أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق : عادل أحمد – علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
 - الألوسي، شهاب الدين محمود البغدادي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار التراث ، القاهرة.
 - البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود ، تفسير البغوي (معالم التزويل) ، تحقيق: محمد النمر – عثمان ضميرية – سليمان الحرش ، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ.

- البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن - الهند، الطبعة الأولى ١٣٩١هـ .
- البهي الخولي، بنو إسرائيل في ميزان القرآن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- الخازن، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- الخالدي، د. صلاح، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.
- الخالدي، د. صلاح عبدالفتاح، الأعلام الأعجمية في القرآن، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ .
- خلف الله، محمد أحمد، الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥٠م.
- دروزة، محمد عزة، النبأ العظيم ونظرات جديدة في القرآن، دار القلم، الكويت، الطبعة الرابعة ١٩٧٧م.
- دروزة، محمد عزة، القرآن والمبشرون، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
- الدغامين، د. زياد خليل، منهجية البحث في التفسير الموضوعي، دار البشير، الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ.
- الدهلوي، ولي الله، الفوز الكبير في أصول التفسير، تعريب: سلمان الندوي، دار الصحوة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ .

- الذهبي ، د. محمد حسين ، الاتجاهات المنحرفة في التفسير، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
- الذهبي، د. محمد حسين، التفسير والمفسرون ، دار القلم، بيروت ، الطبعة الأولى.
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : محمد سيد كيلاني، دار المعرفة ، بيروت.
- زرزور، د. عدنان، علوم القرآن، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.
- الزمخشري، أبو القاسم جارالله محمود بن عمر ، الكشاف ، رتبه : محمد عبدالسلام شاهين ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .
- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد ، تفسير السمرقندي (بحر العلوم) ، تحقيق: علي معوض - عادل أحمد - د. زكريا النوتي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكون، تحقيق : أحمد الخراط ، دار القلم، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- سيد قطب ، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة ، الطبعة الثلاثون ١٤٢٢هـ
- سيد قطب ، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثامنة ١٤٠٣هـ
- شلتوت ، محمود ، تفسير القرآن الكريم ، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة ١٣٩٤هـ .
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، طبعة مصورة لم يكتب عليها معلومات الطباعة .
- الشوكاني ، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الخير، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .

- الصلاحي، د. علي محمد، فقه التمكين في القرآن الكريم، دار الوفاء، المنصورة ،
الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
- الصنعاني، محمد بن إسماعيل الأمير ، الإيضاح والبيان في تحقيق عبارات قصص
القرآن، مكتبة الإرشاد، صنعاء ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .
- طبارة ، عفيف عبدالفتاح ،اليهود في القرآن ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ /
١٩٧٩م، دار العلم للملايين.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي
القرآن)، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٦٠م.
- طعيمة ، د . صابر ، بنو إسرائيل بين نبأ القرآن وخبر العهد القديم، عالم الكتب،
الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- فخر الدين الرازي ، تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب)، دار الفكر، بيروت،
ط ١٤١٤هـ.
- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري ، تفسير القرطبي (الجامع لأحكام
القرآن)، دار الريان للتراث ،القاهرة.
- محمد البهي ، نحو القرآن، مطبعة التقدم، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ.
- محمد بن الشريف،القصة في القرآن، دار الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.
- محمد رشيد رضا ،تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، دار المعرفة، بيروت، ط
٤١٤١هـ.
- محمود السيد حسن ، روائع الإعجاز في القصص القرآني ، المكتب الجامعي،
الاسكندرية.
- مصطفى مسلم ، معالم قرآنية في الصراع مع اليهود ، دار القلم، دمشق، الطبعة
الثانية ١٤٢٠هـ.

— المودودي، أبو الأعلى ، تفهيم القرآن ، تعريب : أحمد إدريس ، دار القلم، الكويت ، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ .

ثالثاً : كتب الحديث :

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، فضائل القدس ، تحقيق : جبرائيل سليمان جبّور، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
- الألباني، محمد ناصرالدين ، صحيح الجامع الصغير ، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.
- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ، طبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر، ط ١٩٥٣م.
- مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري ، صحيح مسلم ، دار الحديث، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- النووي ، شرف الدين يحيى بن زكريا، شرح صحيح مسلم، دار الفكر .

رابعاً: كتب العهد القديم :

- الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) : دار الكتاب المقدس ، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
- الجويني، عبدالملك بن عبدالله ، شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل ، تحقيق : أحمد حجازي السقا ، إدارة البحوث العلمية، الرياض، ط ١٤٠٣هـ.
- الذهبي، د . محمد حسين ، الإسرئيليات في التفسير والحديث ، مكتبة وهبة، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م.

- ربيع، د . يحيى محمد علي، الكتب المقدسة بين الصحة والتحريف، دار الوفاء، المنصورة ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤ م .
- رحمت الله الهندي، إظهار الحق، تحقيق : أحمد حجازي السقا ، دار التراث العربي، القاهرة ، طبعة ١٣٩٨هـ.
- زلمان شازار، تاريخ نقد العهد القديم، ترجمة : أحمد محمد هويدي، المجلس الأعلى للثقافة.
- الصمادي، د. إسماعيل ناصر ، نقد النص التوراتي، دار علماء الدين ، دمشق ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- قاموس أعلام الكتاب المقدس : خاصة بدار الكتاب المقدس بمصر ، مطبعة كنيسة الإخوة، القاهرة ، ط ٢٠٠٦م.
- ليوتاكسل، التوراة كتاب مقدس أم مجموعة من الأساطير ؟ ، ترجمة : حسان ميخائيل إسحاق ، الجندي للطباعة، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف العلمية، دار المعارف .
- وافي ، د . علي عبدالواحد، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة، فهضة مصر، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.

خامساً : كتب التاريخ :

- ابن الأثير، أبو الحسن علي ، الكامل في التاريخ، تحقيق : عبدالله القاضي ، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.
- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج ابن اهرن الطيب ، تاريخ مختصر الدول، صححه: أنطون صالحاني اليسوعي ، دار الرائد اللبناني، بيروت ، طبعة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- ابن خلدون، عبدالرحمن، تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ —
- ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم الدينوري ، المعارف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٩م.
- ابن كثير ، أبو الفداء، البداية والنهاية ، دار الريان، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ —
- أبو عامر، د. علاء، حكاية شعب التوراة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ، دار ابن خلدون، غزة فلسطين.
- الأحمّد ، د. أحمد عيسى ، داود وسليمان في العهد القديم والقرآن الكريم ، مطبعة حكومة الكويت ، ط١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- إسرائيل شاحك ، التاريخ اليهودي : الديانة اليهودية وطأة ثلاثة آلاف سنة، ترجمة : صالح علي سوداح ، دار بيسان، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .
- البدر اوي ، د. رشدي ، موسى وهارون عليهما السلام ، من هو فرعون موسى؟ ، نسخة إلكترونية .
- توماس ل. طومسون ، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة : صالح علي سوداح ، دار بيسان، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .
- توينبي ، أرنولد ، تاريخ البشرية ، ترجمة : نقولا زيادة ، الأهلية للنشر والتوزيع ، بيروت، ط ١٩٨١م .
- الثعلبي، ابن اسحاق أحمد بن إبراهيم ، قصص الأنبياء (العرائس) ، المكتبة الشعبية ، بيروت.
- جمال عبدالمهدي محمد مسعود، ووفاء محمد رفعت جمعة ، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ عن إبراهيم عليه السلام وذريته، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

- الحديدي ، د . عدنان ،الأردن وفلسطين تاريخ وحضارة، مؤسسة الرسالة ، سوريا-دار البشير، عمان ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
- الدباغ،مصطفى مراد،بلادنا فلسطين، دار الطليعة ،بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٣م.
- دروزة ، محمد عزة ،تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ، المكتبة العصرية، بيروت ، طبعة ١٩٦٩م.
- السلمي ،محمد بن صامل ، منهج كتابة التاريخ الإسلامي، دار طيبة، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
- سليم حسن ،مصر القديمة، مكتبة الأسرة، القاهرة ، طبعة ٢٠٠١م.
- السوّاح،فراس،آرام دمشق وإسرائيل، دار علاء الدين ، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
- السوّاح ،فراس ، تاريخ أورشليم ، دار علاء الدين، دمشق ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٣م.
- سوسة، د. أحمد، العرب واليهود في التاريخ ، العربي للإعلان والطباعة ،الطبعة الثانية .
- الصليبي ، كمال ، حروب داود ، دار الشروق، عمّان ، الطبعة الثانية ١٩٩١م .
- الصمادي ، د. إسماعيل ناصر ،التاريخ التوراتي .. والتاريخ ، دار علاء الدين ، دمشق ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط ١٤١٧هـ.
- طعيمة، صابر عبدالرحمن ، التاريخ اليهودي العام ، دار الجيل، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.

- ظاظا، د. حسن، القدس، مدينة الله... أم مدينة داود ؟، جامعة الإسكندرية، طبعة ١٩٧٠م.
- عادل طه يونس، حياة الأنبياء بين حقائق التاريخ والمكتشفات الأثرية الجديدة ، مكتبة القرآن .
- عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامي للتاريخ ، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.
- فوزي محمد حميد ، حقائق وأباطيل في تاريخ بن إسرائيل، دار الصفدي، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- لوبون، د. غوستاف ، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة : عادل زعيتر، مطبعة عيسى الباي الحلبي ، القاهرة، ط ١٩٧٠م.
- محمد صديق حسن خان ، لقطة العجلان، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
- مصطفى كمال - سيد فرج ، اليهود في العالم القديم ، بيروت ، دار القلم دمشق - الدار الشامية، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
- مهران، د. محمد بيومي ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ .
- النجار، د . محمد الطيب ، تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية، دار المعارف، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ / ١٨٨٣ م.
- هامرتن ، جون.أ.، تاريخ العالم ، ترجمة :إدارة الترجمة بوزارة المعارف المصرية ، مكتبة النهضة المصرية .
- ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ترجمة : محمد بدران ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية.

— اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، طبعة ١٩٧٠م / ١٣٩٠هـ.

سادساً : كتب التراجم :

— ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، صفة الصفوة، دار الوعي، حلب ، طبعة ١٣٨٩هـ.

— ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر .

— ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس ، دار صادر ، بيروت .

— ابن سعد ، الطبقات الكبرى، طبعة ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م ، دار صادر ، بيروت .

— إسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

سابعاً : كتب الفكر والعقيدة :

— ابن أبي العزّ، علي بن علي بن محمد الدمشقي، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق : جماعة من العلماء ، تخريج : محمد ناصرالدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ .

— ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم، الاستقامة ، تحقيق: د . محمد رشاد سالم ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

— ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم ، السياسة الشرعية، وزارة الشؤون الإسلامية، السعودية، طبعة ١٤١٩هـ.

— ابن حزم ، علي بن أحمد الظاهري ، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، مصر ، ط ١٣٢١هـ.

— ابن حزم الأندلسي ، الأصول والفروع ، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ابن قيم الجوزية ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، تحقيق : أحمد حجازي السقا ، المكتبة القيمة، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
- سيد قطب ، معركتنا مع اليهود، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الحادية عشر ١٤١٣هـ.
- شلي، د. أحمد ، مقارنة الأديان / اليهودية ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة ١٩٧٨م.
- الشهرستاني ، محمد بن عبدالكريم ، الملل والنحل ، تحقيق : عبدالعزيز الوكيل ، دار الفكر ، بيروت.
- عبدالعزيز مصطفى ، قبل أن يهدم الأقصى ، طبعة ١٤٠٩هـ، دار طيبة، الرياض.
- محمد بن علي آل عمر ، عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين، مجلة البيان ، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ .
- ثامناً: كتب متنوعة :**
- ابن تيمية ، أحمد عبدالحليم ، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمعها : عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ، مطابع الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.
- ابن قيم الجوزية ، إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، تحقيق : محمد حامد الفقي ، دار المعرفة ، بيروت.
- ابن منظور ، لسان العرب، دار إحياء التراث، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.
- دائرة المعارف الإسلامية : الطبعة الثانية ١٩٣٤م .
- السفاريني ، محمد الحنبلي ، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب ، دار الاتحاد العربي.
- الشاطبي، أبو إسحاق ، الموافقات في أصول الشريعة ، شرحه : عبدالله دراز ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
- محمد قطب، منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ.
- المسيري، د. عبد الوهاب، الموسوعة اليهودية والصهيونية، نسخة إلكترونية .
- النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.
- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، الموقع الإلكتروني بالشبكة:
(www.wikipedia.org)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ